بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: جاء في الخبر[1] أن هذه الآية لما نزلت نزل معها اثنا عشر ألف مَلَك. وروى البخاريّ عن ابن عمر عن النبيّ ﷺ قال:

[٢٩٠٧] «مفاتح الغيب خمسٌ لا يعلمها إلا الله لا يعلم ما تَغِيض الأرحام إلا الله ولا يعلم ما في غدٍ إلا الله ولا يعلم متى يأتي المطر إلا الله ولا تدري نفس بأيّ أرض تموت إلا اللهُ ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله». وفي صحيح مسلم عن عائشة قالت:

[٢٩٠٨] من زعم أن رسول الله ﷺ يخبر بما يكون في غدٍ فقد أعظم على الله الفِرْية؛ والله تعالى يقول: ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾. ومفاتح جمع مَفْتَح، هذه اللغة الفصيحة. ويقال: مفتاح ويجمع مفاتيح. وهي قراءة ابنِ السَّمَيْقَع «مفاتِيح». والمِفتح عبارة عن كل ما يَحُلّ غَلقًا، محسوسا كان كالقُفْل على البيت أو معقولا كالنظر. وروى ابن ماجه في سننه وأبو حاتم البُسْتيّ في صحيحه عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ:

[٢٩٠٩] «إنّ من الناس مفاتيحَ للخير مَغَالِيق للشرّ وإن من الناس مفاتيحَ للشرّ

[٢٩٠٧] صحيح. أخرجه البخاري ٤٦٢٧ و ٤٦٩٧ و ٤٧٧٨ و ٧٣٧٩ وأحمد ٢/ ٢٤ وابن حبان ٧٠ و ٧١ من حديث ابن عمر.

[٢٩٠٨] صحيح. هو طرف حديث أخرجه مسلم ١٧٧ عن عائشة.

[٢٩٠٩] أخرجه ابن ماجة ٢٣٧ من حديث أنس. قال البوصيري في الزوائد: إسناده ضعيف من أجل محمد بن أبي =

---

(١) لم يصح. وإنما ورد نحو ذلك في السورة كلها، وتقدم في أول هذه السورة مستوفياً.

مغالِيق للخير فطُوبَى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه وويلٌ لمن جعل الله مفاتيحَ الشرّ على يديه». وهو في الآية استعارة عن التوصُّل إلى الغيوب كما يتوصّل في الشاهد بالمفتاح إلى المغيب عن الإنسان؛ ولذلك قال بعضهم: هو مأخوذ من قول الناس افتح عليّ كذا؛ أي أعطني أو علّمني ما أتوصل إليه به. فالله تعالى عنده علم الغيب، وبيده الطرق الموصّلة إليه، لا يملكها إلا هو، فمن شاء إطلاعه عليها أطلعه، ومن شاء حجبه عنها حجبه. ولا يكون ذلك من إفاضته إلا على رسله؛ بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ وقال: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الآية] وقيل: المراد بالمفاتح خزائن الرزق؛ عن السُّدِّي والحسن. ومُقاتِل والضحّاك: خزائن الأرض. وهذا مجاز، عبّر عنها بما يتوصّل إليها به. وقيل: غير هذا مما يتضمنه معنى الحديث أي عنده الآجال ووقت انقضائها. وقيل: عواقب الأعمار وخواتم الأعمال؛ إلى غير هذا من الأقوال. والأوّل المختار. والله أعلم.

الثانية ـ: قال علماؤنا: أضاف سبحانه علم الغيب إلى نفسه في غير ما آيةٍ من كتابه إلا من اصطفى من عباده. فمن قال: إنه ينزّل الغَيْث غدا وجزم فهو كافر، أخبر عنه بأمارة ادّعاها أم لا. وكذلك من قال: إنه يعلم ما في الرّحِم فهو كافر؛ فإن لم يجزم وقال: إن النَّوْء[1] ينزل الله به الماء عادة، وأنه سبب الماء عادة، وأنه سبب الماء على ما قدّره وسبق في علمه لم يكفر؛ إلا أنه يستحب له ألا يتكلم به، فإن فيه تشبيها بكلمة أهل الكفر، وجهلا بلطيف حكمته؛ لأنه ينزل متى شاء، مرّة بنَوْء كذا، ومرّة دون النَّوْء؛ قال الله تعالى:

[٢٩١٠] «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر [بالكوكب]» على ما يأتي بيانه في «الواقعة» إن شاء الله. قال ابن العربيّ: وكذلك قول الطبيب: إذا كان الثَّدْي الأيمن مسودّ الحَلَمة فهو ذكر، وإن كان في الثدي الأيسر فهو أنثى، وإن كانت المرأة تجد الجنب الأيمن أثقل فالولد أنثى؛ وادّعى ذلك عادة لا واجبا في الخلقة لم يكفر ولم يفسق. وأما من ادّعى الكسب في مستقبل العمر فهو كافر. أو أخبر عن الكوائن المجملة أو المفصلة

= حميد فإنه متروك وحسنه الألباني في «الصحيحة» ١٣٣٢.

وكرره ابن ماجه ٢٣٨ من حديث سهل بن سعد، وقال البوصيري: إسناده ضعيف لضعف عبد الرحمن اهـ وهو ابن أسلم قال يحيىٰ بن معين: عبد الرحمن ليس بشيء، راجع الميزان.

[٢٩١٠] يأتي في سورة الواقعة إن شاء الله.

---

(١) النوء: سقوط النجم في المنازل مع الفجر.

في أن تكون قبل أن تكون فلا رِيبة في كفره أيضا. فأمّا من أخبر عن كسوف الشمس والقمر فقد قال علماؤنا: يؤدّب ولا يسجن. أمّا عدم تكفيره فلأن جماعة قالوا: إنه أمر يُدرَك بالحساب وتقدير المنازل حسب ما أخبر الله عنه من قوله: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ . وأما أدبهم فلأنهم يُدخلون الشك على العامّة، إذ لا يدركون الفرق بين هذا وغيره؛ فيشوّشون عقائدهم ويتركون قواعدهم في اليقين فأدِّبوا حتى يُسِروا ذلك إذا عرفوه ولا يعلِنوا به.

قلت: ومن هذا الباب [أيضا] ما جاء في صحيح مسلم عن بعض أزواج النبيّ ﷺ أن النبيّ ﷺ قال:

[٢٩١١] «من أتى عَرّافا [فسأله عن شيء] لم تقبل له صلاة أربعين ليلة». والعرّاف هو الحازر والمنجِّم الذي يدّعي علم الغيب. وهي من العِرافة وصاحبها عَرّاف، وهو الذي يستدل على الأمور بأسباب ومقدّمات يدّعي معرفتها. وقد يعتضِد بعض أهل هذا الفن في ذلك بالزَّجْر والطرْق والنجوم، وأسباب معتادة في ذلك. وهذا الفنّ هو العِيَافة (بالياء). وكلّها ينطلق عليها ٱسم الكهانة؛ قاله القاضي عِيَاض. والكهانة: ٱدعاء علم الغيب. قال أبو عمر بن عبد البر في [كتاب] (الكافي): من المكاسب المجتمعَ على تحريمها الربا ومهور البغايا والسُّحْت والرّشا وأخذ الأجرة على النياحة والغناء، وعلى الكهانة وٱدعاء الغيب وأخبار السماء، وعلى الزمر واللّعِب والباطل كله. قال علماؤنا: وقد ٱنقلبت الأحوال في هذه الأزمان بإتيان المنجّمين والكُهّان لا سِيّما بالديار المصرية؛ فقد شاع في رؤسائهم وأتباعهم وأمرائهم اتخاذ المنجِّمين، بل ولقد ٱنخدع كثير من المنتسبين للفقه والدِّين فجاءوا إلى هؤلاء الكهنة والعرّافين فَبَهْرجوا عليهم بالمُحال، واستخرجوا منهم الأموال فحصلوا من أقوالهم على السراب[1] والآل، ومن أديانهم على الفساد والضلال. وكل ذلك من الكبائر؛ لقوله عليه السلام: «لم تقبل له صلاة أربعين ليلة». فكيف بمن ٱتخذهم وأنفق عليهم معتمدا على أقوالهم. روى مسلم [رحمه الله] عن عائشة [رضي الله عنها] قالت:

[٢٩١٢] سأل رسولَ الله ﷺ أناسٌ عن الكُهّان فقال: «إنهم ليسوا بشيء» فقالوا:

[٢٩١١] صحيح. أخرجه مسلم ٢٢٣٠ عن صفية عن بعض أزواج النبي ﷺ عن النبي ﷺ.

[٢٩١٢] صحيح. أخرجه البخاري ٣٢١٠ و٣٢٨٨ و٥٧٦٢ و٦٢١٣ ومسلم ٢٢٢٨ وأحمد ٦/٨٧ وابن حبان ٦١٣٦ من حديث عائشة واللفظ لمسلم.

---

(١) السراب: هو ما يكون في وسط النهار لاصقاً بها كأنه ماء جار اهـ. والآل: يكون بالضحىٰ كالماء بين السماء والأرض.

يا رسول الله، إنهم يحدّثونا أحيانا بشيء فيكون حقاً ! فقال رسول الله ﷺ: «تلك الكلمة من الحق يخطفها الجِنيّ فيُقِّرها[1] في أذن وليّه [قَرّ الدجاجة] فيخلطون معها مائة كذبة». قال الحُميدِيّ: ليس ليحيى بن عروة عن أبيه عن عائشة في الصحيح غير هذا وأخرجه البخاريّ [أيضا] من حديث أبي الأسود محمد بن عبد الرحمن عن عروة عن عائشة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول:

[٢٩١٢ م] «إن الملائكة تنزل في العَنَان وهو السحاب فتذكر الأمر قُضِي في السماء فتَسْتَرِق الشياطينُ السمع فتسمعه فتوحِيه إلى الكُهّان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم». وسيأتي هذا المعنى في «سبأ» إن شاء الله تعالى.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ خصّهما بالذّكر لأنهما أعظم المخلوقات المجاورة للبشر، أي يعلم ما يهلك في البر والبحر. ويقال: يعلم ما في البر من النبات والحبّ والنّوى، وما في البحر من الدواب ورزق ما فيها ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ روى يزيد بن هارون عن محمد بن إسحاق عن نافع عن ابن عمر عن النبيّ ﷺ قال:

[٢٩١٣] «ما مِن زرع على الأرض ولا ثمار على الأشجار ولا حبة في ظلمات الأرض إلا عليها مكتوب بسم الله الرحمن الرحيم رِزق فلان بن فلان» وذلك قوله في محكم كتابه: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ . وحكى النقّاش عن جعفر بن محمد[1] أن الورقة يراد بها السّقط من أولاد بني آدم، والحبة يراد بها الذي ليس بسقط، والرطب يراد به الحيّ، واليابس يراد به الميت. قال ابن عطية: وهذا قول جارٍ على طريقة الرّموز، ولا يصح عن جعفر بن محمد ولا ينبغي أن يلتفت إليه. وقيل: المعنى «وما تسقط من ورقة» أي من ورقة الشجر إلا يعلم متى تسقط وأين تسقط وكم تدور في الهواء، ولا حبة إلا يعلم متى تنبت وكم تنبت ومن يأكلها، «وَظُلُمَاتِ الأَرْض» بطونها وهذا أصح؛ فإنه موافق للحديث

[٢٩١٢ م] يأتي في سورة سبأ.

[٢٩١٣] ضعيف. أخرجه الخطيب في تاريخه ٤/ ١٣٠ من حديث ابن عمر. وقال السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٢٨: إسناده ضعيف اهـ منه عنعنة ابن إسحق، وهو مدلس.

---

(١) القر: ترديد الكلام في أذن المخاطب حتىٰ يفهمه.

(٢) هو جعفر بن محمد بن زين العابدين رضي الله عنه، لكن مثل هذا القول لا يليق به كما ذكر القرطبي، وهو أشبه بكلام الباطنية القرامطة.

وهو مقتضى الآية. والله الموفق للهداية. وقيل: ﴿فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾ يعني الصخرة[1] التي هي أسفل الأرضين السابعة. ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ بالخفض عطفا على اللفظ. وقرأ ٱبن السَّمَيْقَع والحسن وغيرهما بالرفع فيهما عطفا على موضع «من ورقة»؛ فـ «مِن» على هذا للتوكيد. ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ أي في اللوح المحفوظ لتعتبر الملائكة بذلك، لا أنه سبحانه كتب ذلك لنسيانٍ يلحقه، تعالى عن ذلك. وقيل: كتبه وهو يعلمه لتعظيم الأمر، أي ٱعملوا أن هذا الذي ليس فيه ثواب ولا عقاب مكتوب، فكيف بما فيه ثواب وعقاب.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ أي ينيمكم فيقبض نفوسكم التي بها تميزون، وليس بذلك موتا حقيقة بل هو قبض الأرواح التصرف بالنوم كما يقبضها بالموت. والتَّوَفِّي استيفاء الشيء. وتُوُفِّيَ الميت ٱستوفى عدد أيام عمره، والذي ينام كأنه ٱستوفى حركاته في اليقظة. والوفاة الموت. وأوفيتك المال، وتوفيته، وٱستوفيته إذا أخذته أجمع. وقال الشاعر[2]:

إن بنـي الأَدْرَدِ ليسـوا مِـن أحـدْ ولا تـوفّـاهـم قـريـشٌ فـي العَـدَدْ

ويقال: إن الروح إذا خرجت[3] من البدن في المنام تبقى فيه الحياة؛ ولهذا تكون فيه الحركة والتنفس، فإذا ٱنقضى عمره خرجت روحه وتنقطع حياته، وصار ميتا لا يتحرك ولا يتنفس. وقال بعضهم. لا تخرج منه الروح، ولكن يخرج منه الذهن. ويقال: هذا أمر لا يعرف حقيقته إلا الله تعالى. وهذا أصح الأقاويل، والله أعلم. ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ أي في النهار؛ ويعني اليقظة. ﴿لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي ليستوفي كل إنسان أجلا ضرب له. وقرأ أبو رَجاء وطلحة بن مصرِّف «ثم يبعثكم فيه ليقضي أجلا مسمى» أي عنده. و ﴿جَرَحْتُم﴾ كسبتم. وقد تقدّم في «المائدة». وفي الآية تقديم وتأخير، والتقدير وهو الذي يتوفاكم بالليل ثم يبعثكم بالنهار ويعلم ما جرحتم فيه؛ فقدّم الأهم الذي من أجله وقع البعث في النهار. وقال ابن جُريج: «ثم يبعثكم فِيهِ» أي في المنام. ومعنى الآية: إن إمهاله تعالى للكفار ليس لغفلة عن كفرهم فإنه أحصى كل شيء عددا وعَلمه وأثبته، ولكن ليقضي أجلا مسمى من رزق وحياة، ثم يرجعون إليه فيجازيهم. وقد

(١) كون الصخرة علىٰ ظهر حوت، والأرض على تلك الصخرة، إنما هو من الإسرائيليات.

(٢) هو منظور الوبري.

(٣) وقع في الأصل «خرج» والمثبت هو الأشهر والأرجح في كلام العرب.

دلّ على الحشر والنشر بالبعث؛ لأن النشأة الثانية منزلتها بعد الأولى كمنزلة اليقظة بعد النوم في أنّ من قدر على أحدهما فهو قادر على الآخر.

قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾ .

قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ يعني فوقية المكانة والرتبة لا فوقية المكان والجهة، على ما تقدّم بيانه أوّل السورة. ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ أي من الملائكة. والإرسال حقيقته إطلاق الشيء بما حمل من الرسالة؛ فإرسال الملائكة بما حملوا من الحفظ الذي أمروا به، كما قال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾﴾ أي ملائكة تحفظ أعمال العباد وتحفظهم من الآفات. والحَفَظة جمع حافظ، مثل الكَتَبة والكاتب. ويقال: إنهما مَلَكان بالليل ومَلَكان بالنهار، يكتب أحدهما الخير والآخر الشر، وإذا مشى الإنسان يكون أحدهما بين يديه والآخر وراءه، وإذا جلس يكون أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله؛ لقوله تعالى: ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ [الآية]. ويقال: لكل إنسان خمسة من الملائكة: اثنان بالليل، واثنان بالنهار، والخامس لا يفارقه ليلا ولا نهارا. والله أعلم. وقال عمر بن الخطاب [رضي الله عنه]:

ومن الناس مَن يعيش شقِيّاً ... جاهلَ القلب غافل اليقظَهْ
فإذا كان ذا وفاء ورأيٍ ... حذِر الموتَ وأتقى الحفظه
إنما الناس راحل ومقيم ... فالذي بَانَ للمقيم عِظه

قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ يريد أسبابه؛ كما تقدّم في «البقرة». ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ على تأنيث الجماعة؛ كما قال: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [المائدة: ٣٢] و ﴿ كُذِّبَتْ رُسُلٌ﴾[فاطر: ١٤] . وقرأ حمزة «تَوفّاه رسلُنا» على تذكير الجمع. وقرأ الأعمش «تتوفاه رسلنا» بزيادة تاء والتذكير. والمراد أعوان ملك الموت؛ قاله ابن عباس وغيره. ويروى أنهم يَسُلُّون الروح من الجسد حتى إذا كان عند قبضها قبضها ملك الموت. وقال الكَلْبيّ: يقبِض ملك الموت الروح من الجسد ثم يسلمها إلى ملائكة الرحمة إن كان مؤمنا أو إلى ملائكة العذاب إن كان كافرا. ويقال: معه سبعة من ملائكة الرحمة وسبعة من ملائكة العذاب؛ فإذا قبض نفساً مؤمنة دفعها إلى ملائكة الرحمة فيبشرونها بالعذاب ويفزعونها، ثم يصعدون بها إلى السماء كافرة دفعها إلى ملائكة العذاب فيبشرونها بالعذاب ويفزعونها، ثم يصعدون بها إلى السماء ثم ترد إلى سجين، وروح المؤمن إلى عِلّيّين. والتوفي تارة يضاف إلى ملك الموت؛ كما قال: ﴿ قُلْ

﴿يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ [السجدة:١١] . وتارة إلى الملائكة لأنهم يتولون ذلك؛ كما في هذه الآية وغيرها. وتارة إلى الله وهو المُتَوَفِّي على الحقيقة؛ كما قال: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾[الزمر: ٤٢] ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾[الجاثية: ٢٦] ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك: ٢٦] . فكل مأمورٍ من الملائكة فإنما يفعل ما أمر به. ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾ أي لا يضيّعون ولا يقصّرون، أي يطيعون أُمِرَ الله. وأصله من التقدّم، كما تقدّم. فمعنى فرّط قدّم العَجز. وقال أبو عبيدة: لا يتوانون. وقرأ عبيد بن عمير «لا يُفْرِطون» بالتخفيف، أي لا يجاوزون الحدّ فيما أمروا به من الإكرام والإهانة. ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي ردّهم الله بالبعث للحساب. ﴿مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ أي خالقهم ورازقهم وباعثهم ومالكهم. «الحقِّ» بالخفض قراءة الجمهور، على النعت والصفة لاسم الله تعالى. وقرأ الحسن «الحقَّ» بالنصب على إضمار أعني، أو على المصدر، أي حقًّا. ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ أي اعلموا وقولوا: : له الحكم وحده يوم القيامة، أي القضاء والفصل. ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾ أي لا يحتاج إلى فِكرة ورويّة ولا عَقْد يدٍ. وقد تقدّم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾ .

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي شدائدهما؛ يقال: يوم مظلم أي شديد. قال النحاس: والعرب تقول: يومٌ مظلِم إذا كان شديداً، فإن عظّمَتْ ذلك قالت: يوم ذو كواكب؛ وأنشد سيبويه:

بَنِي أسدٍ هل تعلمون بلاءنا ... إذا كان يومٌ ذو كواكِب أشْنَعَا

وجمع «الظلمات» على أنه يعني ظلمة البرّ وظلمة البحر وظلمة الليل وظلمة الغَيْم، أي إذا أخطأتم الطريق وخِفتم الهلاك دعوتموه ﴿لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا[1] مِنْ هٰذِهِ﴾ أي من هذه الشدائد ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾﴾ أي من الطائعين. فوبّخهم الله في دعائهم إياه عند الشدائد، وهم يدعون معه في حالة الرخاء غيره بقوله: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾. وقرأ الأعمش «وخِيفَة» من الخوف، وقرأ أبو بكر عن عاصم «خِفية» بكسر الخاء، والباقون بضمها، لغتان. وزاد الفراء خُفْوة وخِفْوة. قال: ونظيره حُبْية وحِبْية وحُبْوة وحِبْوة. وقراءة الأعمش بعيدة؛ لأن معنى «تضرُّعاً» أن تظهروا التذلل و«خفية» أن تُبطِنوا مثل ذلك. وقرأ الكوفيون «لئن أنجانا» واتساق المعنى بالتاء؛ كما قرأ أهل المدينة وأهل الشام.

(١) قراءة نافع.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ وقرأ الكوفيون «يُنَجِّيكُمْ» بالتشديد، الباقون بالتخفيف. قيل: معناهما واحد مثل نجا وأنجيته ونجّيته. وقيل: التشديد للتكثير. والكرب: الغم يأخذ بالنفس؛ يقال منه: رجل مكروب. قال عنترة:

ومكـــروبٍ كشفــتُ الكـــرب عنـــه   بطعنـــةِ فَيْصَـــلٍ لمـــا دعـــانِـــي

والكُرْبة مشتقة من ذلك.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾ تقريع وتوبيخ؛ مثل قوله في أوّل السورة ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾. لأن الحجة إذا قامت بعد المعرفة وجب الإخلاص، وهم قد جعلوا بدلاً منه وهو الإشراك؛ فحسُن أن يُقرَّعوا ويُوَبَّخُوا على هذه الجهة وإن كانوا مشركين قبل النجاة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

أي القادر على إنجائكم من الكرب، قادر على تعذيبكم. ومعنى ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾ الرجم بالحجارة والطوفان والصيحة والريح؛ كما فعل بعادٍ وثمودَ وقومِ شعيبٍ وقومِ لوطٍ وقومِ نوحٍ؛ عن مجاهد وابن جُبير وغيرِهما. ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ الخسْف والرّجفة؛ كما فعل بقارون وأصحاب مَدْين. وقيل: «من فوقكم» يعني الأمراء الظلمة، «ومن تحت أرجلكم» يعني السّفِلة وعَبيد السّوء؛ عن ابن عباس ومجاهد أيضاً. ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ وروي عن أبي عبد الله المدنيّ «أو يُلبسكم» بضم الياء، أي يجلّلكم العذاب ويعمّكم به، وهذا من اللُّبس بضم الأوّل، وقراءة الفتح من اللَّبْس. وهو موضع مشكِل والإعراب[1] يبيّنه. أي يَلبس عليكم أمركم، فحذف أحد المفعولين وحرف الجر؛ كما قال: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ﴾ [المطففين: ٣] وهذا اللَّبس بأن يخلط أمرهم فيجعلهم مختلِفي الأهواء؛ عن ابن عباس. وقيل: معنى ﴿يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ يقوّي عدوّكم حتى يخالطكم وإذا خالطكم فقد لبِسكم. ﴿شِيَعًا﴾ معناه فِرقاً. وقيل يجعلكم فرقاً يقاتل بعضكم بعضاً؛ وذلك بتخليط أمرهم وافتراق أمرائهم على طلب الدنيا. وهو معنى قوله ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ أي بالحرب والقتل في الفتنة؛ عن مجاهد. والآية عامّة في المسلمين والكفار. وقيل هي في الكفار خاصّةً. وقال الحسن: هي في أهل الصلاة.

قلت: وهو الصحيح؛ فإنه المشاهد في الوجود، فقد لَبِسنا العدوّ في ديارنا واستولى على أنفسنا وأموالنا، مع الفتنة المستولية علينا بقتل بعضنا بعضاً وٱستباحة بعضنا

(١) وقع في النسخ «الأعراب» وهو خطأ ظاهر، انظر القاموس مادة «عَرَبَ».

أموال بعض. نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن. وعن الحسن أيضاً أنه تأوّل ذلك فيما جرى بين الصحابة رضي الله عنهم. روى مسلم عن ثَوْبَانَ قال قال رسول الله ﷺ:

[٢٩١٤] «إن الله زوَى[1] لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وإنّ أمتي [سيبلغ] مُلْكها ما زُوِي لِي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض وإني سألت ربي لأمّتي ألا يهلكها بسنَة عامّة وألاّ يسلّط عليهم عدوًّا مِن سِوَى أنفسِهم فيستبيحَ بَيْضَتهم وإنّ ربّي قال: يا محمد إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يُردّ وإني قد أعطيتك لأمتك ألاّ أهلكهم بسنَة عامّة وألا أسلط عليهم عدوّاً من سِوَى أنفسهم يستبيح بيضتهم[2] ولو اجتمع عليهم من بأقطارها ـ أو قال من بين أقطارها ـ حتى يكون بعضهم يُهلك بعضاً ويَسْبِي بعضهم بعضاً». وروى النسائيّ عن خَبّاب بن الأَرَتّ، وكان قد شهِد بدراً مع رسول الله ﷺ، أنه راقب رسول الله ﷺ الليلةَ كلّها حتى كان مع الفجر، فلما سلّم رسول الله ﷺ من صلاته جاءه خَبّاب فقال:

[٢٩١٥] يا رسول الله، بأبِي أنت وأمي! لقد صليتَ الليلة صلاة ما رأيتك صَليتَ نحوها؟ قال رسول الله ﷺ: «أَجَلْ إنها صلاة رَغَب ورَهَب سألتُ الله عز وجل فيها ثلاث خصال فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة سألت ربي عز وجل ألا يُهلكنا بما أهلك به الأمم فأعطانيها وسألت ربي عز وجل ألا يظهر علينا عدوًّا مِن غيرنا فأعطانيها وسألت ربي عز وجل ألا يُلبسنا شِيَعاً فمنعنِيها». وقد أتينا على هذه الأخبار في كتاب (التذكرة) والحمد لله. وروي أنه لما نزلت هذه الآية قال النبيّ ﷺ لجبريل:

[٢٩١٦] «يا جبريل ما بقاء أمتي على ذلك»؟ فقال له جبريل: «إنما أنا عبد مثلك فادع ربك وسله لأمتك» فقام رسول الله ﷺ فتوضأ وأسبغ الوضوء وصلى وأحسن الصلاة، ثم دعا فنزل جبريل وقال: «يا محمد إن الله تعالى سمع مقالتك وأجارهم من خصلتين

[٢٩١٤] صحيح. أخرجه مسلم ٢٨٨٩ وأبو داود ٤٢٥٢ والترمذي ٢١٧٦ وأحمد٥/ ٢٧٨ وابن حبان ٦٧١٤ و ٧٢٣٨ من حديث ثوبان.

[٢٩١٥] صحيح. أخرجه أحمد ٥/ ١٠٨ و ١٠٩ والترمذي ٢١٧٥ والنسائي ٣/ ٢١٦ والطبراني في الكبير ٣٦٢٢ وابن حبان ٢٧٣٦ من حديث خَبَّاب، وقال الترمذي: حسن غريب صحيح اهـ رجاله رجال البخاري ومسلم عبد الله بن خباب وهو ثقة، وشاهده المتقدم يقويه.

[٢٩١٦] ضعيف. أخرجه الطبري ١٣٣٧٨ بنحوه وأتمّ عن الحسن مرسلاً، ومرسلات الحسن واهية، وانظر الدر المنثور ٣/ ٣٦.

---

(١) زوىٰ: جمع وقبض.

(٢) أي جماعتهم.

وهو العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم». فقال: «يا جبريل ما بقاء أمتي إذا كان فيهم أهواء مختلفة ويذيق بعضهم بأس بعض»؟ فنزل جبريل بهذه الآية: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا﴾[العنكبوت: ١ـ٢] الآية. وروى عمرو بن دينار عن جابر بن عبد الله قال: لما نزلت هذه الآية ﴿قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ﴾ قال رسول الله ﷺ:

[٢٩١٧] «أعوذ بوجه الله» فلما نزلت ﴿أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ﴾ قال: «هاتان أهون». وفي سنن ابن ماجه عن ابن عمر قال:

[٢٩١٨] «لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الكلمات حين يمسي وحين يصبح: اللَّهُمَّ إني أَسْأَلُكَ العافية في الدنيا والآخرة. اللَّهُمَّ إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي. اللَّهُمَّ أستر عوراتي وآمن رَوْعاتي واحفظني من بين يديّ ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي وأعوذ بك أن أغتال مِن تحتي». قال وكِيع[1]: يعني الخَسْف.

قوله تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي نبين لهم الحجج والدلالات ﴿لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ۝٦٥﴾ يريد بطلان ما هم عليه من الشِّرْك والمعاصي.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ۝٦٦ لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞۚ وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٦٧﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ﴾ أي بالقرآن. وقرأ ابن أبي عَبْلَة «وكذبت». بالتاء ﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ﴾ أي القصص الحق. ﴿قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ۝٦٦﴾ قال الحسن: لست بحافظ أعمالكم حتى أجازيكم عليها، إنما أنا مُنْذِر وقد بلّغت؛ نظيره ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ۝١٠٤﴾ [هود: ٨٦] أي أحفظ عليكم أعمالكم. ثم قيل: هذا منسوخ بآية القتال. وقيل: ليس بمنسوخ، إذ لم يكن في وُسعه إيمانهم. ﴿لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞۚ﴾ لكل خبرٍ حقيقة، أي لكلّ شيء وقتٌ يقع فيه من غير تقدّم وتأخر. وقيل: أي لكل عمل جزاء.

[٢٩١٧] صحيح. أخرجه البخاري ٤٦٢٨ و ٧٣١٣ والحميدي ١٢٥٩ والترمذي ٣٠٦٥ وأحمد ٣/ ٣٠٩ وابن حبان ٧٢٢٠ والطبري ١٣٣٧٥ من حديث جابر.

[٢٩١٨] صحيح. أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٦٩٨ و ١٢٠٠ وأبو داود ٥٠٧٤ والنسائي ٨/ ٢٨٢ وابن ماجه ٣٨٧١ وابن أبي شيبة ١٠/ ٢٤٠ وأحمد ٢/ ٢٥ وصححه ابن حبان ٩٦١ والحاكم ١/ ٥١٧ ووافقه الذهبي من حديث عبد الله بن عمر، وهو صحيح رووه من عدة طرق.

---

(١) هو ابن الجراح أحد رجال الإسناد، وهو شيخ الشافعي.

قال الحسن: هذا وعيد من الله تعالى للكفار؛ لأنهم كانوا لا يُقِرّون بالبعث. الزجّاج: يجوز أن يكون وعيداً بما ينزل بهم في الدنيا. قال السُّدِّي: ٱستقر يومَ بَدْر ما كان يَعِدُهم به من العذاب. وذكر الثَّعْلَبي أنه رأى في بعض التفاسير أن هذه الآية نافعة من وجع الضرس إذا كتبت على كاغد ووضع على السِّنّ(1).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٦٨)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بالتكذيب والردّ والاستهزاء ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ والخطاب مجرّد للنبيّ ﷺ. وقيل: إن المؤمنين داخلون في الخطاب معه. وهو صحيح؛ فإن العلة سماع الخوض في آيات الله، وذلك يشملهم وإياه. وقيل: المراد به النبيّ ﷺ وحده؛ لأن قيامه عن المشركين كان يشق عليهم، ولم يكن المؤمنون عندهم كذلك؛ فأُمِر أن ينابذهم بالقيام عنهم إذا ٱستهزءوا وخاضوا ليتأدّبوا بذلك ويدَعُوا الخوض والاستهزاء. والخَوْض أصله في الماء، ثم استعمل بعدُ في غَمَرات الأشياء التي هي مجاهل، تشبيهاً بغَمَرات الماء فاستعير من المحسوس للمعقول. وقيل: هو مأخوذ من الخلط. وكل شيء خُضْتَه فقد خلطته؛ ومنه خاض الماءَ بالعسل خلطه. فأدّب الله عز وجل نبيه [ﷺ] بهذه الآية؛ لأنه كان يقعد إلى قوم من المشركِينَ يَعِظهم ويدعوهم فيستهزءون بالقرآن؛ فأمره الله أن يُعرض عنهم إعراضَ مُنْكِر. ودلّ بهذا على أن الرجل إذا علم من الآخر منكَراً وعلم أنه لا يقبل منه فعليه أن يُعرض عنه إعراض منكر ولا يُقبل عليه. وروى شِبْل عن ٱبن أبي نَجيح عن مجاهد في قوله: **﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾** قال: هم الذين يستهزءون بكتاب الله، نهاه الله عن أن يجلس معهم إلاّ أن ينسى فإذا ذَكَر قام. وروى وَرْقَاء عن ٱبن أبي نَجيح عن مجاهد قال: هم الذين يقولون في القرآن غير الحق.

الثانية: في هذه الآية ردٌّ من كتاب الله عز وجل على من زعم أن الأئمة الذين هم حُجَجٌ وأتباعَهم لهم أن يخالطوا الفاسقين ويصوّبوا آراءهم تَقِيّة. وذكر الطبريّ عن أبي جعفر محمد بن عليّ ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: لا تجالسوا أهل الخصومات، فإنهم الذين

---

(1) في هذا نظر. إذ إن العلماء كرهوا قلب أوراق المصحف إن كان يبل أصابعه بلعابه، فكيف بوضع هذه الآية في الفم وفيه النتن والرائحة!، ولا ضرورة فإن هناك الأدوية والعقاقير وقد أمر الله بالتداوي، والله الموفق.

يخوضون في آيات الله. قال ابن العربيّ: وهذا دليل على أن مجالسة أهل الكبائر لا تحِلّ. قال ابن خُوَيْزَمَنْدَاد: من خاض في آيات الله تُركت مجالسته وهُجر، مؤمناً كان أو كافراً. قال: وكذلك منع أصحابنا الدخولَ إلى أرض العدوّ ودخولَ كنائسهم والبِيَعَ، ومجالسةَ الكفار وأهلِ البِدَع، وألاّ تُعتقد مودّتهم ولا يُسمع كلامهم ولا مناظرتهم. وقد قال بعض أهل البِدع لأبي عِمران النَّخَعِيّ: اسمع مني كلمة؛ فأعرض عنه وقال: ولا نصف كلمة. ومثله عن أيوب السِّختِيانيّ. وقال الفُضيل بن عِيَاض: من أحبّ صاحبَ بدعة أحبط الله عمله وأخرج نور الإسلام من قلبه، ومن زوّج كريمته من مُبْتدِع فقد قطع رَحِمَها، ومن جلس مع صاحب بِدْعة لم يُعط الحكمة، وإذا علم الله عز وجل من رجل أنه مُبغِض لصاحب بِدْعة رجَوْتُ أن يغفر الله له. وروى أبو عبد الله الحاكم عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ:

[٢٩١٩] «من وَقّر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام». فبطل بهذا كُلِّه قولُ مَن زعم أن مجالستهم جائزة إذا صانوا أسماعهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ﴾ «إما» شرط، فيلزمها النون الثقيلة في الأغلب وقد لا تلزم؛ كما قال:

إمّـا يصِبْـك عـدوّ فـي مُنـاوَأة ... يـومـاً فقـد كنـت تَسْتَعْلِـي وتنتصـر

وقرأ ٱبن عباس وٱبن عامر «يُنَسِّينك» بتشديد السّين على التكثير؛ يقال: نَسَّى وَأَنْسَى بمعنى واحد لغتان؛ قال الشاعر:

قالت سُلَيمَى أَتَسْرِي اليوم أم تَقِل ... وقد يُنَسّيك بعضَ الحاجةِ الكسلُ

[٢٩١٩] باطل، أخرجه ابن عدي ٢/ ٣٢٤ وابن الجوزي في الموضوعات ١/ ٢٧٠ من حديث عائشة. وأخرجه ابن عدي ٢/ ٦٥ وابن الجوزي ١/ ٢٧٠ من حديث ابن عباس، وكرره من حديث عبد الله بن بسر وقال: هذه الأحاديث كلها باطلة موضوعة. حديث عائشة فيه الخشني قال ابن عدي: هذا حديث باطل موضوع، والخشني يروي عن الثقات ما لا أصل له.
قال ابن الجوزي: وحديث ابن عباس فيه بهلول يسرق الحديث قاله ابن حبان، وحديث ابن بسر فيه أحمد بن معاوية قال ابن عدي: حدث بأباطيل اهـ.
تنبيه: نسبه القرطبي رحمه الله للحاكم، ولم أره فيه ولا عزاه أحد له، وانظر اللآلىء المصنوعة ١/ ٢٥٢ ـ ٢٥٣ وهو حديث باطل بكل حال وهو من كلام السلف.

وقال أمرؤ القيس:

* . . . تُنَسِّنِي إذا قمت سِرْبَالِي * .

المعنى: يا محمد إن أنساك الشيطان أن تقوم عنهم فجالستهم بعد النَّهْي. ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أي إذا ذكرت فلا تقعد ﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ يعني المشركين. والذِّكْرَى أسم للتذكير.

الثانية: قيل: هذا خطاب للنبيّ ﷺ والمراد أمته؛ ذهبوا إلى تبرئته عليه السلام من النسيان. وقيل: هو خاص به، والنسيان جائز عليه. قال ابن العربيّ: وإن عذَرْنا أصحابنا في قولهم إن قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]خطابٌ للأمة بأسم النبيّ ﷺ لاستحالة الشِّرْك عليه، فلا عُذْر لهم في هذا لجواز النسيان عليه. قال عليه السلام:

[٢٩٢٠] «نَسِيَ آدمُ فنَسِيت ذرِّيّتُه» خرّجه الترمذيّ وصحّحه. وقال مخبراً عن نفسه:

[٢٩٢١] «إنما أنا بشر مثلكم أَنْسَى كما تَنسَوْن فإذا نسيت فذكّروني». خرّجه في الصحيح، فأضاف النسيان إليه. وقال وقد سمع قراءة رجل:

[٢٩٢٢] «لقد أذكرَني آيةَ كذا وكذا كنتُ أنسيتها». واختلفوا بعد جواز النسيان عليه؛ هل يكون فيما طريقه البلاغ من الأفعال وأحكام الشرع أم لا.؟ فذهب إلى الأوّل ـ فيما ذكره القاضي عياض ـ عامّةُ العلماء والأئمةُ النُّظار؛ كما هو ظاهر القرآن والأحاديث، لكن شرط الأئمة أن الله تعالى ينبّهه على ذلك ولا يقرّه عليه. ثم اختلفوا هل مِن شرط التنبيه أتصاله بالحادثة على الفَوْر، وهو مذهب القاضي أبي بكر والأكثرِ من العلماء، أو يجوز في ذلك التَّراخِي ما لم يَنخرِم عمره وينقطع تبليغه، وإليه نحا أبو المعَالِي. ومنعت طائفة من العلماء السَّهوَ عليه في الأفعال البلاغِية والعبادات الشرعيّة؛ كما منعوه أتفاقاً في الأقوال البلاغِية، واعتذروا عن الظواهر الواردة في ذلك؛ وإليه مال الأستاذ أبو إسحاق. وشذّت الباطِنيّة وطائفة من أرباب علم القلوب فقالوا: لا يجوز النسيان عليه، وإنما يَنْسَى قصداً ويتعمّد صورةَ النسيان ليَسُنّ. ونَحَا إلى هذا عظيم من

[٢٩٢٠] أخرجه الترمذي ٣٠٧٦ وتقدم.

[٢٩٢١] صحيح. أخرجه البخاري ٤٠١ ومسلم ٥٧٢ وأبو داود ١٠٢٢ والنسائي ٣/٣٢ وابن حبان ٢٦٦٠ من حديث ابن مسعود، وسببه السهو في الصلاة.

[٢٩٢٢] صحيح. أخرجه البخاري ٢٦٥٥ و٥٠٣٨ ومسلم ٧٨٨ وأبو داود ١٣٣١ من حديث عائشة، وانظر شرحه في الفتح ٩/٨٦ والنووي بشرح مسلم ٦/٧٦.

أئمة التحقيق وهو أبو المظفر الإسفراييني في كتابه (الأوسط) وهو منحًى غيرُ سديد، وجمعُ الضدّ مع الضدّ مستحيل بعيد.

قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

قال ابن عباس: لما نزل لا تقعدوا مع المشركين وهو المراد بقوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ قال المسلمون: لا يمكننا دخول المسجد والطّواف؛ فنزلت هذه الآية. ﴿وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ﴾ أي فإن قعدوا يعني المؤمنين فليذكّروهم. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾ اللّهَ في ترك ما هم فيه. ثم قيل: نسخ هذا بقوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾ [النساء: ١٤٠]. وإنما كانت الرُّخْصَة قبل الفتح وكان الوقت وقت تَقِيّة. وأشار بقوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ إلى قوله: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾. قال القُشَيْرِيّ: والأظهر أن الآية ليست منسوخة. والمعنى: ما عليكم شيء من حساب المشركين، فعليكم بتذكيرهم وزجرهم فإن أبوْا فحسابهم على الله. و«ذِكْرَى» في موضع نصب على المصدر، ويجوز أن تكون في موضع رفع؛ أي ولكن الذي يفعلونه ذكرى، أي ولكن عليهم ذكرى. وقال الكسائِيّ: المعنى ولكن هذه ذكرى.

قوله تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

أي لا تعلّق قلبك بهم فإنهم أهل تَعنُّت وإن كنت مأموراً بوَعْظِهم. قال قتادة: هذا منسوخ، نسخه ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]. ومعنى ﴿لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ أي استهزاءً بالدين الذي دعوتهم إليه. وقيل: استهزءوا بالدين الذي هم عليه فلم يعملوا به. والاستهزاء ليس مُسَوَّغاً في دين. وقيل: «لَعِباً وَلَهْواً» باطلاً وفرحاً، وقد تقدّم هذا. وجاء اللّعب مقدّماً في أربعة مواضع، وقد نُظمت:

إذا أتــى لعــب ولهــو ... وكم من موضع هو في القُران
فحرف في الحديد وفي القتال ... وفـي الأنعـام منهـا مـوضعـان

وقيل: المراد بالدِّين هنا العِيدُ. قال الكلبيّ: إن الله تعالى جعل لكل قوم عيداً

يعظمونه ويصلّون فيه لله تعالى، وكل قوم اتّخذوا عيدهم لعباً ولهواً إلا أمة محمد ﷺ، فإنهم اتخذوه صلاة وذكراً وحضوراً بالصدقة، مثل الجمعة والفطر والنحر.

قوله تعالى: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي لم يعلموا إلا ظاهراً من الحياة الدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ﴾ أي بالقرآن أو بالحساب. ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي تُرْتَهن وتُسلم للْهَلَكة؛ عن مجاهد وقتادة والحسن وعِكْرمة والسُّدِّي. والإبسال: تسليم المرء للهلاك؛ هذا هو المعروف في اللغة. أبْسلتُ ولدي أرهنته؛ قال عَوْف بن الأحوص بن جعفر:

وإبْسالِي بَنِيَّ بغيْر جُرْمٍ ... بَعَوْناه ولا بِدَمٍ مُراقِ

«بَعَوْناه» بالعين المهملة معناه جنيْناه. والبَعْوُ الجِناية. وكان حَمَل عن غَنِيٍّ لبني قُشيرٍ دَمَ ٱبني السُّجَيْفَة فقالوا: لا نرضى بك؛ فرهنَهم بَنِيّه طلباً للصلح. وأنشد النابغة الجعدي:

ونحن رَهنَّا بالأُفاقة[1] عامراً ... بما كان في الدَّرْدَاء رَهْناً فأُبْسِلا

الدرداء: كتيبة كانت لهم. ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ تقدّم معناه.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾ الآية. العدل الفِدْية، وقد تقدم في «البقرة». والحَمِيم الماء الحارّ؛ وفي التنزيل ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾﴾ [الحج: ١٩] الآية. ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الرحمن: ٤٤]. والآية منسوخة بآية القتال. وقيل: ليست بمنسوخة؛ لأن قوله: «وَذَرِ الَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَهُمْ» تهديد؛ كقوله: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟﴾ [الحجر: ٣]. ومعناه لا تحزن عليهم؛ فإنما عليك لتبليغ والتذكير بإبسال النفوس. فمن أبسل فقد أسلم وٱرتُهن. وقيل: أصله التحريم، من قولهم: هذا بَسْلٌ عليك أي حرام؛ فكأنهم حُرِموا الجنة وحُرِّمت عليهم الجنة. قال الشاعر[2]:

أجارتُكُم بَسْلٌ علينا مُحَرّمٌ ... وجارتنا حِلٌّ لكم وحَلِيلُها

والإبسال: التحريم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ

(١) موضع قرب الكوفة.
(٢) هو الأعشى ميمون.

﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا﴾ أي ما لا ينفعنا إن دعوناه. ﴿وَلَا يَضُرُّنَا﴾ إن تركناه؛ يريد الأصنام. ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ أي نرجع إلى الضلالة بعد الهدى. وواحد الأعقاب عِقب وهو مؤنث؛ وتصغيره عقيبة. يقال: رجع فلان على عقبيه إذا أدبر. قال أبو عبيدة: يقال لمن ردّ عن حاجته ولم يظفر بها: قد ردّ على عقبيه. وقال المبرد: معناه تعقب بالشر بعد الخير. وأصله من العاقبة والعقبى وهما ما كان تالياً للشيء واجباً أن يتبعه؛ ومنه ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾. [الأعراف: ١٢٨]، ومنه عَقِب الرِّجل. ومنه العقوبة، لأنها تالية للذنب، وعنه تكون.

قوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِى﴾ الكاف في موضع نصب نعت لمصدر محذوف. ﴿ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾ أي استغوته وزيّنت له هواه ودعته إليه. يقال: هَوَى يَهْوِي إلى الشيء أسرع إليه. وقال الزجاج: هو من هَوِيَ يَهْوَى، مِن هَوَى النفس؛ أي زَيّن له الشيطان هواه. وقراءة الجماعة «استهوته» أي هوت به، على تأنيث الجماعة. وقرأ حمزة «استهواه الشياطين» على تذكير الجمع. وروي عن ابن مسعود «استهواه الشيطان»، وروي عن الحسن، وهو كذلك في حرف أُبَيّ. ومعنى «أْتنا» تابعنا. وفي قراءة عبد الله أيضاً «يَدعُونه إلى الهُدَى بَيِّناً». وعن الحسن أيضاً «استهوته الشياطون». «حَيْرَان» نصب على الحال، ولم ينصرف لأن أنثاه حيرى كسكران وسكرى وغضبان وغضبى. والحَيْرَانُ هو الذي لا يهتدِي لجهة أمره. وقد حار يَحار حَيْراً وحَيْرَة وحَيْرُورة، أي تردّد. وبه سُمِّي الماء المستنقع الذي لا منفذ له حائراً، والجمع حُورَان. والحائر الموضع الذي يتحير فيه الماء. قال الشاعر:

تَخْطُو على بَرْدِيَّتَيْنِ غذاهما غَدِقٌ بساحة حائرٍ يَعْبُوبُ[1]

قال ابن عباس: أي مَثَل عابد الصنم مثل من دعاه الغُول فيتبعه فيُصبح وقد ألقته في مَضَلّة ومَهْلَكة؛ فهو حائر في تلك المَهامِه. وقال في رواية أبي صالح[2]: نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر الصدّيق، كان يدعو أباه إلى الكفر وأبواه يدعوانه إلى الإسلام

---

(١) اليعبوب: الطويل.

(٢) لم يذكر أحد أنه سبب نزول، والآية عامة كما في الطبري والدر المنثور.

والمسلمون؛ وهو معنى قوله: ﴿لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى﴾ فيأبى. قال أبو عمر[٢]: أمُّه أمُّ رُومانَ بنت الحارث بن غَنْم الكنانية؛ فهو شقيق عائشة. وشهد عبد الرحمن بن أبي بكر بَدْراً وأُحُداً مع قومه وهو كافر، ودعا إلى البراز فقام إليه أبوه ليبارزه فذكر أن رسول الله ﷺ قال له «مَتِّعْنِي بنفسك[٣]». ثم أسلم وحسُن إسلامه، وصحب النبي ﷺ في هُدْنَة الحُدَيْبِيَة. هذا قول أهل السِّيَر. قالوا: كان ٱسمه عبدَ الكعبة فغيّر رسول الله ﷺ اسمَه عبد الرحمن، وكان أسنَّ ولد أبي بكر. ويقال: إنه لم يدرك النبيّ ﷺ أربعةٌ وِلاءً: أبٌ وبنوه إلا أبا قُحافة وابنَه أبا بكر وٱبنَه عبد الرحمن بن أبي بكر وابنَه أبا عتيق محمد بن عبد الرحمن. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنۡ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُۚ﴾ اللام لام كي، أي أمرنا كي نسلم وبأن أقيموا الصلاة؛ لأن حروف الإضافة يعطف بعضها على بعض. قال الفَرّاء: المعنى أمرنا بأن نسلم؛ لأن العرب تقول: أمرتك لتذهب، وبأن تذهب بمعنًى. قال النحاس: سمعت أبا الحسن بن كَيْسان يقول هي لام الخفض، واللامات كلها ثلاث: لامُ خفضٍ ولامُ أمرٍ ولامُ توكيد، لا يخرج شيء عنها. والإسلام الإخلاص. وإقامة الصلاة الإتيان بها والدّوام عليها. ويجوز أن يكون «وأن أقيموا الصلاة» عطفاً على المعنى، أي يدعونه إلى الهدى ويدعونه أن أقيموا الصلاة؛ لأن معنى ٱئتنا أنِ ٱئتنا.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ ابتداء وخبر وكذا ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ أي فهو الذي يجب أن يُعبد لا الأصنام. ومعنى ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ أي بكلمة الحق. يعني قوله «كُنْ».

قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ﴾ أي وٱذكر يوم يقول كن. أو ٱتّقوا يوم يقول كن. أو قَدِّر يوم يقول كن. وقيل: هو عطف على الهاء في قوله: «وٱتقوه». قال الفراء: «كن فيكون» يقال: إنه للصُّور خاصَّة؛ أي ويوم يقول للصُّور كن فيكون. وقيل: المعنى فيكون جميع ما أراد من موت الناس وحياتهم. وعلى هذين التأويلين يكون ﴿قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّ﴾ ابتداءً وخبراً. وقيل: إن قوله تعالى: «قَوْلُهُ» رفع بيكون؛ أي فيكون ما يأمر به. و«الْحَقُّ» من نعته. ويكون التمام على هذا «فيكون قوله الحق». وقرأ ٱبن عامر «فيكونَ» بالنصب، وهو إشارة إلى سرعة الحساب والبعث. وقد تقدّم في «البقرة» القول فيه مستوفى.

---

(١) انظر كلام ابن عبد البر في الاستيعاب ٢/٣٩٩ بهامش الإصابة. وانظر أيضاً ترجمة عبد الرحمن في الإصابة ٢/٤٠٧ برقم ٥١٥١.

(٢) ذكره الواحدي في «الأسباب» ٨٠١ عن ابن مسعود بدون إسناد فهو ضعيف.

قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ﴾ أي وله المُلْك يومَ ينفخ في الصُّور. أو وله الحق يوم ينفخ في الصور. وقيل: هو بدل من «يوم يقول». والصُّور قَرْن من نُور يُنفخ فيه النفخة الأولى للفَناء والثانية للإنشاء. وليس جمع صُورة كما زعم بعضهم؛ أي ينفخ في صُوَر الموتى على ما نبيِّنه. روى مُسْلم من حديث عبد الله بن عمرو:

[٢٩٢٣]«... ثم يُنفخ في الصُّور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتاً ورفَع ليتا[1] ـ قال ـ وأوّل من يسمعه رجل يَلُوطُ[2] حَوْض إبِلِه ـ قال ـ فَيَصْعَق ويَصْعَق الناسُ ثم يرسل الله ـ أو قال ينزل الله ـ مطراً كأنه الطّلُّ فَتنبُت منه أجسادُ الناس ثم يُنفخ فيهِ أخرى فإذا هم قيام ينظرون» وذكر الحديث. وكذا في التنزيل ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ﴾ [الزمر: ٦٨] ولم يقل فيها؛ فعُلم أنه ليس جمع الصُّورة. والأمم مُجْمِعة على أن الذي يَنفخ في الصُّور إسرافيلُ عليه السلام. قال أبو الْهَيْثم: من أنكر أن يكون الصُّور قَرْنا فهو كمن يُنكر العرش والميزان والصراط، وطلب لها تأويلات. قال ابن فارس: الصُّور الذي في الحديث كالقَرْن يُنفَخ فيه، والصُّور جمع صُورة. وقال الجوهري: الصُّور القَرْن. قال الراجز:

لقد نَطحناهم غَداةَ الْجَمْعَيْن ... نَطْحاً شديداً لا كنطح الصُّوَرَيْن

ومنه قوله: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ [النمل: ٨٧]. قال الكَلْبِيّ: لا أدري ما هو الصُّور. ويقال: هو جمع صُورة مثلُ بُسْرَة وبُسْر؛ أي يُنفخ في صُوَر الموتى والأرواح. وقرأ الحسن «يومَ يُنْفَخُ في الصُّوَر». والصِّور (بكسر الصاد) لغة في الصُّوَر جمع صُورة والجمع صِوار، وصِيّار (بالياء) لغة فيه. وقال عمرو بن عبيد: قرأ عِياض «يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّوَر» فهذا يعني به الخلق. والله أعلم.

قلت: وممن قال إن المراد بالصُّور في هذه الآية جمع صُورة أبو عبيدة. وهذا وإن كان محتملاً فهو مردود بما ذكرناه من الكتاب والسُّنّة. وأيضاً لا ينفخ في الصور للبعث مرتين؛ بل ينفخ فيه مرة واحدة؛ فإسرافيل عليه السلام يَنفخ في الصُّور الذي هو القَرْن والله عز وجل يُحيي الصُّوَر. وفي التنزيل ﴿فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١].

قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ﴾ برفع «عالم» صفة لـ«الذِي»؛ أي وهو الذي خلق السموات والأرض عالم الغيب. ويجوز أن يرتفع على إضمار المبتدأ. وقد رُوي عن بعضهم أنه قرأ

[٢٩٢٣] صحيح. أخرجه مسلم ٢٩٤٠ وأحمد ٢/١٦٦ من حديث ابن عمرو بأتم منه، وفيه ذكر الدجال.

---

(١) اللِّيتُ: صفحة العنق.

(٢) يلوط حوضه: يطينه ويصلحه.

«يَنْفُخ» فيجوز أن يكون الفاعل «عَالِمُ الغَيْبِ» ؛ لأنه إذا كان النفخ فيه بأمر الله عز وجل كان منسوباً إلى الله تعالى. ويجوز أن يكون ارتفع ﴿عَـٰلِمُ﴾ حملاً على المعنى ؛ كما أنشد سيبويه[1] :

* لِيُبْكَ يَزِيدُ ضارعٌ لخصُومةٍ *

وقرأ الحسن والأعمش «عالِم» بالخفض على البدل من الهاء التي في «له».

قوله تعالى: ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ تكلّم العلماء في هذا؛ فقال أبو بكر محمد بن محمد بن الحسن الجُوَيْني الشافعيّ الأشعريّ في النكت من التفسير له: وليس[2] بين الناس اختلاف في أن اسم والد إبراهيم تَارَح. والذي في القرآن يدل على أن اسمه آزر. وقيل: آزر عندهم ذَمٌّ في لغتهم؛ كأنه قال: وإذ قال لأبيه يا مخطىء ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ وإذا كان كذلك فالاختيار الرفع. وقيل: آزر اسم صنم. وإذا كان كذلك فموضعه نصب على إضمار الفعل؛ كأنه قال: وإذ قال إبراهيم لأبيه أتتخذ آزر إلها، أتتخذ أصناماً آلهة.

قلت: ما ادّعاه من الاتفاق ليس عليه وفاق؛ فقد قال محمد بن إسحاق والكَلْبيّ والضحاك: إن آزر أبو إبراهيم عليه السلام وهو تارَخْ، مثل إسرائيل ويعقوب؛ قلت فيكون له اسمان كما تقدّم. وقال مقاتل: آزر لقب، وتارَخْ اسم: وحكاه الثعلبيّ عن ابن إسحاق القُشَيْرِيّ. ويجوز أن يكون على العكس. قال الحسن: كان اسم أبيه آزر. وقال سليمان التَّيْمِيّ: هو سَبٌّ وعَيْب، ومعناه في كلامهم: المعْوَجّ. وروى المُعْتَمِر بن سليمان عن أبيه قال: بلغني أنها أعوج، وهي أشدّ كلمة قالها إبراهيم لأبيه. وقال الضحّاك: معنى آزر الشيخ الهِمّ[3] بالفارسية. وقال الفرّاء: هي صفة ذَمٍّ بلغتهم؛ كأنه قال يا مخطىء؛ فيمن رفعه. أو كأنه قال: وإذ قال إبراهيم لأبيه المخطِىء؛ فيمن خفض. ولا ينصرف لأنه على أفعل؛ قاله النحاس. وقال الجوهري: آزر اسم أعجمي، وهو مشتق من آزر فلان فلاناً إذا عاونه؛ فهو مُؤازِرٌ قومَه على عبادة الأصنام. وقيل: هو مشتق من القوّة، والأزر القوّة؛ عن ابن فارس. وقال مجاهد ويَمانٌ: آزر اسم صنم[4]. وهو في هذا التأويل في

---

(١) هذا صدر بيت للحارث بن نهيك. وتمامه «ومختبط مما تطيح الطوائح».

(٢) ومع ذلك هو متلقىٰ عن أهل الكتاب، والصواب ما جاء في القرآن.

(٣) الهِم: بكسر الهاء ـ الشيخ الفاني.

(٤) الصواب ما جاء في القرآن صريحاً أن آذر اسم أبي إبراهيم، وما سواه هو من الإسرائيليات لا حجة فيه.

موضع نصب، التقدير: أتتخذ آزر إلهاً، أتتخذ أصناماً. وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، التقدير: أتتخذ آزر أصناماً.

قلت: فعلى هذا آزر ٱسم جنس. والله أعلم. وقال الثعلبيّ في «كتاب العرائس»[1]: إن اسم أبي إبراهيم الذي سمّاه به أبوه تارَح، فلما صار مع النُّمروذ قَيِّماً على خِزانة آلهتِهِ سمّاه آزر. وقال مجاهد: إن آزر ليس بٱسم أبيه وإنما هو ٱسم صنم. وهو إبراهيم بن تارَح بن ناخور بن ساروع بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام. و«آزر» فيه قراءات: «أَإِزْراً» بهمزتين، الأولى مفتوحة والثانية مكسورة؛ عن ابن عباس. وعنه «أأزْرا» بهمزتين مفتوحتين. وقرىء بالرفع، وروى ذلك عن ابن عباس. وعلى القراءتين الأُوليين عنه «تتخذ» بغير همزة. قال المَهْدَوِيّ: أإزراً؟ فقيل: إنه اسم صنم؛ فهو منصوب على تقدير أتتخذ إزراً، وكذلك أأزراً. ويجوز أن يجعل أإزراً على أنه مشتق من الأزر وهو الظهر فيكون مفعولاً من أجله؛ كأنه قال: أَلِلقوّة تتخذ أصناماً. ويجوز أن يكون إِزر بمعنى وِزر، أبدلت الواو همزة. قال القُشيرِيّ: ذكر في [الاحتجاج] على المشركين قصة إبراهيم وردّه على أبيه في عبادة الأصنام. وأَوْلَى الناس بأتباع إبراهيم العرب؛ فإنهم ذرّيته. أي وٱذكر إذ قال إبراهيم. أو ﴿وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾ وذَكّر إذ قال إبراهيم. وقرىء «آزرُ» أي يا آزرُ، على النداء المفرد، وهي قراءة أُبَيّ ويعقوب وغيرِهما. وهو يقوّي قول من يقول: إن آزر ٱسم أب إبراهيم. ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً﴾ مفعولان لـ«تتخذ» وهو استفهام فيه معنى الإنكار.

قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ (٧٥) ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ أي مُلك، وزيدت الواو والتاء للمبالغة في الصفة. ومثله الرَّغَبُوت والرَّهَبُوت والجَبَروت. وقرأ أبو السّمّال[2] العَدَوِيّ «مَلْكوت» بإسكان اللام. ولا يجوز عند سيبويه حذف الفتحة لخفّتها، ولعلها لغة. و«نُري» بمعنى أرينا؛ فهو بمعنى المُضِيّ. فقيل: أراد به ما في السموات من عبادة الملائكة والعجائب وما في الأرض من عصيان بني آدم؛ فكان يدعو على مَن يراه يَعصى فيُهلِكه الله، فأوحى الله إليه يا إبراهيم أمسك عن عبادي، أما علمت أن من أسمائي

---

(١) ويعرف بـ«قصص الأنبياء» وهو مشحون بالإسرائيليات.

(٢) هو قعنب بن أبي قعنب العدوي البصري، له قراءات شاذة وقال الذهبي في الميزان: هو معتب بن هلال العدوي البصري له حروف شاذة، ولا يُعتمد على نقله ولا يوثق به ا هـ.

الصَّبور. روى معناه عليّ عن النبيّ ﷺ[1]. وقيل: كشف الله له عن السموات والأرض حتى العرش وأسفل الأرَضين. وروى ابن جُريج عن القاسم عن إبراهيم النَّخَعِيّ قال: فُرجت له السموات السبع فنظر إليهنّ حتى ٱنتهى إلى العرش، وفُرجت له الأرَضون فنظر إليهنّ، ورأى مكانه في الجنة؛ فذلك قوله: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ [العنكبوت: ٢٧]؛ عن السُّدِّي. وقال الضحّاك: أراه من ملَكوت السماء ما قصّه من الكواكب، ومِن ملكوت الأرض البحارَ والجبالَ والأشجارَ، ونحو ذلك مما استدلّ به. وقال بنحوه ابن عباس. وقال: جُعل حين وُلد في سَرَب وجُعل رزقه في أطراف أصابعه فكان يَمَصُّها، وكان نُمْرُوذ اللّعين رأى رؤيا فعبّرت له أنه يذهب ملكه على يدَيْ مولود يُولد؛ فأمر بعزل الرجال عن النساء. وقيل: أمر بقتل كل مولود ذَكَر. وكان آزر من المقربين عند الملك نُمْروذ فأرسله يوماً في بعض حوائجه فواقع ٱمرأته فحملت بإبراهيم. وقيل: بل واقعها في بيت الأصنام فحملت وخرّت الأصنام على وجوهها حينئذ؛ فحملها إلى بعض الشِّعاب حتى ولدت إبراهيم، وحفر لإبراهيم سَرَباً في الأرض ووَضع على بابه صخرة لئلا تفترسه السباع؛ وكانت أُمُّه تختلف إليه فتُرضعه، وكانت تجده يمصّ أصابعه، من أحدها عسلٌ ومن الآخر ماءٌ ومن الآخر لبنٌ، وشَبّ فكان على سَنة مثلَ ابن ثلاث سنين. فلما أخرجه من السَّرَب توهّمه الناس أنه وُلد منذ سنين؛ فقال لأمّه: مَن ربّي؟ فقالت أنا. فقال: ومن ربّك؟ قالت أبوك. قال: ومَن ربّه؟ قالت نُمروذ. قال: ومَن ربه؟ فلطَمَته، وعلمت أنه الذي يَذهب مُلْكُهم على يديه. والقَصَص في هذا تامٌّ في قِصص الأنبياء للكسائي، وهو كتاب مما يُقْتَدَى به. وقال بعضهم: كان مولده بحرّان[2] ولكن أبوه نقله إلى أرض بابل[3]. وقال عامّة السَّلَف من أهل العلم: وُلد إبراهيم في زمن النّمروذ بن كنعان بن سنجاريب بن كوش بن سام بن نوح. وقد مضى ذكره في «البقرة». وكان بين الطوفان وبين مولد إبراهيم ألف ومائتا سنة وثلاث وستون سنة؛ وذلك بعد خلق آدم بثلاث آلاف سنة وثلاثمائة سنة وثلاثين سنة.

قوله تعالى: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ۝٧٥﴾ أي وليكون من الموقنين أريناه ذلك؛ أي المَلَكوت.

---

(١) لا أصل في المرفوع، وانظر تفسير ابن كثير ٢/ ١٥٠.

(٢) هي مدينة عظيمة وهي قصبة ديار مضر بينها وبين الرقة يومان، وهي على طريق الموصل والشام والروم. اهـ ملخصاً من معجم البلدان.

(٣) اسم ناحية منها الكوفة والحِلَّة. وتعرف اليوم بـ «بغداد».

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ أي ستره بظلمته، ومنه الجَنّة والجِنّة والجُنّة والجَنين والمِجَنّ والجِنّ كلُّه بمعنى السّتر. وجَنان الليل أدلهمامُه وستره. قال الشاعر[1]:

ولـولا جَنـان الليـل أدركَ رَكْضُنَـا بذِي الرِّمْثِ والأَرْطَى عِيَاضَ بنَ ناشِب

ويقال: جُنون الليل أيضاً. ويقال: جَنّه الليل وأجَنّه الليل، لغتان. ﴿رَءَا كَوْكَبًا﴾ هذه قصّة أخرى، غير قصّة عرض المَلَكوت عليه. فقيل: رأى ذلك من شَقّ الصخرة الموضوعة على رأس السَّرَب[2]. وقيل: لما أخرجه أبوه من السَّرَب وكان وقت غيبوبة الشمسِ فرأى الإبلَ والخيلَ والغَنم فقال: لا بدّ لها من رَبّ. ورأى المُشْتَرِي أو الزُّهْرة ثم القمرَ ثم الشمس، وكان هذا في آخر الشهر. قال محمد بن إسحاق: وكان ٱبن خمسَ عشرة سنة. وقيل: ٱبن سبع سنين. وقيل: لما حاجّ نمروذاً كان ٱبن سبع عشرة سنة.

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ اختُلف في معناه على أقوال؛ فقيل: كان هذا منه في مُهْلة النظر وحال الطفُوليّة وقبل قيام الحجة؛ وفي تلك الحال لا يكون كفر ولا إيمان. فاستدلّ قائلو هذه المقالة بما روي عن عليّ بن أبي طلحة عن ٱبن عباس قال: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ فعبده[3] حتى غاب عنه، وكذلك الشمس والقمر؛ فلما تَـمّ نظـره قـال: ﴿بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾ وٱستـدلّ بـالأقـوال؛ لأنـه أظهـرُ الآيـات علـى الحدوث. وقال قوم: هذا لا يصحّ؛ وقالوا: غير جائز أن يكون لله تعالى رسولٌ يأتي عليه وقت من الأوقات إلا وهو لله تعالى مُوَحِّد وبه عارف، ومِن كل معبود سواه بريء. قالوا: وكيف يصحّ أن يتوهّم هذا على مَن عصمه الله وأتاه رُشده من قبلُ، وأراه مَلكوته ليكون من المُوقِنين، ولا يجوزُ أن يُوصف بالخلُو عن المعرفة، بل عرف الربَّ أوّل النظر. قال الزجاج: هذا الجواب عندي خطأ وغلط ممن قاله؛ وقد أخبر الله تعالى عن إبراهيم أنه قال: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ [إبراهيم: ٣٥] وقال جل وعز: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ [الصافات: ٨٤] أي لم يُشرك به قَطّ. قال: والجواب عندي أنه قال: ﴿ٱلَّيْلُ رَءَا﴾ على قولكم؛ لأنهم كانوا يعبدون الأصنام والشمس والقمر؛ ونظير هذا قوله تعالى: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ [القصص: ٦٢] وهو جل وعلا واحدٌ لا شريك له. والمعنى: أين

---

(١) هو دريد بن الصمة.

(٢) السَّرَبُ: حفير أو بيت تحت الأرض.

(٣) لا يصح مثل هذا عن ابن عباس. وعلي بن طلحة لم يسمع منه.

شركائي على قولكم. وقيل: لما خرج إبراهيم من السَّرَب رأى ضوء الكوكب وهو طالب لربّه؛ فظن أنه ضوءه قال: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ أي بأنه يتراءى لي نوره. ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ علم أنه ليس بربّه. ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا﴾ ونظر إلى ضوئه ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ. فَلَمَّا رَأى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ وليس هذا شركاً. إنما نَسب ذلك الضوءَ إلى ربّه فلما رآه زائلاً دَلّه العلم على أنه غير مستحقّ لذلك؛ فنفاه بقلبه وعلم أنه مَرْبُوب وليس بربّ. وقيل: إنما قال «هذا ربّي» لتقرير الحجّة على قومه فأظهر موافقتهم؛ فلما أفَلَ النَّجم قرّر الحجة وقال: ما تغيّر لا يجوز أن يكون رَبًّا. وكانوا يعظّمون النجوم ويعبدونها ويحكمون بها. وقال النحاس: ومن أحسن ما قيل في هذا ما صحّ عن ٱبن عباس أنه قال في قول الله عز وجل: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: ٣٥] قال: كذلك قلب المؤمن يعرف الله عز وجل ويستدلّ عليه بقلبه، فإذا عرفه ٱزداد نوراً على نور؛ وكذا إبراهيم عليه السلام عرف الله عز وجل بقلبه واستدلّ عليه بدلائله، فعلم أن له رَبًّا وخالقاً. فلما عرّفه الله عز وجل بنفسه ازداد معرفة فقال: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِۚ﴾. وقيل: هو على معنى الاستفهام والتوبيخ، مُنْكِراً لفعلهم. والمعنى أهذا ربي، أو مثل هذا يكون رَبًّا؟ فحذف الهمزة. وفي التنزيل ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنبياء: ٣٤] أي أَفهُم الخالدون. وقال الهُذَلِيّ[1]:

رَفَوْنِي وقالوا يا خُوَيْلِدُ لاَ تُرَعْ ... فقلتُ وأنكرتُ الوجوهَ هُمُ هُمُ

آخر[2]:

لَعَمْرُكَ ما أدْرِي وإنْ كنتُ دارِياً ... بسبعٍ رَمَيْنَ الجَمْرَ أمْ بثَمانِ

وقيل: المعنى هذا ربي على زعمكم؛ كما قال تعالى: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [القصص: ٦٢ و٧٤]. وقال: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدخان: ٤٩] أي عند نفسك. وقيل: المعنى أي وأنتم تقولون هذا رَبّي؛ فأضمر القول، وإضماره في القرآن كثير. وقيل: المعنى في هذا ربي؛ أي هذا دليل على رَبّي.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا﴾ أي طالعاً. يقال: بَزَغ القمر إذا ٱبتدأ في الطلوع، والبَزْغ الشق؛ كأنه يشق بنوره الظلمة؛ ومنه بَزَغ البَيْطار الدابة إذا أسال دمها.

(١) هو أبو خراش.
(٢) هو عمر بن أبي ربيعة.

﴿ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي ﴾ أي لم يُثبّتني على الهداية. وقد كان مهتدياً؛ فيكون جرى هذا في مُهلة النظر، أو سأل التثبيت لإمكان الجواز العقليّ؛ كما قال شعيب: ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف: ٨٩]. وفي التنزيل: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ ﴾ أي ثبّتنا على الهداية. وقد تقدّم.

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً ﴾ نصب على الحال؛ لأن هذا من رؤية العين. بَزَغ يَبْزُغ بزوغاً إذا طلع. وأفلَ يأفِلُ أفولاً إذا غاب. وقال: «هذا» والشمس مؤنثة؛ لقوله: ﴿ فَلَمَّآ أَفَلَتْ ﴾. فقيل: إن تأنيث الشمس لتفخيمها وعِظمها؛ فهو كقولهم: رجل نَسّابة وعلاّمة. وإنما قال: «هَذَا رَبِّي» على معنى: هذا الطالِعُ ربِّي؛ قاله الكسائيّ والأخفش. وقال غيرهما: أي هذا الضوء. قال أبو الحسن عليّ بن سليمان: أي هذا الشخص؛ كما قال الأعشى:

قامت تبكّيه على قبرِهِ ... مَن لِيَ مِن بعدِك يا عامِرُ
تركتَنِي في الدار ذا غُربةٍ ... قد ذَلّ من ليس له ناصرُ

قوله تعالى: ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ ﴾ أي قصدت بعبادتي وتوحيدي لِلّه عز وجل وحده. وذَكَر الوجه لأنه أظهر ما يعرف به الإنسان صاحبه. ﴿ حَنِيفًا ﴾ مائلاً إلى الحق. ﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ اسم «ما» وخبرها. وإذا وقفت قلت: «أنا» زدت الألف لبيان الحركة، وهي اللغة الفصيحة. وقال الأخفش: ومن العرب من يقول: «أنَ». وقال الكسائي: ومن العرب من يقول: «أنَهْ». ثلاث لغات. وفي الوصل أيضاً ثلاث لغات: أن تحذف الألف في الإدراج؛ لأنها زائدة لبيان الحركة في الوقف. ومن العرب من يثبت الألف في الوصل؛ كما قال الشاعر:

* أنَا سَيْف العشِيرة فاْعرفوني[1] *

وهي لغة بعض بني قيس وربيعة؛ عن الفرّاء. ومن العرب من يقول في الوصل: آن فعلت، مثل عان فعلت؛ حكاه الكِسائي عن بعض قُضَاعة.

(١) صدر بيت، وعجزه، «جميعاً قد تذريت السناما».

قوله تعالى: ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ ﴾ دليلٌ على الحِجاج والجدال؟ حاجُّوه في توحيد الله. ﴿ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ ﴾ قرأ نافع بتخفيف النون، وشدّد النون الباقون. وفيه عن ابن عامر من رواية هشام عنه خلاف؛ فمن شدّد قال: الأصل فيه نونان، الأولى علامة الرفع والثانية فاصلة بين الفعل والياء؛ فلما اجتمع مِثلان في فعل وذلك ثقيل أدغم النون في الأخرى فوقع التشديد ولا بدّ من مدّ الواو لئلا يلتقِي الساكنان، الواو وأوّلُ المشدّد؛ فصارت المدّةُ فاصلةً بين الساكنين. ومن خفّف حذف النونَ الثانية استخفافاً لاجتماع المِثْلين، ولم تُحذف الأولى لأنها علامةُ الرفع؛ فلو حُذفت لاشتبه المرفوع بالمجزوم والمنصوب. وحُكي عن أبي عمرو بن العَلاَء أن هذه القراءة لَحْنٌ. وأجاز سيبويه ذلك فقال: استثقلوا التضعيف. وأنشد[1]:

تــراه كــالثَّغَــامِ يُعَــلُّ مِسْكــاً　　　يَســوء الفــالِيــاتِ إذا فَلِيْنــي[2]

قوله تعالى: ﴿ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ ﴾ أي لأنه لا ينفع ولا يضر ـ وكانوا خوّفوه بكثرة آلهتهم ـ إلا أن يُحيِيَه الله ويُقدِره فيخاف ضرره حينئذٍ؛ وهو معنى قوله: ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ ﴾ أي إلا أن يشاء أن يلحقني شيء من المكروه بذنب عمِلتُه فتتمّ مشيئته. وهذا استثناء ليس من الأوّل. والهاء في «بِهِ» يحتمل أن تكون لِلَّهِ عز وجل، ويجوز أن تكون للمعبود. وقال: ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي ﴾ يعني أن الله تعالى لا يشاء أن أخافهم. ثم قال: ﴿ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ ﴾ أي وسع علمه كل شيء. وقد تقدّم.

قوله تعالى: ﴿ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ ﴾ ففي «كيف» معنى الإنكار؛ أنكر عليهم تخويفهم إيّاه بالأصنام وهم لا يخافون الله عز وجل؛ أي كيف أخاف مواتاً وأنتم لا تخافون الله القادر على كل شيء. ﴿ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ ﴾ أي حجة؛ وقد تقدّم. ﴿ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ ﴾ أي من عذاب الله: الموحِّد أم المشرك؛ فقال الله قاضياً بينهم: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ ﴾ أي بشرك؛ قاله أبو بكر الصدّيق

---

(١) البيت لعمرو بن معد يكرب.

(٢) الثغام: نبت أبيض يشبه به الشيب، والعلل: الشرب بعد الشرب.

وعليّ وسَلْمان وحُذيفة، رضي الله عنهم. وقال ابن عباس: هو من قول إبراهيم؛ كما يسأل العالِمُ ويجيب نفسه. وقيل: هو من قول قـوم إبراهيم؛ أي أجابوا بما هو حجة عليهم، قاله ابن جُريج. وفي الصحيحين عن ابن مسعود لما نزلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ شقّ ذلك على أصحاب رسول الله وقالو:

[٢٩٢٤] أيّنا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ: «ليس هو كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه ﴿يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣]. ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ أي في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ تلك إشارة إلى جميع احتجاجاته حتى خاصمهم وغلبهم بالحجة. وقال مجاهد: هي قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ وقيل: حجته عليهم أنهم لما قالوا له: أما تخاف أن تَخْبِلك آلهتنا لسَبِّك إياها؟ قال لهم: أفلا تخافون أنتم منها إذ سوّيتم بين الصغير والكبير في العبادة والتعظيم؛ فيغضب الكبير فيخبِلكم؟. ﴿نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ أي بالعلم والفهم والإمامة والملك. وقرأ الكوفيون «درجاتٍ» بالتنوين. ومثله في «يوسف» أوقعوا الفعل على «مَن» لأنه المرفوع في الحقيقة، التقدير: ونرفع من نشاء إلى درجات. ثم حذفت إلى. وقرأ أهل الحَرَمين وأبو عمرو بغير تنوين على الإضافة، والفعل واقع على الدرجات، وإذا رُفعت فقد رُفع صاحبها. يقوّي هذه القراءة قوله تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ﴾ [غافر: ١٥] وقوله عليه السلام:

[٢٩٢٤ م]«اللَّهُمَّ ارفع درجته» فأضاف الرفع إلى الدرجات. وهو لا إله إلا هو الرفيع المتعالي في شرفه وفضله. فالقراءتان متقاربتان؛ لأن من رُفعت درجاته فقد رُفع، ومن رُفع فقد رفعت درجاته، فاْعلم. ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ يضع كل شيء موضعه.

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا

[٢٩٢٤] صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٧٦ ومسلم ١٢٤ من حديث ابن مسعود.

[٢٩٢٤ م] أخرجه أحمد ٦/ ٢٩٧ من حديث أم سلمة، ورجاله ثقات.

﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولىٰ: قوله تعالىٰ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أي جزاءاً له علىٰ الإحتجاج في الدِّين وبذل النفس فيه. ﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾ أي كل واحد منهم مهتد. وكُلًّا» نصب بـ«هدينا» ﴿وَنُوحًا﴾ نصب بـ«هدينا» الثاني. ﴿قَبْلُ وَمِن﴾ أي ذريّة إبراهيم. وقيل: من ذرية نوح؛ قاله الفرّاء وٱختاره الطّبريّ وغير واحد من المفسرين كالقُشيرِيّ وابن عطية وغيرهما. والأوّل قاله الزجاج، واعترض بأنه عُدّ من هــذه الذرّية يونس ولوط وما كانا من ذرّية إبراهيم. وكان لوطٌ ابن أخيه. وقيل: ابنَ أختِه. وقال ابن عباس: هؤلاء الأنبياء جميعاً مضافون إلى ذرّية إبراهيم، وإن كان فيهم مَن لم تلحقه وِلادة من جهته من جهة أب ولا أمّ؛ لأن لوطاً ٱبن أخي إبراهيم. والعرب تجعل العَمَّ أباً كما أخبر الله عن ولد يعقوب أنهم قالوا: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [البقرة: ١٣٣]. وإسماعيل عمٌّ يعقوب. وعدّ عيسى من ذريّة إبراهيم وإنما هو ٱبن البنت. فأولاد فاطمة رضي الله عنها ذرّية النبيّ ﷺ. وبهذا تمسّك من رأى أن ولد البنات يدخلون في اسم الولد وهي: ـ

الثانية: قال أبو حنيفة والشافعيّ: من وقَف وقفاً على ولده وولد ولده أنه يدخل فيه ولد ولده وولد بناته ما تناسلوا. وكذلك إذا أوصى لقرابته يدخل فيه ولد البنات. والقرابة عند أبي حنيفة كلُّ ذي رَحِم مَحْرم. ويسقط عنده ٱبن العَمّ والعمة وابن الخال والخالة؛ لأنهم ليسوا بمحرمين. وقال الشافعيّ: القرابة كلّ ذي رحم مَحرَم وغيره. فلم يسقط عنده ابن العمّ ولا غيره. وقال مالك: لا يدخل في ذلك ولد البنات. وقوله: لقرابتي وعقبي كقوله: لولدي وولد ولدي. يدخل في ذلك ولد البنين ومن يرجع إلى عَصَبة الأب وصُلْبه، ولا يدخل في ذلك ولد البنات. وقد تقدّم نحو هذا عن الشافعيّ في «آل عمران». والحجة لهما قوله سبحانه: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ [النساء: ١١] فلم يَعقِلِ المسلمون من ظاهر الآية إلا ولدَ الصُّلْب وولد الابن خاصّةً. وقال تعالى: ﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الأنفال: ٨] فأعطى عليه السلام القرابة منهم من أعمامه دون بني أخواله. فكذلك ولد البنات لا ينتمون إليه بالنسب، ولا يلتقون معه في أب. قال ابن القصّار: وحجة من أدخل البنات في الأقارب قولُه عليه السلام للحسن بن عليّ:

[٢٩٢٥] «إن ٱبني هذا سيّد». ولا نعلم أحداً يمتنع أن يقول في ولد البنات إنهم ولد لأبي أمّهم. والمعنى يقتضي ذلك؛ لأن الولد مشتق من التولُّد وهم متولدون عن أبي أمّهم لا محالة؛ والتولّد من جهة الأمّ كالتولّد من جهة الأب. وقد دلّ القرآن على ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ إلى قوله: ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾ فجعل عيسى من ذرّيته وهو ٱبن ٱبنته.

الثالثة: قد تقدّم في «النساء» بيان ما لا ينصرف من هذه الأسماء. ولم ينصرف داود لأنه ٱسم أعجمِيّ، ولمّا كان على فاعول لا يحسُن فيه الألف واللام لم ينصرف. وإلياس أعجمِيّ. قال الضحاك: كان إلياس من ولد إسماعيل. وذكر القُتَبي قال: كان من سِبط يُوشع بن نون. وقرأ الأعرج والحسن وقَتادة «وٱلياس» بوصل الألف. وقرأ أهل الحَرَمين وأبو عمرو وعاصم «والْيَسَع» بلام مخففة. وقرأ الكوفيون إلا عاصماً «واللَّيْسع». وكذا قرأ الكسائِيّ، وردّ قراءة من قرأ «والْيَسع» قال: لأنه لا يقال اليَفْعَل مثل الْيَحْيَى. قال النحاس: وهذا الردّ لا يلزم، والعرب تقول: الْيَعْمَل والْيَحْمَد، ولو نكّرت يحيى لقلت اليحيى. وردّ أبو حاتم على من قرأ «اللَّيْسع» وقال: لا يوجد لَيْسع. وقال النحاس: وهذا الرّد لا يلزم، فقد جاء في كلام العرب حَيْدَر وزَيْنَب، والحَقُّ في هذا أنه ٱسم أعجمِيّ، والعجْمة لا تؤخذ بالقياس إنما تؤخذ سماعاً والعرب تغيّرها كثيراً، فلا يُنكر أن يأتي الاسم بلغتين. قال مَكِّيّ: من قرأ بلامين فأصل الاسم لَيْسع، ثم دخلت الألف واللام للتعريف. ولو كان أصله يسع ما دخلته الألف واللام؛ إذ لا يدخلان على يزيد ويشكر: ٱسمين لرجلين؛ لأنهما معرفتان علمان. فأما «ليسع» نكرة فتدخله الألف واللام للتعريف، والقراءة بلام واحدة أحبّ إليّ؛ لأن أكثر القراء عليه. وقال المَهْدَوِيّ: من قرأ «اليسع» بلام واحدة فالاسم يسع، ودخلت الألف واللام زائدتين، كزيادتهما في نحو الخمسة عشر، وفي نحو قوله[1]:

وَجَدْنا اليَزِيدَ بنَ الوليد مباركاً ... شديداً بأعباء الخلافة كاهِلُه

وقد زادوها في الفعل المضارع نحو قوله[2]:

فيستخرج اليَرْبُوع من نافِقَائه ... ومن بيته بالشِّيخة الْيَتَقَصّعُ[3]

[٢٩٢٥] متفق عليه، وتقدم.

(١) البيت لابن ميادة.

(٢) البيت لذي الخرق الطهوي.

(٣) النافقاء: جحر الضبّ واليربوع. والشِّيخة: رملة بيضاء.

يريد الذي يتقصّع. قال القُشَيريّ: قرىء بتخفيف اللام والتشديد. والمعنى واحد في أنه اسم لنبيّ معروف؛ مثل إسماعيل وإبراهيم، ولكن خرج عما عليه الأسماء الأعجمية بإدخال الألف واللام. وتوهّم قوم أن اليسع هو إلياس، وليس كذلك؛ لأن الله تعالى أفرد كل واحد بالذِّكر. وقال وهب: اليسع هو صاحب إلياس، وكانا قبل زكرياء ويحيى وعيسى. وقيل: إلياس هو إدريس وهذا غير صحيح لأن إدريس جدّ نوح وإلياس من ذرّيته. وقيل: إلياس هو الخضر. وقيل: لا، بل الْيَسع هو الخضر. «ولوطاً» اسم أعجميّ انصرف لخفّته. وسيأتي اشتقاقه في «الأعراف».

قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَابَآبِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٨٧) ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَابَآبِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ ﴾ «من» للتبعيض؛ أي هدينا بعض آبائهم وذرّياتهم وإخوانهم. ﴿ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ ﴾ قال مجاهد: خلّصناهم، وهو عند أهل اللغة بمعنى اخترناهم؛ مشتق من جبيت الماء في الحوض أي جمعته. فالاجتباء ضم الذي تجتبيه إلى خاصتك. قال الكسائي: وجبيت الماء في الحوض جَباً، مقصور. والجابية الحوض. قال[1]:

* كجَابِيَـة الشَّيخ العِرَاقِـيّ تَفْهَق[2] *

وقد تقدّم معنى الاصطفاء والهداية.

قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٨٨) ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ ﴾ أي لو عبدوا غيري لحبطت أعمالهم، ولكني عصمتهم. والحبوط البطلان. وقد تقدّم في «البقرة».

قوله تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ (٨٩) ﴾.

قوله تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ ﴾ ابتداء وخبر «والحكم» العلم والفقه. ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا ﴾ أي بآياتنا. ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ أي كفار عصرك يا محمد. ﴿ فَقَدْ

---

(١) هو عجز للأعشىٰ وصدره «نفىٰ الذم عن آل المحلق جفنة».

(٢) فهق: امتلأ.

﴿وَكَّلْنَا بِهَا﴾ جواب الشرط؛ أي وكلنا بالإيمان بها ﴿قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَـٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ يريد الأنصار من أهل المدينة والمهاجرين من أهل مكة. وقال قتادة: يعني النبيّين الذين قصّ الله عز وجل. قال النحاس: وهذا القول أشبه بالمعنىٰ، لأنه قال بعدُ: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ﴾. وقال أبو رجاء: هم الملائكة. وقيل هو عام في كل مؤمن من الجن والإنس والملائكة. والباء في «بكافرين» زائدة علىٰ جهة التأكيد.

قوله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ﴾ الاقتداء طلب موافقة الغير في فعله. فقيل: المعنىٰ ٱصبر كما صبروا. وقيل: معنىٰ ﴿وَيَعْلَمُ مَا﴾ التوحيد والشرائع مختلفة. وقد احتجّ بعض العلماء بهذه الآية على وجوب ٱتباع شرائع الأنبياء فيما عدم فيه النص؛ كما في صحيح مُسْلم وغيره: أن أخت الرُّبيِّع أمّ حارثة جرحت إنساناً فٱختصموا إلى النبيّ ﷺ؛ فقال رسول الله ﷺ:

[٢٩٢٦] «القصاصَ القصاصَ» فقالت أمّ الرَّبيع: يا رسول الله أيقتصّ من فلانة؟! والله لا يقتص منها. فقال رسول الله ﷺ: «سبحان الله يا أمّ الرَّبيع القصاصُ كتاب الله». قالت: والله لا يقتص منها أبداً. قال: فما زالت حتى قَبلوا الدِّية. فقال رسول الله ﷺ: «إن مِن عباد الله مَن لو أقسم على الله لأَبرّه». فأحال رسول الله ﷺ على قوله: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥] الآية. وليس في كتاب الله تعالى نصّ على القصاص في السِّنّ إلا في هذه الآية؛ وهي خبر عن شرع التوراة ومع ذلك فحكم بها وأحال عليها. وإلى هذا ذهب مُعْظَم أصحاب مالك وأصحاب الشافعيّ، وأنه يجب العمل بما وجد منها. قال ابن بكير: وهو الذي تقتضيه أصول مالك وخالف في ذلك كثير من أصحاب مالك وأصحاب الشافعيّ والمعتزلة؛ لقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ﴾ [المائدة: ٤٨]. وهذا لا حجّة فيه؛ لأنه يحتمل التقييد: إلا فيما قصّ عليكم من الأخبار عنهم مما لم يأت في كتابكم. وفي صحيح البخاريّ[1] عن العوّام قال: سألت مجاهداً عن سجدة «صۤ» فقال: سألت ٱبن عباس عن سجدة «صۤ» فقال: أوَ تقرأ ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ﴾ إلى قوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ﴾ وكان

[٢٩٢٦] صحيح. أخرجه مسلم ١٦٧٥ وتقدم.

---

(١) (٣٤٢١).

داود عليه السلام ممن أمر نبيّكم ﷺ بالاقتداء به.

الثانية: قرأ حمزة والكسائيّ «اقتد قل» بغير هاء في الوصل. وقرأ ابن عامر «اقْتَدِهِي قُلْ». قال النحاس: وهذا لَحْنٌ؛ لأن الهاء لبيان الحركة في الوقف وليست بهاء إضمار ولا بعدها واو ولا ياء، وكذلك أيضاً لا يجوز «فبهداهم اقتد قل». ومن اجتنب اللّحن وٱتبع السَّواد قرأ ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ فوقف ولم يصل، لأنه إن صل بالهاء لحن وإن حذفها خالف السّواد. وقرأ الجمهور بالهاء في الوصل على نية الوقف وعلى نية الإدراج ٱتباعاً لثباتها في الخطّ. وقرأ ابن عيّاش وهشام «اقْتَدِهِ قُلْ» بكسر الهاء، وهو غلط لا يجوز في العربية.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي جُعْلاً على القرآن. ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي القرآن. ﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ أي هو موعظة للخلق. وأضاف الهداية إليهم فقال: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾لوقوع الهداية بهم. وقال: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ﴾ لأنه الخالق للهداية.

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ أي فيما وجب له وٱستحال عليه وجاز. قال ٱبن عباس: ما آمنوا أنه على كل شيء قدير. وقال الحسن: ما عظّموه حقَّ عظمته. وهذا يكون من قولهم: لفلان قَدر. وشرحُ هذا أنهم لما قالوا: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ نَسَبُوا الله عز وجل إلى أنه لا يقيم الحجة على عباده، ولا يأمرهم بما لهم فيه الصلاح؛ فلم يعظِّموه حقَّ عظمته ولا عرفوه حقَّ معرفته. وقال أبو عبيدة: أي ما عرفوا الله حقّ معرفته. قال النحاس: وهذا معنى حسن؛ لأن معنى قدرت الشيء وقدّرته عرفت مقداره. ويدلّ عليه قوله: ﴿إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ أي لم يعرفوه حق معرفته؛ إذ أنكروا أن يرسل رسولا. والمعنيان متقاربان. وقد قيل: وما قدروا نِعم الله حق تقديرها. وقرأ أبو حَيْوَة: «وما قدروا الله حق قدَرَه» بفتح الدال، وهي لغة.

﴿إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ قال ٱبن عباس وغيره: يعني مشركي قريش. وقال الحسن وسعيد بن جبير: الذي قاله أحد اليهود، قال: لم يُنزل الله كتاباً من السماء. قال السُّدِّي: اسمه فنحاص. وعن سعيد بن جُبير أيضاً قال: هو مالك بن الصَّيف، جاء يخاصم النبيّ ﷺ فقال له النبيّ ﷺ:

[٢٩٢٧] «أَنْشُدُك بالذي أنزل التوراة على موسى أما تجد في التوراة أن الله يبغض الحَبْر السّمِين»؟ وكان حبراً سميناً. فغضب وقال: والله ما أنزل الله على بشرٍ من شيء. فقال له أصحابه الذين معه: ويحك! ولا على موسى؟ فقال: والله ما أنزل الله على بَشَرٍ من شيء؛ فنزلت الآية. ثم قال نقضاً لقولهم وردًّا عليهم: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ﴾ ـ أي في قراطيس ـ ﴿تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ هذا لليهود الذين أخفَوْا صفة النبيّ ﷺ وغيرها من الأحكام. وقال مجاهد: قوله تعالى ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ خطاب للمشركين، وقوله: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ﴾ لليهود وقوله ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ﴾ للمسلمين. وهذا يصحّ على قراءة من قرأ ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ﴾ بالياء. والوجه على قراءة التاء أن يكون كله لليهود، ويكون معنى ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟﴾ أي وعلّمتم ما لم تكونوا تعلمونه أنتم ولا آباؤكم، على وجه المَنّ عليهم بإنزال التوراة. وجعلت التوراة صُحُفاً فلذلك قال ﴿قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا﴾ أي تبدون القراطيس. وهذا ذَمّ لهم؛ ولذلك كره العلماء كتب القرآن أجزاء. ﴿قُلِ ٱللَّهُ ۖ﴾ أي قل يا محمد الله الذي أنزل ذلك الكتاب على موسى وهذا الكتاب عليّ. أو قل الله علمكم الكتاب. ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾ أي لاعبين، ولو كان جواباً للأمر لقال يلعبوا. ومعنى الكلام التهديد. وقيل: هو من المنسوخ بالقتال؛ ثم قيل: «يجعلونه» في موضع الصفة لقوله ﴿نُورًا وَهُدًى﴾ فيكون في الصلة. ويحتمل أن يكون مستأنفاً، والتقدير: يجعلونه ذا قراطيس. وقوله: ﴿تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ﴾ يحتمل أن يكون صفة لقراطيس؛ لأن النكرة توصف بالجُمل. ويحتمل أن يكون مستأنفاً حسبما تقدّم.

قوله تعالى: ﴿وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ﴾ يعني القرآن ﴿أَنزَلْنَـٰهُ﴾ صفة «مبارك» أي بُورك فيه، والبركة الزيادة. ويجوز نصبه في غير القرآن على الحال. وكذا ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي من الكتب المنزلة قبله، فإنه يوافقها في نفي الشرك وإثبات التوحيد. ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ يريد مكة ـ وقد تقدّم معنى تسميتها بذلك ـ والمراد أهلها، فحذف المضاف؛ أي أنزلناه للبركة والإنذار. ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ﴾ يعني جميع الآفاق. ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ﴾ يريد أتباع محمد ﷺ؛ بدليل قوله: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾ وإيمان من آمن بالآخرة ولم

[٢٩٢٧] ضعيف. أخرجه الطبري ١٣٥٣٩ عن سعيد بن جبير مرسلاً، فهو ضعيف لإرساله، وذكره الواحدي ٤٤٠ بدون إسناد.

يؤمن بالنبيّ عليه السلام ولا بكتابه غير معتدٍّ به.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ ابتداء وخبر؛ أي لا أحد أظلم. ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ أي ٱختلق. ﴿عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾ فزعم أنه نبيّ ﴿وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾. نزلت في رحمان اليمامة والأسود العَنْسِيّ وسَجَاح زوج مسيْلِمَة؛ كلهم تنبأ وزعم أن الله قد أوحى إليه. قال قتادة: بلغنا أن الله أنزل هذا في مسيْلِمة؛ وقاله ابن عباس.

قلت: ومن هذا النَّمط من أعرض عن الفقه والسّنَن وما كان عليه السلف من السنن فيقول: وقع في خاطري كذا، أو أخبرني قلبي بكذا؛ فيحكمون بما يقع في قلوبهم ويغلب عليهم من خواطرهم، ويزعمون أن ذلك لصفائها من الأكدار وخلوّها عن الأغيار، فتتجلّى لهم العلوم الإلٰهية والحقائق الرّبانية، فيقفون على أسرار الكليّات ويعلمون أحكام الجزئيات فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات، ويقولون: هذه الأحكام الشرعية العامة، إنما يحكم بها على الأغبياء والعامة، وأما الأولياء وأهل الخصوص، فلا يحتاجون لتلك النصوص. وقد جاء فيما ينقلون:

[٢٩٢٨]«استفت قلبك وإن أفتاك المُفْتُون» ويستدلّون علىٰ هذا بالخَضْر، وأنه استغنى بما تجلّى له من تلك العلوم، عما كان عند موسى من تلك الفهوم. وهذا القول زَنْدَقَةٌ وكفر، يقتل قائله ولا يستتاب، ولا يحتاج معه إلى سؤال ولا جواب؛ فإنه يلزم منه هدّ الأحكام وإثبات أنبياء بعد نبينا ﷺ. وسيأتي لهذا المعنى في «الكهف» مزيد بيان إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ «مَن» في موضع خفض؛ أي ومن أظلم ممن قال سأنزل، والمراد عبد الله بن أبي سَرْح الذي كان يكتب الوَحْيَ لرسول الله ﷺ، ثم ٱرتدّ ولَحِق بالمشركين. وسبب ذلك فيما ذكر المفسرون:

[٢٩٢٨] حسن هو بعض حديث أخرجه أحمد ٤/٢٢٨ وأبو يعلىٰ ١٥٨٦ و١٥٨٧ من حديث وابصة بن مَعْبد وإسناده ضعيف لأجل أيوب بن عبد الله بن مكرز، لكن للحديث شواهد ولذا حسنه النووي في الأربعين ح ٢٧ وكذا ابن رجب في جامع العلوم والحكم ص ٢٢٠ أفاض في تخريجه، وأنه ورد من حديث أبي ثعلبة الخشني، وإسناده جيد، ومن حديث واثلة، ومن حديث أبي هريرة وغيرهم.

[٣٩٢٩] أنه لما نزلت الآية التي في «المؤمنون»: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾[المؤمنون: ١٢] دعاه النبيّ ﷺ فأملاها عليه، فلمّا انتهىٰ قوله ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾[المؤمنون: ١٤] عَجب عبد الله في تفصيل خلق الإنسان فقال: «تَبَارَكَ الله أَحْسَن الْخَالِقِينَ» فقال رسول الله ﷺ: «هكذا أنزلت عليّ» فشك عبد الله حينئذ وقال: لئن كان محمد صادقاً لقد أوحِيَ إليّ كما أوحِي إليه، ولئن كان كاذباً لقد قلتُ كما قال. فارتدّ عن الإسلام ولحِق بالمشركين، فذلك قوله: ﴿ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾رواه الكلبي عن ابن عباس. وذكره محمد بن إسحاق قال حدّثني شَرَحْبِيل قال:

[٢٩٣٠]نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح ﴿ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ أرتدّ عن الإسلام، فلما دخل رسول الله ﷺ مكة أمر بقتله وقتل عبد الله بن خَطَل ومِقْيَس بن صُبَابة ولو وُجدوا تحت أستار الكعبة؛ ففرّ عبد الله بن أبي سرح إلى عثمان رضي الله عنه، وكان أخاه من الرضاعة، أرضعت أمُّه عثمانَ، فغيّبه عثمان حتى أتى به رسول الله ﷺ بعد ما أطمأن أهل مكة فاستأمنه له؛ فصمَت رسول الله ﷺ طويلاً ثم قال: «نعم». فلما أنصرف عثمان قال رسول الله ﷺ: «ما صَمَتُّ إلا ليقوم إليه بعضُكم فيضربَ عُنُقَه». فقال رجل من الأنصار: فهلاّ أوْمَأْتَ إليّ يا رسول الله؟ فقال: «إن النبي لا ينبغي أن تكون له خائنة الأعين». قال أبو عمر: وأسلم عبد الله بن سعد بن أبي سرح أيامَ الفتح فحسُن إسلامه، ولم يظهر منه ما يُنكر عليه بعد ذلك. وهو أحد النُّجبَاء العقلاء الكرماء من قريش، وفارسُ بني عامر بن لُؤَيّ المعدودُ فيهم، ثم ولاّه عثمان بعد ذلك مصر سنة خمس وعشرين. وفتح على يديه إفريقِيّة سنة سبع وعشرين، وغزا منها الأساود من أرض النُّوبَة سنة إحدى وثلاثين، وهو هادنهم الهُدْنة الباقية إلى اليوم. وغزا الصَّوارِي من أرض الرُّوم سنة أربع وثلاثين؛ فلما رجع من وِفاداته منعه ابن أبي حُذيفة من دخول الفُسْطَاط، فمضى إلى عَسْقلان، فأقام فيها حتى قُتل عثمان رضي الله عنه. وقيل: بل أقام بالرَّمْلة حتى مات فارًّا من الفتنة. ودعا ربه فقال: اللَّهُمَّ أجعل خاتمة عملي صلاة الصبح؛ فتوضأ ثم صلّى فقرأ في الركعة الأولى بأم القرآن والعاديات، وفي الثانية بأم القرآن وسورة، ثم

[٢٩٢٩] أخرجه الطبري ١٣٥٦٠ بسنده عن السدي، وهذا مرسل. وذكره الواحدي ٤٤٢ بلا سند وبدون عزو لأحد. فالخبر ضعيف وإن اشتهر عند أهل التفسير وعزاه القرطبي لابن عباس من طريق الكلبي، والكلبي كذاب.

[٢٩٣٠] مرسل. أخرجه الحاكم ٣/ ٤٥ والواحدي ٤٤٢ عن شرحبيل بن سعد، وهذا مرسل شرحبيل تابعي صدوق اختلط بأخرة كما في التقريب. وله شاهد دون ذكر الآية أخرجه أبو داود ٤٣٥٩ والنسائي ٧/ ١٠٦ من حديث سعد، وإسناده لين. وشاهد آخر من حديث ابن عباس أخرجه أبو داود ٤٣٥٨ وإسناده لا بأس به، لكن ليس في هذه الروايات نزول الآية.

سلّم عن يمينه، ثم ذهب يسلّم عن يساره فقبض الله روحه. ذكر ذلك كلّه يزيدُ بن أبي حبيب وغيرُه. ولم يُبايع لعليّ ولا لمعاوية رضـي الله عنهمـا. وكانت وفاته قبل ٱجتماع الناس على معاوية. وقيل: إنه تُوُفّي بإفريقِيّة. والصحيح أنه تُوُفِّيَ بعَسْقلان[1] سنة ست أو سبع وثلاثين. وقيل: سنة ست وثلاثين. وروى حفص بن عمر عن الحَكم بن أبَان عن عكرمة أن هذه الآية نزلت في النّضر بن الحارث؛ لأنه عارض القرآن فقال: والطاحنات طحناً. والعاجنات عجناً. فالخابزات خبزاً. فاللاقمات لقماً.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ أي شدائده وسكراته. والغَمْرة الشدّة؛ وأصلها الشيء الذي يغمُر الأشياء فيُغطّيها. ومنه غَمَرَه الماء. ثم وُضعت في معنى الشدائد والمكاره. ومنه غَمَرات الحرب. قال الجوهري: والغَمْرة الشدة، والجمع غُمَر مثل نَوبة ونُوَب. قال القُطَامِيّ يصف سفينة نوح عليه السلام:

* وحَـانَ لِتالِكَ الغُمَـرِ انْحِسَـارُ *

وغَمَراتُ الموت شدائده. ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ ابتداء وخبر. والأصل باسطون. قيل: بالعذاب ومَطارق الحديد؛ عن الحسن والضحاك. وقيل: لقبض أرواحهم؛ وفي التنزيل: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠] فجمعت هذه الآية القولين. يقال: بسط إليه يده بالمكروه. ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ أي خلصوها من العذاب إن أمكنكم، وهو توبيخ. وقيل: أخرجوها كرهاً؛ لأن روح المؤمن تَنْشَط للخروج للقاء ربه، وروح الكافر تُنْتَزع ٱنتزاعاً شديداً، ويقال:

[٢٩٣١] أيتها النفس الخبيثة ٱخرجي ساخطة مسخوطاً عليك إلى عذاب الله وَهَوانه؛ كذا جاء في حديث أبي هريرة وغيره. وقد أتينا عليه في كتاب «التذكرة»[2] والحمد لله. وقيل: هو بمنزلة قول القائل لمن يعذبه: لأذيقنّك العذاب ولأخرجنّ نفسك؛ وذلك لأنهم لا يخرجون أنفسهم بل يقبضها مَلَك الموت وأعوانه. وقيل: يقال هذا للكفار وهم في النار. والجواب محذوف لعظم الأمر؛ أي ولو رأيت الظالمين في هذه الحال لرأيت عذاباً عظيماً. والهون والهوان سواء. و﴿تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ أي تتعظّمون وتأنفون عن قبول آياته.

[٢٩٣١] صحيح. أخرجه ابن ماجه ٤٢٦٢ وأحمد ٢/ ٦٤ ـ ٢٨٨ ـ ٢٩٦ من حديث أبي هريرة من طرق بنحوه وأتم. وإسناده صحيح، وأصله عند مسلم ٢٨٧٢ من حديث أبي هريرة أيضاً.

---

(١) بلدة في فلسطين.

(٢) انظر تذكرة القرطبي ١/ ٧٢ ـ ٧٣.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ ﴾ هذه عبارة عن الحشر. و«فُرَادَى» في موضع نصب على الحال، ولم ينصرف لأن فيه ألفَ تأنيث. وقرأ أبو حَيْوة «فراداً» بالتنوين وهي لغة تميم، ولا يقولون في موضع الرفع فُرَادٌ. وحكى أحمد بن يحيى «فُرَادَ» بلا تنوين، قال: مثل ثلاث ورباع و«فُرادى» جمع فُرْدان كسُكارى جمع سكران، وكُسالى جمع كسلان. وقيل: واحده «فَرْد» بجزم الراء، «وفرِد» بكسرها، و«فرد» بفتحها، و«فرِيد». والمعنى: جئتمونا واحداً واحداً، كل واحد منكم منفرداً بلا أهل ولا مال ولا ولد ولا ناصر ممن كان يصاحبكم في الغَيّ، ولم ينفعكم ما عبدتم من دون الله. وقرأ الأعرج «فَرْدَى» مثل سكرى وكسلى بغير ألف. ﴿ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أي منفردين كما خُلقتم. وقيل: عُراة كما خرجتم من بطون أمهاتكم حُفاة غُرْلاً[1] بُهْماً ليس معهم شيء. وقال العلماء: يُحشر العبدُ غداً وله من الأعضاء ما كان له يومَ وُلد؛ فمن قُطع منه عضو يردّ في القيامة عليه. وهذا معنى قوله: «غُرْلاً» أي غير مختونين، أي يردّ عليهم ما قُطع منه عند الختان.

قوله تعالى: ﴿ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ ﴾ أي أعطيناكم وملّكناكم. والخَوَل: ما أعطاه الله للإنسان من العبيد والنعم. ﴿ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ أي خلفكم. ﴿ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ ﴾ أي الذين عبدتموهم وجعلتموهم شركاء ـ يريد الأصنام ـ أي شركائي. وكان المشركون يقولون: الأصنام شركاء الله وشفعاؤنا عنده. ﴿ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ قرأ نافع والكسائيّ وحَفْص بالنصب على الظرف، على معنى لقد تقطع وصلُكم بينكم. ودلّ على حذف الوصل قوله: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾. فدلّ هذا على التقاطع والتهاجر بينهم وبين شركائهم، إذ تبرءوا منهم ولم يكونوا معهم. ومقاطعتهم لهم هو تركهم وصلهم لهم؛ فحُسن إضمار الوصل بعد «تقطّع» لدلالة الكلام عليه. وفي حرف ابن مسعود ما يدلّ على النصب فيه «لقد تقطّع ما بينكم». وهذا لا يجوز فيه النصب، لأنك ذكرت المتقطّع وهو «ما». كأنه قال: لقد تقطّع الوصل بينكم. وقيل: المعنى لقد تقطّع الأمر بينكم. والمعنى متقارب. وقرأ الباقون «بَيْنُكُمْ» بالرفع على أنه اسم غير ظَرف، فأسنِد الفعل إليه فرُفع. ويقوّي جعل «بين» اسماً من جهة دخول حرف الجر عليه في قوله

---

(١) الغرل: هو الأقلف الذي لم يختن.

تعالى: ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ [فصلت: ٥] و﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ﴾ [الكهف: ٧٨]. ويجوز أن تكون قراءة النصب على معنى الرفع، وإنما نصب لكثرة استعماله ظرفاً منصوباً وهو في موضع رفع، وهو مذهب الأخفش؛ فالقراءتان على هذا بمعنى واحد، فٱقرأ بأيّهما شئت. ﴿وَضَلَّ عَنكُم﴾ أي ذهب. ﴿مَّا كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ٩٤﴾ أي تكذّبون به في الدنيا رُوي أن الآية نزلت في النضر بن الحارث. ورُوي أن عائشة رضي الله عنها قرأت قول الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾فقالت:

[٢٩٣٢]«يا رسول الله، وَاسَوْءتاه! إن الرجال والنساء يحشرون جميعاً، ينظر بعضهم إلى سَوْءة بعض؟ فقال رسول الله ﷺ: «لكل ٱمرىء منهم يومئذ شأنٌ يُغْنِيه، لا ينظر الرجال إلى النساء ولا النساء إلى الرجال شُغل بعضهم عن بعض». وهذا حديث ثابت في الصحيح أخرجه مسلم بمعناه.

قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٩٥﴾.

قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ﴾ عدّ من عجائب صنعه ما يعجز عن أدنى شيء منه آلهتهم. والفَلْق: الشق؛ أي يَشق النواة الميتةَ فيُخرج منها ورقاً أخضر، وكذلك الحبة. ويُخرج من الورق الأخضر نواة ميتة وحبّة؛ وهذا معنى يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي؛ عن الحسن وقتادة. وقال ابن عباس والضحاك: معنى فالق خالق. وقال مجاهد: عُني بالفلق الشقّ الذي في الحبّ وفي النّوَى. والنَّوَى جمع نواة، ويجري في كل ما له عَجَمٌ كالمشمش والخوخ. ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّۚ﴾ يُخرج البشر الحيَّ من النُّطْفة الميتة، والنطفةَ الميتةَ من البشر الحيّ؛ عن ابن عباس. وقد تقدّم قول قتادة والحسن. وقد مضى ذلك في «آل عمران». وفي صحيح مسلم عن عليّ:

[٢٩٣٢ م]«والذي فلق الحبة وبَرأ النَّسَمة إنه لَعَهد النبيّ الأميّ ﷺ إليّ أن لا يحبني إلى مؤمن ولا يبغضني إلا منافق». ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ﴾ابتداء وخبر. ﴿فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٩٥﴾فمن أين تصرفون عن الحق مع ما تَرون من قدرة الله جل وعز.

[٢٩٣٢] صحيح. أخرجه البخاري ٦٥٢٧ ومسلم ٢٨٥٩ والنسائي ٤/ ١١٤ من حديث عائشة بمعناه. وسياق المصنف عند الطبري ١٣٥٧٤.

[٢٩٣٢ م] أخرجه مسلم (٧٨) وتقدم.

قوله تعالى: ﴿ فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانًاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ﴾ نعتٌ لاسم الله تعالى، أي ذلكم الله ربكم فالق الإصباح. وقيل: المعنى إن الله فالق الإصباح. والصُّبح والصباح أوّلُ النهار، وكذلك الإصباح؛ أي فالق الصبح كلّ يوم، يريد الفجر. والإصباح مصدر أصبح. والمعنى: شاقّ الضياء عن الظلام وكاشفُه. وقال الضحاك: فالق الإصباح خالقُ النهار. وهو معرفة لا يجوز فيه التنوين عند أحد من النحويين. وقرأ الحسن وعيسى بن عمر «فالق الأَصْبَاحِ» بفتح الهمزة، وهو جمع صبح. وروى الأعمش عن إبراهيم النَّخَعِيّ أنه قرى «فلق الإصباحَ» على فَعَل، والهمزة مكسورة والحاء منصوبة. وقرأ الحسن وعيسى بن عمر وحمزة والكسائي ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا﴾ بغير ألف. ونصب «الليل» حملاً علىٰ معنىٰ «فالق» في الموضعين، لأنه بمعنى فلق، لأنه أمْرٌ قد كان فحُمِل على المعنىٰ. وأيضاً فإن بعده أفعالاً ماضية هو قوله: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ﴾ ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ فحمِل أوّل الكلام على آخره. يقوّي ذلك إجماعُهم على نصب الشمس والقمر على إضمار فِعل، ولم يحملوه على فاعل فيخفِضوه؛ قاله مكيّ رحمه الله. وقال النحاس: وقد قرأ يزيد بن قطيب السَّكُوني «وجاعِلُ الليلِ سكناً والشمسِ والقمرِ حُسباناً» بالخفض عطفاً على اللفظ.

قلت: فيريد مكيّ والمَهْدَويّ وغيرهما إجماع القراء السبع. والله أعلم. وقرأ يعقوب في رواية رُوَيْس عنه «وجاعِلُ الليلِ ساكِناً». وأهل المدينة «وجاعِلُ اللَّيْلِ سَكَنا» أي محلاً للسكون. وفي الموطأ عن يحيى بن سعيد أنه بلغه أن رسول الله ﷺ كان يدعو فيقول:

[٢٩٣٣] «اللَّهُمَّ فالقَ الإصباح وجاعلَ الليل سَكَنا والشمسَ والقمر حُسباناً أقضِ عني الدَّيْن وأغْنِنِي من الفقر وأمْتعني بسمعي وبصرِي وقوّتي في سبيلك». فإن قيل: كيف قال «وأمتعني بسمعي وبصرِي» وفي كتاب النسائيّ والترمذيّ وغيرهما:

[٢٩٣٤] «واجعله الوارث منّي» وذلك يفنَى مع البدن؟ قيل له: في الكلام تجوزٌ،

[٢٩٣٣] صحيح. هو في الموطأ (٤٩٣) باب (٨) وأخرجه ابن أبي شيبة ٧/ ٢٥/ ٨ عن مسلم بن يسار وهذا مرسل يعضد مرسل يحيىٰ بن سعيد عند مالك.
وهو عند الديلمي ١٩٨٩ من حديث أبي سعيد لكن ضعفه العراقي، ولبعضه شواهد ومنها الآتي، وانظر صحيح مسلم ٢٧١٣.

[٢٩٣٤] أخرجه الترمذي ٣٤٨٠ من حديث عائشة، وأعله بالانقطاع بين عروة وحبيب بن أبي ثابت، وورد من وجه آخر. أخرجه ابن السني ٧٣٤ من حديث عائشة، وفيه أبو المقدام متروك، وقد ضعفه الحافظ انظر نتائج =

والمعنى: اللّهمّ لا تعدمه قبلي. وقد قيل: إن المراد بالسمع والبصر هنا أبو بكر وعمر؛ لقوله عليه السلام فيهما:

[٢٩٣٥] «هما السمع والبصر». وهذا تأويل بعيد، إنما المراد بهما الجارحتان. ومعنى ﴿حُسْبَانًا﴾ أي بحساب تتعلّق به مصالح العباد. وقال ابن عباس في قوله جل وعز: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ أي بحساب. الأخفش: حُسبان جمع حساب، مثل شِهاب وشُهبان. وقال يعقوب: حُسبان مصدر حَسَبْت الشيء أحسُبه حُسباناً وحِساباً وحِسْبة، والحساب الاسم. وقال غيره: جعل الله تعالى سير الشمس والقمر بحساب لا يزيد ولا ينقص؛ فدلّهم الله عز وجل بذلك على قدرته ووحدانيته. وقيل: «حُسْباناً» أي ضياء والحسبان: النار في لغة؛ وقد قال الله تعالى: ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الكهف: ٤٠]. قال ابن عباس: ناراً. والحُسْبانة: الوِسادة الصغيرة.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ﴾ بين كمال قدرته، وفي النجوم منافع جَمّة. ذكر في هذه الآية بعض منافعها، وهي التي ندَب الشرع إلى معرفتها؛ وفي التنزيل: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾﴾ [الصافات: ٧]. ﴿وَجَعَلْنَـٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَـٰطِينِ﴾ [الملك: ٥]. و«جعل» هنا بمعنى خلق. ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ أي بيّناها مفصّلة لتكون أبلغ في الاعتبار. ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ خصهم لأنهم المنتفعون بها.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ يريد آدم عليه السلام. وقد تقدّم في أوّل السورة. ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ قرأ ابن عباس وسعيد بن جُبير والحسن وأبو عمرو وعيسى والأعرج وشَيْبة والنَّخَعِيّ بكسر القاف، والباقون بفتحها. وهي في موضع رفع بالابتداء، إلا أن التقدير فيمن كسر القاف فمنها «مستقِر» والفتح بمعنى لها «مستقَر». قال عبد الله بن

= الأفكار لوحة (١٩٩) وصدره «اللهم أمتعني بسمعي وبصري واجعلهما الوارث مني ..». الحديث.

[٢٩٣٥] أخرجه الحاكم ٣/ ٦٩/ ٤٤٣٢ من حديث عبد الله بن حنطب، وصححه الحاكم، وقال الذهبي: حسن اهـ مع أن عبد الله بن حنطب مختلف في صحبته كما في «التقريب» وخرجه الترمذي ٣٦٧١ وقال: هو مرسل.

مسعود: فلها مستقر في الرَّحِم ومستودَع في الأرض التي تموت فيها؛ وهذا التفسير يدلّ على الفتح. وقال الحسن: فمستقر في القبر. وأكثر أهل التفسير يقولون: المستقرّ ما كان في الرحم، والمستودَع ما كان في الصُّلْب؛ رواه سعيد بن جُبير عن ابن عباس، وقاله النَّخَعيّ. وعن ابن عباس أيضاً: مستقرّ في الأرض، ومستودع في الأصلاب. قال سعيد بن جبير: قال لي ابن عباس هل تزوّجت؟ قلت لا؛ فقال: إن الله عز وجل يستخرج من ظهرك ما استودعه فيه. وروي عن ابن عباس أيضاً أن المستقر مَن خُلق، والمستوع من لم يُخلق؛ ذكره المَاوَرْدِي. وعن ابن عباس أيضاً: ومستودع عند الله.

قلت: وفي التنزيل: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾[البقرة: ٣٦] والاستيداع إشارة إلى كونهم في القبر إلى أن يُبعثوا للحساب، وقد تقدّم في البقرة. ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾ قال قتادة: «فصلنا» بينا وقررنا. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

فيه سبع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي المطر. ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي كل صِنف من النبات. وقيل: رزق كل حيوان. ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾ قال الأخفش: أي أخضر؛ كما تقول العرب: أرِينها نمرة أركْها[1] مَطِرَة. والخضِر[2] رطب البقول. وقال ابن عباس: يريد القمح والشعير والسُّلت[3] والذّرة والأرز وسائر الحبوب. أي يُركّب بعضه على بعض كالسنبلة.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ ابتداء وخبر. وأجاز الفرّاء في غير القرآن «قِنْواناً دانيةً» على العطف على ما قبله. قال سيبويه: ومن العرب من يقول: قُنوان. قال الفرّاء: هذه لغة قيس، وأهل الحجاز يقولون: قِنوان، وتميم يقولون: قنيان؛ ثم يجتمعون في الواحد فيقولون: قِنْوٌ وقَنْوٌ. والطَّلْع الكُفُرَّى قبل أن ينشق عن

---

(١) النمر من السحاب: هو القطع الصغار تشبه النَّمِر.
(٢) الخضر: المادة الخضراء وهي مادة الحياة للنبات.
(٣) السُّلْت: ضرب من الشعير أبيض لا قشر له.

الإغريض. والإغريض يسمى طلعاً أيضاً. والطلع؛ ما يُرى من عِذْق النخلة. والقِنوان: جمع قِنو، وتثنيته قِنْوان كصِنو وصِنوانِ (بكسر النون). وجاء الجمع على لفظ الاثنين. قال الجوهري وغيره: الاثنان صِنوانِ والجمع صنوانُ (برفع النون). والقِنْو: العذْق والجمع القِنوان والأقناء؛ قال:

* طويلة الأَقْنـاء والأثاكِـلِ[1] *

غيره: «أقناء» جمع القلة. قال المهدوِيّ: قرأ ابن هُرْمز «قَنوان» بفتح القاف، وروي عنه ضمها. فعلى الفتح هو اسم للجمع غير مُكَسّر، بمنزلة ركب عند سيبويه، وبمنزلة الباقِر والْجَامِل؛ لأن فعلان ليس من أمثلة الجمع، وضمّ القاف على أنه جمع قِنو وهو العِذق (بكسر العين) وهي الكباسة، وهي عنقود النخلة. والعَذْق (بفتح العين) النخلة نفسُها. وقيل: القِنوان الجُمّار. ﴿دَانِيَةٌ﴾ قريبة، ينالها القائم والقاعد. عن ابن عباس والبَرَاء بن عازب وغيرهما. قال الزجاج: منها دانِية ومنها بعيدة؛ فحذف؛ ومثله ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]. وخصّ الدانية بالذكر، لأن من الغرض في الآية ذكر القدرة والامتنان بالنعمة، والامتنانُ فيما يقربُ متناوَلُه أكثر.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ أي وأخرجنا جنات. وقرأ محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى والأعمش، وهو الصحيح من قراءة عاصم «وجناتٌ» بالرفع. وأنكر هذه القراءةَ أبو عبيد وأبو حاتم، حتى قال أبو حاتم: هي محال؛ لأن الجنات لا تكون من النخل. قال النحاس: والقراءة جائزة، وليس التأويل على هذا، ولكنه رفع بالابتداء والخبرُ محذوف، أي ولهم جنات. كما قرأ جماعة من القرّاء ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾[الواقعة: ٢٢] وأجاز مثل سيبويه والكِسائيّ والفرّاء، ومثله كثير. وعلىٰ هذا أيضاً «وحُور عِينا» حكاه سيبويه، وأنشد:

جِئْنِي بمثـلِ بنِـي بَـدْرٍ لقـومهـم ... أو مثلَ أُسْرةِ مَنْظورِ بن سيّارِ[2]

وقيل: التقدير ﴿وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾أخرجناها، كقولك: أكرمت عبد الله وأخوه، أي وأخوه أكرمت أيضاً فأمّا الزيتون والرمّان فليس فيه إلاّ النصب للإجماع علىٰ ذلك. وقيل: ﴿وَجَنَّٰتٍ﴾ بالرفع عطف علىٰ ﴿قِنْوَانٌ﴾لفظاً وإن لم تكن في المعنىٰ من جنسها. ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ أي متشابهاً في الأوراق، أي الزيتون يُشبه ورق الرمان في

(١) جمع إثكال. ويقال: عثكال وهو عود النخل.
(٢) البيت لجرير يخاطب الفرزدق.

اشتماله علىٰ جميع الغُصْن وفي حجم الورق، وغير متشابه في الذَّواق، عن قتادة وغيره. قال ابن جُريج: ﴿مُشْتَبِهًا﴾ في النظر ﴿وَغَيْرَ﴾ في الطعم، مثل الرمّانتين لونهما واحد وطعمهما مختلف. وخصّ الرمان والزيتون بالذِّكر لقربهما منهم ومكانهما عندهم. وهو كقوله: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾ [الغاشية: ١٧]. ردّهم إلى الإبل لأنها أغلب ما يعرفونه.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾ أي نظر الاعتبار لا نظر الإبصار المجرَّد عن التفكُّر. وٱلثمر في اللغة جَنَى الشجر. وقرأ حمزة والكسائيّ «ثُمُره» بضم الثاء والميم. والباقون بالفتح فيهما جمع ثَمَرة، مثل بَقَرة وبقر وشجرة وشجر. قال مجاهد: الثُّمُر أصناف المال، والثَّمَر[1] ثمر النخل. وكأنَّ المعنىٰ على قوله مجاهد: ٱنظروا إلى الأموال التي يتحصل منه الثمر؛ فالثُّمُر بضمتين جمع ثمار وهو المال المُثَمَّر. وروي عن الأعمش «ثُمْره» بضم الثاء وسكون الميم؛ حذفت الضمة لثقلها طلباً للخفة. ويجوز أن يكون ثُمْر جمع ثَمَرة مثلُ بدَنَة وبُدْن. ويجوز أن يكون ثُمُر جمع جمع، فتقول: ثمرة وثمار وثمر مثل حمار وحمر. ويجوز أن يكون جمع ثمرة كخشبة وخُشُب لا جمع الجمع.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَيَنْعِهِۦٓ﴾ قرأ محمد بن السَّمَيْقَع «ويانعه». وٱبن مُحَيْصِن وٱبن أبي إسحاق «ويُنْعِه» بضم الياء. قال الفرّاء: هي لغة بعضِ أهل نجد؛ يقال: يَنَعَ الثمر يَيْنَع، والثمر يانع. وأينع يونع والتمر مُونِع. والمعنى ونُضْجِه. يَنَع وأينع إذا نَضِج وأدرك. وقال الحجاج في خطبته: أرى رؤوساً قد أيْنَعَتْ وحان قِطافها. قال ابن الأنباريّ: اليَنْع جمع يانع، كراكب ورَكْب، وتاجر وتَجْر، وهو المدرك البالغ. وقال الفرّاء: أَيْنع أكثرُ من يَنَع، ومعناه أحمر؛ ومنه ما روي في حديث المُلاَعَنة:

[٢٩٣٦] «إن ولدته أحمر مثل اليَنَعة» وهي خرزة حمراة، يقال: إنه العقيق أو نوع منه. فدلت الآية لمن تدبر ونظر ببصره وقلبه، نظر من تفكّر، أن المتغيّرات لا بدّ لها من مغيّر؛ وذلك أنه تعالى قال: ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾. فتراه أوّلا طَلْعا ثم إغْريضاً إذا انشق عنه الطَّلْعُ. والإغريض يُسَمّى ضَحْكاً أيضاً، ثم بلحاً، ثم سَيَاباً، ثم جَدَالاً إذا ٱخضرّ واستدار قبل أن يشتدّ، ثم بُسْراً إذا عظم، ثم زَهْواً إذا ٱحمرّ؛ يقال: أزهى يُزهِي، ثم مُوَكِّتاً إذا بدت فيه نقط من الإرطاب. فإن كان ذلك من قِبَل الذَّنَب فهي

[٢٩٣٦] مضىٰ في سورة البقرة:

---

(١) وقع في الأصل «الثّمَر» والتصويب عن الطبري ١٣٦٧٦ والماوردي ٢/ ١٥٠.

مُذَنِّبَة، وهو التَّذْنُوب، فإذا لانت فهي ثَعْدة، فإذا بلغ الإرطاب نصفها فهي مُجَزَّعة، فإذا بلغ ثلثيها فهي حُلْقَانة، فإذا عَمّها الإرطاب فهي مُنْسَبِتَة؛ يقال: رطب مُنْسَبِت، ثم ييبس فيصير تمراً. فنبّه الله تعالى بانتقالها من حال إلى حال وتغيُّرها ووجودها بعد أن لم تكن على وحدانيته وكمال قدرته. وأن لها صانعاً قادراً عالماً. ودلّ على جواز البعث؛ لإيجاد النبات بعد الجفاف. قال الجَوْهَرِيّ: يَنَع الثمر يَيْنَع ويَيْنِع يَنْعاً ويُنْعاً ويُنُوعاً، أي نَضِجَ.

السادسة: قال ابن العربيّ: قال مالك: الإيناع الطِّيب بغير فساد ولا نقش. قال مالك: والنّقش أن يَنْقُش أهلُ البصرة الثمَر حتى يُرْطب؛ يريد يُثقب فيه بحيث يُسرع دخولُ الهواء إليه فيرطب معجّلاً. فليس ذلك اليَنْع المراد في القرآن، ولا هو الذي ربط به رسول الله ﷺ البيع، وإنما هـــو ما يكون من ذاته بغير محاولة. وفي بعض بلاد التِّين، وهي البلاد الباردة، لا يَنْضُج حتى يُدخَل في فمه عُود قد دُهن زيتاً، فإذا طاب حلّ بيعه؛ لأن ذلك ضرورة الهواء وعادةُ البلاد، ولولا ذلك ما طاب في وقت الطِّيب.

قلت: وهذا اليَنْع الذي يقف عليه جواز بيع التمر وبه يطيب أكلها ويأمن من العاهة، هو عند طلوع الثُّرَيّا بما أجرى الله سبحانه من العادة وأحكمه من العلم والقدرة. ذكر المُعَلَّى بن أسد عن وهيب عن عِسْل بن سفيان عن عطاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

[٢٩٣٧] «إذا طلعت الثُّرَيّا صباحاً رُفعت العاهة عن أهل البلد». والثريا النجم، لا خلاف في ذلك. وطلوعها صباحاً لاثنتي عشرة ليلة تمضي من شهر أيار، وهو شهر مايه. وفي البخاريّ[١]: وأخبرني خارجة بن زيد بن ثابت أن زيد بن ثابت لم يكن يبيع ثمار أرضه حتى تطلع الثُّرَيّا فيتبين الأصفرُ من الأحمر.

السابعة: وقد استدلّ من أسقط الجوائح[٢] في الثمار بهذه الآثار، وما كان مثلها من

[٢٩٣٧] حسن. أخرجه أحمد ٣٨٨/٢ والبزار ١٢٩٢ من حديث أبي هريرة. وقال في المجمع ٦٤٩٢: فيه عِسل بن سفيان وثقه ابن حبان وضعفه جماعة، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح اهـ وتابعه أبو حنيفة على عطاء عند الطبراني في الصغير ١٠٤ فالحديث حسن إن شاء الله، والحديث في مسند أبي حنيفة ص ٦٧.

---

(١) خارجة بن زيد تابعي فقوله «أخبرني» هو معطوف على إسناد قبله، وهو الليث عن أبي الزناد عن خارجة عن زيد.

(٢) قال في المختار ص ٤٩ في مادة جوح: جاح الشيء: استأصله الجائحة هي الشدة التي تجتاح المال وأجاحه بمعنىٰ أهلكه بالجائحة.

نهيه عليه السلام عن بيع الثمرة حتى يَبْدُوَ صلاحها، وعن بيع الثمار حتى تذهب العاهة. قال عثمان بن سُراقة: فسألت ابن عمر متى هذا؟ فقال: طلوع الثريا. قال الشافعيّ: لم يثبت عندي أن رسول الله ﷺ أمر بوَضْع الجوائح، ولو ثبت عندي لم أعْدُه، والأصل المجتمَع عليه أن كل من ابتاع ما يجوز بيعه وقبضه كانت المصيبة منه، قال: ولو كنت قائلاً بوضع الجوائح لوضعتها في القليل والكثير. وهو قول الثَّوْرِيّ والكوفيين. وذهب مالك وأكثر أهل المدينة إلى وضعها؛ لحديث جابر:

[٢٩٣٨] أن رسول الله ﷺ أمر بوضع الجوائح. أخرجه مسلم. وبه كان يقضي عمر بن عبد العزيز، وهو قول أحمد بن حنبل وسائر أصحاب الحديث. وأهل الظاهر وضعوها عن المبتاع في القليل والكثير على عموم الحديث؛ إلا أن مالكاً وأصحابه اعتبروا أن تبلغ الجائحة ثلث الثمرة فصاعداً، وما كان دون الثلث ألغوه وجعلوه تَبَعاً، إذ لا تخلو ثمرة من أن يتعذّر القليل من طِيبها وأن يلحقها في اليسير منها فساد. وكان أصْبَغ وأشهب لا ينظران إلى الثمرة ولكن إلى القيمة، فإذا كانت القيمة الثلث فصاعداً وضع عنه. والجائحة ما لا يمكن دفعه عند ابن القاسم. وعليه فلا تكون السرقة جائحة، وكذا في كتاب محمد. وفي الكتاب أنه جائحة، وروي عن ابن القاسم، وخالفه أصحابه والناس. وقال مُطَرِّف وابن الماجِشون: ما أصاب الثمرة من السماء من عَفَن أو برد، أو عطش أو حرٍّ أو كسر الشجر بما ليس بصنع آدمي فهو جائحة. واختُلف في العطش؛ ففي رواية ابن القاسم هو جائحة. والصحيح في البقول أنها فيها جائحة كالثمرة. ومن باع ثمراً قبل بدو صلاحه بشرط التبقية فُسخ بيعه وردّ؛ للنهي عنه، ولأنه من أكل المال بالباطل؛ لقوله عليه السلام:

[٢٩٣٩] «أرأيت إن منع الله الثمرة فبِم يأخذ أحدكم مال أخيه بغير حق»؟ هذا قول الجمهور، وصححه[1] أبو حنيفة وأصحابه وحملوا النهي على الكراهة. وذهب الجمهور إلى جواز بيعها قبل بَدْو الصلاح بشرط القطع. ومنعه الثَّوْرِيّ وابن أبي لَيْلَى تمسُّكاً بالنهي الوارد في ذلك. وخصّصه الجمهور بالقياس الجلِيّ؛ لأنه مبيع معلوم يصحّ قبضه حالة العقد فصحّ بيعه كسائر المبيعات.

[٢٩٣٨] صحيح. أخرجه مسلم ١٥٥٤ من حديث جابر.

[٢٩٣٩] أخرجه البخاري ١٤٨٨ و ٢١٩٨ ومسلم ١٥٥٥ ومالك ٢/٦١٨ والشافعي ٢/١٤٨ وأحمد ٣/١١٥ من حديث أنس وله قصة.

---

(١) أي صححوا العقد مع الكراهة.

قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ ﴾ هذا ذِكر نوع آخر من جهالاتهم، أي فيهم من ٱعتقد لله شركاء من الجِن. قال النحاس: «الجن» مفعول أوّل، و«شركاء» مفعول ثان؛ مثل ﴿ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا ﴾ [المائدة: ٢٠]. ﴿ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ ﴾ [المدثر: ١٢]. وهو في القرآن كثير. والتقدير: وجعلوا لله الجن شركاء. ويجوز أن يكون «الجن» بدلاً من شركاء، والمفعول الثاني «لله». وأجاز الكِسائيّ رفع «الجن» بمعنى هم الجن. ﴿ وَخَلَقَهُمْ ﴾ كذا قراءة الجماعة، أي خلق الجاعلين له شركاء. وقيل: خلق الجن الشركاء. وقرأ ٱبن مسعود «وهو خلقهم» بزيادة هو. وقرأ يحيى بن يَعْمَر «وخلْقهم» بسكون اللام، وقال: أي وجعلوا خلقهم لله شركاء؛ لأنهم كانوا يخلقون الشيء ثم يعبدونه. والآية نزلت في مشركي العرب. ومعنى إشراكهم بالجن أنهم أطاعوهم كطاعة الله عز وجل؛ رُوي ذلك عن الحسن وغيره. قال قَتادة والسُّدّيّ: هم الذين قالوا الملائكةُ بنات الله. وقال الكلبيّ: نزلت في الزنادقة، قالوا: إن الله وإبليس أخوان؛ فالله خالق الناس والدواب، وإبليس خالق الجان والسباع والعقارب. ويقرب من هذا قول المجوس، فإنهم قالوا: للعالَم صانعان: إله قديم، والثاني شيطان حادث من فكرة الإلٰه القديم؛ وزعموا أن صانع الشر حادث. وكذا الحائطية من المعتزلة من أصحاب أحمد بن حائط، زعموا أن للعالَم صانعين: الإلٰه القديم، والآخر محدث، خلقه الله عز وجل أوّلاً ثم فوّض إليه تدبير العالم؛ وهو الذي يحاسب الخلق في الآخرة. تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون عُلُوًّا كبيراً. ﴿ وَخَرَّقُواْ ﴾ قراءة نافع بالتشديد على التكثير؛ لأن المشركين ٱدّعوا أن لله بنات وهم الملائكة، وسَمَّوهم جِنًّا لاجتنانهم. والنصارى ٱدّعت المسيح ٱبنَ الله. واليهود قالت: عزير ٱبن الله، فكثُر ذلك من كفرهم؛ فشُدّد الفعل لمطابقة المعنى. تعالى الله عما يقولون. وقرأ الباقون بالتخفيف على التقليل. وسئل الحسن البصريّ عن معنى «وخرّقوا له» بالتشديد فقال: إنما هو «وخَرَقوا» بالتخفيف، كلمة عربية، كان الرجل إذا كذب في النادي قيل: خَرَقها وربِّ الكعبة. وقال أهل اللغة: معنى «خَرقوا» اختلقوا وافتعلوا «وخرّقوا» على التكثير. قال مجاهد وقَتادة وابن زيد وابن جُريج: «خرقوا» كذبوا. ويقال: إن معنى خرق واخترق واختلق سواء؛ أي أحدث.

قوله تعالى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي مبدعهما؛ فكيف يجوز أن يكون له ولد. و«بَدِيعُ» خبر ابتداء مضمر أي هو بديع. وإجاز الكِسائيّ خفضه على النعت لِلّه عز وجل، ونصبه بمعنى بديعاً السموات والأرض. وذا خطأ عند البصريين لأنه لِما مضى[1]. ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ ﴾ أي من أين يكون له ولد. وولد كل شيء شبيهه، ولا شبيه له. ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ﴾ أي زوجة. ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ عموم معناه الخصوص؛ أي خلق العالم. ولا يدخل في ذلك كلامه ولا غيره من صفات ذاته. ومثله ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٥٦] ولم تسع إبليس ولا من مات كافراً. ومثله ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأحقاف: ٢٥] ولم تدمر السموات والأرض.

قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ «ذلكم» في موضع رفع بالابتداء. «اللَّهُ رَبُّكُمْ» على البدل. ﴿ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ خبر الابتداء. ويجوز أن يكون «ربكم» الخبر، و«خالق» خبراً ثانياً، أو على إضمار مبتدأ، أي هو خالق. وأجاز الكسائيّ والفراء فيه النصب.

قوله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ بيّن سبحانه أنه منزه عن سِمات الحدوث، ومنها الإدراك بمعنى الإحاطة والتحديد، كما تدرك سائر المخلوقات، والرؤية ثابتة. فقال الزجاج: أي لا يبلغ كُنْه حقيقته؛ كما تقول: أدركت كذا وكذا؛ لأنه قد صحّ عن النبيّ ﷺ الأحاديث في الرؤية يوم القيامة. وقال ٱبن عباس: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ في الدنيا، ويراه المؤمنون في الآخرة؛ لإخبار الله بها في قوله: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣] وقال السُّدِّي. وهو أحسن ما قيل لدلالة التنزيل والأخبار الواردة برؤية الله في الجنة وسيأتي بيانه في «يونس». وقيل: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ لا تحيط به وهو يحيط بها، عن ٱبن عباس أيضاً. وقيل: المعنى لا تدركه أبصار القلوب، أي لا تدركه العقول فتتوهمه؛ إذ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾ [الشورى: ١١]. وقيل: المعنى لا تدركه الأبصار المخلوقة في الدنيا، لكنه يخلق لمن يريد كرامته

(١) اسم الفاعل يعمل عمل فعله إن كان لأل مطلقاً، وإلاّ عمل بشرطين: أن يكون بمعنىٰ الحال أو الاستقبال، وهذا عند البصريين.

بصراً وإدراكاً يراه به كمحمد عليه السلام؛ إذ رؤيته تعالى في الدنيا جائزةٌ عقلاً، إذ لو لم تكن جائزةً لكان سؤال موسى عليه السلام مستحيلاً، ومحالٌ أن يجهل نبيّ ما يجوز على الله وما لا يجوز، بل لم يسأل إلا جائزاً غير مستحيل. وٱختلف السلف في رؤية نبينا عليه السلام ربّه، ففي صحيح مسلم عن مسروق قال:

[٢٩٤٠] كنت متكئاً عند عائشة، فقالت: يا أبا عائشة[1] ثلاثٌ من تكلّم بواحدة منهنّ فقد أعظم على الله الْفِرْية. قلت: ما هنّ؟ قالت: من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفِرية. قال: وكنت متكئاً فجلست فقلت: يا أمّ المؤمنين، أنْظِريني ولا تُعْجِليني، ألم يَقُل الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾ [التكوير: ٢٣]. ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾؟[النجم: ١٣] فقالت: أنا أوّل هذه الأمة سأل عن ذلك رسولَ الله ﷺ فقال: «إنما هو جبريل لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين: رأيته منهبطاً من السماء ساداً عِظم خلقه ما بين السماء والأرض». فقالت: أو لم تسمع أن الله عز وجل يقول: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾؟ أو لم تسمع أن الله عز وجل يقول: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا ـ إلى قوله ـ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾؟ [الشورى: ٥١] قالت: ومن زعم أنْ رسول الله ﷺ كتم شيئاً من كتاب الله فقد أعظم على الله الْفِرْيَةَ، والله تعالى يقول: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧] قالت: ومن زَعم أنه يُخبر بما يكون في غدٍ فقد أعظم على الله الْفِرْية، والله تعالى يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].

وإلى ما ذهبت إليه عائشة رضي الله عنها من عدم الرؤية، وأنه إنما رأى جبريل: ابن مسعود، ومثله عن أبي هريرة رضي الله عنه، وأنه إنما رأى جبريل، وٱختلف عنهما. وقال بإنكار هذا وٱمتناع رؤيته جماعةٌ من المحدّثين والفقهاء والمتكلّمين. وعن ٱبن عباس أنه رآه بعينيه[1]؛ هذا هو المشهور عنه. وحجته قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾﴾

[٢٩٤٠] أخرجه مسلم ١٧٧ وغيره، وقد تقدم.

---

(١) كنية مسروق بن الأجدع.

(٢) ليس كما قال المصنف، والراجح عن ابن عباس هو ما أخرجه مسلم ١٧٦ ح ٢٨٤ و٢٨٥ بإسنادين عن ابن عباس قال: رَآه بقلبه» والفصل في هذا ما أخرجه مسلم ١٧٨ عن أبي ذر قال: «سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك؟ =

[النجم: ١١] وقال عبد الله بن الحارث: ٱجتمع ٱبن عباس وكعب الأحبار(*)، فقال ٱبن عباس: أما نحن بنو هاشم فنقول إن محمداً رأى ربّه مرتين. ثم قال ٱبن عباس: أتعجبون أن الخَلّة تكون لإبراهيم والكلام لموسى، والرؤية لمحمد ﷺ وعليهم أجمعين. قال: فكبّر كعب حتى جاوبته الجبال، ثم قال: إن الله قسّم رؤيته وكلامه بين محمد وموسى عليهما السلام، فكّلم موسىٰ ورآه محمد ﷺ. وحكىٰ عبد الرزّاق: أن الحسن كان يحلف بالله لقد رأى محمد ربّه. وحكاه أبو عمر الطَّلَمَنْكيّ عن عِكرمة، وحكاه بعض المتكلمين عن ٱبن مسعود، والأوّل عنه أشهر. وحكى ٱبن إسحاق أن مروان سأل أبا هريرة: هل رأى محمد ربّه؟ فقال: نعم. وحكى النقاش(١) عن أحمد بن حنبل أنه قال: أنا أقول بحديث ٱبن عباس: بعينه رآه رآه! حتى ٱنقطع نفسه، يعني نفس أحمد. وإلى هذا ذهب الشيخ أبو الحسن الأشعريّ وجماعة من أصحابه أن محمداًﷺ، رأىٰ الله ببصره وعيني رأسه. وقاله أنس وٱبن عباس وعكرمة والربيع والحسن. وكان الحسن يحلف بالله الذي لا إلٰه إلا هو لقد رأى محمد ربّه. وقال جماعة منهم أبو العالِية والقُرَظِيّ والربيع بن أنس: إنه إنما رأى ربّه بقلبه وفؤاده؛ وحكى عن ٱبن عباس أيضاً وعكرمة. وقال أبو عمر: قال أحمد بن حنبل رآه بقلبه، وجَبُنَ عن القول برؤيته في الدنيا بالأبصار. وعن مالك بن أنس قال: لم يُرَ في الدنيا؛ لأنه باق ولا يُرَى الباقي بالفاني، فإذا كان في الآخرة ورُزقوا أبصاراً باقية رأوا الباقي بالباقي. قال القاضي عِياض: وهذا كلام حسن مليح، وليس فيه دليل على الاستحالة إلا من حيث ضعف القدرة؛ فإذا قوّى الله تعالى من شاء من عباده وأقدره على حمل أعباء الرؤية لم يمتنع في حقّه. وسيأتي شيء من هذا في حق موسى عليه السلام في «الأعراف» إن شاء الله.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ أي لا يخفى عليه شيء إلا يراه ويعلمه. وإنما خصّ «الأبصار» لتجنيس الكلام. وقال الزجاج: وفي هذا الكلام دليل على أن الخلق لا يُدركون الأبصار؛ أي لا يعرفون كيفية حقيقةِ البصر، وما الشيء الذي صار به الإنسان يُبصر من عينيه دون أن يبصر من غيرهما من سائر أعضائه. ثم قال: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ

= قال: نور أنىٰ أراه وكرره ح ٢٩٢ عن أبي ذر مرفوعاً «رأيت نوراً» فهذا الذي صح عن رسول الله ينبغي المصير إليه، وهو يعضد ما ذهبت إليه عائشة وأبو هريرة. فالوارد عن أبي هريرة في ذلك عند مسلم ١٧٥ والله أعلم.

(١) هذا لا يصح عن أحمد، والنقاش متهم كما في الميزان للذهبي، والذي صح عن ابن عباس ما رواه مسلم وتقدم آنفاً، والله تعالىٰ أعلم.

(*) وقع في النسخ «وأبي بن كعب» وهو سبق قلم من المصنف، والمثبت هو الصواب.

﴿ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ أي الرفيق بعباده؛ يقال: لَطَف فلان بفلان يَلْطُف، أي رفق به. واللطف في الفعل الرفْقُ فيه. واللُّطف من الله تعالى التوفيق والعِصمة. وألطفه بكذا، أي بَرّه به. والاسم اللَّطف بالتحريك. يقال: جاءتنا من فلان لَطَفة؛ أي هَدِيّة. والملاطفة المبارّة؛ عن الجوهري وٱبنِ فارس. قال أبو العالية: المعنى لطيف باستخراج الأشياء خبيرٌ بمكانها. وقال الجُنَيد: اللّطيف من نوّر قلبك بالهدى، ورَبَّى جسمك بالغذا، وجعل لك الولاية في البَلْوَى، ويحرسُك وأنت في لظى، ويدخلك جنة المَأْوى. وقيل غير هذا، مما معناه راجع إلى معنى الرفق وغيرهِ. وسيأتي ما للعلماء من الأقوال في ذلك في «الشُّوَرى» إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي آيات وبراهين يُبْصَر بها ويُستدَلّ؛ جمع بصيرة وهي الدّلالة. قال الشاعر[1]:

جـاءوا بصـائـرهُـم علـى أكتـافهـم   وبصيـرتـي يَعْـدُو بهـا عَتَـدٌ وَآي

يعني بالبصيرة الحجة البينة الظاهرة. ووصف الدلالة بالمجيء لتفخيم شأنها؛ إذ كانت بمنزلة الغائب المتوقع حضوره للنفس؛ كما يقال: جاءت العافية وقد ٱنصرف المرض، وأقبل السعود وأدبر النحوس. ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ﴾ الإبصار: هو الإدراك بحاسة البصر؛ أي فمن ٱستدل وتعرّف فنفسه نفع. ﴿وَمَنْ عَمِىَ﴾ لم يستدل، فصار بمنزلة الأعمى؛ فعلى نفسه يعود ضرر عماه. ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾ أي لم أومر بحفظكم على أن تهلكوا أنفسكم. وقيل: أي لا أحفظكم من عذاب الله. وقيل: «بِحَفِيظٍ» برقيب؛ أحصِي عليكم أعمالكم، وإنما أنا رسول أبلّغكم رسالات ربّي، وهو الحفيظ عليكم لا يخفى عليه شيء من أفعالكم. قال الزجاج: نزل هذا قبل فرض القتال، ثم أمر أن يمنعهم بالسيف من عبادة الأوثان.

قـولـه تعـالـى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ الكاف افي «كذلك» في موضع نصب؛ أي نصرف الآيات مثل ما تلونا عليك. أي كما صرفنا الآيات في الوعد والوعيد والوعظ

(١) البيت للأسعر الجعفي، العتد: الفرس السريع والوثب، الوآي: الفرس السريع.

والتّنبيه في هذه السورة نصرف في غيرها. ﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ﴾ الواو للعطف على مضمر؛ أي نصرف الآيات لتقوم الحجة وليقولوا درست. وقيل: أي «وليقولوا درست» صرفناها؛ فهي لام الصيرورة. وقال الزجاج: هذا كما تقول كتب فلان هذا الكتاب لحتفه؛ أي آل أمره إلى ذلك. وكذا لما صرفت الآيات آل أمرهم إلى أن قالوا: درست وتعلمت من جَبْر ويَسَار، وكانا غلامين نصرانيين بمكة، فقال أهل مكة: إنما يتعلم منهما. قال النحاس: وفي المعنى قول آخر حسن، وهو أن يكون معنى «نُصَرِّفُ الآيَاتِ» نأتي بها آية بعد آيةٍ ليقولوا درست علينا؛ فيذكرون الأوّل بالآخر. فهذا حقيقة، والذي قاله أبو إسحاق مجاز.

وفي «دَرَسْت» سبع قراءاتٍ. قرأ أبو عمرو وٱبن كَثير «دارست» بالألف بين الدال والراء، كفاعلت. وهي قراءة عليّ وٱبن عباس وسعيدِ بن جبير ومجاهدٍ وعكرمة وأهلِ مكة. قال ٱبن عباس: معنى «دَارَسْت» تاليت. وقرأ ٱبن عامر «دَرَسَتْ» بفتح السين وإسكان التاء من غير ألف؛ كخَرَجَتْ. وهي قراءة الحسن. وقرأ الباقون «دَرَسْتَ» كخرَجْت. فعلى الأولى: دارست أهلَ الكتاب ودارسوك؛ أي ذاكرتهم وذاكروك؛ قاله سعيد بن جبير. ودلّ على هذا المعنى قوله تعالى إخباراً عنهم: ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ [الفرقان: ٤] أي أعان اليهودُ النبيّ ﷺ على القرآن وذاكروه فيه. وهذا كلّه قول المشركين. ومثله قولهم: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥﴾ [الفرقان: ٥]. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٢٤﴾ [النحل: ٢٤]. وقيل: المعنى دارستنا؛ فيكون معناه كمعنى درست؛ ذكره النحاس واختاره، والأوّل ذكره مكيّ، وزعم النحاس أنه مجاز، كما قال:

* فلِلْمـوتِ[1] ما تَلد الوالِـدهْ *

ومن قرأ «دَرستْ» فأحسن ما قيل في قراءته أن المعنى: ولئلا يقولوا ٱنقطعت وٱمّحت، وليس يأتي محمد ﷺ بغيرها. وقرأ قتادة «دُرِست» أي قرئت. وروى سفيان بن عُيينة عن عمرو بن عبيد عن الحسن أنه قرأ «دارَسَتْ». وكان أبو حاتم يذهب إلى أن هذه القراءة لا تجوز؛ قال: لأن الآيات لا تدارِس. وقال غيره: القراءة بهذا تجوز، وليس المعنى على ما ذهب إليه أبو حاتم، ولكن معناه دارستْ أمّتُك؛ أي دارستك أمّتك، وإن كان لم يتقدمّ لها ذكر؛ مثل قوله: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ۝٣٢﴾ [صٓ: ٣٢]. وحكى الأخفش «وَلِيَقُولُوا دَرُسَتْ» وهو بمعنى «دَرستْ» إلا أنه أبلغ. وحكى أبو العباس أنه قرىء

(١) صدر البيت ـ فإن يكن الموت أفناهم.

«ولْيقولوا درست» بإسكان اللام على الأمر. وفيه معنى التهديد؛ أي فليقولوا بما شاءوا فإن الحق بيّن؛ كما قال عز وجل ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا ﴾ [التوبة: ٨٢]. فأمّا من كسر اللام فإنها عنده لام كي. وهذه القراءات كلها يرجع اشتقاقها إلى شيءٍ واحد، إلى التليين والتذليل. و«درَسْتَ» مِن دَرَس يدرُس دِراسة، وهي القراءة على الغير. وقيل: درسته أي ذللته بكثرة القراءة؛ وأصله درسَ الطعامَ أي داسه. والدِّياس الدّراس بلغة أهل الشام. وقيل: أصله من درسْتُ الثوبَ أَدْرُسه درساً أي أخلقته. وقد دَرَس الثوبُ دَرْساً أي أخلق. ويرجع هذا إلى التذلل أيضاً. ويقال: سُمِّيَ إدريس لكثرة دراسته لكتاب الله. ودارست الكتب وتدارستها وادّارستها أي درستها. ودَرستُ الكتاب دَرْساً ودِراسة. ودَرستِ المرأة درساً أي حاضت. ويقال: إن فرج المرأة يُكْنَى أبا أَدْراس؛ وهو من الحيض. والدَّرْسُ أيضاً: الطريق الخفِيّ. وحكى الأصمعيّ: بَعير لم يُدَرَّس أي لم يركب، ودَرست من درس المنزلُ إذا عَفَا. وقرأ ابن مسعود وأصحابه وأُبَيّ وطلحة والأعمش «وليقولوا درس» أي درس محمد الآيات. ﴿ وَلِنُبَيِّنَهُۥ ﴾ يعني القول والتصريف، أو القرآن ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ يعني القرآن؛ أي لا تشغل قلبك وخاطرك بهم، بل اشتغل بعبادة الله. ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ منسوخ.

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ ﴾ نصّ على أن الشرك بمشيئته، وهو إبطال لمذهب القدرية كما تقدّم. ﴿ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ أي لا يمكنك حفظهم من عذاب الله. ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾ أي قَيِّم بأمورهم في مصالحهم لدينهم أو دنياهم، حتى تلطف لهم في تناول ما يجب لهم؛ فلست بحفيظ في ذلك ولا وكيل في هذا، إنما أنت مُبَلِّغ. وهذا قبل أن يؤمر بالقتال.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ نهي. ﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ﴾ جواب النهي. فنهى سبحانه المؤمنين أن يَسُبُّوا أوثانهم؛ لأنه علم إذا سبّوها نفر الكفار وٱزدادوا كُفراً. قال ابن عباس: قالت كفار قريش لأبي طالب إمّا أن تنهى محمداً وأصحابه عن سب آلهتنا والغض منها وإما أن نَسُبّ إلٰهه ونهجوه؛ فنزلت الآية.

الثانية: قال العلماء: حكمها باقٍ في هذه الأمة على كل حال؛ فمتى كان الكافر في مَنَعة وخِيف أن يَسُبَّ الإسلام أو النّبيّ عليه السلام أو الله عز وجل، فلا يحلّ لمسلم أن يَسُبَّ صلبانهم ولا دينهم ولا كنائسهم، ولا يتعرّض إلى ما يؤدّي إلى ذلك؛ لأنه بمنزلة البعث على المعصية. وعبر عن الأصنام وهي لا تعقل بـ«ـالذين» على معتقد الكفرة فيها.

الثالثة: في هذه الآية أيضاً ضَرْبٌ من الموادعة، ودليلٌ على وجوب الحكم بسدّ الذرائع؛ حسب ما تقدّم. في «البقرة» وفيها دليل على أن المحقّ قد يكفّ عن حق له إذا أدّى إلى ضرر يكون في الدِّين. ومن هذا المعنى ما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: لا تبتّوا الحكم بين ذوي القرابات مخافة القطيعة. قال ابن العربيّ: إن كان الحق واجباً فيأخذه بكل حال وإن كان جائزاً ففيه يكون هذا القول.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿عَدْوًا﴾ أي جهلاً وٱعتداء. وروي عن أهل مكة أنهم قرءوا «عُدُوًّا» بضم العين والدال وتشديد الواو، وهي قراءة الحسن وأبي رجاء وقَتادة، وهي راجعة إلى القراءة الأولى، وهما جميعاً بمعنى الظلم. وقرأ أهل مكة أيضاً «عَدُوًّا» بفتح العين وضم الدال بمعنى عدوّ. وهو واحد يؤدّي عن جمع؛ كما قال: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء: ٧٧]. وقال تعالى: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾ [المنافقون: ٤] وهو منصوب على المصدر أو على المفعول من أجله.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ أي كما زيّنا لهؤلاء أعمالهم كذلك زينا لكل أمة عملهم. قال ابن عباس: زيّنا لأهل الطاعةِ الطاعةَ، ولأهل الكفرِ الكفرَ؛ وهو كقوله: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [النحل: ٩٣]. وفي هذا ردٌّ على القدرية.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ﴾ أي حلفوا. وجَهْدُ اليمين أشدّها، وهو بالله. فقوله: «جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ» أي غاية أيمانهم التي بلغها علمهم، وانتهت إليها قدرتهم. وذلك أنهم كانوا يعتقدون أن الله هو الإله الأعظم، وأن هذه الآلهة إنما يعبدونها ظنًّا منهم أنها تقربهم إلى الله زلفى، كما أخبر عنهم بقوله تعالىٰ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[الزمر: ٣] وكانوا يحلفون بآبائهم وبالأصنام وبغير ذلك، كانوا يحلفون بالله تعالىٰ وكانوا يُسمّونه جَهْد اليَمين إذا كان اليمين بالله. «جَهْدَ» منصوب على المصدر والعامل فيه «أقسموا» على مذهب سيبويه؛ لأنه في معناه. والجَهْد (بفتح الجيم): المشّقة؛ يقال: فعلت ذلك بجَهْد. والجُهْد (بضمها): الطاقة يقال: هذا جُهْدي، أي طاقتي. ومنهم من يجعلهما واحداً، ويحتج بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩]. وقرىء «جَهْدهم» بالفتح؛ عن ابن قتيبة. وسبب الآية فيما ذكر المفسرون: القُرَظِيّ والكَلْبِي وغيرهما، أن قريشاً قالت:

[٢٩٤١] يا محمد، تُخبِرنا بأن موسى ضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عَيْناً، وأن عيسى كان يُحيي الموتى، وأن ثمود كانت لهم ناقة؛ فائتنا ببعض هذه الآيات حتى نصدّقك. فقال: «أيّ شيء تحبّون»؟ قالوا: اجعل لنا الصَّفَا ذهباً؛ فَواللَّهِ إن فعلته لنتبعنّك أجمعون. فقام رسول الله ﷺ يدعو؛ فجاءه جبريل عليه السلام فقال: «إن شئت أصبح الصفا ذهباً، ولئن أرسل الله آية ولم يصدّقوا عندها ليعذبنّهم فاتركهم حتى يتوب تائبهم» فقال رسول الله ﷺ: «بل يتوب تائبهم» فنزلت هذه الآية. وبيّن الربّ بأن من سبق العلم الأزَليّ بأنه لا يؤمن فإنه لا يؤمن وإن أقسم ليؤمنَنّ.

الثانية: قوله تعالى: ﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ قيل: معناه بأغلظ الأيمان عندهم. وتعرِض هنا مسألةٌ من الأحكام عُظْمَى، وهي قول الرجل: الأيمان تلزمه إن كان كذا وكذا. قال ابن العربيّ: وقد كانت هذه اليمين في صدر الإسلام معروفةً بغير هذه الصورة، كانوا يقولون: عليّ أشدّ ما أخذه أحدٌ على أحد؛ فقال مالك: تَطْلُق نساؤه. ثم تكاثرت الصُّوَر حتى آلت بين الناس إلى صورةٍ هذه أمُّها. وكان شيخنا الفِهْرِيّ الطَّرَسُوسِيّ يقول: يلزمه إطعام ثلاثين مسكيناً إذا حنِث فيها؛ لأن قوله «الأيمان» جمع يمين، وهو لو قال عليّ يمين وحنِث ألزمناه كفارةً. ولو قال: عليّ يمينان للزمته كفارتان إذا حنِث. والأيمانُ جمع يمين فيلزمه فيها ثلاث كفارات.

قلت: وذكر أحمد بن محمد بن مغيث في وثائقه: اختلف شيوخ القَيْرَوان فيها؛

[٢٩٤١] مرسل. أخرجه الطبري ١٣٧٥٠ بسند عن محمد بن كعب القرظي وهذا مرسل. لكن لبعضه شواهد، وستأتي.

فقال أبو محمد بن أبي زيد: يلزمه في زوجته ثلاث تطليقات، والمشي إلى مكة، وتفريقُ ثلث ماله، وكفارةُ يمين، وعِتق رقبة. قال ابن مغيث: وبه قال ٱبن أرفع رأسه وٱبن بدر من فقَهاء طُلَيْطُلة. وقال الشيخ أبو عمران الفاسي وأبو الحسن القابِسيّ وأبو بكر بن عبد الرحمن القَرَوِيّ: تلزمه طلقة واحدة إذا لم تكن له نيّة. ومن حجتهم في ذلك رواية ٱبن الحسن في سماعه من ٱبن وهب في قوله: «وأشدّ ما أخذه أحد على أحد أن عليه في ذلك كفارة يمين». قال: ابن مغيث: فجعل مَنْ سَمّيناه على القائل: «الأيمان تلزمه» طلقةً واحدة، لأنه لا يكون أسوأ حالاً من قوله: أشدّ ما أخذه أحد علىٰ أحد أن عليه كفارة يمين، قال: وبه نقول. قال: واحتجّ الأوّلون بقول ٱبن القاسم فيمن قال: عليّ عهد الله وغليظُ ميثاقه وكفالته وأشدّ ما أخذه أحدٌ على أحد على أمر ألاّ يفعله ثم فعله؛ فقال: إن لم يُرد الطلاق ولا العتاق وعزلهما عن ذلك فلتكن ثلاث كفارات. فإن لم تكن له نية حين حلف فليكفّر كفارتين في قوله: عليّ عهد الله وغليظ ميثاقه. ويعتق رقبة وتَطْلُق نساؤه، ويمشي إلى مكة ويتصدّق بثلث ماله في قوله: وأشدّ ما أخذه أحد على أحد. قال ٱبن العربيّ: أمّا طريق الأدلّة فإن الألف واللام في الأيمان لا تخلو أن يراد بها الجنس أو العهد؛ فإن دخلت للعهد فالمعهود قولك «بالله» فيكون ما قاله الفِهْرِيّ. فإن دخلت للجنس فالطلاق جنس فيدخل فيها ولا يُستوفَى عدده، فإن الذي يكفي أن يدخل في كل جنس معنى واحد؛ فإنه لو دخل في الجنس المعنى كلُّه للزمه أن يتصدّق بجميع ماله؛ إذ قد تكون الصدقة بالمال يَميناً. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْآيَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي قل يا محمد: الله القادر على الإتيان بها، وإنما يأتي بها إذا شاء. ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ أي وما يُدريكم أيمانكم؛ فحذف المفعول. ثم ٱستأنف فقال: ﴿أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ بكسر إن، وهي قراءة مجاهد وأبي عمرو وابن كَثير. ويشهد لهذا قراءة ٱبنِ مسعود «وما يشعركم إذا جاءت لا يؤمنون». وقال مجاهد وابن زيد: المخاطَب بهذا المشركون، وتمّ الكلام. حكم عليهم بأنهم لا يؤمنون، وقد أعلمنا في الآية بعد هذه أنهم لا يؤمنون. وهذا التأويل يشبه قراءة من قرأ «تؤمنون» بالتاء. وقال الفرّاء وغيره؛ الخطاب للمؤمنين؛ لأن المؤمنين قالوا للنبيّ ﷺ: يا رسول الله، لو نزلت الآية لعلهم يؤمنون؛ فقال الله تعالى: «وَمَا يُشْعِرُكُمْ» أي يعلمكم ويدريكم أيها المؤمنون. «أنها» بالفتح، وهي قراءة أهل المدينة والأعمش وحمزة، أي لعلّها إذا جاءت لا يؤمنون. قال الخليل: «أنها» بمعنى لعلّها؛ حكاه عنه سيبويه. وفي التنزيل: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾﴾[عبس: ٣] أي أنه يزكّىٰ. وحُكي عن العرب: ٱيت السوق أنّك تشتري لنا شيئاً، أي لعلّك. وقال أبو النَّجْم:

قلــت لشَيْبَــان ٱدْنُ مــن لقــائِــهْ أَنَّ تُغَــدِّي القــومَ مــن شِــوَائِــهْ

وقال عدِيّ بن زيد:

أعــاذِلَ مــا يُــدرِيــك أنّ منيّتِــي إلى ساعةٍ في اليوم أو في ضُحَى الغَدِ

أي لعلّ. وقال دُرَيد بن الصِّمَّة[1]:

أرِينـي جـواداً مـات هَـزْلاً لأَنّنِـي أرى مـا تَـرَيْـنَ أو بخيـلاً مُخَلَّـداً

أي لعلّني. وهو في كلام العرب كثير «أنّ» بمعنى لَعل. وحكى الكِسائِيّ أنه كذلك في مصحف أُبيّ بن كعب «وما أدراكم لعلها». وقال الكسائي والفَرّاء: إن «لا» زائدة، والمعنى: وما يشعركم أنها ـ أي الآيات ـ إذا جاءت المشركين يؤمنون، فزيدت «لا»؛ كما زيدت «لا» في قوله تعالى: ﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [الأنبياء: ٩٥]. لأن المعنى: وحرام على قرية مُهْلَكة رجُوعُهم. وفي قوله: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾ [الأعراف: ١٢]. والمعنى: ما منعك أن تسجد. وضعّف الزّجاج والنّحاس وغيرهما زيادة «لا» وقالوا: هو غلط وخطأ؛ لأنها إنما تزاد فيما لا يُشْكِل. وقيل: في الكلام حذف، والمعنى: وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون أو يؤمنون، ثم حذف هذا لعلم السامع؛ ذكره النحاس وغيره.

قوله تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾.

هذه آية مُشْكِلة، ولا سِيّما وفيها ﴿ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾. قيل: المعنى ونقلب أفئدتهم وأنظارهم يوم القيامة على لهب النار وحرِّ الجمر؛ كما لم يؤمنوا في الدنيا. «وَنَذَرُهُمْ» في الدنيا، أي نمهلهم ولا نعاقبهم؛ فبعض الآية في الآخرة، وبعضها في الدنيا. ونظيرها ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ ﴾ [الغاشية: ٢] فهذا في الآخرة. ﴿ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿٣﴾ ﴾[الغاشية: ٣] في الدنيا. وقيل: ونقلب في الدنيا، أي نحول بينهم وبين الإيمان لو جائتهم تلك الآية، كما حُلنا بينهم وبين الإيمان أوّل مرة، لمّا دعوتَهم وأظهرت المعجزة. وفي التنزيل: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ [الأنفال: ٢٤]. والمعنى: كان ينبغي أن يؤمنوا إذا جاءتهم الآية فرأوها بأبصارهم وعرفوها بقلوبهم؛ فإذا لم يؤمنوا كان ذلك بتقليب الله قلوبَهم وأبصارهم. ﴿ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ ودخلت

---

(١) الصواب أنه لحاتم طي كما في الصحاح للجوهري وديوانه.

الكاف على محذوف، أي فلا يؤمنون كما لم يؤمنوا به أوّل مرة؛ أي أوّل مرة أتتهم الآيات التي عجزوا عن معارضتها مثل القرآن وغيره. وقيل: ونقلِّب أفئدة هؤلاء كيلا يؤمنوا؛ كما لم تؤمن كفار الأممِ السالفة لما رأوا ما ٱقترحوا من الآيات. وقيل: في الكلام تقديم وتأخير؛ أي أنها إذا جاءت لا يؤمنون كما لم يؤمنوا أوّل مرة ونقلّب أفئدتهم وأبصارهم. ﴿وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ يتحيرون. وقد مضى في «البقرة».

قوله تعالى: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ فرأوْهم عياناً. ﴿وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ بإحيائنا إيّاهم. ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ سألوه من الآيات. ﴿قُبُلًا﴾ مُقابلة؛ عن ٱبن عباس وقَتادة وٱبن زيد. وهي قراءة نافع وٱبنِ عامر. وقيل: معاينة، لَمَا آمنوا. وقال محمد بن يزيد: يكون «قِبلاً» بمعنى ناحية؛ كما تقول لي قِبَل فلان مالٌ؛ فَقِبَلاً نصب على الظرف. وقرأ الباقون «قُبُلاً» بضم القاف والباء، ومعناه ضَمَناء؛ فيكون جمع قَبِيل بمعنى كفيل، نحو رغِيف ورُغُف؛ كما قال: ﴿أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾ [الإسراء: ٩٢]؛ أي يضمنون ذلك؛ عن الفرّاء. وقال الأخفش: هو بمعنى قَبِيل قَبيل؛ أي جماعة جماعة، وقاله مجاهد، وهو نصب على الحال على القولين. وقال محمد بن يزيد «قُبُلاً» أي مقابلة؛ ومنه ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ [يوسف: ٢٦]. ومنه قُبُل الرجل ودُبُره لِما كان من بين يديه ومن ورائه. ومنه قُبُل الحيض. حكى أبو زيد: لقِيت فلاناً قُبُلاً ومقابلة وقَبَلاً وقِبُلاً، كله بمعنى المواجهة؛ فيكون الضم كالكسر في المعنى وتستوي القراءتان؛ قاله مَكّيّ. وقرأ الحسن «قُبْلاً» حذف الضمة من الباء لثقلها. وعلى قول الفَرّاء يكون فيه نطق ما لا ينطق، وفي كفالة ما لا يعقل آية عظيمة لهم. وعلى قول الأخفش يكون فيه اجتماع الأجناس الذي ليس بمعهود. والحشر الجمع. ﴿مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ «أن» في موضع استثناء ليس من الأوّل؛ أي لكن إن شاء ذلك لهم. وقيل: الاستثناء لأهل السعادة الذين سبق لهم في علم الله الإيمان. وفي هذا تسلية للنبيّ ﷺ. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ أي يجهلون الحق. وقيل: يجهلون أنه لا يجوز اقتراح الآيات بعد أن رأوا آية واحدة.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾ يُعَزِّي نبيّه ويسلّيه، أي كما ابتليناك بهؤلاء القوم فكذلك جعلنا لكل نبي قَبْلَك ﴿عَدُوًّا﴾ أي أعداء. ثم نعتهم فقال: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ حكى سيبويه جعل بمعنى وصف. «عَدُوًّا» مفعول أوّل. «لِكُلِّ نَبِيٍّ» في موضع المفعول الثاني. «شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ» بدل من عدوّ. ويجوز أن يكون «شياطين» مفعولا أوّل، «عدواً» مفعولا ثانياً؛ كأنه قيل: جعلنا شياطين الإنس والجن عدوّاً. وقرأ الأعمش: «شياطين الجن والإنس» بتقديم الجن. والمعنى واحد. ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ عبارة عما يوسوس به شياطين الجن إلى شياطين الإنس. وسُمِّيَ وَحْياً لأنه إنما يكون خفية، وجعل تمويههم زخرفاً لتزيينهم إياه؛ ومنه سمي الذهب زخرفا. وكل شيء حسَن مُمَوّه فهو زُخْرُف. والمزخرَف المزيّن. وزخارف الماء طرائقه. و«غُرُوراً» نصب على المصدر، لأن معنى «يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ» يغرونهم بذلك غروراً. ويجوز أن يكون في موضع الحال. والغرور الباطل. قال النحاس: ورُوي عن ابن عباس بإسناد ضعيف أنه قال في قول الله عز وجل: «يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ» قال: مع كل جني شيطان، ومع كل إنسيّ شيطان، فيلقىٰ أحدهما الآخر فيقول: إني قد أضللت صاحبي بكذا فأضل صاحبك بمثله. ويقول الآخر مثل ذلك؛ فهذا وحي بعضهم إلى بعض. وقاله عكرمة والضحاك والسُّدِّي والكَلْبي. قال النحاس: والقول الأوّل يدل عليه ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١]؛ فهذا يبيّن معنى ذلك.

قلت: ويدُلّ عليه من صحيح السنة قوله عليه السلام:

[٢٩٤٢] «ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّل به قَرِينُه من الجن» قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير». روى «فأسلم» برفع الميم ونصبها. فالرفع على معنى فأسلم من شره. والنصب على معنى فأسلم هو. فقال: «ما منكم من أحد» ولم يقل ولا من الشياطين؛ إلا أنه يحتمل أن يكون نبّه علىٰ أحد الجنسين بالآخر، فيكون من باب ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾[النحل: ٨١] وفيه بُعْدٌ، والله أعلم. وروىٰ عَوف بن مالك عن أبي ذَرّ قال: قال رسول الله ﷺ:

[٢٩٤٣] «يا أبا ذَرّ هل تعوّذت بالله من شرّ شياطين الإنس والجن»؟ قال قلت:

[٢٩٤٢] صحيح. أخرجه مسلم ٢٨١٤ وأحمد ١/ ٣٨٥ والدارمي ٢/ ٣٠٦ وأبو يعلىٰ ٥١٤٣ وابن حبان ٦٤١٧ من حديث ابن مسعود.

[٢٩٤٣] حسن. أخرجه النسائي ٨/ ٢٧٥ وأحمد ٥/ ٢٦٥ والطبري ١٣٧٧٢ و ١٣٧٧٣ من حديث أبي ذرّ. =

يا رسول الله، وهل للإنس من شياطين؟ قال: «نعم هم شرٌّ من شياطين الجن». وقال مالك بن دِينار: إن شيطان الإنس أشدّ عليّ من شيطان الجن، وذلك أني إذا تعوّذت بالله ذهب عني شيطان الجن، وشيطان الإنس يجيئني فيجرّني إلى المعاصي عِياناً. وسَمع عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أمرأة تنشد:

إن النساء رَياحين خلقن لكم ... وكلُّكم يشتهي شمّ الرياحين

فأجابها عمر رضي الله عنه:

إن النساء شياطين خُلقن لنا ... نعوذ بالله من شر الشياطين

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ أي ما فعلوا إيحاء القول بالغرور. ﴿فَذَرْهُمْ﴾ أمْرٌ فيه معنى التهديد. قال سيبويه: ولا يقال وَذَر ولا وَدَع، استغنَوْا عنهما بترك.

قلت: هذا إنما خرج على الأكثر. وفي التنزيل: «وَذَرِ الَّذِينَ» و«ذَرْهم» و«مَا وَدَعَكَ». وفي السنة:

[٢٩٤٤] «لينتهيَنّ أقوام عن وَدْعِهِم الجُمُعات».

[٢٩٤٤ م]وقوله «إذا فعلوا ـ يريد المعاصي ـ فقد تُوُدِّع منهم». قال الزجاج: الواو ثقيلة فلما كان «ترك» ليس فيه واو بمعنىٰ ما فيه الواو تُرِك ما فيه الواو وهذا معنىٰ قوله وليس بنصِّه.

قوله تعالى: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ﴾ تصغىٰ تميل؛ يقال: صغوت أصْغُو صَغْواً وصُغُوًّا، وصَغَيت أصغى، وصَغِيت بالكسر أيضاً. يقال منه: صغِي يَصْغَى صغًى وصُغِيًّا، وأصغيت إليه إصغاء بمعنًى. قال الشاعر:

تَرَى السَّفيهَ به عن كلّ مُحْكَمَة ... زَيْغٌ وفيه إلى التشبيه إصغاءُ

ويقال: أصغيت الإناء إذا أملْته ليجتمع ما فيه. وأصله الميل إلى الشيء لغرض من

= وهو حديث وإسناده حسن لمجيئه من عدة طرق، وأخرجه الطبري ١٣٧٧٤ و١٣٧٧٥ و١٣٧٧٦ عن قتادة مرسلاً. وانظر تفسير الشوكاني ٩٢٩ بتخريجي.

[٢٩٤٤] صحيح. أخرجه مسلم ٨٦٥ وأحمد ١/ ٣٣٥ والنسائي ٣/ ٨٨ وابن حبان ٢٧٨٥ من حديث ابن عمر بأتم منه.

[٢٩٤٤ م] أخرجه أحمد ٢/ ١٦٣ ـ ١٨٩ والبزار ٣٣٢ بأتم منه من حديث ابن عمرو، وقال الهيثمي ١٢١١٠: رجال البزار رجال الصحيح.

الأغراض. ومنه صَغَت النجوم: مالت للغروب. وفي التنزيل: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤]. قال أبو زيد: يقال صَغْوُه معك وصِغْوُه، وصَغاه معك، أي ميله. وفي الحديث «فأصْغَىٰ لها الإناء»[١] يعني للهرة. وأكرموا فلاناً في صاغيته، أي في قرابته الذين يميلون إليه ويطلبون ما عنده. وأصغت الناقة إذا أمالت رأسها إلى الرجل كأنها تستمع شيئاً حين يَشُدّ عليها الرَّحْل. قال ذو الرُّمَّة:

تُصْغِي إذا شدّها بالكُورِ جانِحةً حتى إذا ما استوَى في غَرْزِها تَثِبُ[٢]

واللام في «ولِتَصْغَى» لام كَيّ، والعامل فيها «يوحِي» تقديره: يُوحِي بعضهم إلى بعض ليغروهم ولتصغى. وزعم بعضهم أنها لام الأمر، وهو غلط؛ لأنه كان يجب «ولْتصغ إليه» بحذف الألف، وإنما هي لام كي. وكذلك ﴿وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا﴾ إلا أن الحسن قرأ «ولْيرضوه ولْيقترفوا» بإسكان اللام، جعلها لام أمر فيه معنى التهديد؛ كما يقال: ٱفعل ما شئت. ومعنى ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ أي وليكتسبوا؛ عن ابن عباس والسّدِّي وابن زيد. يقال: خرج يقترف أهلَه أي يكتسب لهم. وقارف فلان هذا الأمرَ إذا واقعه وعمِله. وقَرَفْتني بما ادّعيت عليّ، أي رميتني بالرِّيبة. وقَرف القُرْحة إذا قَشَر منها. واقترف كَذِباً. قال رُؤْبَة:

أعيا اقترافُ الكذب المقروفِ تقوى التَقِي وعفّةُ العفيفِ

وأصله ٱقتطاع قطعة من الشيء.

قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ «غير» نصب بـ«أبتغي». «حَكَماً» نصب على البيان، وإن شئت على الحال. والمعنى: أفغير الله أطلب لكم حاكماً وهو الذي كفاكم مئونة المسألة في الآيات بما أنزله إليكم من الكتاب المفصّل، أي المبين. ثم قيل: الحَكَم أبلغ من الحاكم؛ إذ لا يستحق التسمية بحَكَم إلا من يحكم بالحق، لأنها صفة تعظيم في مدح. والحاكم صفة جارية على الفعل، فقد يُسَمَّى بها من يحكم بغير الحق. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يريد اليهود والنصارى. وقيل: من أسلم منهم كسَلْمَان وصُهيب وعبدِ الله بن سَلام. ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ﴾ أي القرآن. ﴿مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي أنّ كلّ ما فيه من الوعد والوعيد لَحَقّ ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ أي من الشاكين في

(١) أخرجه أبو داود ٧٥ والترمذي ٩٢ من حديث أبي قتادة، وهو حديث جيد، انظر صحيح أبي داود ٦٨.
(٢) الكور: رحل الناقة. جانحة: مائلة لاصقة.

أنهم يعلمون أنه منزّل من عند الله. وقال عطاء: الذين آتيناهم الكتاب وهم رؤساء أصحاب محمد عليه السلام: أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ رضي الله عنهم.

قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ قراءة أهل الكوفة بالتوحيد، والباقون بالجمع. قال ابن عباس: مواعيد ربك، فلا مغيّر لها. والكلمات ترجع إلى العبارات أو إلى المتعلقات من الوعد والوعيد وغيرهما. قال قتادة: الكلمات هي القرآن لا مبدل له، لا يزيد فيه المفترون ولا ينقصون. ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ أي فيما وعد وحكم، لا رادّ لقضائه ولا خُلْف في وعده. وحكى الرّمّاني عن قتادة: لا مبدلّ لها فيما حكم به، أي إنه وإن أمكنه التغيير والتبديل في الألفاظ كما غيّر أهل الكتاب التوراةَ والإنجيل فإنه لا يعتدّ بذلك. ودلّت الآية على وجوب أتباع دلالات القرآن؛ لأنه حق لا يمكن تبديله بما يناقضه، لأنه من عند حكيم لا يخفى عليه شيء من الأمور كلها.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ﴾ أي الكفار. ﴿يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي عن الطريق التي تؤدّي إلى ثواب الله. ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ «إنْ» بمعنى ما، وكذلك ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ أي يَحْدِسُون ويقدرون؛ ومنه الخَرْص، وأصله القطع. قال الشاعر[1]:

ترى قِصَد المُرّان فينا كأنّه ... تَذَرُّعُ خِرصان بأيدِي الشّواطِبِ[2]

يعني جريداً يُقطع طولاً ويتخذ منه الخُرْص[3] وهو[4] جمع الخرص، ومنه خَرَص يَخْرُص النخل خَرْصاً إذا حزره ليأخذ الخَرَاج منه. فالخارص يقطع بما لا يجوز القطع به؛ إذ لا يقين معه. وسيأتي لهذا مزيد بيان في «الذاريات» إن شاء الله تعالى. ﴿إِنَّ رَبَّكَ

(١) هو قيس بن الخطيم.

(٢) المرّان: الرماح الصلبة. الخرصان: قضبان من جريد النخل.

(٣) في الأصول «الخَضْر» والمثبت هو الصواب. الخرص: القناة، السِّنَان أيضاً، راجع «اللسان».

(٤) يعود الضمير علىٰ «خرصان».

﴿هُوَ أَعْلَمُ﴾ قال بعض الناس: إن «أعلم» هنا بمعنى يعلم؛ وأنشد قول حاتم الطائيّ:

تحالَفَتْ طيءٌ من دوننا حَلِفاً والله أعلم ما كنا لهم خُذُلاَ

وقول الخنساء:

اللّه أعلم أن جفنته تغدو غداة الريح أو تسرى

وهذا لا حجة فيه؛ لأنه لا يطابق ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾. ولأنه يحتمل أن يكون على أصله. ﴿مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ «من» بمعنى أيّ؛ فهو في محل رفع والرافع له «يضل». وقيل: في محل نصب بأعلم، أي إن ربّك أعلم أيّ الناس يضل عن سبيله. وقيل: في محل نصب بنزع الخافض؛ أي بمن يضل. قاله بعض البصريين، وهو حَسَن؛ لقوله: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾ وقوله في آخر النحل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل: ١٢٥]. وقرىء «يُضِلّ» وهذا على حذف المفعول، والأوّل أحسن؛ لأنه قال: «وهو أعلم بالمهتدين». فلو كان من الإضلال لقال وهو أعلم بالهادين.

قوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ نزلت بسبب أناس أتَوُا النبيّ ﷺ فقالوا:

[٢٩٤٥] يا رسول الله، إنا نأكل ما نقتل ولا نأكل ما قتل الله؟ فنزلت «فَكُلُوا ـ إلى قوله ـ وَإِنْ أَطَعْتُموهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ» خرجه الترمذيّ وغيره. قال عطاء: هذه الآية أمرٌ بذكر اسم الله على الشَّراب والذبح وكلّ مطعوم. وقوله: ﴿إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ أي بأحكامه وأوامره آخذين؛ فإن الإيمان بها يتضمّن ويقتضي الأخذ بها والانقياد لها.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾: المعنى: ما المانع لكم

[٢٩٤٥] أخرجه أبو داود ٢٨١٧ والترمذي ٣٠٧١ من حديث ابن عباس، وقال الترمذي: حسن غريب. وقد روي من غير هذا الوجه عن ابن عباس اهـ في الإسناد عطاء بن السائب صدوق اختلط بأخرة.

وأخرجه ابو داود ٢٨١٧ و ٢٨١٨ عن ابن عباس بنحوه وليس فيه ذكر اليهود **وقد ضعف ابن كثير** ذكر اليهود فيه وقال: إنهم لا يأكلون الميتة، انظر كلامه في التفسير ٢/ ١٧٧.

من أكل ما سمّيتم عليه ربّكم وإن قتلتموه بأيديكم. ﴿وَقَدْ فَصَّلَ﴾ أي بيّن لكم الحلال من الحرام، وأزيل عنكم اللبس والشك. فـ«ما» استفهام يتضمن التقرير. وتقدير الكلام: وأي شيء لكم في ألا تأكلوا. فـ«أنْ» في موضع خفض بتقدير حرف الجر. ويصحّ أن تكون في موضع نصب على ألا يقدّر حرف جر، ويكون الناصب معنى الفعل الذي في قوله «مَا لَكُمْ» تقديره أي ما يمنعكم. ثم استثنى فقال ﴿إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ يريد من جميع ما حرّم كالميتة وغيرها كما تقدّم في «البقرة». وهو استثناء منقطع. وقرأ نافع ويعقوب «وقد فَصَّل لكم ما حَرّم» بفتح الفعلين. وقرى أبو عمرو وابن عامر وابن كَثير بالضم فيهما، والكوفيون «فَصَّل» بالفتح «حُرِّم» بالضم. وقرأ عطية العَوْفي «فَصَل» بالتخفيف. ومعناه أبان وظهر، كما قرىء «الٓر كتابٌ أُحْكِمَتْ ءَايٰتُهُ ثُمَّ فَصَلَتْ»[هود: ١] أي ٱستبانت. واختار أبو عبيدة قراءة أهل المدينة. وقيل: «فصل» أي بيّن، وهو ما ذكره في سورة «المائدة» من قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ [المائدة: ٣] الآية.

قلت: هذا فيه نظر، فإن «الأنعام» مكية والمائدة مدنية فكيف يحيل بالبيان علىٰ ما لم ينزل بعد، إلا أن يكون فصّل بمعنى يفصّل. والله أعلم.

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ كَثِيراً لَيَضِلُّون﴾[1] وقرأ الكوفيون «يُضِلّون» من أضل. ﴿بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يعني المشركين حيث قالوا: ما ذبح الله بسِكّينه خير مما ذبحتم بسكاكينكم ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي بغير علم يعلمونه في أمر الذبح؛ إذ الحكمة فيه إخراج ما حرّمه الله علينا من الدم بخلاف ما مات حَتْف أنفه؛ ولذلك شرع الذكاة في محل مخصوص ليكون الذبح فيه سبباً لجذب كل دم في الحيوان بخلاف غيره من الأعضاء. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ للعلماء فيه أقوال كثيرة. وحاصلها راجع إلى أن الظاهر ما كان عملاً بالبدن مما نهى الله عنه، وباطنه ما عُقد بالقلب من مخالفة أمر الله فيما أمر ونهى - وهي المرتبة لا يبلغها إلاّ من ٱتقىٰ وأحسن، كما قال: ﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ﴾[المائدة: ٩٣] وهي المرتبة الثالثة حسب ما تقدّم بيانه في «المائدة». وقيل: هو ما كان عليه الجاهلية من الزنا الظاهر وٱتخاذ الحلائل في الباطن. وما قدّمنا جامع لكل إثم وموجب لكل أمر.

(١) قراءة نافع.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١) ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ فيه خمس مسائل:

الأولىٰ: روىٰ أبو داود [عن ابن عباس][1] قال:

[٢٩٤٦] جاءت اليهود إلى النبيّ ﷺ فقالوا: نأكل مما قتلنا ولا نأكل مما قتل الله؟ فأنزل الله عز وجل ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ إلى آخر الآية. وروى النَّسائي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ قال: خاصمهم المشركون فقالوا: ما ذبح الله فلا تأكلوه وما ذبحتم أنتم أكلتموه؛ فقال الله سبحانه لهم: لا تأكلوا؛ فإنكم لم تذكروا ٱسم الله عليها. وتنشأ هنا مسألة أصولية، وهي:

الثانية: وذلك أن اللفظ الوارد على سبب هل يُقصر عليه أم لا؛ فقال علماؤنا: لا إشكال في صحة دعوى العموم فيما يذكره الشارع ابتداء من صِيَغ ألفاظ العموم. أما ما ذكره جواباً لسؤال ففيه تفصيل، على ما هو معروف في أصول الفقه؛ إلا أنه إن أتى بلفظ مستقل دون السؤال لَحِق بالأوّل في صحة القصد إلى التعميم. فقوله: «لا تأكلوا» ظاهر في تناول الميتة، ويدخل فيه ما ذُكر عليه غير ٱسم الله بعموم أنه لم يذكر عليه ٱسم الله، وبزيادة ذكر غير اسم الله سبحانه عليه الذي يقتضي تحريمه نصًّا بقوله: ﴿ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٧٣]. وهل يدخل فيه ما ترك المسلم التسمية عمداً عليه من الذبح، وعند إرسال الصيد. اختلف العلماء في ذلك على أقوال خمسة، وهي المسألة: ـ

الثالثة: القول الأوّل: إن تركها سهواً أكِلا جميعاً؛ وهو قول إسحاق ورواية عن أحمد بن حنبل. فإن تركها عمداً لم يؤكلا؛ وقاله في الكتاب مالكٌ وابن القاسم، وهو قول أبي حنيفة وأصحابِه والثوريّ والحسن بن حيّ وعيسى وأَصْبَغَ، وقاله سعيد بن جُبير وعطاء، وٱختاره النحاس وقال: هذا أحسن؛ لأنه لا يُسَمَّى فاسقاً إذا كان ناسياً.

الثاني: إن تركها عامداً أو ناسياً يأكلهما. وهو قول الشافعي والحسن، وروي ذلك عن ابن عباس وأبي هريرة وعطاء وسعيد بن المسيّب وجابر بن زيد وعِكرمة وأبي عِياض وأبي رافع وطاوس وإبراهيم النَّخَعِيّ وعبد الرحمن بن أبي لَيْلى وقتادة. وحكى الزَّهْرَاوِيّ عن مالك بن أنس أنه قال: تؤكل الذبيحة التي تركت التسمية عليها عمداً أو نسياناً.

[٢٩٤٦] مضىٰ في الذي قبله.

---

(١) لفظ «عن ابن عباس» مستدرك من سنن أبي داود والترمذي.

ورُوىٰ عن ربيعة أيضاً. قال عبد الوهَّاب: التسمية سنة، فإذا تركها الذابح ناسياً أكلت الذبيحة في قول مالك وأصحابه.

الثالث: إن تركها عامداً أو ساهياً حَرُم أكلها؛ قاله محمد بن سِيرين وعبد الله بن عياش بن أبي ربيعة وعبد الله بن عمر ونافع وعبد الله بن زيد الخَطْمِيّ والشعبيّ؛ وبه قال أبو ثور وداود بن عليّ وأحمد في رواية.

الرابع: إن تركها عامداً كُره أكلها؛ قاله القاضي أبو الحسن والشيخ أبو بكر من علمائنا.

الخامس: قال أشهب: تؤكل ذبيحة تارك التسمية عمداً إلا أن يكون مستخِفًّا، وقال نحوه الطبري. أدلـة قال الله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ وقال: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ فبيّن الحالين وأوضح الحكمين. فقوله: «لا تأكلوا» نهيٌ على التحريم لا يجوز حمله على الكراهة؛ لتناوله في بعض مقتضياته الحرام المحض، ولا يجوز أن يتبعّض، أي يراد به التحريم والكراهة معاً؛ وهذا من نفيس الأصول. وأما النَّاسي فلا خطاب توجّه إليه إذ يستحيل خطابه؛ فالشرط ليس بواجب عليه. وأما التارك للتسمية عمداً فلا يخلو من ثلاثة أحوال: إما أن يتركها إذا أضجع الذبيحة ويقول: قلبي مملوء من أسماء الله تعالى وتوحيده فلا أفتقر إلى ذكرٍ بلساني؛ فذلك يجزئه لأنه ذكر الله جلّ جلاله وعظمه. أو يقول: إن هذا ليس بموضع تسْمية صريحة، إذ ليست بقربة؛ فهذا أيضاً يجزئه. أو يقول: لا أسمي، وأيّ قدر للتسمية؛ فهذا متهاون فاسق لا تؤكل ذبيحته. قال ابن العربيّ: وأعجب لرأس المحققين إمامِ الحرمين حيث قال: ذِكر الله تعالى إنما شُرع في القُرَب، والذّبح ليس بقُرْبة. وهذا يعارض القرآن والسنة؛ قال ﷺ في الصحيح:

[٢٩٤٧] «ما أنهر الدّمَ وذُكر ٱسم الله عليه فَكُلْ». فإن قيل: المراد بذكر ٱسم الله بالقلب؛ لأن الذكر يضادّ النسيان ومحل النسيان القلب فمحل الذكر القلب، وقد روى البَرَاء بن عَازب: ٱسم الله على قلب كل مؤمن سَمَّىٰ أو لم يسمّ. قلنا: الذكر باللسان وبالقلب، والذي كانت العرب تفعله تسمية الأصنام والنُّصُب باللسان، فنسخ الله ذلك بذكره في الألسنة، وٱشتهر ذلك في الشريعة حتى قيل لمالك: هل يُسَمِّي الله تعالى إذا توضأ فقال: أيريد أن يذبح. وأما الحديث الذي تعلّقوا به من قوله:

[٢٩٤٧] صحيح. أخرجه البخاري ٥٤٩٨ ومسلم ١٩٦٨ وتقدم.

---

(١) لم أره مرفوعاً عن البراء، وانظر ما بعده.

[٢٩٤٨] «اسم الله على قلب كل مؤمن» فحديث ضعيف. وقد استدلّ جماعة من أهل العلم على أن التسمية على الذبيحة ليست بواجبة؛ لقوله عليه السلام لأناس سألوه، قالوا:

[٢٩٤٩] يا رسول الله، إنّ قوماً يأتوننا باللّحم لا ندري أذكروا اسم الله عليه أم لا؟ فقال رسول الله ﷺ: «سَمّوا الله عليه وكلوا». أخرجه الدّارقطنيّ عن عائشة ومالك مرسلاً عن هشام بن عروة عن أبيه، لم يُختلف عليه في إرساله، وتأوّله بأن قال[1] في آخره: وذلك في أوّل الإسلام. يريد قبل أن ينزل عليه «وَلاَ تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ». قال أبو عمر: وهذا ضعيف، وفي الحديث نفسه ما يردّه، وذلك أنه أمرهم فيه بتسمية الله على الأكل؛ فدلّ على أن الآية قد كانت نزلت عليه. ومما يدلّ على صحة ما قلناه أن هذا الحديث كان بالمدينة، ولا يختلف العلماء أن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾. نزل في سورة «الأنعام» بمكة. ومعنى ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ أي لمعصية؛ عن ابن عباس. والفِسْق: الخروج؛ وقد تقدّم.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾ أي يُوَسْوِسُون فيقُلون في قلوبهم الجدال بالباطل. روى أبو داود عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾ يقولون: ما ذبح الله فلا تأكلوه، وما ذبحتهم أنتم فكُلُوه، فأنزل الله ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [2] قال عِكرمة: عنى بالشياطين في هذه الآية مَرَدة الإنس من مَجُوس فارس. وقال ابن عباس وعبد الله بن كثير: بل الشياطين الجنُّ، وكفرة الجن أولياء قريش. ورُوي عن عبد الله بن الزبير أنه قيل له: إن المختار[3] يقول: يُوحَى إليّ فقال: صدق، إن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم. وقوله: «ليجادلوكم». يريد قولهم: ما قتل الله لم تأكلوه وما قتلتموه أكلتموه. والمجادلة: دفع القول على طريق الحجة بالقوّة؛ مأخوذ من الأجدل، طائر قويّ. وقيل: هو مأخوذ من

[٢٩٤٨] ضعيف. أخرجه ابن عدي في الكامل ٦/ ٣٨٥ من حديث أبي هريرة بأتم منه، وأعله بمروان بن سالم الجزري ونقل عن البخاري أنه منكر الحديث، وكذا ضعفه ابن كثير في تفسيره ٢/ ١٧٦ . وله شواهد واهية، انظر «نصب الراية» ٤/ ١٨٢ ـ ١٨٣ وسنن البيهقي ٩/ ٢٣٩ وقد صحّ موقوفاً.

[٢٩٤٩] صحيح. أخرجه البخاري ٧٣٩٨ والدارقطني ٤/ ٢٩٦ عن عروة عن عائشة به، وأخرجه مالك ٢/ ٤٨٨ مرسلاً.

(١) يعني الإمام مالك.

(٢) أخرجه أبو داود ٢٨١٨ عن ابن عباس بإسناد حسن. وهو في «صحيح أبي داود» ٢٤٤٤ .

(٣) هو المختار بن أبي عبيد الثقفي الكذاب، ضال مضل زعم أن جبرائيل كان ينزل عليه. انظر ميزان الإعتدال.

الجَدالة، وهي الأرض؛ فكأنه يغلِبه بالحجة ويقهره حتى يصير كالمجدول بالأرض. وقيل: هو مأخوذ من الجدْل، وهو شدّة الفَتْل؛ فكأن كلّ واحد منهما يفتل حجة صاحبه حتى يقطعها، وتكون حقاً في نصرة الحق وباطلاً في نصرة الباطل.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ أي في تحليل الميتة ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾. فدلّت الآية على أن من ٱستحلّ شيئاً مما حرّم الله تعالى صار به مُشرِكاً. وقد حرّم الله سبحانه الميتة نصًّا؛ فإذا قَبِل تحليلها من غيره فقد أشرك. قال ابن العربيّ: إنما يكون المؤمن بطاعة المشرك مشركاً إذا أطاعه في الإعتقاد؛ فأما إذا أطاعه في الفعل وعقده سليم مستمر على التوحيد والتصديق فهو عاصٍ؛ فافهموه. وقد مضى في «المائدة».

قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ قرأ الجمهور بفتح الواو، دخلت عليها همزة الاستفهام. وروى المُسَيَّبي عن نافع بن أبي نعيم «أَوْ مَنْ كَانَ» بإسكان الواو. قال النحاس: يجوز أن يكون محمولاً على المعنى، أي ٱنظروا وتدبروا أغير اللَّهِ أبتغي حكماً. «أَوْ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ» قيل: معناه كان ميتاً حين كان نطفة فأحييناه بنفخ الروح فيه؛ حكاه ابن بحر. وقال ابن عباس: أو من كان كافراً فهديناه. نزلت في حمزة بن عبد المطلب وأبي جهل. وقال زيد بن أسْلم والسُّدّي: «فَأَحْيَيْنَاهُ» عمر ـ رضي الله عنه ـ. «كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ» أبو جهل لعنه الله. والصحيح أنها عامّة[1] في كل مؤمن وكافر. وقيل: كان ميتاً بالجهل فأحييناه بالعلم. وأنشد بعض أهل العلم ما يدل على صحة هذا التأويل لبعض شعراء البصرة:

وفي الجهل قبل الموت موتٌ لأهله ... فأجسامهم قبل القبور قبورُ
وإنّ ٱمرأ لم يَحْيَ بالعلم ميّتٌ ... فليس له حتى النشور نشورُ

والنُّور عبارة عن الهُدَى والإيمان. وقال الحسن: القرآن. وقيل: الحكمة. وقيل: هو النور المذكور في قوله: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم﴾ [الحديد: ١٢]، وقوله: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣]. ﴿يَمْشِي بِهِ﴾ أي بالنور ﴿فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أي كمن هو؛ فمثل زائدة. تقول: أنا أُكرم مثلك؛ أي أكرمك. ومِثله

---

(١) وهو الذي ذهب إليه ابن كثير في تفسيره ٢/ ١٧٨.

﴿ فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ ﴾ [المائدة: ٩٥]، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى: ١١]. وقيل: المعنى كمن مَثَله مَثَل من هو في الظلمات. والمَثَل والمثل واحد. ﴿ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ أي زين لهم الشيطان عبادة الأصنام، وأوهمهم أنهم أفضل من المسلمين.

قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا ﴾ المعنى: وكما زينا للكافرين ما كانوا يعملون كذلك جعلنا في كل قرية. ﴿ مُجْرِمِيهَا ﴾ مفعول أوّل لجعل ﴿ أَكَٰبِرَ ﴾ مفعول ثاني على التقديم والتأخير. وجعل بمعنى صير. والأكابر جمع الأكبر. قال مجاهد: يريد العظماء. وقيل: الرؤساء والعظماء. وخصهم بالذكر لأنهم أقدر على الفساد. والمكر الحيلة في مخالفة الاستقامة، وأصله الفتل؛ فالماكر يَفْتِل عن الاستقامة أي يصرف عنها. قال مجاهد: كانوا يجلسون على كل عَقَبَةٍ أربعةً ينفِّرُون الناس عن أتباع النبي ﷺ؛ كما فعل من قبلهم من الأمم السالفة بأنبيائهم. ﴿ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ أي وبَالُ. مكرهم راجعٌ إليهم. وهو من الله عز وجل الجزاء على مكر الماكرين بالعذاب الأليم. ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ في الحال؛ لفرط جهلهم أن وبال مكرهم عائد إليهم.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ ﴾ بيّن شيئاً آخر من جهلهم، وهو أنهم قالوا لن نؤمن حتى نكون أنبياء، فنؤتَى مثل ما أوتي موسى وعيسى من الآيات؛ ونظيره ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ ﴾ [المدثر: ٥٢] والكناية في «جاءتهم» ترجع إلى الأكابر الذين جرىٰ ذكرهم. قال الوليد بن المغيرة: لو كانت النبوّة حقّاً لكنت أوْلَىٰ بها منك، لأني أكبر منك سِنًّا، وأكثر منك مالاً. وقال أبو جهل: والله لا نرضىٰ به ولا نتبعه أبداً، إلا أن يأتينا وَحْيٌ كما يأتيه؛ فنزلت الآية. وقيل: لم يطلبوا النبوّة ولكن قالوا لا نصدّقك حتى يأتينا جبريل والملائكة يخبروننا بصدقك. والأوّل أصح؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾[1] أي بمن هو مأمون عليها وموضع لها.

(١) قراءة نافع.

و«حيث» ليس ظرفاً هنا، بل هو أسم نُصب نَصب المفعول به على الاتساع؛ أي اللَّهُ أعلم أهلَ الرسالة. وكان الأصل الله أعلم بمواضع رسالته، ثم حذف الحرف، ولا يجوز أن يعمل «أعلم» في «حيث» ويكون ظرفاً، لأن المعنى يكون على ذلك الله أعلم في هذا الموضِع، وذلك لا يجوز أن يوصف به الباري تعالى، وإنما موضعها نصب بفعل مضمر دَلّ عليه «أعلم». وهي اسم كما ذكرنا. والصَّغار: الضَّيْم والذل والهوان، وكذلك الصُّغر (بالضم). والمصدر الصَّغَر (بالتحريك). وأصله من الصِّغَر دون الكبر؛ فكأنّ الذلّ يُصَغِّرُ إلى المرء نفسه، وقيل: أصله من الصَّغَر وهو الرضا بالذل؛ يقال منه: صَغَر يَصْغُر بفتح الغين في الماضي وضمها في المستقبل. وصَغِر بالكسر يصْغَر بالفتح لغتانِ، صَغَراً وصَغاراً، واسم الفاعل صاغِر وصغير. والصاغر: الراضي بالضيم. والمَصْغُوراء الصِّغار. وأرض مُصْغِرَة: نبتها لم يَطُل؛ عن ٱبن السِّكّيت. ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي من عند الله، فحذف. وقيل: فيه تقديم وتأخير، أي سيصيب الذين أجرموا عند الله صغار. الفراء: سيصيب الذين أجرموا صغار من الله. وقيل: المعنى سيصيب الذين أجرموا صغار ثابت عند الله. قال النحاس: وهذا أحسن الأقوال؛ لأن «عند» في موضعها.

قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ أي يوسعه له، ويوفّقه ويزيّن عنده ثوابه. ويقال: شرح شقّ، وأصله التوسعةُ. وشرح الله صدره وسّعه بالبيان لذلك. وشرحت الأمر: بيّنته وأوضحته. وكانت قريش تَشْرَح النساء شَرحاً، وهو مما تقدّم: من التوسعة والبَسْط، وهو وَطْءُ المرأة مستلقِيَةً على قفاها. فالشّرح: الكشف؛ تقول: شرحت الغامض؛ ومنه تشريح اللحم. قال الراجز:

كَـمْ قَـد أكلـتُ كَبِـداً وإنْفَحَـهْ ... ثـم ٱدّخَـرتُ إلْيَـةً مُشَـرَّحَـهْ

والقطعة منه شَريحة. وكل سمين من اللحم ممتدّ فهو شريحة. ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ﴾ يُغوِيه ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ وهذا ردّ على القدرية. ونظير هذه الآية من السُّنَّة قوله عليه السلام:

[٢٩٥٠] «مَنْ يُرِد الله به خيراً يفقهه في الدِّين» أخرجه الصحيحان. ولا يكون ذلك

[٢٩٥٠] متفق عليه، وقد مضى.

إلا بشرح الصدر وتنويره. والدين العبادات؛ كما قال: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]. ودليل خطابه أن مَن لم يُرد الله به خيراً ضيّق صدره، وأبعد فهمه فلم يفقهه. والله أعلم. وروي أن عبد الله بن مسعود قال:

[٢٩٥١] يا رسول الله، وهل ينشرح الصدر؟ فقال: «نعم يدخل القلبَ نورٌ» فقال: وهل لذلك من علامة؟ فقال ﷺ: «التَّجَافِي عن دار الغُرورِ والإنابةُ إلى دار الخلود والاستعدادُ للموت قبل نزول الموت». وقرأ ابن كثير «ضَيْقاً» بالتخفيف؛ مثل هَيْن ولَيْن لغتان. ونافع وأبو بكر «حَرِجاً» بالكسر، ومعناه الضيق. كرر المعنى، وحسن ذلك لاختلاف اللفظ. والباقون بالفتح. جمع حرجة؛ وهو شدّة الضيق أيضاً، والحَرَجَة الغَيْضَة[1]؛ والجمع حَرَج وحَرَجات. ومنه فلان يتحرَّج أي يضيّق على نفسه في تركه هواه للمعاصي؛ قاله الهَرَوِيّ[2]. وقال ٱبن عباس: الحَرَج موضع الشجر الملتف؛ فكأنّ قلب الكافر لا تصل إليه الحكمة كما لا تصل الراعية إلى الموضع الذي ٱلتفّ شجره. ورُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذا المعنى؛ ذكره مكيّ والثعلبي وغيرهما. وكل ضيّق حَرِجٌ وحَرَج. قال الجوهَري: مكان حرِج وحَرَج أي ضيق كثير الشجر لا تصل إليه الراعية. وقرىء ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً﴾ و«حَرِجاً». وهو بمنزلة الوَحَد والوَحِد والفَرَد والفَرِد والدنَف والدّنِف؛ في معنًى واحد، وحكاه غيره عن الفراء. وقد حَرِج صدره يَحْرَج حرجاً. والحَرَج الإثم. والحرج أيضاً: الناقة الضامرة. ويقال: الطويلة على وجه الأرض؛ عن أبي زيد، فهو لفظ مشترك. والحَرَج: خشب يُشدّ بعضه إلى بعض يُحمل فيه الموتى؛ عن الأصمعيّ. وهو قول ٱمرىء القيس:

فإمّا تَرَيْنِي في رِحالة جابرٍ ... على حَرَج كالقَرّ تَخفقُ أكفانِي

وربما وضع فوق نعش النساء؛ قال عنترة يصف ظَلِيماً[3]:

يتْبَعْن قُلّةَ رأسِه وكأنّه ... حَرَج على نَعْش لهنّ مُخَيّم

[٢٩٥١] أخرجه الطبري ١٣٨٥٩ و ١٣٨٦١ من طريقين عن ابن مسعود مرفوعاً. وفي كلا الإسنادين ضعف وانقطاع.

وأخرجه ١٣٨٥٦ و١٣٨٥٧ و١٣٨٥٨ عن أبي جعفر المدائني مرسلاً، ومع إرساله أبو جعفر ضعيف، وانظر تفسير ابن كثير ٢٧٥١ وتفسير الشوكاني ٩٤٠، وكلاهما بتخريجي.

---

(١) الشجر الكثيف الملتف.

(٢) هو أبو عبيد صاحب غريب الحديث.

(٣) الرحالة: لوح خشب يحمل عليه المريض.

وقال الزجاج: الحَرَج: أضيق الضِّيق. فإذا قيل: فلان حَرَج الصدر، فالمعنى ذو حَرَج في صدره. فإذا قيل: حَرِج فهو فاعل. قال النحاس: حرِج اسم الفاعل، وحَرَج مصدر وصف به؛ كما يقال: رجل عَدْلٌ ورِضاً.

قوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ قرأه ابن كثير بإسكان الصاد مخفَّفاً، من الصعود وهو الطلوع. شبه الله الكافر في نفوره من الإيمان وثِقله عليه بمنزلة من تكلّف ما لا يُطيقه؛ كما أن صعود السماء لا يطاق. وكذلك يصّاعد وأصله يَتَصاعد، أدغمت التاء في الصاد، وهي قراءة أبي بكر والنخَعِي؛ إلا أن فيه معنى فِعل شيء بعد شيء، وذلك أثقل على فاعله. وقرأ الباقون بالتشديد من غير ألف، وهو كالذي قبله. معناه يتكلف ما لا يطيق شيئاً بعد شيء؛ كقولك: يتَجرّع ويتفوّق[1]. وروي عن عبد الله بن مسعود أنه قرأ «كأنما يَتَصَعّد». قال النحاس: ومعنى هذه القراءة وقراءةِ من قرأ يصّعد ويصّاعد واحد. والمعنى فيهما أن الكافر من ضيق صدره كأنه يريد أن يصعد إلى السماء وهو لا يقدِر على ذلك؛ فكأنّه يستدعي ذلك. وقيل: المعنى كاد قلبه يصعد إلى السماء نَبْواً عن الإسلام. ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ﴾ عليهم، جعله ضيق الصدر في أجسادهم. وأصل الرِّجس في اللغة النتن. قال ابن زيد: هو العذاب. وقال ابن عباس: الرِّجس هو الشيطان؛ أي يسلطه عليهم. وقال مجاهد: الرّجس ما لا خير فيه. وكذلك الرجس عند أهل اللغة هو النتن. فمعنى الآية والله أعلم: ويجعل اللعنة في الدنيا والعذاب في الآخرة ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ أي هذا الذي أنت عليه يا محمد والمؤمنون دين ربك لا اعوجاج فيه. ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ﴾ أي بيّناها ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ لَهُمْ﴾ أي للمتذكرين. ﴿دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾ أي الجنة، فالجنة دار الله؛ كما يقال: الكعبة بيت الله. ويجوز أن يكون المعنى دار السلامة، أي التي يسلم فيها من الآفات. ومعنى ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي مضمونة لهم عنده يوصلهم إليها بفضله. ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾ أي ناصرُهم ومُعينهم.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ

(١) تفوّق الشراب: شربه شيئاً فشيئاً.

﴿أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ١٢٨﴾.

قوله تعالى: «وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ»[1] نصب على الفعل المحذوف، أي ويوم نحشرهم نقول. ﴿جَمِيعٗا﴾ نصب على الحال. والمراد حشر جميع الخلق في موقف القيامة. ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ﴾ نداء مضاف. ﴿قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ﴾ أي من الاستمتاع بالإنس؛ فحذف المصدر المضاف إلى المفعول، وحرف الجر؛ يدل على ذلك قوله: ﴿رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ﴾ وهذا يردّ قول من قال: إن الجن هم الذين استمتعوا من الإنس؛ لأن الإنس قبِلوا منهم. والصحيح أن كل واحد مستمتع بصاحبه. والتقدير في العربية: استمتع بعضنا بعضاً؛ فاستمتاع الجن من الإنس أنهم[2] تلذّذوا بطاعة الإنس إياهم، وتلذّذ الإنس بقبولهم من الجن حتى زَنَوْا وشربوا الخمور بإغواءِ الجن إيّاهم. وقيل: كان الرجل إذا مَرّ بوادٍ في سفره وخاف على نفسه قال: أعوذ برب هذا الوادي من جميع ما أحذر. وفي التنزيل ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقٗا ٦﴾ [الجن: ٦]. فهذا استمتاع الإنس بالجنّ. وأما استمتاع الجنّ بالإنس فما كانوا يُلقون إليهم من الأراجيف والكهانة والسحر. وقيل: استمتاع الجن بالأنس أنهم يعترفون أن الجنّ يقدرون أن يدفعوا عنهم ما يحذرون. ومعنى الآية تقريع الضالين والمضِلين وتوبيخهم في الآخرة على أعين العالمين. ﴿وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ﴾ يعني الموت والقبر، ووافينا نادمين. ﴿ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ﴾ أي موضع مقامكم. والمَثْوَى المُقام. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾ استثناء ليس من الأوّل. قال الزجاج: يرجع إلى يوم القيامة، أي خالدين في النار إلا ما شاء الله من مقدار حشرهم من قبورهم ومقدار مدتهم في الحساب؛ فالاستثناء منقطع. وقيل: يرجع الاستثناء إلى النار، أي إلا ما شاء الله من تعذيبكم بغير النار في بعض الأوقات. وقال ابن عباس: الاستثناء لأهل الإيمان. فـ«ـما» على هذا بمعنى مَن. وعنه أيضاً أنه قال: هذه الآية توجب الوقف في جميع الكفار. ومعنى ذلك أنها توجب الوقف فيمن لم يمت، إذْ قد يُسلم. وقيل: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾ من كونهم في الدنيا بغير عذاب. ومعنى هذه الآية معنى الآية التي في «هود». قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ﴾ وهناك يأتي مستوفًى إنْ شاء الله. ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ أي في عقوبتهم وفي جميع أفعاله ﴿عَلِيمٞ﴾ [هود: ١٠٦] بمقدار مجازاتهم.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٢٩﴾.

---

(١) قراءة نافع.

(٢) في الأصل «إنهم» والمثبت أقرب للصواب.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا﴾ المعنى وكما فعلنا بهؤلاء مما وصفته لكم من ٱستمتاع بعضِهم ببعض أجعل بعض الظالمين أولياء بعض، ثم يتبرأ بعضهم من بعض غداً. ومعنى «نُوَلِّي» على هذا نجعل ولِيًّا. قال ابن زيد: نسلّط ظلمة الجِنّ على ظلمة الإنس. وعنه أيضاً: نسلّط بعض الظلمة على بعض فيهلكه ويذِلّه. وهذا تهديد للظالم إن لم يمتنع من ظلمه سلّط الله عليه ظالماً آخر. ويدخل في الآية جميعُ مَن يظلم نفسه أو يظلم الرعية، أو التاجر يظلم الناس في تجارته أو السارق وغيرهم. وقال فُضيل بن عِياض: إذا رأيت ظالماً ينتقم من ظالم فقِف، وٱنظر فيه متعجّباً. وقال ٱبن عباس: إذا رضي الله عن قوم ولّى أمرهم خيارَهم، وإذا سخِط الله على قوم ولّى أمرهم شرارهم. وفي الخبر عن النبيّ ﷺ:

[٢٩٥٢] «من أعان ظالماً سلّطه الله عليه». وقيل: المعنى نكِل بعضهم إلى بعض فيما يختارونه من الكفر، كما نكِلهم غداً إلى رؤسائهم الذين لا يقدرون على تخليصهم من العذاب. أي كما نفعل بهم ذلك في الآخرة كذلك نفعل بهم في الدنيا. وقد قيل في قوله تعالىٰ: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾[النساء: ١١٥] : نكله إلى ما وَكَل إليه نفسه. قال ابن عباس: تفسيرها هو أن الله إذا أراد بقوم شرًّا وَلَّى أمرَهم شرارَهم. يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠].

قوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ أي يوم نحشرهم نقول لهم ألم يأتكم رسل، فحذف؛ فيعترفون بما فيه افتضاحهم. ومعنى «منكم» في الخلق والتكليف والمخاطبة. ولما كانت الجن ممن يُخاطب ويعقل قال: «منكم» وإن كانت الرسل من الإنس وغلّب الإنس في الخطاب كما يُغلّب المذكر على المؤنث. وقال ابن عباس: رسل الجن هم الذين بلّغوا قومَهم ما سمعوه من الوحي؛ كما قال: ﴿وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأحقاف: ٢٩]. وقال مُقاتِل والضحّاك: أرسل الله رسلاً من الجن كما أرسل من ٱلإنس. وقال مجاهد: الرسل من الإنس، والنُّذُر من الجن؛ ثم قرأ ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ وهو معنىٰ قولِ ابن عباس، وهو الصحيح على ما يأتي بيانه في «الأحقاف».

[٢٩٥٢] باطل. ذكره السخاوي في المقاصد الحسنة ١٠٦٣ فقال: أخرجه ابن عساكر من حديث ابن مسعود، وفيه الحسن بن علي بن زكريا العدوي متهم بالوضع، فهو آفة، والحديث معناه صحيح اهـ ملخصاً.

وقال الكلبيّ: كانت الرسل قبل أن يبعث محمد ﷺ يُبعثون إلى الإنس والجن جميعاً.

قلت: وهذا لا يصحّ، بل في صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله الأنصاريّ قال قال رسول الله ﷺ:

[٢٩٥٣] «أعطيتُ خمساً لم يُعطهُنّ نبيّ قبلي كان كلّ نبيّ يُبعث إلى قومه خاصّةً وبُعثتُ إلى كل أحمرَ وأسوَد» الحديث. على ما يأتي بيانه في «الأحقاف». وقال ابن عباس: كانت الرسل تُبعث إلى الإنس وإن محمداً ﷺ بُعث إلى الجن والإنس؛ ذكره أبو الليث السَّمَرْقَنْدِيّ. وقيل: كان قوم من الجن ٱستمعوا إلى الأنبياء ثم عادوا إلى قومهم وأخبروهم؛ كالحال مع نبينا عليه السلام. فيقال لهم رسل الله، وإن لم يُنصّ على إرسالهم. وفي التنزيل: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ [الرحمن: ٢٢] أي من أحدهما، وإنما يخرج من المِلح دون العَذْب، فكذلك الرسل من الإنس دون الجن؛ فمعنى «منكم» أي من أحدكم. وكان هذا جائزاً؛ لأن ذكرهما سبق. وقيل: إنما صيّر الرسل في مخرج اللفظ من الجميع لأن الثَّقَلين قد ضمتهما عَرْصة القيامة، والحساب عليهم دون الخلق؛ فلما صاروا في تلك العَرْصة في حساب واحد في شأن الثواب والعقاب خوطبوا يومئذ بمخاطبة واحدة كأنهم جماعة واحدة؛ لأن بدء خلقهم للعبودية، والثوابُ والعِقاب على العبودية، ولأن الجن أصلهم من مارج من نار، وأصلنا من تراب، وخلقهم غير خلقنا؛ فمنهم مؤمن وكافر. وعدوّنا إبليس عدوّ لهم، يعادي مؤمنهم ويُوالِي كافرهم. وفيهم أهواء: شِيعَةٌ وقدريّة ومُرْجِئة يتلون كتابنا. وقد وصف الله عنهم في سورة «الجن» من قوله: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَاسِطُونَ﴾ [الجنّ: ١٤] ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾﴾ [الجن: ١١] على ما يأتي بيانه هناك. ﴿يَقُصُّونَ﴾ في موضع رفع نعت لرسل. ﴿قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾ أي شهدنا أنهم بلّغوا. ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ قيل: هذا خطاب من الله للمؤمنين؛ أي أن هؤلاء قد غرّتهم الحياة الدنيا، أي خدعتهم وظنّوا أنها تدوم، وخافوا زوالها عنهم إن آمنوا. ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي ٱعترفوا بكفرهم. قال مُقاتل: هذا حين شهدت عليهم الجوارح بالشرك وبما كانوا يعملون.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ في موضع رفع عند سيبويه؛ أي الأمر ذلك. و«أنْ» مخفّفة

[٢٩٥٣] صحيح. أخرجه البخاري ٣٣٥ ومسلم ٥٢١ وأحمد ٣/٣٠٤ وابن حبان ٦٣٩٨ من حديث جابر بأتم منه.

من الثقيلة؛ أي إنما فعلنا هذا بهم لأني لم أكن أهلك القرى بظلمهم؛ أي بشركهم قبل إرسال الرسل إليهم فيقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير. وقيل: لم أكن أهلك القرى بشرك من أشرك منهم؛ فهو مثل: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]. ولو أهلكهم قبل بعثة الرسل فله أن يفعل ما يريد. وقد قال عيسى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة: ١١٨] وقد تقدّم. وأجاز الفراء أن يكون «ذلِك» في موضع نصب، المعنى: فعل ذلك بهم؛ لأنه لم يكن يهلك القرى بظلم.

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ أي من الجن والإنس، كما قال في آية أخرىٰ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾﴾ ثم قال: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾[الأحقاف: ١٨ ـ ١٩]. وفي هذا ما يدل علىٰ ان المطيع من الجن في الجنة، والعاصي منهم في النار، كالإنس سواء. وهو أصح ما قيل في ذلك فاعلمه. ومعنىٰ «وَلِكلٍّ درجاتٌ» أي ولكل عامل بطاعةٍ درجاتٌ في الثواب. ولكل عاملٍ بمعصية دركاتٌ في العقاب.
﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ﴾ أي ليس بلاهٍ ولا ساهٍ. والغفلة أن يذهب الشيء عنك لاشتغالك بغيره.
﴿فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾قرأه ابن عامر بالتاء، الباقون بالياء.

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿١٣٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ﴾ أي عن خلقه وعن أعمالهم. ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ أي بأوليائه وأهل طاعته. ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ بالإماتة والاستئصال بالعذاب. ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ﴾ أي خلقاً آخر أَمْثَلَ منكم وأطوع. ﴿كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ والكاف في موضع نصب، أي يستخلف من بعدكم ما يشاء استخلافاً مثل ما أنشأكم، ونظيره ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ [النساء: ١٣٣]. ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]. فالمعنى يبدّل غيركم مكانكم، كما تقول: أعطيتك من دينارك ثوباً.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ ۖ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ ﴾ يحتمل أن يكون من «أوعدت» في الشرّ، والمصدر الإيعاد. والمراد عذاب الآخرة. ويحتمل أن يكون من «وعدت» على أن يكون المراد الساعة التي في مجيئها الخير والشر فغلّب الخير. روي معناه عن الحسن. ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ أي فائتين؛ يقال: أعجزني فلان، أي فاتني وغلبني.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ وقرأ أبو بكر بالجمع «مكاناتكم». والمكانة الطريقة. والمعنى: ٱثبتوا على ما أنتم عليه فأنا أثبت على ما أنا عليه. فإن قيل: كيف يجوز أن يؤمروا بالثبات على ما هم عليه وهم كفار. فالجواب أن هذا تهديد؛ كما قال عز وجل ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا ﴾ [التوبة: ٨٢]ودلّ عليه ﴿ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ ﴾ أي عاقبة المحمودة التي يحمد صاحبها عليها، أي من له النصر في دار الإسلام، ومن له وراثة الأرض، ومن له الدار الآخرة، أي الجنة. قال الزجاج: «مكانتكم» تمكّنكُم في الدنيا. ٱبن عباس والحسن والنخَعيّ: على ناحيتكم. القُتَبيّ: على موضعكم. ﴿ إِنِّى عَامِلٌ ﴾ على مكانتي، فحذف لدلالة الحال عليه. و«مَنْ» مِن قوله ﴿ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ ﴾ في موضع نصب بمعنىٰ الذي؛ لوقوع العلم عليه. ويجوز أن تكون في موضع رفع؛ لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله فيكون الفعل معلقاً. أي تعلمون أيّنا تكون له عاقبة الدّار؛ كقوله: ﴿ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ ﴾ [الكهف: ١٢] وقرأ حمزة والكِسائيّ «من يكون» بالياء.

قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا ﴾ فيه مسألة واحدة:

ويقال:(١) ذرأ يذرأ ذرءاً، أي خلق. وفي الكلام حذف وٱختصار، وهو وجعلوا لأصنامهم نصيباً؛ دلّ عليه ما بعده. وكان هذا مما زيّنه الشيطان وسوّله لهم، حتى صَرَفُوا من مالهم طائفةً إلى الله بزعمهم وطائفةً إلى أصنامهم؛ قاله ٱبن عباس والحسن

---

(١) كذا في الأصل ولعل الصواب «يقال» بدون واو.

ومجاهد وقَتادة. والمعنى متقارب. جعلوا لله جزءاً ولشركائهم جزءاً، فإذا ذهب ما لشركائهم بالإنفاق عليها وعلى سَدَنتها عوّضوا منه ما لله، وإذا ذهب ما لله بالإنفاق على الضِّيفان والمساكين لم يعوّضوا منه شيئاً، وقالوا: الله مُستغْن عنه وشركاؤنا فقراء. وكان هذا من جهالاتهم وبزعمهم. والزعم الكذب. قال شُريح القاضي: إن لكل شيء كُنْيَة وكُنْيةُ الكذب زعموا. وكانوا يكذبون في هذه الأشياء لأنه لم ينزل بذلك شرع. وروى سعيد بن جبير عن ٱبن عباس أنه قال: من أراد أن يعلم جهل العرب فليقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام إلى قوله: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ قال ابن العربيّ: وهذا الذي قاله كلام صحيح، فإنها تصرفت بعقولها العاجزة في تنويع الحلال والحرام سفاهةً بغير معرفة ولا عدل، والذي تصرّفت بالجهل فيه من ٱتخاذ الآلهة أعظمُ جهلاً وأكبرُ جُرْماً؛ فإن الاعتداء على الله تعالى أعظمُ من الاعتداء على المخلوقات. والدليل في أن الله واحد في ذاته واحد في صفاته واحد في مخلوقاته أبْيَنُ وأوضحُ من الدليل على أن هذا حلال وهذا حرام. وقد رُوي أن رجلاً قال لعمرو بن العاص: إنكم على كمال عقولكم ووفور أحلامكم عبدتم الحجر! فقال عمرو: تلك عقول كادها باريها. فهذا الذي أخبر الله سبحانه من سخافة العرب وجهلها أمر أذهبه الإسلام، وأبطله الله ببعثه الرسول عليه السلام. فكان من الظاهر لنا أن نميته حتى لا يَظهر، وننساه حتى لا يُذكر؛ إلا أن ربنا تبارك وتعالى ذكره بنصه وأورده بشرحه، كما ذكر كفر الكافرين به. وكانت الحكمة في ذلك ـ والله أعلم ـ أن قضاءه قد سبق، وحكمه قد نفذ بأن الكفر والتخليط لا ينقطعان إلى يوم القيامة. وقرأ يحيى بن وثّاب والسُّلَميّ والأعمش والكسائيّ «بزُعمِهم» بضمّ[1] الزاي. والباقون بفتحها، وهما لغتان. ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي إلى المساكين. ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ أي ساء الحُكْم حكمهم. قال ابن زيد: كانوا إذا ذبحوا ما لله ذكروا عليه اسم الأوثان، وإذا ذبحوا ما لأوثانهم لم يذكروا عليه اسم الله، فهذا معنىٰ ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ﴾. فكان تركهم لذكر الله مذموماً منهم وكان داخلاً في ترك أكل ما لم يذكر ٱسمُ الله عليه.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾.

---

(١) في الأصل «بضمه» والمثبت هو الصواب، ويدل عليه ما بعده.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾ المعنى: فكما زَيّن لهؤلاء أن جعلوا لله نصيباً ولأصنامهم نصيباً كذلك زَيّن لكثير من المشركين قَتلَ أولادِهم شركاؤُهم. قال مجاهد وغيره: زيّنت لهم قتل البنات مخافة العَيْلَة. قال الفراء والزجاج: شركاؤهم ها هنا هم الذين كان يخدُمون الأوثان. وقيل: هم الغُوَاة من الناس. وقيل: هم الشياطين. وأشار بهذا إلى الوَأد الخفِيّ[1] وهو دفن البنت حية مخافةَ السِّبَاء والحاجة، وعدم ما حُرِمْن من النصرة. وسمى الشياطين شركاء لأنهم أطاعوهم في معصية الله فأشركوهم مع الله في وجوب طاعتهم. وقيل: كان الرجل في الجاهلية يحلف بالله لئن وُلد له كذا وكذا غلاماً لينحرَنّ أحدهم؛ كما فعله عبد المطلب حين نذر ذبح ولده عبدِ الله. ثم قيل: في الآية أربع قراءات، أصحها قراءة الجمهور: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾ وهذه قراءة أهل الحرمين وأهل الكوفة وأهل البصرة. «شركاؤهم» رفع بـ«ـزين»؛ لأنهم زَيّنوا ولم يقتلوا. «قَتْل» نصب بـ«ـزين» و«أولادهم» مضاف إلى المفعول، والأصل في المصدر أن يضاف إلى الفاعل؛ لأنه أحدثه ولأنه لا يستغنى عنه ويستغنى عن المفعول؛ فهو هنا مضاف إلى المفعول لفظاً مضافٌ إلى الفاعل معنًى؛ لأن التقدير زَيّن لكثير من المشركين قتلهم أولادهم شركاؤهم، ثم حذف المضاف وهو الفاعل كما حذف من قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ [فصلت: ٤٩] أي من دعائه الخير. فالهاء فاعلة الدعاء، أي لا يسأم الإنسان من أن يدعو بالخير. وكذا قوله: زيّن لكثير من المشركين في أن يقتلوا أولادهم شركاؤهم. قال مكيّ: وهذه القراءة هي الاختيار، لصحة الإعراب فيها ولأن عليها الجماعة. القراءة الثانية «زُيّن» (بضم الزاي). «لكثير من المشركين قتلُ» (بالرفع). «أولادِهم» بالخفض. «شركاؤهم» (بالرفع) قراءة الحسن. ٱبنُ عامر وأهل الشام «زُيّنَ» بضم الزاي «لكثير من المشركين قتلُ أولادَهم» برفع «قتل» ونصب «أولادهم». «شركائهم» بالخفض فيما حكى أبو عبيد؛ وحكى غيره عن أهل الشام أنهم قَرءوا «وكذلك زُيّنَ» بضم الزاي «لكثير من المشركين قتلُ» بالرفع «أولادِهم» بالخفض «شركائهم» بالخفض أيضاً. فالقراءة الثانية قراءة الحسن جائزة، يكون «قتل» ٱسم ما لم يُسم فاعله، «شركاؤهم»؛ رفع بإضمار فعل يدل عليه «زَيّنَ»، أي زيّنه شركاؤهم. ويجوز على هذا ضُرِب زيدٌ عمروٌ، بمعنى ضربه عمرو، وأنشد سيبويه:

---

(١) كذا وقع في كل الأصول والصواب أن دفن البنت حية.. الخ. هو الوأد الظاهر. وأما الوأد الخفي فهو العزل كما صحّ في الحديث، والله أعلم، وسيأتي تخريجه.

* لِيُبْك يَزِيـدُ ضارعٌ لخصومـةٍ *

أي يبكيه ضارع. وقرأ ابن عامر وعاصم من رواية أبي بكر ﴿**يُسَبَّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ**﴾[النور: ٣٦] التقدير يسبحه رجال. وقرأ إبراهيم بن أبي عَبْلَة ﴿**قتل أصحاب الأخدود النارُ ذاتُ الوقود**﴾ [البروج: ٤ـ٥] بمعنىٰ قتلهم النار. قال النحاس: وإنَّمَا أجاز حكاه أبـو عبيـد عـن ابـن عـامـر وأهـل الشـام فـلا يجـوز فـي كـلام ولا فـي شعـر، وإنَّمـا أجـاز النحويون التفريق بين المضاف والمضاف إليه بالظرف لأنه لا يَفصِل، فأما بالأسماء غير الظروف فلَحْنٌ. قال مَكِّيّ: وهذه القراءة فيها ضعف للتفريق بين المضاف والمضاف إليه؛ لأنه إنما يجوز مثل هذا التفريق في الشعر مع الظروف لاتساعهم فيها وهو في المفعول به في الشعر بعيد، فإجازته في القراءة أبعد. وقال المهدوِيّ: قراءة ابن عامر هذه على التفرقة بين المضاف والمضاف إليه، ومثله قول الشاعر:

فــزَجَجْتُهــا بِمــزجّــة ... زَجَّ القَلوصَ أبي مَزادة[٣]

يريد: زجّ أبي مزادة القَلوصَ. وأنشد:

تَمُـرّ علـى مـا تستمـر وقـد شفـت ... غلائلَ عبدُ القيس منها صُدُورِها

يريد شفت عبدُ القيس غلائل صدورها. وقال أبو غانم أحمد بن حمدان النحوي: قراءة ٱبن عامر لا تجوز في العربية؛ وهي زلّة عالم، وإذا زل العالم لم يجز ٱتباعه، ورُدّ قوله إلى الإجماع، وكذلك يجب أن يُرَدّ من زلّ منهم أو سها إلى الإجماع؛ فهو أولى من الإصرار على غير الصواب. وإنما أجازوا في الضرورة للشاعر أن يفرق بين المضاف والمضاف إليه بالظرف؛ لأنه لا يفصل. كما قال[٤]:

كمـا خُـطّ الكتـاب بكـفّ يـومـاً ... يَهــودِيٍّ يُقَــارِبُ أو يُــزيــلُ

وقال آخر[٥]:

كـأنّ أصـواتَ مِـن إيغـالهـن بنـا ... أواخِـرِ المَيْسِ أصـواتُ الفَـرارِيـج

وقال آخر[٦]:

لمّـا رأت سَـاتيـدَمـا ٱستعبَـرَتْ ... لِلَّــهِ دَرُّ اليــومَ مَــن لاَمَهــا

---

(١) تقدم مراراً.

(٢) قراءة نافع.

(٣) المِزَجَة: رمح قصير. القلوص: الفتية من النوق.

(٤) البيت لأبي حية النمري.

(٥) البيت لذي الرمة. الميس: شجر تعمل منه الرحال. والإيغال: سرعة السير.

(٦) البيت لعمرو بن قميئة. ساتيدما: اسم جبل.

وقال القشيري: وقال قوم هذا قبيح، وهذا محال، لأنه إذا ثبتت القراءة بالتواتر عن النبيّ ﷺ فهو الفصيح لا القبيح. وقد ورد ذلك في كلام العرب وفي مصحف عثمان «شركائهم» بالياء وهذا يدل على قراءة ابن عامر. وأضيف القتل في هذه القراءة إلى الشركاء؛ لأن الشركاء هم الذين زيّنوا ذلك وَدَعَوْا إليه؛ فالفعل مضاف إلى فاعله على ما يجب في الأصل، لكنه فرق بين المضاف والمضاف إليه، وقدّم المفعول وتركه منصوباً على حاله؛ إذْ كان متأخراً في المعنى، وأخر المضاف وتركه مخفوضاً على حاله؛ إذْ كان متقدّماً بعد القتل. والتقدير: وكذلك زُين لكثير من المشركين قَتْلُ شركائهم أولادَهم. أي أَنْ قتلَ شركاؤهم أولادَهم. قال النحاس: فأما ما حكاه غير أبي عبيد (وهي القراءة الرابعة) فهو جائز. على أن تبدل شركاءهم من أولادهم؛ لأنهم شركاؤهم في النسب والميراث. ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾ اللام لام كيّ. والإرداء الإهلاك. ﴿وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ الذي ٱرتضى لهم. أي يأمرونهم بالباطل ويشككونهم في دينهم. وكانوا على دين إسماعيل، وما كان فيه قتل الولد؛ فيصير الحق مغطًّى عليه؛ فبهذا يلبسون. ﴿وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ بيّن تعالىٰ أن كفرهم بمشيئة الله. وهو ردٌّ على القدرية. ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ يريد قولهم إن لله شركاء.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

ذكر تعالىٰ نوعاً آخر من جهالتهم. وقرأ أبان بن عثمان «حُجُر» بضم الحاء والجيم. وقرأ الحسن وقتادة «حَجْر» بفتح الحاء وإسكان الجيم، لغتان بمعنًى. وعن الحسن أيضاً «حُجر» بضم الحاء. قال أبو عبيد عن هارون قال: كان الحسن يضم الحاء في «حِجر» في جميع القرآن إلا في قوله: ﴿بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾ [الفرقان: ٥٣] فإنه كان يكسرها هاهنا. ورُوي عن ٱبن عباس وٱبن الزبير «وَحَرْثٌ حِرْج» الراء قبل الجيم؛ وكذا في مصحف أُبَيٍّ؛ وفيه قولان: أحدهما أنه مثل جبَذ وجذب. والقول الآخر ـ وهو أصح ـ أنه من الحِرج؛ فإن الحِرج (بكسر الحاء) لغة في الحَرَج (بفتح الحاء) وهو الضيق والإثم؛ فيكون معناه الحرام. ومنه فلان يتحرّج أي يضيق على نفسه الدخولَ فيما يشتبه عليه من الحرام. والحِجر: لفظ مشترك. وهو هنا بمعنى الحرام، وأصله المنع. وسُمِّيَ العقل حجراً لمنعه عن القبائح. وفلان في حِجْر القاضي أي منعه. حجرت على الصبيّ حَجْراً. والحِجر العقل؛ قال الله تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾﴾ [الفجر: ٥] والحِجر الفرس الأنثى. والحِجر القرابة. قال:

يريدون أن يُقصُوه عنّي وإنه لذو حَسَبٍ دانٍ إليّ وذو حِجْرِ

وحِجر الإنسان وحَجره لغتان، والفتح أكثر. أي حَرّموا أنعاماً وحَرْثاً وجعلوها لأصنامهم وقالوا: ﴿لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾ وهم خدّام الأصنام. ثم بيّن أن هذا تحكّم لم يَرِد به شرع؛ ولهذا قال: «بِزعْمِهِمْ». ﴿وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ يريد ما يُسَيِّبُونَهُ لآلهتهم على ما تقدّم من النصيب. وقال مجاهد: المراد البَحِيرة والوصِيلة والحام[1]. ﴿وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾ يعني ما ذبحوه لآلهتهم. قال أبو وائل: لا يحجّون عليها. ﴿ٱفْتِرَآءً﴾ أي للافتراء ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٦٩]؛ لأنهم كانوا يقولون: الله أمرنا بهذا. فهو نصبٌ على المفعول له. وقيل: أي يفترون افتراء؛ وانتصابه لكونه مصدراً.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾ هذا نوع آخر من جهلهم. قال ابن عباس: هو اللبن، جعلوه حلالاً للذكور وحراماً على الإناث. وقيل: الأجِنّة؛ قالوا: إنها لذكورنا. ثم إنْ مات منها شيء أكله الرجال والنساء. والهاء في «خالِصة» للمبالغة في الخلوص؛ ومثله رجل علامة ونسابة؛ عن الكِسائيّ والأخفش. و«خالِصةٌ» بالرفع خبر المبتدأ الذي هو «ما». وقال الفراء: تأنيثها لتأنيث الأنعام. وهذا القول عند قوم خطأ؛ لأن ما في بطونها ليس منها؛ فلا يشبه قوله ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ [يوسف: ١٠]لأن بعض السَّيارة سَيّارة، وهذا لا يلزم قال الفراء: فإن ما في بطون الأنعام أنعام مثلها؛ فأنّث لتأنيثها، أي الأنعام التي في بطون الأنعام خالصة لذكورنا. وقيل: أي جماعة ما في البطون. وقيل: إن «ما» ترجع إلى الألبان أو الأجِنّة؛ فجاء التأنيث على المعنى والتذكير على اللفظ. ولهذا قال: ﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ على اللفظ. ولو راعى المعنى لقال ومحرّمة. ويَعْضُد هذا قراءة الأعمش «خالِص» بغير هاء. قال الكسائي: معنى خالص وخالصة واحد، إلا أن الهاء للمبالغة؛ كما يقال؛ رجل داهية وعلامة؛ كما تقدمّ. وقرأ قَتادة «خالِصةً» بالنصب على الحال من الضمير في الظرف الذي هو صلة لـ«ـما». وخبر المبتدأ محذوف؛ كقولك: الذي في الدار قائماً زيد. هذا مذهب البصريين. وانتصب عند الفرّاء على القطع. وكذا القول في قراءة سعيد بن جبير

(١) تقدم شرح هذه المفردات في أواخر سورة المائدة.

«خالِصاً». وقرأ ابن عباس «خالِصهُ» على الإضافة فيكون ابتداء ثانياً؛ والخبر «لذكورِنا» والجملة خبر «ما». ويجوز أن يكون «خالِصَه» بدلاً من «ما». فهذه خمس قراءات. ﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَاۖ﴾ أي بناتنا؛ عن ابن زيد. وغيره: نساؤهم. ﴿وَإِن يَكُن مَّيْتَةً﴾ قرىء بالياء والتاء؛ أي إن يكن ما في بطون الأنعام ميتة ﴿فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُۚ﴾ أي الرجال والنساء. وقال «فيه» لأن المراد بالميتة الحيوان، وهي تقوّي قراءة الياء، ولم يقل فيها. «مَيْتَةٌ» بالرفع بمعنى تقع أو تحدث. «ميتةً» بالنصب؛ أي وإن تكنْ النَّسمة ميتة. ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْۚ﴾ أي كذبهم وافتراءهم؛ أي يعذبهم على ذلك. وانتصب «وَصْفَهُمْ» بنزع الخافض؛ أي بوصفهم. وفي الآية دليل على أن العالم ينبغي له أن يتعلّم قول من خالفه وإن لم يأخذ به، حتى يعرف فساد قوله، ويعلم كيف يردّ عليه؛ لأن الله تعالى أعلم النبيّ ﷺ وأصحابه قول من خالفهم من أهـــل زمانهم؛ ليعرفوا فساد قولهم.

قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾.

أخبر بخسرانهم لِوَأْدِهِم البنات وتحريمهم البَحِيرة وغيرها بعقولهم؛ فقتلوا أولادهم سَفَهاً خوف الإملاق، وحجروا على أنفسهم في أموالهم ولم يُخشوا الإملاق؛ فأبان ذلك عن تناقض رأيهم.

قلت: إنه كان من العرب من يقتل ولده خَشْية الإملاق؛ كما ذكر الله عز وجل في غير هذا الموضع. وكان منهم من يقتله سَفهاً بغير حجة منهم في قتلهم؛ وهم ربيعة ومُضَر، كانوا يقتلون بناتهم لأجل الحَمِيّة. ومنهم من يقول: الملائكة بنات الله؛ فألحقوا البنات بالبنات. ورُوِي أن رجلاً من أصحاب النبيّ ﷺ كان لا يزال مغتماً بين يدي رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ:

[٢٩٥٤] «مالك تكون محزوناً»؟ فقال: يا رسول الله، إني أذنبت ذنباً في الجاهلية فأخاف ألاّ يغفره الله لـي وإن أسلمت! فقال لـه: «أخبرني عن ذنبك». فقال: يا رسول الله، إني كنت من الذين يقتلون بناتهم، فوُلِدَت لي بِنت فتشفّعت إليّ امرأتي أن أتركها فتركتها حتى كَبِرَتْ وأدركتْ، وصارت من أجمل النساء فخطبوها؛ فدخلتني الحَمِيّة ولم يحتمل قلبي أن أزوّجها أو أتركها في البيت بغير زوج، فقلت للمرأة: إني أريد أن أذهب إلى قبيلة كذا وكذا في زيارة أقربائي فابعثيها معي، فسُرّت بذلك وزينتها

[٢٩٥٤] لم أجده مسنداً، وإنما ذكره السمرقندي، في «تفسيره» ١/ ٥١٧ بقوله روي، من غير عزو ولا إسناد، فهو غير صحيح وهو شبه موضوع.

بالثياب والحُلِيّ، وأخذت عليّ المواثيق بألاّ أخونها، فذهبتُ بها إلى رأس بئر فنظرت في البئر ففطِنت الجارية أني أريد أن ألقيها في البئر؛ فالتزمتني وجعلت تبكي وتقول: يا أبت! أيْشٍ تريد أن تفعل بي! فرحمتها، ثم نظرتُ في البئر فدخلت عليّ الحمِيّة، ثم التزمتني وجعلت تقول: يا أبت لا تضيّع أمانة أمّي؛ فجعلت مرةً أنظر في البئر ومرّة أنظر إليها فأرحمها، حتى غلبني الشيطان فأخذتها وألقيتها في البئر منكوسةً، وهي تنادي في البئر: يا أبت، قتلتني. فمكثتُ هناك حتى انقطع صوتُها فرجعتُ. فبكى رسول الله ﷺ وأصحابه وقال: «لو أُمِرْتُ أن أعاقب أحداً بما فعل في الجاهلية لعاقبتك».

قوله تعالى: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾.

فيه ثلاث وعشرون مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أَنشَأَ﴾ أي خلق. ﴿جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ﴾ أي بساتين مسموكات[1] مرفوعات. ﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾ غير مرفوعات. قال ابن عباس: «مَعْرُوشَاتٍ» ما انبسط على الأرض مما يفْرِشُ مثل الكروم والزروع والبَطِّيخ. «وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ» ما قام على ساق مثل النخل وسائر الأشجار. وقيل: المعروشات ما ارتفعت أشجارها. وأصل التعريش الرفع. وعن ابن عباس أيضاً: المعروشات ما أثبته ورفعه الناس. وغير المعروشات ما خرج في البراري والجبال من الثمار. يدل عليه قراءة عليّ رضي الله عنه «مَغْرُوسَاتٍ وَغَيْرَ مَغْرُوسَاتٍ» بالغين المعجمة والسين المهملة.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ﴾ أفردهما بالذكر وهما داخلان في الجنات لما فيهما من الفضيلة؛ على ما تقدم بيانه في «البقرة» عند قوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ [البقرة: ٩٨] الآية. ﴿مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾ يعني طعمه منه الجيّد والدُّون. وسمّاه أكلاً لأنه يؤكل. «أُكُلُهُ» مرفوع بالابتداء. و«مُخْتَلِفاً» نعته؛ ولكنه لما تقدم عليه ووَلِي منصوباً نُصب. كما تقول: عندي طباخاً غلام. قال:

الشَّرُّ مُنْتَشِرٌ يَلقاك عن عُرُضٍ ... والصالحاتُ عليها مُغلقاً بابُ

وقيل: «مُخْتَلِفاً» نصب على الحال. قال أبو إسحاق الزجاج: وهذه مسألة مُشْكِلة من النحو؛ لأنه يقال: قد أنشأها ولم يختلف أكلها وهو ثمرها؛ فالجواب أن الله سبحانه

---

(١) وقع في الأصول «ممسوكات» والتصويب عن تفسير البغوي ٢/ ١١٢، والطبري ١٣٩٥٨.

أنشأها بقوله: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١١] فأعلم أنه أنشأها مختلفاً أكلها، أي أنه أنشأها مقدّراً على الاختلاف، وقد بيّن هذا سيبويه بقوله: مررت برجل معه صَقْرٌ صائداً به غداً، على الحال، كما تقول: لتدخلُنّ الدار آكلين شاربين، أي مقدّرين ذلك. جواب ثالث: ـ أي لما أنشأه كان مختلفاً أكله، على معنى أنه لو كان له أُكُلٌ لكان مختلفاً أكله. ولم يقل أكلهما؛ لأنه اكتفى بإعادة الذكر على أحدهما؛ كقوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا إِلَيْهَا﴾ [الجمعة: ١١]أي إليهما. وقد تقدّم هذا المعنى.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾ عطف عليه ﴿مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ نصب على الحال، وقد تقدم القول فيه. وفي هذه أدلة ثلاثة: أحدها ما تقدم من قيام الدليل على أن المتغيرات لا بدّ لها من مغيِّر. الثاني على المِنَّة منه سبحانه علينا؛ فلو شاء إذ خلقنا ألاّ يخلق لنا غذاء، وإذا خلقه ألاّ يكون جميل المَنْظر طيّب الطعم، وإذا خلقه كذلك ألاّ يكون سهل الجَنْيِ؛ فلم يكن عليه أن يفعل ذلك ابتداء؛ لأنه لا يجب عليه شيء. الثالث على القدرة في أن يكون الماء الذي من شأنه الرّسوب يصعَد بقدرة الله الواحِد عَلاّمِ الغيوب من أسافل الشجرة إلى أعاليها، حتى إذا انتهى إلى آخرها نشأ فيها أوراقٌ ليست من جنسها، وثمرٌ خارج من صفته الجِرْم الوافر، واللون الزاهر، والجَنَى الجديد، والطعم اللذيذ؛ فأين الطبائع وأجناسها، وأين الفلاسفة وأُناسُها، هل في قدرة الطبيعة أن تتقن هذا الإتقان، أو ترتّب هذا الترتيب العجيب! كلا! لا يتم ذلك في العقول إلا لِحَيّ عالمٍ قديرٍ مُريدٍ. فسبحان من له في كل شيء آية ونهاية!

ووجه اتّصال هذا بما قبله أن الكفار لما افتَرَوْا على الله الكذب وأشركوا معه وحَلّلوا وحرّموا دَلّهُم على وحدانيته بأنه خالق الأشياء، وأنه جعل هذه الأشياء أرزاقاً لهم.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ فهذان بناءان جاءا بصيغة افْعَلْ؛ أحدهما مباح كقوله: ﴿فَٱنتَشِرُوا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠] والثاني واجب. وليس يمتنع في الشريعة اقتران المباح والواجب، وبدأ بذكر نعمة الأكل قبل الأمر بإيتاء الحق ليبيّن أن الابتداء بالنعمة كان من فضله قبل التكليف.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ اختلف الناس في تفسير هذا الحق ما هو؛ فقال أنس بن مالك وابن عباس وطاوس والحسن وابن زيد وابن الحنفية والضّحاك وسعيد بن المسيب: هي الزكاة المفروضة، العُشْر ونِصْفُ العُشْر. ورواه ابن وَهْب وابن القاسم عن مالك في تفسير الآية، وبه قال بعض أصحاب الشافعيّ. وحكى الزجاج أن هذه الآيةَ قيل فيها أنها نزلت بالمدينة. وقال عليّ بن الحسين وعطاء والحَكَم

وحمّاد وسعيد بن جُبير ومجاهد: هو حقٌّ في المال سوى الزكاة، أمر الله به نَدْباً. وروي عن ابن عمر ومحمد بن الحنفية أيضاً، ورواه[1] أبو سعيد الخُدْرِيّ عن النبيّ ﷺ. قال مجاهد: إذا حصَدَت فحضرك المساكين فأطرَح لهم من السُّنْبل، وإذا جَذَذت فألق لهم من الشماريخ[2]، وإذا درسته ودسته وذَرّيْته فأطرح لهم منه، وإذا عرفت كيله فأخرج منه زكاته. وقول ثالث هو منسوخ بالزكاة؛ لأن هذه السورة مكية وآية الزكاة لم تنزل إلا بالمدينة: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ [التوبة: ١٠٣]، ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣]. روي عن ابن عباس وابن الحنفية والحسن وعطية العَوْفي والنَّخَعِيّ وسعيد بن جبير. وقال سفيان: سألت السُّدّي عن هذه الآية فقال: نسخها العُشْر ونصف العُشر. فقلت عمّن؟ فقال عن العلماء.

السادسة: وقد تعلّق أبو حنيفة بهذه الآية وبعموم ما في قوله عليه السلام:

[٢٩٥٥] «فيما سَقَتِ السماءُ العُشْر وفيما سُقِيَ بنَضْح[3] أو دَالِية نصفُ العُشْر» في إيجاب الزكاة في كل ما تُنبت الأرض طعاماً كان أو غيره. وقال أبو يوسف عنه: إلا الحطب والحشيش والقَضْب والتِّين والسعف[4] وقصَب الذرِيرة[5] وقصب السكر. وأباه الجمهور، معوّلين على أن المقصود من الحديث بيان ما يؤخذ منه العشر وما يؤخذ منه نصف العشر. قال أبو عمر: لا اختلاف بين العلماء فيما علمت أن الزكاة واجبة في الحنطة والشعير والتمر والزبيب. وقالت طائفة: لا زكاة في غيرها. رُوي ذلك عن الحسن وابنِ سِيرين والشَّعْبيّ. وقال به من الكوفيين ابن أبي لَيْلَى والثّورِيّ والحسن بن صالح وابن المبارك ويحيى بن آدم، وإليه ذهب أبو عبيد. ورُوي ذلك عن أبي موسى عن النبي ﷺ[5]، وهو مذهب أبي موسىٰ، فإنه كان لا يأخذ الزكاة إلا من الحنطة والشعير والتمر والزبيب؛ ذكره وَكيع عن طلحة بن يحيى عن أبي بُرْدة عن أبيه. وقال مالك وأصحابه:

[٢٩٥٥] صحيح. أخرجه البخاري ١٤٨٣ من حديث ابن عمر، وقد مضىٰ.

---

(١) يشير المصنف لما أخرجه ابن مردويه عن أبي سعيد مرفوعاً «وآتوا حقه يوم حصاده. قال: ما سقط من السنبل» وإسناده ضعيف فيه ابن لهيعة عن درَّاج عن أبي الهيثم وهذه سلسلة واهية. راجع ابن كثير ٢/ ١٨٨ والراجح فيه الوقف.
تنبيه: قوله «ورواه.. الخ» ظاهره العطف على ما قبله، ومراد القرطبي قول مجاهد الآتي.

(٢) قضيب النخل أو غير عليه بُسْرٌ أو نحوه.

(٣) سقي الزرع بالسانية وهي الناقة يسقىٰ عليها.

(٤) قشر شجر الغاف.

(٥) قصب هندي أحمر يتداوىٰ به.

(٥) انظر «المستدرك» ١/ ٤٠١ ح ١٤٥٩، وهو ضعيف.

الزكاة واجبة في كل مُقتات مدخر؛ وبه قال الشافعيّ. وقال الشافعيّ: إنما تجب الزكاة فيما يَيْبس ويُدَّخر ويقتات مأكولاً. ولا شيء في الزيتون لأنه إدام. وقال أبو ثور مثله. وقال أحمد أقوالاً أظهرها أن الزكاة إنما تجب في كل ما قاله أبو حنيفة إذا كان يُوسق؛ فأوجبها في اللَّوْز لأنه مكيل دون الجَوْز لأنه معدود. وٱحتج بقوله عليه السلام:

[٢٩٥٦] «ليس فيما دون خمسة أوْسُق من تمر أو حب صدقة» قال: فبيّن النبيّ ﷺ أن محل الواجب هو الوَسْقُ، وبيّن المقدار الذي يجب إخراج الحق منه. وذهب النَّخَعِيّ إلى أن الزكاة واجبة في كل ما أخرجته الأرض، حتى في عشر دَساتِجَ[1] من بقل دستجةُ بقل. وقد ٱختلف عنه في ذلك، وهو قول عمر بن عبد العزيز فإنه كتب أن يؤخذ مما تنبت الأرض من قليل أو كثير العُشْر؛ ذكره عبد الرزاق عن مَعْمَر عن سِماك بن الفضل، قال: كتب عمر . . . ؛ فذكره. وهو قول حماد بن أبي سليمان وتلميذِه أبي حنيفة. وإلى هذا مال ٱبن العربيّ في أحكامه فقال: وأما أبو حنيفة فجعل الآية مرآته فأبصر الحق، وأخذ يَعْضُد مذهب الحنفيّ ويقوّيه. وقال في كتاب (القبس بما عليه الإمام مالك بن أنس) فقال: قال الله تعالى: ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾. وٱختلف الناس في وجوب الزكاة في جميع ما تضمنته أو بعضه، وقد بيّنا ذلك، في (الأحكام) لُبَابُه، أن الزكاة إنما تتعلق بالمقْتات كما بيّنا دون الخضراوات؛ وقد كان بالطائف الرمان والفِرِسك[2] والأُتْرُجُّ فما ٱعترضه رسول الله ﷺ ولا ذكره ولا أحد من خلفائه.

قلت: هذا وإن لم يذكره في الأحكام هو الصحيح في المسألة، وأن الخضراوات ليس فيها شيء. وأما الآية فقد ٱختلف فيها، هل هي محكمة أو منسوخة أو محمولة على النَّدْب. ولا قاطع يبين أحد مَحَامِلها، بل القاطع المعلوم ما ذكره ابن بكير في أحكامه: أن الكوفة ٱفتتحت بعد موت النبيّ ﷺ وبعد ٱستقرار الأحكام في المدينة، أفيجوز أن يتوهّم متوهمٌ أو من له أدنى بصيرة أن تكون شريعة مثل هذه عُطّلت فلم يُعمل بها في دار الهجرة ومُستقَر الوحي ولا في خلافة أبي بكر، حتى عمِل بذلك الكوفيون؟. إن هذه لمصيبة فيمن ظن هذا وقال به!.

قلت: ومما يدلّ على هذا من معنى التنزيل قوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧] أتراه يكتم شيئاً أُمِر بتبليغه

[٢٩٥٦] صحيح. أخرجه مسلم ٩٧٩ ح ٤ من حديث أبي سعيد.

(١) الدستجة: الحزمة.

(٢) الفِرْسك: ضرب من الخوخ.

أو ببيانه؟ حاشاه عن ذلك وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: ٣] ومن كمال الدّين كونه لم يأخذ من الخضراوات شيئاً. وقال جابر بن عبد الله فيما رواه الدّارَقُطْنِيّ: إن المقاثيء[1] كانت تكون عندما تُخرج عشرة آلاف فلا يكون فيها شيء. وقال الزُّهْرِيّ والحسن: تُزَكى أثمان الخضر إذا بيعت وبلغ الثمن مائتي درهم؛ وقاله الأوزاعيّ في ثمن الفواكه. ولا حجة في قولهما لما ذكرنا. وقد روى الترمذيّ عن معاذ أنه كتب إلى النبي ﷺ يسأله عن الخضراوات وهي البقول فقال:

[٢٩٥٧] «ليس فيها شيء». وقد رُوي هذا المعنى عن جابر وأنس وعليّ ومحمد بن عبد الله بن جحش وأبي موسى وعائشة. ذكر أحاديثهم الدّارَقُطْنِيّ رحمه الله. قال الترمذيّ: ليس يصح في هذا الباب عن النبي ﷺ شيء. واحتج بعض أصحاب أبي حنيفة بحديث صالح بن موسى عن منصور عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ:

[٢٩٥٨] «فيما أنبتت الأرض من الخضر زكاة». قال أبو عمر: وهذا حديث لم يروه من ثقات أصحاب منصور أحد هكذا، وإنما هو من قول إبراهيم.

قلت: وإذا سقط الاستدلال من جهة السُّنّة لضعف أسانيدها فلم يبق إلا ما ذكرناه من تخصيص عموم الآية، وعموم قوله عليه السلام:

[٢٩٥٩] «فيما سقت السماء العُشْر» بما ذكرنا. وقال أبو يوسف ومحمد: ليس في شيء من الخضر زكاة إلا ما كانت له ثمرة باقية، سوى الزعفران ونحوه مما يوزن ففيه الزكاة. وكان محمد يعتبر في العُصْفر والكَتّان البزر، فإذا بلغ بزرهما من القرطم والكتان خمسة أوسق كان العُصْفر والكتان تبعاً للبزر، وأخذ منه العشر أو نِصف العشر. وأما القطن فليس فيه عنده دون خمسة أحمال شيء؛ والحمل ثلثمائة مَنٍّ بالعراقيّ. والوَرْس والزعفران ليس فيما دون خمسة أَمْنَان منها شيء. فإذا بلغ أحدهما خمسة أمنان كانت فيه الصدقة، عُشْراً أو نصف العشر. وقال أبو يوسف: وكذلك قصب السكر الذي يكون منه

[٢٩٥٧] أخرجه الترمذي ٦٣٨ من حديث معاذ وقال: ليس بصحيح والحسن بن عمارة ضعيف الحديث اهـ وله شواهد انظر المستدرك ١/ ٤٠١ وسنن البيهقي ٤/ ١٢٨، والإرواء ٨٠١.

[٢٩٥٨] ضعيف جداً. لأجل صالح بن موسىٰ قال الحافظ في التقريب: متروك، وانظر الميزان للذهبي. وقد صوب ابن عبد البر كونه من قول إبراهيم النخعي كما ذكر القرطبي.

[٢٩٥٩] تقدم برقم ٢٩٥٥ رواه البخاري وغيره.

---

(١) موضع القثاء وهو جمع مقثأة.

السكر، ويكون في أرض العُشْر دون أرض الخرَاج، فيه ما في الزعفران. وأوجب عبد الملك بن الماجِشُون الزكاة في أصول الثمار دون البقول. وهذا خلاف ما عليه مالك وأصحابه، لا زكاة عندهم لا في اللّوز ولا في الجَوْز ولا في الجلَّوْز[1] وما كان مثلها، وإن كان ذلك يدّخَر. كما أنه لا زكاة عندهم في الإجّاص ولا في التفاح ولا في الكُمَّثْرَى، ولا ما كان مثل ذلك كله مما لا ييبس ولا يُدّخر. وٱختلفوا في التين؛ والأشهر عند أهل المغرب ممن يذهب مذهب مالك أنه لا زكاة عندهم في التّين. إلا عبد الملك بن حبيب فإنه كان يرى فيه الزكاة على مذهب مالك، قياساً على التمر والزبيب. وإلى هذا ذهب جماعة من أهل العلم البغداديين المالكيين، إسماعيل بن إسحاق ومن ٱتبعه. قال مالك في الموطّأ: السنّة التي لا ٱختلاف فيها عندنا، والذي سمعته من أهل العلم، أنه ليس في شيء من الفواكه كلها صدقة: الرمّان والفِرْسَك[2] والتّين وما أشبه ذلك. وما لم يشبهه إذا كان من الفواكه. قال أبو عمر: فأدخل التّين في هذا الباب، وأظنه(والله أعلم) لم يعلم بأنه يُيَبَّسُ[3] ويُدّخَر ويُقتات، ولو علم ذلك ما أدخله في هذا الباب؛ لأنه أشبه بالتمر والزبيب منه بالرمان. وقد بلغني عن الأبْهَرِيّ وجماعة من أصحابه أنهم كانوا يُفتون بالزكاة فيه، ويرونه مذهب مالك على أصوله عندهم. والتين مكيل يراعى فيه الخمسة الأوْسُق وما كان مثلها وَزْناً، ويُحكم في التين عندهم بحكم التمر والزبيب المجتمع عليهما. وقال الشافعيّ: لا زكاة في شيء من الثمار غير التمر والعنب؛ لأن رسول الله ﷺ أخذ الصدقة منهما وكانا قوتاً بالحجاز يدّخر. قال: وقد يدخر الجوز واللوز ولا زكاة فيهما؛ لأنهما لم يكونا بالحجاز قوتاً فيما علمت، وإنما كانا فاكهة. ولا زكاة في الزيتون؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾. فقرنه مع الرمان، ولا زكاة فيه. وأيضاً فإن التين أنفع منه في القوت ولا زكاة فيه. وللشافعيّ قول بزكاة الزيتون قاله بالعراق، والأوّل قاله بمصر؛ فاضطرب قول الشافعيّ في الزيتون، ولم يختلف فيه قول مالك. فدلّ على أن الآية محكمة عندهما غير منسوخة. وٱتفقا جميعاً على أن لا زكاة في الرمّان، وكان يلزمهما إيجاب الزكاة فيه. قال أبو عمر: فإن كان الرمّان خرج باتفاق فقد بان بذلك المراد بأن الآية ليست على عمومها، وكان الضمير عائداً على بعض المذكور دون بعض. والله أعلم.

قلت: بهذا ٱستدل من أوجب العشر في الخضراوات فإنه تعالى قال: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ

(١) هو البندق.

(٢) ضرب من الخوخ وتقدم.

(٣) وقع في الأصل «يُيْبَس» المثبت هو الصواب.

﴿يَوۡمَ حَصَادِهِۦ﴾ والمذكور قبله الزيتون والرمّان، والمذكور عقيب جملة ينصرف إلى الأخير بلا خلاف؛ قاله الكِيَا الطبريّ. ورُوي عن ابن عباس أنه قال: ما لَقِحت رمّانة قط إلا بقطرة من ماء الجنة. وروي عن عليّ كرّم الله وجهه أنه قال: إذا أكلتم الرمّانة فكلوها بشحمها فإنها دباغ المعدة. وذكر ابن عساكر في تاريخ دمشق عن ابن عباس قال: لا تكسروا الرمانة من رأسها فإن فيها دُودة يعتري منها الجُذام[1]. وسيأتي منافع زيت الزيتون في سورة «المؤمنون» إن شاء الله تعالى. وممن قال بوجوب زكاة الزيتون الزُّهْرِي والأوزاعيّ والليث والثوريّ وأبو حنيفة وأصحابُه وأبو ثور. قال الزهريّ والأوزاعيّ والليث: يُخْرَصُ[2] زيتوناً ويؤخذ زيتاً صافياً. وقال مالك: لا يخرص، ولكن يؤخذ العُشر بعد أن يُعصر ويبلُغ كيله خمسة أوْسق. وقال أبو حنيفة والثورِيّ: يؤخذ من حبه.

السابعة: قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ حَصَادِهِۦ﴾ قرأ أبو عمرو وابن عامر وعاصم «حَصَادِهِ» بفتح الحاء، والباقون بكسرها، وهما لغتان مشهورتان؛ ومثله الصِّرام والصَّرام والجَذاذ والجِذَاذ والقَطَاف والقِطاف. واختلف العلماء في وقت الوجوب على ثلاثة أقوال:

الأوّل: أنه وقت الجذاذ، قاله محمد بن مَسْلمة، لقوله تعالىٰ: ﴿يَوۡمَ حَصَادِهِۦ﴾.

الثاني: يوم الطِّيب؛ لأن ما قبل الطيب يكون عَلفاً لا قُوتاً ولا طعاماً؛ فإذا طاب وحان الأكل الذي أنعم الله به وجب الحقّ الذي أمر الله به، إذ بتمام النعمة يجب شكر النعمة، ويكون الإيتاء وقت الحصاد لما قد وجب يوم الطِّيب.

الثالث: أنه يكون بعد تمام الخَرْص؛ لأنه حينئذ يتحقق الواجب فيه من الزكاة فيكون شرطاً لوجوبها. أصله مجيء الساعي في الغنم؛ وبه قال المُغيرة. والصحيح الأوّل لنص التنزيل. والمشهور من المذهب الثاني، وبه قال الشافعي. وفائدة الخلاف إذا مات بعد الطِّيب زكّيت على ملكه، أو قبل الخَرْص على ورثته. وقال محمد بن مسلمة: إنما قدّم الخرص توسعةً على أرباب الثمار، ولو قدّم رجل زكاته بعد الخَرْص وقبل الجذاذ لم يُجْزه؛ لأنه أخرجها قبل وجوبها. وقد اختلف العلماء في القول بالخرص وهي: ـ

الثامنة: فكرِهه الثوريّ ولم يُجِزْهُ بحال، وقال: الخرص غير مستعمل. قال: وإنما على ربّ الحائط أن يؤدّيَ عشر ما يصير في يده للمساكين إذا بلغ خمسة أوْسُق. وروى

(١) سيأتي معنىٰ الخرص في المسألة التاسعة.

(٢) لا يصح هذا عن ابن عباس، وإنما هو من الإسرائيليات.

الشيبانيِّ عن الشعبيّ أنه قال: الخرص اليومَ بدعةٌ. والجمهور على خلاف هذا، ثم ٱختلفوا فالمعظم على جوازه في النخل والعنب؛ لحديث عَتَّاب بن أَسِيد:

[٢٩٦٠] أن رسول الله ﷺ بعثه وأمره أن يَخْرُص العنب كما يَخْرُص النخل وتؤخذ زكاته زبيباً كما تؤخذ زكاة النخل تمراً. رواه أبو داود. وقال داود بن عليّ: الخرص للزكاة جائز في النخل، وغير جائز في العنب؛ ودفع حديث عتّاب بن أَسِيد لأنه منقطع ولا يتّصل من طريق صحيح، قاله أبو محمد عبد الحق.

التاسعة: وصفة الخرص أن يُقَدّر ما على نخله رطباً ويقدّر ما ينقص لو يُتَمّر، ثم يعتدّ بما بقي بعد النقص ويضيف بعض ذلك إلى بعض حتى يكمل الحائط، وكذلك في العنب في كل دالية.

العاشرة: ويكفي في الخرص الواحدُ كالحاكم. فإذا كان في التمر زيادة على ما خرص لم يلزم ربَّ الحائط الإخراجُ عنه، لأنه حكمٌ قد نفذ؛ قاله عبد الوهاب. وكذلك إذا نقص لم تنقص الزكاة. قال الحسن: كان المسلمون يُخْرَص عليهم ثم يؤخذ منهم على ذلك الخرص.

الحادية عشرة: فإن استكثر ربّ الحائط الخرص خيّره الخارص في أن يعطيَه ما خَرَص وأخذ خرصه؛ ذكره[1] عبد الرزاق أخبرنا ابن جُريج عن أبي الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: خَرَص ٱبن رواحة أربعين ألف وَسْق، وزعم أن اليهود لما خيّرهم أخذوا التمر وأعطوه عشرين ألف وَسْق. قال ابن جريج فقلت لعطاء: فحقٌّ على الخارص إذا استكثر سَيِّدُ المال الخَرْص أن يخيّره كما خيّر ابنُ رواحة اليهودَ؟ قال: أي لعمري! وأيّ سُنّة خيرٌ من سنّة رسول الله ﷺ.

الثانية عشرة: ولا يكون الخرص إلا بعد الطِّيب؛ لحديث عائشة قالت:

[٢٩٦٠] أخرجه أبو داود ١٦٠٤ وابن ماجه ١٨١٩ والشافعي ١/ ٢٤٣ وابن خزيمة ٢٣١٦ وابن حبان ٣٢٧٨ و ٣٢٧٩ والدارقطني ٢/ ١٣٢ و ١٣٣ وكذا النسائي ٥/ ١٠٩ والحاكم ٣/ ٥٩٥ من طرق عدة عن ابن المسيب عن عتاب بن أسيد، وفيه إرسال. قال أبو داود: لم يسمع ابن المسيب من عتاب شيئاً، ومع ذلك فهو صحيح لشواهده، فقد ورد من حديث عائشة عند أبي داود ١٦٠٦ وأحمد ٦/ ١٦٣، أحمد ٣/ ٢٩٦ وابن أبي شيبة ٣/ ١٩٤ من حديث جابر وصححه الأرناؤط في «الإحسان» لطرقه وشواهده راجع كلامه.

---

(١) تقدم تخريجه في الذي قبله إسناده على شرط مسلم.

[٢٩٦١] كان رسول الله ﷺ يبعث ابن رواحة إلى اليهود فَيَخْرُص عليهم النخلَ حين تطيب أوّل التمرة قبل أن يؤكل منها، ثم يخيّر يهوداً يأخذونها بذلك الخرص أو يدفعونها إليه. وإنما كان أمر رسول الله ﷺ بالخرص لكي تحصى الزكاة قبل أن تؤكل الثمار وتُفَرّق. أخرجه الدّارَقُطْنِيّ من حديث ابن جريج عن الزهريّ عن عروة عن عائشة. قال: ورواه صالح بن أبي الأخضر عن الزهرِيّ عن ابن المسيِّب عن أبي هريرة، وأرسله مالك ومَعْمر وعقيل عن الزهريّ عن سعيد عن النبيّ ﷺ.

الثالثة عشرة: فإذا خَرص الخارص فحكمه أن يُسقط من خرصه مقداراً مَا؛ لما رواه أبو داود والترمذيّ والبُسْتِيّ في صحيحه عن سهل بن أبي حَثْمة أن النبيّ ﷺ كان يقول:

[٢٩٦٢] «إذا خرصتم فخذوا ودَعُوا الثلث فإن لم تدَعوا الثلث فدعوا الرّبع». لفظ الترمذي. قال أبو داود: الخارص يدع الثلث للخُرْفة. وكذا قال يحيى القَطّان. وقال أبو حاتم البُسْتِيّ: لهذا الخبر صفتان: أحدهما أن يترك الثلث أو الربع من العشر، والثاني أن يترك ذلك من نفس التمر قبل أن يعشر، إذا كان ذلك حائطاً كبيراً يحتمله. الخُرْفة بضم الخاء: ما يُخْتَرَف من النخل حين يُدْرِك ثمره، أي يُجْتَنَى. يقال: التمر خرفةُ الصائم؛ عن الجوهرِيّ والهَروِيّ. والمشهور من مذهب مالك أنه لا يَترك الخارصُ شيئاً في حين خَرصه من تمر النخل والعنب إلا خَرَصه. وقد روى بعض المدنيين أنه يخفف في الخرص ويترك للعَرايا[1] والصّلة ونحوها.

الرابعة عشرة: فإن لَحِقت الثمرة جائحةٌ بعد الخرص وقبل الجذاذ سقطت الزكاة عنه بإجماع من أهل العلم، إلا أن يكون فيما بقي منه خمسة أوْسق فصاعداً.

الخامسة عشرة: ولا زكاة في أقل من خمسة أوْسق، كذا جاء مبيَّناً عن النبيّ ﷺ. وهو في الكتاب مُجْمَل، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾[البقرة: ٢٦٧] وقال تعالىٰ: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ﴾. ثم وقع البيان

[٢٩٦١] أخرجه أبو داود ١٦٠٦ والدارقطني ٢/ ١٣٤ من حديث عائشة وتقدم في الذي قبله.

[٢٩٦٢] أخرجه ابن أبي شيبة ٣/١٥٩ وأحمد ٣/٤٤٨ وأبو داود ١٦٠٥ والترمذي ٦٤٣ والطحاوي ٢/ ٣٩ وابن خزيمة ٢٣١٩ والحاكم ١/ ٤٠٢ وابن حبان ٢٣٨٠ من حديث سهل، ومداره على عبد الرحمن بن مسعود بن نيار مجهول وقد وثقه ابن حبان، وصحح حديثه الحاكم، وذكر أنه ورد عن عمر موقوفاً بمعناه، ووافقه الذهبي. أما الشيخ شعيب فقد حكم بضعفه في تعليقه على صحيح ابن حبان. وهو في ضعيف أبي داود ٣٤٩.

---

(١) هي النخلة يعريها صاحبها رجلاً محتاجاً فيجعل له ثمر عامها.

بالعُشر ونصف العُشر. ثم لما كان المقدار الذي إذا بلغه المال أخذ منه الحق مُجملاً بيّنه أيضاً فقال:

[٢٩٦٣] «ليس فيما دون خمسة أوْسق من تمر أو حب صدقة» وهي ينفي الصدقة في الخضراوات، إذ ليس مما يُوسق؛ فمن حصل له خمسة أوْسق في نصيبه من تمر أو حب وجبت عليه الزكاة، وكذلك من زبيب؛ وهو المسمَّى بالنصاب عند العلماء. يقال: وِسْق ووَسْق (بكسر الواو وفتحها) وهو ستون صاعاً، والصاع أربعة أمداد، والمد رطل وثلث بالبغداديّ ومبلغ الخمسة الأوْسق من الأمداد ألف مدّ ومائتا مدّ، وهي بالوزن ألف رِطل وستمائة رِطل.

السادسة عشرة: ومن حصل له من تمر وزبيب معاً خمسةُ أوْسُق لم تلزمه الزكاة إجماعاً، لأنهما صنفان مختلفان. وكذلك أجمعوا على أنه لا يضاف التمر إلى البُر ولا البر إلى الزبيب؛ ولا الإبل إلى البقر، ولا البقر إلى الغنم. ويضاف الضأن إلى المَعْز بإجماع. واختلفوا في ضم البُرّ إلى الشعير والسَّلْت[١] وهي: -

السابعة عشرة: فأجازه مالك في هذه الثلاثة خاصّةً فقط؛ لأنها في معنى الصِّنف الواحد لتقاربها في المنفعة واجتماعها في المنبت والمحصد، وافتراقها في الاسم لا يوجب افتراقها في الحكم كالجواميس والبقر، والمعز والغنم. وقال الشافعيّ وغيره: لا يجمع بينها؛ لأنها أصناف مختلفة، وصفاتها متباينة، وأسماؤها متغايرة، وطعمها مختلف؛ وذلك يوجب افتراقها. والله أعلم. قال مالك: والقَطَانيّ كلها صِنف واحد، يُضَمّ بعضها إلى بعض. وقال الشافعيّ: لا تُضم حبة عُرفت باسم منفرد دون صاحبتها، وهي خلافها مباينة في الخلقة والطعم إلى غيرها. ويُضَمُّ كل صنف بعضه إلى بعض، رَدِيئهُ إلى جَيّده؛ كالتمر وأنواعه، والزبيب أسودِه وأحمره، والحنطةِ وأنواعها من السمراء وغيرها. وهو قول الثَّوْرِيّ وأبي حنيفة وصاحبيه أبي يوسف ومحمد وأبي ثور. وقال اللّيث: تُضم الحبوب كلها: القِطنية[٢] وغيرها بعضها إلى بعض في الزكاة. وكان أحمد بن حنبل يَجبُن عن ضم الذهب إلى الوَرِق، وضم الحبوب بعضها إلى بعض، ثم كان في آخر أمره يقول فيها بقول الشافعيّ.

[٢٩٦٣] تقدم برقم ٢٩٥٦.

---

(١) السُّلْت: ضرب من الشعير ليس له قشر.

(٢) القُطينة: ما سوىٰ الحنطة والشعير والزبيب والتمر.

الثامنة عشرة: قال مالك: وما استهلكه منه ربُّه بعد بُدُوِّ صلاحه أو بعد ما أفْرك حسِب عليه، وما أعطاه ربُّه منه في حصاده وجذاذه، ومن الزيتون في التقاطه، تَحَرّى ذلك وحُسب عليه. وأكثر الفقهاء يخالفونه في ذلك، ولا يوجبون الزكاة إلا فيما حصل في يده بعد الدَّرْس. قال الليث في زكاة الحبوب: يُبدأ بها قبل النفقة، وما أكل من فرِيك هو وأهله فلا يحسب عليه، بمنزلة الرّطب الذي يترك لأهل الحائط يأكلونه فلا يُخْرَص عليهم. وقال الشافعيّ: يترك الخارِصُ لربّ الحائط ما يأكله هو وأهله رطباً، لا يَخْرصه عليهم. وما أكله وهو رطب لم يُحسب عليه. قال أبو عمر: ٱحتج الشافعيّ ومن وافقه بقول الله تعالى: ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ﴾. وٱستدلّوا على أنه لا يُحتسب بالمأكول قبل الحصاد بهذه الآية. وٱحتجوا بقوله عليه السلام:

[٢٩٦٤] «إذا خرصتم فدعوا الثلث فإن لم تدعوا الثلث فدعوا الربع». وما أكلت الدواب والبقر منه عند الدّرس لم يُحسب منه شيء على صاحبه عند مالك وغيره.

التاسعة عشرة: وما بيع من الفول والحِمّص والجُلبان أخضر؛ تحرّى مقدار ذلك يابساً وأخرجت زكاته حبًا. وكذا ما بيع من الثمر أخضر ٱعتبر وتُوُخّي وخرص يابساً وأخرجت زكاته على ذلك الخرص زبيباً وتمراً. وقيل: يخرج من ثمنه.

الموفية عشرين: وأما ما لا يتتمّر من ثمر النخل ولا يتزبّب من العنب كعنب مصر وبلحها، وكذلك زيتونها الذي لا يُعصر، فقال مالك: تخرج زكاته من ثمنه، لا يكلّف غير ذلك صاحبه، ولا يراعَى فيه بلوغ ثمنه عشرين مثقالاً أو مائتي درهم، وإنما ينظر إلى ما يرى أنه يبلغه خمسة أوسق فأكثر. وقال الشافعيّ: يخرج عشره أو نصف عشره من وسطه تمراً إذا أكله أهله رطباً أو أطعموه.

الحادية والعشرون: روى أبو داود عن ٱبن عمر قال: قال رسول الله ﷺ:

[٢٩٦٥] «فيما سقت السماء والأنهار والعيون أو كان بَعْلاً العشر[١]، وفيما سُقي بالسواني[٢] أو النَّضْح نصف العشر وكذلك إن كان يشرب سَيْحاً فيه العشر». وهو الماء

[٢٩٦٤] تقدم برقم: ٢٩٦٢.

[٢٩٦٥] صحيح. أخرجه البخاري ١٤٨٣ وأبو داود ١٥٩٦ والترمذي ٦٤٠ والنسائي ٥/٤١ وابن ماجه ١٨١٧ وابن حبان ٣٢٨٥ من حديث ابن عمر، واللفظ لأبي داود.

---

(١) هو ما ينبت بماء المطر ويكتفي به.

(٢) هي الناقة التي يستقىٰ عليها.

الجاري على وجه الأرض؛ قاله ٱبن السِّكِّيت. ولفظ السَّيْح مذكور في الحديث، خرّجه[1] النَّسائيّ. فإن كان يشرب بالسّيح لكن ربّ الأرض لا يملك ماء وإنما يكتريه له فهو كالسماء؛ على المشهور من المذهب. ورأى أبو الحسن اللخميّ أنه كالنضح؛ فلو سُقي مرّة بماء السماء ومَرّة بدالِية؛ فقال مالك: يُنظر إلى ما تمّ به الزرع وحيِي وكان أكثر؛ فيتعلّق الحكم عليه. هذه رواية ٱبنِ القاسم عنه. ورَوى عنه ٱبن وهب: إذا سُقي نصف سنة بالعيون ثم انقطع فسُقي بقيّة السنة بالناضح فإنّ عليه نصف زكاته عشراً، والنصف الآخر نصف العشر. وقال مَرّة: زكاته بالذي تمت به حياته. وقال الشافعيّ: يُزَكَّى كلُّ واحد منهما بحسابه. مثاله أن يشرب شهرين بالنضح وأربعة بالسماء؛ فيكون فيه ثلثا العشر لماء السماء وسدس العشر للنضح! وهكذا ما زاد ونقص بحسابه. وبهذا كان يفْتي بكّار بن قتيبة. وقال أبو حنيفة وأبو يوسف: يُنظر إلى الأغلب فيزكّى، ولا يلتفت إلى ما سوى ذلك. وروي عن الشافعيّ. قال الطحاوِيّ: قد ٱتفق الجميع على أنه لو سقاه بماء المطر يوماً أو يومين أنه لا ٱعتبار به، ولا يجعل لذلك حصّة؛ فدلّ على أن الاعتبار بالأغلب، والله أعلم.

قلت: فهذه جملة من أحكام هذه الآية، ولعلّ غيرنا يأتي بأكثَر منها على ما يفتح الله له. وقد مضى في «البقرة» جملة من معنى هذه الآية، والحمد لله.

الثانية والعشرون: وأمّا قوله ﷺ:

[٢٩٦٦] «ليس في حب ولا تمر صدقة» فخرّجه النَّسائيّ. قال حمزة الكِنانيّ: لم يذكر في هذا الحديث «في حب» غير إسماعيل بن أميّة، وهو ثقة قرشِيّ من ولد سعيد بن العاص. قال: وهذه السّنة لم يروها أحد عن النبيّ ﷺ من أصحابه غير أبي سعيد الخُدْرِيّ. قال أبو عمر: هو كما قال حمزة، وهذه سنة جليلة تلقّاها الجميع بالقبول، ولم يروها أحد عن النبيّ ﷺ من وجه ثابت محفوظٍ غيرُ أبي سعيد. وقد روى جابر عن النبيّ ﷺ مثل ذلك، ولكنه غريب. وقد وجدناه من حديث أبي هريرة بإسناد حسن.

الثالثة والعشرون: قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ الإسراف في اللغة الخطأ. وقال أعرابي أراد قوماً: طلبتكم فَسَرِفْتكم؛ أي أخطأت موضعكم. وقال الشاعر:

[٢٩٦٦] أخرجه النسائي ٥/ ٤٠ من حديث أبي سعيد. وإسناده قوي، وذكر ابن عبد البر أنه ورد من حديث جابر وهو غريب، ومن حديث أبي هريرة بإسناد حسن، والله أعلم.

---

(١) لفظ «السَّيْح» عند أبي داود دون النسائي وظاهر كلام المصنف أنه عند النسائي **وليس كذلك والله** الموفق.

وقـال قـائلهـم والخيـلُ تخبِطُهـم   أسـرفتـم فـأجبنـا أننـا سَـرَف

والإسراف في النفقة: التبذير. ومُسرف لقب مسلم بن عُقْبَةَ المُرِّي صاحب وقعة الحَرَّة[1]؛ لأنه قد أسرف فيها. قال عليّ بن عبد الله بن العباس:

هُـمُ منعـوا ذِمـارِي يـوم جـاءت   كتـائـبُ مُسْـرِفٍ وبنِـي اللَّكِيعـهْ

والمعنى المقصود من الآية: لا تأخذوا الشيء بغير حقه ثم تضعوه في غير حقه؛ قاله أصْبَغ بن الفرج. ونحوه قول إياس بن معاوية: ما جاوزتَ به أمر الله فهو سَرَف وإسراف. وقال ٱبن زيد: هو خطاب للوُلاة، يقول: لا تأخذوا فوق حقكم وما لا يجب على الناس. والمعنيان يحتملهما قوله عليه السلام:

[٢٩٦٧] «المُعْتَدِي في الصدقة كمانِعها». وقال مجاهد: لو كان أبو قُبيس ذهباً لرجل فأنفقه في طاعة الله لم يكن مُسْرفاً، ولو أنفق درهماً أو مُدًّا في معصية الله كان مسرفاً. وفي هذا المعنى قيل لحاتم: لا خير في السّرف؛ فقال: لا سَرَف في الخير.

قلت: وهذا ضعيف؛ يردّه ما رَوى ٱبن عباس أن ثابت بن قَيس بن شَمّاس عَمَد إلى خمسمائة نخلة فجذّها ثم قسّمها في يوم واحد ولم يترك لأهله شيئاً؛ فنزلت: «وَلاَ تُسْرِفُوا» أي لا تعطوا كلّه. وروى عبد الرزاق عن ٱبن جريج قال: جَذّ معاذ بن جبل نخله فلم يزل يتصدّق حتى لم يبق منه شيء: فنزل «ولا تسرفوا». قال السدّي: «ولا تسرفوا» أي لا تعطوا أموالكم فتقعدوا فقراء. ورُوي عن معاوية بن أبي سفيان أنه سئل عن قوله تعالى: «وَلاَ تُسْرِفُوا» قال: الإسراف ما قصّرتَ عن حق الله تعالى.

قلت: فعلى هذا تكون الصدقة بجميع المال ومنع إخراج حق المساكين داخلين في حكم السرف، والعدل خلاف هذا؛ فيتصدق ويُبقي كما قال عليه السلام:

[٢٩٦٨] «خير الصدقة ما كان عن ظَهْرِ غِنًى» إلا أن يكون قويّ النفس غنيًّا بالله متوكّلاً عليه منفرداً لا عيال له، فله أن يتصدّق بجميع ماله، وكذلك يخرج الحق الواجب عليه من زكاة وما يَعِنّ في بعض الأحوال من الحقوق المتعيّنة في المال. وقال

[٢٩٦٧] أخرجه أبو داود ١٥٨٥ والترمذي ٦٤٦ وابن ماجه ١٨٠٨ وابن عدي في الضعفاء ٣/ ٣٥٦ من حديث أنس، ومداره على سعيد بن سنان، ويقال: سنان بن سعد ضعفه الجوزجاني والدارقطني، وقال النسائي: منكر الحديث. ووهاه السعدي، راجع الميزان. لكن حسن الألباني هذا الحديث في صحيح أبي داود ١٤٠٣.

[٢٩٦٨] صحيح. أخرجه البخاري ١٤٢٦ من حديث أبي هريرة، وتقدم.

---

(١) بظاهر المدينة المنورة في عهد يزيد بن معاوية.

عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الإسراف ما لم يقدر على ردّه إلى الصلاح. والسّرَف ما يقدر على ردّه إلى الصلاح. وقال النّضْر بن شُميل: الإسراف التبذير والإفراط، والسرف الغفلة والجهل. قال جرير:

أعْطَوْا هُنيدةَ يحدُوها ثمانية ... ما في عطائِهِمُ مَنٌّ ولا سَرَفُ

أي إغفال، ويقال: خطأ. ورجلٌ سَرِف الفؤاد، أي مخطىء الفؤاد غافله. قال طَرفة:

إنّ آمرأً سَرِفَ الفُؤاد يرى ... عَسلاً بماء سحابة شَتْمِي

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (١٤٢)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ عطف على ما تقدّم. أي وأنشأ حمولة وفرشاً من الأنعام. وللعلماء في الأنعام ثلاثة أقوال: أحدها: أن الأنعام الإبل خاصّة؛ وسيأتي في «النحل» بيانه. الثاني: أن الأنعام الإبل وحدها، وإذا كان معها بقر وغنم فهي أنعام أيضاً. الثالث: وهو أصحها قاله أحمد بن يحيى: الأنعام كل ما أحله الله عز وجل من الحيوان. ويدلّ على صحة هذا قوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَـٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ١] وقد تقدّم. والحَمُولة ما أطاق الحِمْل والعمل؛ عن آبن مسعود وغيره. ثم قيل: يختص اللفظ بالإبل. وقيل: كل ما آحتمل عليه الحيَّ من حمار أو بغل أو بعير؛ عن أبي زيد، سواء كانت عليه الأحمال أو لم تكن. قال عنترة:

ما رَاعنِي إلا حَمولةُ أهلِها ... وسْط الدِّيارِ تَسُفُّ حَبَّ الْخِمْخِمِ[١]

وفَعولة بفتح الفاء إذا كانت بمعنى الفاعل آستوى فيها المؤنّث والمذكر؛ نحو قولك: رجل فَروقة وآمرأة فَروقة للجبان والخائف. ورجل صَرورة وآمرأة صرورة إذا لم يَحُجّا؛ ولا جمع له. فإذا كانت بمعنى المفعول فرق بين المذكر والمؤنث بالهاء كالحَلُوبة والرَّكوبة. والحمُولة (بضم الحاء): الأحمال. وأما الحمُول (بالضم بلا هاء) فهي الإبل التي عليها الهوادج، كان فيها نساء أو لم يكن؛ عن أبي زيد. «وَفَرْشاً» قال الضحاك: الحمولة من الإبل والبقر. والفرش: الغنم. النحاس: وآستشهد لصاحب هذا القول بقوله: «ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ» قال: فـ«ثَمَانِيَةَ» بدل من قوله: «حَمُولَةً وَفَرْشاً». وقال الحسن: الحَمولة الإبل. والفَرْش: الغنم. وقال آبن عباس: الحمولة كل ما حَمل من الإبل والبقر والخيل والبغال والحمير. والفَرْش: الغنم. وقال آبن زيد: الحمولة ما يركب، والفرش

(١) نبات تعلف حبه الإبل.

ما يؤكل لحمه ويحلب؛ مثل الغنم والفِصلان والعجاجيل؛ سُمِّيت فَرْشاً للطافة أجسامها وقربها من الفرش، وهي الأرض المستوية التي يتوطأها الناس. قال الراجز:

أورثنـــي حَمـــولـــة وفَـــرْشـــاً أَمُشُّهـــا فـــي كـــلّ يـــومٍ مَشّـــا[1]

وقال آخر:

وَحَـوَيْنَـا الفَـرْش مـن أنعـامكـم والحَمُـولات ورَبّـاتِ الحَجَـل

قال الأصمعي: لم أسمع له بجمع. قال: ويحتمل أن يكون مصدراً سُمِّيَ به؛ من قولهم: فرشها الله فرشاً، أي بَثّها بَثًّا. والفَرْش: المفروش من متاع البيت. والفَرْش: الزرع إذا فرش. والفرش: الفضاء الواسع. والفَرْش في رجل البعير: ٱتّساع قليل، وهو محمود. وٱفترش الشيءُ ٱنبسط؛ فهو لفظ مشترك. وقد يرجع قوله تعالى: «وَفَرْشاً» إلى هذا. قال النحاس: ومن أحسن ما قيل فيهما أن الحمولة المسخرة المذلّلة للحمل. والفَرْش ما خلقه الله عز وجل من الجلود والصّوف مما يُجلس عليه ويُتَمَهّد. وباقي الآية قد تقدّم.

قوله تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٤٤)﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍۖ﴾ «ثمانيةَ» منصوب بفعل مضمر، أي وأنشأ «ثمانية أزواج»؛ عن الكسائي. وقال الأخفش سعيد: هو منصوب على البدل من «حَمُولَةً وَفَرْشاً».

وقال الأخفش عليّ بن سليمان: يكون منصوباً بـ«كُلُوا»؛ أي كلوا لَحم ثمانية أزواج. ويجوز أن يكون منصوباً على البدل من «ما» على الموضع. ويجوز أن يكون منصوباً بمعنى كلوا المباح «ثمانية أزواج من الضأن ٱثنين». ونزلت الآية في مالك بن عوف وأصحابه حيث قالوا: «مَا فِي بطون هذهِ الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا» فنبّه الله عز وجل نبيّه والمؤمنين بهذه الآية على ما أحلّه لهم؛ لئلا يكونوا بمنزلة

---

(١) مشَّ الناقة: حلبها.

من حرّم ما أحله الله تعالى. والزوج خلاف الفَرْد؛ يقال: زَوْج أو فَرْد. كما يقال: خَساً أو زَكاً، شفع أو وتر. فقوله: «ثمانية أزواج» يعني ثمانية أفراد. وكل فَرْد عند العرب يحتاج إلى آخر يُسَمَّى زوجاً، فيقال للذكر زوج وللأنثى زوج. ويقع لفظ الزوج للواحد وللاثنين؛ يقال هما زوجان، وهما زوج، كما يقال: هما سيّان وهما سواء. وتقول: ٱشتريت زَوْجي حمام. وأنت تعني ذكراً وأنثى.

الثانية: قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي الذكر والأنثى. والضأن: ذوات الصوف من الغنم، وهي جمع ضائن. والأنثى ضائنة، والجمع ضوائن. وقيل: هو جمعٌ لا واحد له. وقيل في جمعه: ضئين؛ كعَبْد وعَبِيد. ويقال فيه: ضِئين. كما يقال في شَعير: شِعير، كسرت الضاد إتباعاً. وقرأ طلحة بن مُصَرِّف «من الضَّأَنِ ٱثنينِ» بفتح الهمزة، وهي لغة مَسموعة عند البصريين. وهو مطّرد عند الكوفيين في كل ما ثانيه حرفُ حلق. وكذلك الفتح والإسكان في المعز. وقرأ أبَان بن عثمان «مِن الضَّأْن ٱثْنَانِ ومِن المعز ٱثنان» رفعاً بالابتداء. وفي حرف أُبَيّ. «وَمِنَ الْمَعْزِ[1] ٱثنان» وهي[2] قراءة الأكثر. وقرأ ابن عامر وأبو عمرو بالفتح. قال النحاس: الأكثر في كلام العرب المعْز والضّأْن بالإسكان. ويدل على هذا قولهم في الجمع: معيز؛ فهذا جمع معْز. كما يقال: عبد وعبيد. قال ٱمرؤ القيس:

ويَمْنَحُها بنو شَمَجَى بن جَرْمٍ ... مَعِيزَهُم حَنانَكَ ذا الحنَانِ

ومثله ضأن وضئين. والمعز من الغنم خلاف الضأن، وهي ذوات الأشعار والأذناب القصار، وهو ٱسم جنس، وكذلك المَعَز والمِعيزُ والأُمعُوز والمِعزى. وواحد المَعْز ماعز؛ مثل صاحب وصَحْب وتاجر وتَجْر. والأنثى ماعزة وهي العَنز، والجمع مواعز. وأمعز القومُ كثرت معزاهم. والمعّاز صاحب المعزى. قال أبو محمد الفَقْعَسِيّ يصف إبلاً بكثرة اللبن ويفضلها على الغنم في شدة الزمان:

يَكِلْنَ كَيْلاً ليس بالْمَمحُوقِ ... إذْ رَضِيَ المعَّاز باللعُوقِ

والمَعَز الصلابة من الأرض. والأمْعَز: المكان الصُّلب الكثير الحصى؛ والمعْزَاء أيضاً. واستمعز الرجل في أمره: جَدّ. ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾ منصوب بـ«حرّم». ﴿أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ عطف عليه. وكذا ﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ﴾. وزيدت مع ألف الوصل مَدّة للفرق بين الاستفهام والخبر. ويجوز حذف الهمزة لأن «أم» تدل على الاستفهام. كما قال:

---

(١) كذا وقع في سائر النسخ! والصواب أن قراءة أُبَيّ «المِعْزى» كما في «البحر» ٤/ ٢٤١.

(٢) كذا في الأصول، وليس كذلك بل لفظ «اثنان» شاذ، وقراءة الأكثر «ومن المعْزِ اثنين».

الثالثة: قال العلماء: الآية احتجاج على المشركين في أمر البَحيرة وما ذُكر معها. وقولهم: «مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا». فدلّت على إثبات المناظرة في العلم؛ لأن الله تعالى أمر نبيّه عليه السلام بأن يناظرهم، ويبيّن لهم فساد قولهم. وفيها إثبات القول بالنظر والقياس. وفيها دليل بأن القياس إذا ورد عليه النص بطل القول به. ويروى: «إذا ورد عليه النقض»؛ لأن الله تعالى أمرهم بالمقايسة الصحيحة، وأمرهم بطرد علتهم. والمعنى: قل لهم إن كان حرّم الذكور فكل ذكر حرام. وإن كان حرم الإناث فكل أنثى حرام. وإن كان حرّم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين، يعني من الضأن والمعز، فكل مولود حرام، ذكراً كان أو أنثى. وكلها مولود فكلها إذاً حرام لوجود العلة فيها، فبيّن انتقاض علّتهم وفساد قولهم؛ فأعلم الله سبحانه أن ما فعلوه من ذلك افتراء عليه ﴿نَبِّـُٔونِي بِعِلْمٍ﴾ أي بعلم إن كان عندكم، مِن أين هذا التحريم الذي افتعلتموه؟ ولا علم عندهم؛ لأنهم لا يقرءون الكتب. والقول في: ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ﴾ وما بعده كما سبق ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾ أي هـل شاهدتم الله قد حرّم هذا. ولمّا لزمتهم الحجة أخذوا في الافتراء فقالوا: كذا أمر الله. فقال الله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بيّن أنهم كذبوا؛ إذ قالوا ما لم يقم عليه دليل.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾.

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا﴾ أعلم الله عز وجل في هذه الآية بما حرم. والمعنى: قل يا محمد لا أجد فيما أوحي إليّ محرّماً إلا هذه الأشياء، لا ما تحرمونه بشهوتكم. والآية مكية. ولم يكن في الشريعة في ذلك الوقت محرم غير هذه الأشياء، ثم نزلت سورة «المائدة» بالمدينة. وزيد في المحرمات كالمنخنِقة والمَوْقُوذَة[١] وَالْمُتَرَدِّيَةِ وَالنَّطِيحَة والخمر وغير ذلك.

---

(١) هي الشاة التي ضربت حتى ماتت بدون تذكية.

[٢٩٦٩] وحرّم رسول ﷲ ﷺ بالمدينة أكل كلِّ ذي ناب من السباع وكلِّ ذي مِخْلب من الطير.

وقد اختلف العلماء في حكم هذه الآية وتأويلها على أقوال: الأوّل: ما أشرنا إليه من أن هذه الآية مكية، وكلّ محرّم حرّمه رسول الله ﷺ أو جاء في الكتاب مضموم إليها؛ فهو زيادة حكم من الله عز وجل على لسان نبيه عليه السلام. على هذا أكثر أهل العلم من أهل النظر، والفقه والأثر. ونظيره نكاح المرأة على عمتها وعلى خالتها مع قوله: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٤]وكحكمه باليمين مع الشاهد مع قوله: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وقد تقدم. وقد قيل: إنها منسوخة بقوله عليه السلام:

[٢٩٧٠] «أكْلُ كلِّ ذي ناب من السباع حرام» أخرجه مالك، وهو حديث صحيح. وقيل: الآية مُحكَمة ولا يحرم إلا ما فيها. وهو قول يُرْوى عن ابن عباس وابن عمر وعائشة، وروي عنهم خلافه. قال مالك: لا حرام بيّنٌ إلا ما ذُكرَ في هذه الآية. وقال ابن خُوَيْز مَنْدَاد: تضمنت هذه الآية تحليلَ كلِّ شيء من الحيوان وغيره إلا ما استثنى في الآية من الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير. ولهذا قلنا: إن لحوم السباع وسائر الحيوان ما سوى الإنسان والخنزير مباح. وقال الكِيَا الطبريّ: وعليها بنى الشافعيّ تحليل كلّ مسكوت عنه؛ أخْذاً من هذه الآية، إلا ما دلّ عليه الدليل. وقيل: إن الآية جواب لمن سأل عن شيء بعينه فوقع الجواب مخصوصاً. وهذا مذهب الشافعيّ. وقد روى الشافعي عن سعيد بن جُبير أنه قال: في هذه الآية أشياء سألوا عنها رسول الله ﷺ فأجابهم عن المحرّمات من تلك الأشياء. وقيل: أي لا أجد فيما أوحي إليّ أي في هذه الحال حال الوحي ووقت نزوله، ثم لا يمتنع حدوث وَحْيٍ بعد ذلك بتحريم أشياء أخر. وزعم ابن العربي أن هذه الآية مدنية وهي مكية في قول الأكثرين، نزلت على النبي ﷺ يوم نزل عليه ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] ولم ينزل بعدها ناسخ فهي مُحْكَمة، فلا مُحَرَّم إلاّ ما فيها، وإليه أميل.

قلت: وهذا ما رأيته قاله غيره. وقد ذكر أبو عمر بن عبد البر الإجماعَ في أن سورة

[٢٩٦٩] صحيح. أخرجه مسلم ١٩٣٤ وأبو داود ٣٨٠٥ والنسائي ٧/٢٠٦ وابن ماجه ٣٢٣٤ وأحمد ١/٣٠٢ وابن حبان ٥٢٨٠ من حديث ابن عباس، وله شواهد ستأتي.

[٢٩٧٠] صحيح. أخرجه مالك ٢/٤٩٦ والشافعي في الرسالة ٥٦٢ ومسلم ١٩٣٣ والترمذي ١٤٧٩ والنسائي ٧/٢٠٠ وابن حبان ٥٢٧٨ من حديث أبي هريرة.

«الأنعام» مكية إلاّ قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ الثلاث الآيات، وقد نزل بعدها قرآن كثير وسُنَن جمّة. فنزل تحريم الخمر بالمدينة في «المائدة». وأجمعوا على أن نهيه عليه السلام عن أكل كلّ ذي ناب من السباع إنما كان منه بالمدينة. قال إسماعيل بن إسحاق: وهذا كله يدل علىٰ أنه أمرٌ كان بالمدينة بعد نزول قوله: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ لأن ذلك مَكيّ.

قلت: وهذا هو مَثار الخلاف بين العلماء. فعدل جماعة عن ظاهر الأحاديث الواردة بالنهي عن أكل كل ذي ناب من السباع؛ لأنها متأخرة عنها والحصر فيها ظاهر فالأخذ بها أولى؛ لأنها إما ناسخة لما تقدمها أو راجحة على تلك الأحاديث. وأما القائلون بالتحريم فظهر لهم وثبت عندهم أن سورة «الأنعام» مكية؛ نزلت قبل الهجرة، وأن هذه الآية قصد بها الرد على الجاهلية في تحريم البحيرة والسائبة والوَصِيلة والحامي، ثم بعد ذلك حرّم أموراً كثيرة كالحُمر الإنسية ولحوم البغال وغيرها، وكل ذي ناب من السباع وكلّ ذي مخلب من الطير. قال أبو عمر: ويلزم على قول من قال: «لا محرم إلا ما فيها» ألا يحرّم ما لم يذكر ٱسم الله عليه عمداً، وتُستحلّ الخمر المحرمة عند جماعة المسلمين. وفي إجماع المسلمين على تحريم خمر العنب دليل واضح على أن رسول الله ﷺ قد وجد فيما أوحي إليه محرماً غير ما في سورة «الأنعام» مما قد نزل بعدها من القرآن. وقد اختلفت الرواية عن مالك في لحوم السباع والحمير والبغال فقال مـرة: هي محرمة؛ لما ورد من نهيه عليه السلام عن ذلك، وهو الصحيح من قوله على ما في الموطأ. وقال مَرّة: هي مكروهة، وهو ظاهر المدَوّنة؛ لظاهر الآية؛ ولما روي عن ٱبن عباس وابن عمر وعائشة من إباحة أكلها، وهو قول الأوزاعيّ. روى البخاري من رواية عمرو بن دينار قال: قلت لجابر بن زيد:

[٢٩٧١] إنهم يزعمون أن رسول الله ﷺ نهى عن لحوم الحُمُر الأهلية؟ فقال: قد كان يقول ذلك الحكَم بن عمرو الغفاريّ عندنا بالبصرة؛ ولكن أبى ذلك البحرُ ٱبن عباس، وقرأ «قُلْ لاَ أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً»[1]. وروي عن ابن عمر أنه سئل عن لحوم السباع فقال: لا بأس بها. فقيل له: حديث أبي ثعلبة الخُشَني فقال:

[٢٩٧٢] لا نَدَع كتابَ الله ربِّنا لحديث أعرابيّ يبول على ساقيه. وسئل الشعبي عن

[٢٩٧١] صحيح. أخرجه البخاري ٥٥٢٩ عن جابر بن زيد به.

[٢٩٧٢] ما نسبه القرطبي لابن عمر فيه نظر فحديث أبي ثعلبة في غاية الصحة أخرجه البخاري ٥٥٣٠=

---

(١) إلى هنا لفظ البخاري.

لحم الفيل والأسد فتلا هذه الآية. وقال القاسم: كانت عائشة تقول لما سمعت الناس يقولون حَرُم كل ذي ناب من السباع: ذلك حلال، وتتلوا هذه الآية ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ ثم قالت: أن كانت البُرْمة ليكون ماؤها أصفر من الدم ثم يراها رسول الله ﷺ فلا يحرّمها. والصحيح في هذا الباب ما بدأنا بذكره، وأن ما ورد من المحرمات بعد الآية مضموم إليها معطوف عليها. وقد أشار القاضي أبو بكر بن العربيّ إلى هذا في قَبسه خلاف ما ذكر في أحكامه قال: رُوي عن ابن عباس أن هذه الآية من آخر ما نزل؛ فقال البغداديون من أصحابنا: إن كل ما عداها حلال، لكنه يكره أكل السباع. وعند فقهاء الأمصار منهم مالك والشافعي وأبو حنيفة وعبد الملك أن أكل كل ذي ناب من السباع حرام، وليس يمتنع أن تقع الزيادة بعد قوله: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ بما يَرِدُ من الدليل فيها؛ كما قال النبي ﷺ:

[٢٩٧٣] «لا يحل دم أمرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث» فذكر الكفر والزنى والقتل. ثم قال علماؤنا: إن أسباب القتل عشرة بما ورد من الأدلة، إذ النبي ﷺ إنما يخبر بما وصل إليه من العلم عن الباري تعالى؛ وهو يمحُو ما يشاء ويُثبت ويَنْسَخ ويقدّر. وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال:

(1) «أكل كل ذي ناب من السباع حرام» وقد رُوي أنه نهى عن أكل كلّ ذي ناب من السباع وذي مخلب من الطير. وروى مسلم عن مَعْن عن مالك: «نُهِيَ عن أكل كل ذي مخلب من الطير» والأول أصح وتحريم كل ذي ناب من السباع هو صريح المذهب وبه ترجم مالك في الموطأ حين قال: تحريم أكل كلّ ذي ناب من السباع. ثم ذكر الحديث وعقبه بعد ذلك بأن قال: وهو الأمر عندنا. فأخبر أن العمل أطرد مع الأثر. قال القشيريّ: فقول مالك «هذه الآية من أواخر ما نزل» لا يمنعنا من أن نقول: ثبت تحريم بعض هذه الأشياء بعد هذه الآية، وقد أحل الله الطيبات وحرّم الخبائث، ونهى

= و ٥٧٨٠ و٥٧٨١ ومسلم ١٩٣٢ وأبو داود ٣٨٠٢ والترمذي ١٤٧٧ والنسائي ٧/ ٢٠٠ وابن ماجه ٣٢٣٢ والدارمي ٢/ ٨٤ ومالك ٢/ ٤٩٦ وعبد الرزاق ٨٧٠٤ وأحمد ٤/ ١٩٤ والطيالسي ١٠١٦ وابن حبان ٥٢٧٩ من طرق عن أبي ثعلبة «أن رسول الله ﷺ نهىٰ عن أكل كل ذي ناب من السباع»، ويعضده حديث أبي هريرة المتقدم برقم ٢٩٧٠، وحديث ابن عباس المتقدم برقم ٢٩٦٩.

وهو قول الجمهور، ويقويه حديث النهي عن لحم الحمر الأهلية.

[٢٩٧٣] متفق عليه، وقد مضىٰ.

(١) صحيح. تقدم برقم ٢٩٧٠.

رسول الله ﷺ عن أكل كلّ ذي ناب من السباع، وعن أكل كلّ ذي مخلب من الطير، ونهى عن لحوم الحمرُ الأهلية عام خيْبَر. والذي يدل على صحة هذا التأويل الإجماعُ على تحريم العَذِرة والبَوْل والحشرات المستقْذرة والحُمُر مما ليس مذكوراً في هذه الآية.

الثانية: قوله تعالى: ﴿مُحَرَّمًا﴾ قال ٱبن عطية: لفظة التحريم إذا وردت على لسان رسول الله ﷺ فإنها صالحة أن تنتهي بالشيء المذكور غاية الحظْر والمنع، وصالحة أيضاً بحسب اللغة أن تقف دون الغاية في حيّز الكراهة ونحوها؛ فما اقترنت به قرينة التسليم من الصحابة المتأولين وأجمع الكل منهم ولم تضطرب فيه ألفاظ الأحاديث وجب بالشرع أن يكون تحريمه قد وصل الغاية من الحظر والمنع، ولحِق بالخنزير والميتة والدّم، وهذه صفة تحريم الخمر. وما اقترنت به قرينة ٱضطراب ألفاظ الأحاديث واختلفت الأئمة فيه مع علمهم بالأحاديث كقوله عليه السلام:

«أكل كلّ ذي ناب من السباع حرام». وقد ورد نهي رسول الله ﷺ عن أكل كل ذي ناب من السباع، ثم اختلفت الصحابة ومن بعدهم في تحريم ذلك، فجاز لهذه الوجوه لمن ينظر أن يحمل لفظ التحريم على المنع الذي هو الكراهة ونحوها. وما ٱقترنت به قرينة التأويل كتحريمه عليه السلام لحوم الحمر الإنسية فتأول بعض الصحابة الحاضرين ذلك لأنه نَجَس، وتأول بعضهم ذلك لئلا تفنى حَمولة الناس، وتأول بعضهم التحريم المحض. وثبت في الأمة الاختلاف في تحريم لحمها؛ فجائز لمن ينظر من العلماء أن يحمل لفظ التحريم على المنع الذي هو الكراهة ونحوها بحسب اجتهاده وقياسه.

قلت: وهذا عقد حَسَن في هذا الباب وفي سبب الخلاف على ما تقدم. وقد قيل: إن الحمار لا يؤكل، لأنه أبدى جوهره الخبيث حيث نزا على ذكر وتلوّط؛ فسمّي رِجْساً. قال محمد بن سيرين: ليس شيء من الدواب يعمل عمل قوم لوط إلا الخنزير والحمار؛ ذكره الترمذيّ في نوادر الأصول.

الثالثة: روى عمرو بن دينار عن أبي الشَّعثاء عن ٱبن عباس قال: كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء، فبعث الله نبيه عليه السلام وأنزل كتابه وأحلّ حلاله وحرّم حرامه؛ فما أحلّ فهو حلال وما حرّم فهو حرام وما سكت عنه فهو عَفْوٌ، وتلا هذه الآية «قُلْ لاَ أَجِدُ» الآية. يعني ما لم يبيِّن تحريمه فهو مباح بظاهر هذه الآية. وروى الزُّهرِيّ عن عبيد الله بن عبد الله بن عباس أنه قرأ «قُلْ لاَ أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً» قال. إنما حرّم من الميتة أكلها، ما يؤكل منها وهو اللحم؛ فأما الجلد والعظم والصوف والشعر

فحلال وروىٰ أبو داود عن مِلْقام بن تَلِب عن أبيه قال:

[٢٩٧٤] صحبت النبي ﷺ فلم أسمع لِحَشَرة الأرض تحريماً الْحَشَرة: صغار دواب الأرض كاليَرابيع والضِّباب والقنافذ. ونحوها، قال الشاعر:

أكلنا الرُّبَى يا أمَّ عمرو ومن يَكُنْ   غَـريبـاً لَـديْكـم يـأكُـلِ الحشـرات

أي ما دبّ ودَرج. والرُّبَى جمع رُبْية وهي الفأرة. قال الخطابي: وليس في قوله «لم أسمع لها تحريماً» دليل على أنها مباحة؛ لجواز أن يكون غيره قد سمعه. وقد اختلف الناس في اليَرْبوع والوَبْر[٢] والجمع وِبَارٌ ونحوهما من الحشرات؛ فرخص في اليَرْبُوع عروةُ وعطاء والشافعيّ وأبو ثور. قال الشافعي: لا بأس بالوَبْر وكرهه ٱبن سيرين والحَكَم وحمّاد وأصحاب الرأي. وكره أصحاب الرأي القُنْفد. وسئل عنه مالك بن أنس فقال: لا أدري. وحكى أبو عمرو: وقال مالك لا بأس بأكل القنفذ. وكان أبو ثَوْر لا يرى به بأساً؛ وحكاه عن الشافعيّ. وسئل عنه ٱبن عمر فتلا ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ الآية؛ فقال شيخ عنده سمعت أبا هريرة يقول:

[٢٩٧٥] ذُكر عند النبي ﷺ فقال «خبيثة من الخبائث» فقال ابن عمر: إن كان قال رسول الله ﷺ هذا فهو كما قال. ذكره أبو داود. وقال مالك: لا بأس بأكل الضبّ واليربوع الوَرَل[٢] وجائز عنده أكل الحيات إذا ذكّيت، وهو قول ٱبن أبي ليلىٰ والأوزَاعِي وكذلك الأفاعي والعقارب والفأر والعَظاية[١] والقُنْفُذ والضِّفْدَع. وقال ٱبن القاسم: ولا بأس بأكل خشاش الأرض وعقاربها ودودها في قول مالك، لأنه قال موته في الماء لا يفسده. وقال مالك: لا بأس بأكل فراخ النحل ودود الجبن والتمر ونحوه والحجة له حديث مِلْقام بن تَلِب، قول ٱبن عباس وأبي الدرداء: ماأحل الله فهو حلال وما حرّم فهو حرام وما سكت عنه فهو عَفْو. وقالت عائشة في الفأرة: ما هي بحرام، وقرأت «قل لا أجِد فيما أوحِي إليّ محرماً». ومن العلماء أهل المدين جماعةٌ لا يجيزون أكل كل شيء من خِشاش الأرض وهَوَامِّها، مثل الحيات والأوزاغ والفأر وما أشبهه. وكل ما يجوز قتله فلا يجوز عند هؤلاء أكله، ولا تعمَل الذكاة عندهم فيه. وهو قول ٱبن شهاب وعُروة والشافعي وأبي حنيفة وأصحابه وغيرهم. ولا

[٢٩٧٤] أخرجه أبو داود ٣٧٩٨ بإسناد ضعيف لجهالة ملقام بن تلب.

[٢٩٧٥] أخرجه أبو داود ٢٧٩٩ بإسناد ضعيف لجهالة عيسىٰ بن نُميلة كما في «التقريب».

---

(١) دويبة على قدر السنور.

(٢) دابة تشبه الضب إلا أنه أكبر حجماً منه يتواجد في الصحارىٰ.

(٣) دويبة تشبه السام الأبرص.

يؤكل عند مالك وأصحابه شيء من سباع الوحش كلّها، ولا الهِرّ الأهلي ولا الوحشي لأن سَبُع. وقال: ولا يؤكل الضبع ولا الثعلب، ولا بأس بأكل سباع الطير كلها: الرّخم والنُّسور والعِقبان وغيرها، ما أكل الجِيف منها وما لم يأكل. وقال الأوزاعي كله حلال، إلاّ أنهم يكرهون الرّخم وحجة مالك أنه لم يجد أحداً من أهل العلم يكره أكل سباع الطير، وأنكر الحديث عن النبي ﷺ:

[٢٩٧٦] «أنه نهى عن أكل كلّ ذي مِخلب من الطير». ورُوي عن أشهب أنه قال: لا بأس بأكل الفيل إذا ذُكّي؛ وهو قول الشَّعْبِيّ، ومنع منه الشافعي. وكره النعمان وأصحابُه أكل الضَّبُع والثعلب. ورخّص في ذلك الشافعيّ، ورُوي عن سعد بن أبي وَقّاص أنه كان يأكل الضِّباع. وحجة مالكٍ عموم النهي عن أكل كل ذي ناب من السباع، ولم يخص سَبُعاً من سَبُع.

[٢٩٧٧] وليس حديث الضّبع الذي خرّجه النّسائي في إباحة أكلها مما يعارض به حديث النهي؛ لأنه حديث ٱنفرد به عبد الرحمن بن أبي عمّار، وليس مشهوراً بنقل العلم، ولا ممن يحتج به إذا خالفه من هو أثبت منه. قال أبو عمر: وقد رُوي النهي عن أكل كل ذي ناب من السباع من طرق متواترة. وروى ذلك جماعة من الأئمة الثقات الأثبات، ومُحالٌ أن يعارَضوا بمثل حديث ٱبن أبي عمار. قال أبو عمر: أجمع المسلمون على أنه لا يجوز أكل القرد لنهي رسول الله ﷺ عن أكله، ولا يجوز بيعه لأنه لا منفعة فيه. قال: وما علمت أحداً رخّص في أكله، إلا ما ذكره عبد الرزاق عن مَعمر عن أيوب: سئل مجاهد عن أكل القرد فقال: ليس من بهيمة الأنعام.

قلت: ذكر ٱبن المنذر أنه قال: روينا عن عطاء أنه سئل عن القرد يُقتل في الحَرَم فقال: يحكم به ذوا عَدْل. قال: فعلى مذهب عطاء يجوز أكل لحمه؛ لأن الجزاء لا يجب على من قتل غير الصّيد. وفي (بحر المذهب) للرُّويانِيّ على مذهب الإمام الشافعي: وقال الشافعيّ يجوز بيع القرد لأنه يُعلَّم وينتفع به لحفظ المتاع. وحكى الكَشْفَلِيّ عن ٱبن شريح

[٢٩٧٦] أخرجه مسلم ١٩٣٤ وتقدم برقم ٢٩٦٩.

[٢٩٧٧] يشير المصنف لما أخرجه النسائي ٧/ ٢٠٠ عن ابن جريج عن عبد الله بن عبيد عن عبد الرحمن بن أبي عمار قال: سألت جابر بن عبد الله عن الضَّبُع فأمرني بأكلها فقلت: «أصيد هي؟ قال: نعم. قلت: أسمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم».
أعله القرطبي بابن أبي عمار، والصواب أن ابن أبي عمار ثقة من رجال مسلم وكذا الراوي عنه وإن كان في الحديث علة فهي عنعنة ابن جريج فإنه مدلس، والله أعلم، وقد أخرجه أبو داود ٣٨٠١ من طريق غير طريق ابن جريج فلم يذكر فيه «فأمرني بأكلها».

يجوز بيعه لأنه ينتفع به. فقيل له: وما وجه الانتفاع به؟ قال تفرح به الصبيان. قال أبو عمر: والكلب والفيل وذو الناب كله عندي مثل القِرد. والحجة في قول رسول الله ﷺ لا في قول غيره. وقد زعم ناس أنه لم يكن في العرب من يأكل لحم الكلب إلا قوم من فَقْعَس. وروى أبو داود عن ابن عمر قال:

[٢٩٧٨] نهى رسول الله ﷺ عن أكل الجَلّالة وألبانها. في رواية[1]: عن الجَلّالة في الإبل أن يُركب عليها أو يُشرب من ألبانها. قال الحَلِيمِيّ أبو عبد الله: فأما الجَلّالة فهي التي تأكل العذِرَة من الدواب والدَّجاج المُخَلّاة. ونهى النبيّ ﷺ عن لحومها. وقال العلماء: كل ما ظهر منها ريح العَذِرة في لحمه أو طعمه فهو حرام، وما لم يظهر فهو حلال. وقال الخَطّابيّ: هذا نَهْيُ تَنَزُّهٍ وتَنَظُّف، وذلك أنها إذا اغتذت الجِلّة وهي العذرة وُجد نتن رائحتها في لحومها، وهذا إذا كان غالب علفها منها؛ فأما إذا رعت الكلأ وأعتلفت الحَب وكانت تنال مع ذلك شيئاً من الجلة فليست بجلّالة؛ وإنما هي كالدّجاج المُخَلّاة، ونحوها من الحيوان الذي ربما نال الشيء منها وغالب غذائه وعلفه من غيره فلا يكره أكلها. وقال أصحاب الرأي والشافعي وأحمد: لا تؤكل حتى تُحبس أياماً وتعلف عَلَفاً غيرها؛ فإذا طاب لحمها أكلت. وقد روي في حديث:

[٢٩٧٩] «أن البقر تُعلف أربعين يوماً ثم يؤكل لحمها». وكان ابن عمر يحبس الدجاج ثلاثاً ثم يذبح. وقال إسحاق: لا بأس بأكلها بعد أن يغسل لحمها غسلاً جيداً. وكان الحسن لا يرى بأساً بأكل لحم الجلّالة؛ وكذلك مالك بن أنس. ومن هذا الباب نُهي أن تلقى في الأرض العذرة. روى عن بعضهم قال: كنا نَكْري أرض رسول الله ﷺ ونشترط على من يكريها ألا يلقى فيها العذرة. وعن ابن عمر أنه كان يكري أرضه ويشترط ألا تُدْمَن[2] بالعذرة. وروي أن رجلاً كان يزرع أرضه بالعذرة فقال له عمر: أنت الذي

[٢٩٧٨] حسن. أخرجه أبو داود ٣٧٨٥ والترمذي ١٨٢٤ من حديث مجاهد عن ابن عمر. وقال: حسن غريب، ورواه النوري عن مجاهد مرسلاً.
وأخرجه البيهقي ٩/ ٣٣٢ ـ ٣٣٣ من حديث ابن عباس، وإسناده ضعيف لضعف ليث بن أبي سليم، وكرره من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص بإسناد حسن.

[٢٩٧٩] ضعيف. أخرجه البيهقي ٩/ ٣٣٣ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، وقال: ليس بالقوي اهـ فيه إبراهيم بن مهاجر واهٍ.

---

(١) هذه الرواية عند أبي داود ٣٧٨٧ والبيهقي ٩/ ٣٣٣ من حديث ابن عمر. والترمذي ١٨٢٥ من حديث ابن عباس بنحوه، وانظر سنن البيهقي.

(٢) دمن الأرض: أصلحها بالسرجين وهو سماد للأرض.

تطعم الناس ما يخرج منهم. وٱختلفوا في أكل الخيل؛ فأباحها الشافعيّ، وهو الصحيح، وكرهها مالك. وأما البغل فهو متولّد من بين الحمار والفرس، وأحدهما مأكول أو مكروه وهو الفرس، والآخر محرّم وهو الحمار؛ فغلّب حكم التحريم؛ لأن التحليل والتحريم إذا اجتمعا في عين واحدة غلّب حكم التحريم. وسيأتي بيان هذه المسألة في «النحل» إن شاء الله بأوْعَبَ من هذا. وسيأتي حكم الجراد في «الأعراف». والجمهور من الخَلَف والسّلَف على جواز أكل الأرنب. وقد حكي عن عبد الله بن عمرو بن العاص تحريمه. وعن ابن أبي ليلى كراهته. قال عبد الله بن عمرو:

[٢٩٨٠] جيء بها إلى رسول الله ﷺ وأنا جالس فلم يأكلها ولم يَنْه عن أكلها. وزعم أنها تحيض. ذكره أبو داود. وروى النسائي مُرْسلاً عن موسى بن طلحة قال:

[٢٩٨١] أتى النبيّ ﷺ بأرنب قد شواها رجل وقال: يا رسول الله، إني رأيت بها دماً؛ فتركها رسول الله ﷺ ولم يأكلها، وقال لمن عنده: «كُلُوا فإني لو ٱشتهيتها أكلتها».

قلت: وليس في هذا ما يدل على تحريمه، وإنما هو نحوٌ من قوله عليه السلام:

[٢٩٨٢] «إنه لم يكن بأرض قومي فأجدني أعافه». وقد روى مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك قال:

[٢٩٨٣] مررنا بمَرّ الظهران فاسْتَنْفَجْنا[1] أرْنَبا فَسَعَوْا عليه فَلَغَبُوا[2]. قال: فسعيت حتى أدركتها، فأتيت بها أبا طلحة فذبحها، فبعث بوركها وفَخذها إلى رسول الله ﷺ، فأتيت بها رسول الله ﷺ فقبِله.

[٢٩٨٠] ضعيف. أخرجه أبو داود ٣٧٩٢ والبيهقي ٩/ ٣٢١ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.
قال المنذري في مختصره ٣٦٤٤: فيه خالد بن الحويرث قال ابن معين: لا أعرفه وكذا قال ابن عدي ا هـ ملخصاً. فالخبر ضعيف لأن فيه ذكر الحيض، والظاهر أنه مدرج من كلام ابن عمرو. وإلاّ فله شواهد.

[٢٩٨١] حسن. أخرجه البيهقي ٩/ ٣٢١ عن موسىٰ بن طلحة مرسلاً، وهو عند النسائي ٧/ ١٩٦ موصول عن موسىٰ عن أبي هريرة مرفوعاً به، وكرره النسائي عن موسىٰ بن طلحة عن أبي الحوتكيّة عن عمر به، فالحديث حسن وهو موصول من وجهين والله أعلم.

[٢٩٨٢] صحيح. أخرجه البخاري ٥٣٩١ و ٥٥٣٧ ومسلم ١٩٤٥ والدارمي ٢/ ٩٣ وأبو داود ٣٧٩٤ والنسائي ٧/ ١٩٧ وابن حبان ٥٢٦٣ من حديث ابن عباس في خبر أكل خالد بن الوليد الضب عند رسول الله ﷺ.

[٢٩٨٣] صحيح. أخرجه مسلم ١٩٥٣ من حديث أنس.

---

(١) أثرنا ونقرنا. ومر الظهران قرب مكة.
(٢) أي عجزوا عن أخذها.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾ أي آكل يأكله. وروي عن ابن عامر أنه قرأ «أَوْحى» بفتح الهمزة. وقرأ علي بن أبي طالب «يَطَّعِمه» مثقل الطاء، أراد يتطعمه فأدغم. وقرأت عائشة ومحمد بن الحنفية «على طاعم طعمه» بفعل ماض ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً﴾ قرىء بالياء والتاء؛ أي إلا أن تكون العين أو الجثة أو النفس ميتةً. وقرىء «يكون» بالياء «ميتة» بالرفع بمعنى تقع وتحدث ميتة. والمسفوح: الجاري الذي يسيل وهو المحرّم. وغيره مَعْفُوٌّ عنه. وحكى الماورديّ أن الدم غير المسفوح أنه إن كان ذا عروق يجمُدُ عليها كالكبد والطحال فهو حلال؛ لقوله عليه السلام:

[٢٩٨٤] «أحِلّت لنا ميتتان ودمان» الحديثَ. وإن كان غير ذي عروق يجمد عليها، وإنما هو مع اللحم ففي تحريمه قولان: أحدهما أنه حرام؛ لأنه من جملة المسفوح أو بعضه. وإنما ذكر المسفوح لاستثناء الكبد والطحال منه. والثاني أنه لا يحرّم؛ لتخصيص التحريم بالمسفوح.

قلت: وهو الصحيح. قال عمران بن جُدير: سألت أبا مِجْلَز عما يتلطخ من اللحم بالدم، وعن القِدر تعلوها الحمرة من الدّم فقال: لا بأس به، إنما حرّم الله المسفوح. وقالت نحوه عائشة وغيرُها، وعليه إجماع العلماء. وقال عكرمة: لولا هذه الآية لاتبع المسلمون من العروق ما تتبع اليهود. وقال إبراهيم النَّخَعِيّ: لا بأس بالدم في عرق أو مخ. وقد تقدّم هذا وحكم المضطر في البقرة» والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ١٤٦﴾.

فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ﴾ لما ذكر الله عز وجل ما حرّم على أمة محمد ﷺ عقّب ذلك بذكر ما حرّم على اليهود؛ لما في ذلك

[٢٩٨٤] أخرجه ابن ماجه ٣٣١٤ وأحمد ٢/٩٧ والدارقطني ٤/٢٧٢ وابن الجوزي في الواهيات ١١٠٤ من حديث ابن عمر بزيادة «فأما الميتتان فالحوت والجراد، وأما الدمان فالكبد والطحال» وإسناده ضعيف مدارهُ على عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وهو ضعيف ، وأخرجه الدارقطني من وجه آخر عن ابن عمر موقوفاً، وقال: هو أصح. وجاء في تلخيص الحبير ١/٢٦ ما ملخصه:
وصحح الوقف أبو حاتم وأبو زرعة، وعبد الرحمن بن زيد ضعيف متروك، ثم ختم ابن حجر كلامه بقوله: لكن له حكم الرفع لأنه مثل قولهم: أُمرنا ونهينا.

من تكذيبهم في قولهم: إن الله لم يحرّم علينا شيئاً، وإنما نحن حرمنا على أنفسنا ما حرّمه إسرائيل على نفسه. وقد تقدّم في «البقرة» معنى «هادوا». وهذا التحريم على الذين هادوا إنما هو تكليف بَلْوَى وعقوبة. فأوّل ما ذكر من المحرّمات عليهم كلّ ذي ظُفر. وقرأ الحسن «ظُفْر» بإسكان الفاء. وقرأ أبو السَّمَال «ظِفْر» بكسر الظاء وإسكان الفاء. وأنكر أبو حاتم كسر الظاء وإسكان الفاء، ولم يذكر هذه القراءة وهي لغة. «وظِفِر» بكسرهما. والجمع أظفار وأظفور وأظافير؛ قاله الجوهريّ. وزاد النحاس عن الفراء أظافير وأظافرة؛ قال ٱبن السِّكِّيت: يقال رجل أظفر بين الظَّفَر إذا كان طويل الأظفار؛ كما يقال: رجل أشعر للطويل الشعر. قال مجاهد وقتادة: «ذِي ظُفُرٍ» ما ليس بمنفرج الأصابع من البهائم والطير؛ مثل الإبل والنَّعام والإوَزّ والبَطّ. وقال ٱبن زيد: الإبل فقط. وقال ٱبن عباس: «ذِي ظُفُرٍ» البعير والنعامة؛ لأن النعامة ذات ظفر كالإبل. وقيل: يعني كل ذي مِخلب من الطير وذي حافر من الدواب. ويسمى الحافر ظفراً استعارة. وقال الترمِذيّ الحكيم: الحافر ظفر، والمِخلب ظفر؛ إلا أن هذا على قدره، وذاك على قدره وليس ههنا ٱستعارة؛ ألا ترى أن كليهما يُقص ويؤخذ منهما وكلاهما جنس واحد: عَظْمٌ ليِّن رِخْوٌ. أصله من غذاء ينبت فيُقَصّ مثل ظفر الإنسان، وإنما سمي حافراً لأنه يحفر الأرض بوقعه عليها. وسُمِّي مِخلَباً لأنه يخلب الطير برؤوس تلك الإبر منها. وَسُمِّيَ ظُفْراً لأنه يأخذ الأشياء بظفره، أي يظفر به الآدمي والطير.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾ قال قتادة: يعني الثُّرُوب وشحم الكُلْيَتَيْن؛ وقاله السدي. والثُّرُوب جمع الثَّرْب، وهو الشحم الرقيق الذي يكون على الكَرِش. قال ٱبن جريج: حرم عليهم كل شحم غير مختلط بعظم أو على عظم، وأحل لهم شحم الجنب والألْية؛ لأنه على العُصْعُص.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾ «ما» في موضع نصب على الاستثناء «ظُهُورُهُمَا» رفع بـ«حَمَلَتْ». ﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾ في موضع رفع عطف على الظهور أي أو حملت حواياهما، والألف واللام بدل من الإضافة. وعلى هذا تكون الحوايا من جملة ما أحل. ﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ «ما» في موضع نصب عطف على «مَا حَمَلَتْ» أيضاً هذا أصح ما قيل فيه. وهو قول الكسائي والفراء وأحمد بن يحيى. والنظر يوجب أن يعطف الشيء على ما يليه، إلا ألاّ يصح معناه أو يدل دليل على غير ذلك. وقيل: إن الاستثناء في التحليل إنما هو ما حملت الظهور خاصّةً، وقوله: ﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ معطوف على المحرم. والمعنىٰ: حرمت عليهم شحومها أو الحوايا أو ما

ٱختلط بعظم؛ إلا ما حملت الظهور فإنه غير محرم. وقد ٱحتج الشافعيّ بهذه الآية في أن من حلف ألاّ يأكل الشحم حنِث بأكل شحم الظهور؛ لاستثناء الله عز وجل ما على ظهورهما من جملة الشحم.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾: الحوايا: هي المباعر، عن ٱبن عباس وغيره. وهو جمع مَبْعَر، سمي بذلك لاجتماع البَعْر فيه. وهو الزبل. وواحد الحوايا حاوياء؛ مثل قاصِعاء وقواصع. وقيل: حاوية مثل ضاربة وضوارب. وقيل: حَوِيّة مثلُ سفينة وسفائن. قال أبو عبيدة: الحوايا ما تَحوّى من البطن أي ٱستدار. وهي مُنْحَوِية أي مستديرة. وقيل: الحوايا خزائن اللبن، وهو يتصل بالمباعر وهي المصارين. وقيل: الحَوايا الأمْعاء التي عليها الشحوم. والحوايا في غير هذا الموضع: كساء يحوّى حول سنام البعير. قال ٱمرؤ القيس:

جعلْنَ حَوَايَا واقْتَعَدْنَ قعائداً ... وخفّفن من حَوْك العِراق المُنَمَّقِ

فأخبر الله سبحانه أنه كتب عليهم تحريم هذا في التوراة ردًّا لكذبهم. ونصُّه فيها: «حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وكلّ دابّة ليست مشقوقة الحافر وكلّ حوت ليس فيه سفاسق» أي بياض. ثم نسخ الله ذلك كلّه بشريعة محمد ﷺ. وأباح لهم ما كان محرماً عليهم من الحيوان، وأزال الحرج بمحمد عليه السلام، وألزم الخليقة دين الإسلام بحلّه وحِرْمه وأمره ونَهْيه.

الخامسة: لو ذَبحوا أنعامهم فأكلوا ما أحلّ الله لهم في التوراة وتركوا ما حَرّم عليهم فهل يحلّ لنا؛ قال مالك في كتاب محمد: هي محرّمة. وقال في سماع المبسوط: هي محللة وبه قال ٱبن نافع. وقال ٱبن القاسم: أكرهه. وجه الأول أنهم يدينون بتحريمها ولا يقصدونها عند الذكاة، فكانت محرّمة كالدم. ووجه الثاني وهو الصحيح أن الله عز وجل رفع ذلك التحريم بالإسلام، وٱعتقادُهم فيه لا يؤثّر؛ لأنه ٱعتقاد فاسد؛ قاله ٱبن العربي. قلت: ويدلّ على صحته ما رواه الصحيحان عن عبد الله بن مُغَفّل قال:

[٢٩٨٥] كنا محاصِرين قصر خَيْبَر، فرمَى إنسان بِجِراب فيه شحم فَنَزَوْتُ[1] لآخذه فالتفتُّ فإذا النبيّ ﷺ فاستحيَيْت منه. لفظ البخاريّ. ولفظ مسلم. قال عبد الله بن مُغَفّل: أصبت جِراباً من شحم يومَ خَيْبر، قال فالتزمته وقلت: لا أعطِي اليوم أحداً من هذا شيئاً،

[٢٩٨٥] صحيح. أخرجه البخاري ٤٢١٤ ومسلم ١٧٧٢ من حديث عبد الله بن مغفَّل.

---

(١) أي وَثَبْتُ.

قال: فالتفتُّ فإذا رسول الله ﷺ متبَسماً. قال علماؤنا: تبسّمه عليه السلام إنما كان لما رأى من شدة حرص ٱبن مُغَفّل على أخذ الجِراب ومن ضنته به، ولم يأمره بطرحه ولا نهاه. وعلى جواز الأكل مذهب أبي حنيفة والشافعيّ وعامة العلماء؛ غير أن مالكاً كرهه للخلاف فيه. وحكى ٱبن المنذر عن مالك تحريمها؛ وإليه ذهب كبراء أصحاب مالك. ومُتَمسَّكهم ما تقدم، والحديثُ حجةٌ عليهم؛ فلو ذبحوا كلّ ذي ظفر قال أَصْبَغ: ما كان محرماً في كتاب الله من ذبائحهم فلا يحلّ أكله؛ لأنهم يدينون بتحريمها. وقاله أشهب وٱبن القاسم، وأجازه ٱبن وهب. وقال ٱبن حبيب: ما كان محرّماً عليهم، وعلمنا ذلك من كتابنا فلا يحلّ لنا من ذبائحهم، وما لم نعلم تحريمه إلا من أقوالهم وٱجتهادهم فهو غير محرم علينا من ذبائحهم.

السادسة: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ذلك التحريم. فذلك في موضع رفع، أي الأمر ذلك. ﴿جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ أي بظلمهم، عقوبة لهم لقتلهم الأنبياء وصدّهم عن سبيل الله، وأخذهم الربا واستحلالهم أموال الناس بالباطل. وفي هذا دليل على أن التحريم إنما يكون بذنب؛ لأنه ضيق فلا يُعْدَل عن السَّعة إليه إلا عند المؤاخذة. ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ في إخبارنا عن هؤلا اليهود عما حرّمنا عليهم من اللحوم والشحوم.

قوله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ شرط، والجواب ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾ أي من سعة رحمته حَلُم عنكم فلم يعاقبكم في الدنيا. ثم أخبر بما أعدّه لهم في الآخرة من العذاب فقال: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ وقيل: المعنى ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين إذا أراد حلوله في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ قال مجاهد: يعني كفار قريش. قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ يريد البَحِيرة والسَّائبة والوصيلة. أخبر الله عز وجل بالغيب عما سيقولونه؛ وظنوا أن هذا متمسَّكٌ لهم لما لزمتهم الحجة وتيقّنوا باطل ما كانوا عليه. والمعنى: لو شاء الله لأرسل إلى آبائنا رسولاً فنهاهم عن

الشِّرْك وعن تحريم ما أحلّ لهم فينتهوا فأتبعناهم على ذلك. فردّ الله عليهم ذلك فقال: ﴿هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ أي أعندكم دليل عل أن هذا كذا؟: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ في هذا القول. ﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ لتُوهِموا ضعفتكم أن لكم حجّة. وقوله ﴿وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ عطف على النون في ﴿أَشْرَكْنَا﴾ ولم يقل نحن ولا آباؤنا، لأن قوله «ولا» قام مقام توكيد المضمر؛ ولهذا حسن أن يقال: ما قمت ولا زيد.

قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ أي التي تقطع عذر المحجوج؛ وتزيل الشك عمن نظر فيها. فحجّته البالغة على هذا تبيينه أنه الواحد، وإرساله الرسل والأنبياء؛ فبيّن التوحيد بالنظر في المخلوقات، وأيد الرسل بالمعجزات، ولزم أمره كلّ مكلَّف. فأما علمه وإرادته وكلامه فغَيْب لا يطّلع عليه العبد، إلا من ٱرتضى من رسول. ويكفي في التكليف أن يكون العبد بحيث لو أراد أن يفعل ما أُمر به لأمكنه. وقد لَبَّست المعتزلة بقوله: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ فقالوا: قد ذم الله هؤلاء الذين جعلوا شركهم عن مشيئته. وتعلّقهم بذلك باطل؛ لأن الله تعالى إنما ذمّهم على ترك ٱجتهادهم في طلب الحق. وإنما قالوا ذلك على جهة الهزء واللّعب. نظيره ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ [الزخرف: ٢٠]. ولو قالوه على جهة التعظيم والإجلال والمعرفة به لما عابهم؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ﴾ [الأنعام: ١٠٧]. و﴿مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١]. ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾ [النحل: ٩]. ومثله كثير. فالمؤمنون يقولونه لعلم منهم بالله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ﴾ أي قل لهؤلاء المشركين أحضروا شهداءكم على أن الله حرّم ما حرمتم. و ﴿هَلُمَّ﴾ كلمة دعوة إلى شيء، ويستوي فيه الواحد والجماعة والذكر والأُنثى عند أهل الحجاز، إلا في لغة نجد فإنهم يقولون: هَلُمَّا هَلُمُّوا هَلُمِّي، يأتون بالعلامة كما تكون في سائر الأفعال. وعلى لغة أهل الحجاز جاء القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ [الأحزاب: ١٨] يقول: هَلمّ أي ٱحْضُر أو ٱدن. وَهَلُمّ الطعام، أي هاتِ الطعام. والمعنى هُهنا: هاتوا شهداءكم، وفتحت الميم لالتقاء الساكنين؛ كما تقول: ردّ يا هذا، ولا يجوز ضمها ولا كسرها. والأصل عند الخليل «ها»

ضُمّت إليها «لُمّ» ثم حذفت الألف لكثرة الاستعمال. وقال غيره. الأصل «هل» زيدت عليها «لُمّ». وقيل: هي على لفظها تدل على معنى هات. وفي كتاب العَيْن للخليل: أصلها هل أؤمّ، أي هلْ أقصدك، ثم كَثُر استعمالهم إياها حتى صار المقصود بقولها احضر كما أن تعال أصلها أن يقولها المتعالي للمتسافل؛ فكثر ٱستعمالهم إياها حتى صار المتسافل يقول للمتعالي تعال.

قوله تعالى: ﴿فَإِن شَهِدُواْ﴾ أي شهد بعضهم لبعض ﴿فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ أي فلا تصدق أداء الشهادة إلا من كتاب أو على لسان نبيّ، وليس معهم شيء من ذلك.

قوله تعالى: ﴿ ۞قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾

فيه أربع عشرة مسألة:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿ ۞قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ﴾ أي تقدّموا وٱقرءوا حَقّاً يقيناً كما أوحى إليّ ربّي، لا ظنّاً ولا كذباً كما زعمتم. ثم بيّن ذلك فقال: «أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً» يقال للرجل: تعالَ، أي تقدّم، وللمرأة تعالَيْ، وللأثنتين والاثنتين تعاليا، ولجماعة الرجال تعالَوْا، ولجماعة النساء تعالَيْنَ؛ قال الله تعالى: ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ﴾[الأحـزاب: ٢٨]. وجعلوا التقدّم ضرباً من التعالي والارتفاع؛ لأن المأمور بالتقدّم في أصل وضع هذا الفعل كأنه كان قاعداً فقيل له تعال، أي ٱرفع شخصك بالقيام وتقدّم؛ وٱتسعوا فيه حتى جعلوه للواقف والماشي؛ قاله ابن الشَّجَرِيّ.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿مَا حَرَّمَ﴾ الوجه في «ما» أن تكون خبرية في موضع نصب بـ «أَتْلُ» والمعنى: تعالوا أتل الذي حرّم ربكم عليكم؛ فإن علّقت «عليكم» بـ «حرّم» فهو الوجه؛ لأنه الأقرب وهو اختيار البصريين. وإن علقته بـ «أتل» فجيّد لأنه الأسبق؛ وهو اختيار الكوفيين؛ فالتقدير في هذا القول أتل عليكم الذي حرم ربكم. ﴿أَلَّا تُشْرِكُواْ﴾ في موضع نصب بتقدير فعل من لفظ الأوّل، أي أتل عليكم ألا تشركوا؛ أي أتل عليكم

تحريم الإشراك، ويحتمل أن يكون منصوباً بما في «عليكم» من الإغراء، وتكون «عليكم» منقطعة مما قبلها؛ أي عليكم ترك الإشراك، وعليكم إحساناً بالوالدين، وألاّ تقتلوا أولادكم وألا تَقْرَبوا الفواحش. كما تقول: عليك شأنكَ؛ أي ٱلزم شأنك. وكما قال: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥] قال جميعَه ابن الشَّجَرِيّ. وقال النحاس: يجوز أن تكون «أن» في موضع نصب بدلاً من «ما»؛ أي أتل عليكم تحريم الإشراك. واختار الفرّاء أن تكون «لا» للنهي؛ لأن بعده «ولا».

الثالثة ـ هذه الآية أمر من الله تعالى لنبيّه عليه السلام بأن يَدْعُوَ جميع الخلق إلى سماع تلاوة ما حرّم الله. وهكذا يجب على مَن بعده من العلماء أن يبلّغوا الناس ويبيّنوا لهم ما حرّم الله عليهم مما حلّ. قال الله تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧]. وذكر ابن المبارك: أخبرنا عيسى بن عمر عن عمرو بن مُرة أنه حدّثهم قال: قال ربيع بن خَيْثم لجليس له: أيسرّك أن تؤتى بصحيفة من النبيّ ﷺ لم يُفَكّ خاتمها؟ قال نعم. قال فٱقرأ ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ فقرأ إلى آخر الثلاث الآيات. وقال كعب الأحبار: هذه الآية مفتتح التوراة: ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم**﴾ الآية. وقال ابن عباس: هذه الآيات المحكمات التي ذكرها الله في سورة «آل عمران» أجمعت عليها شرائع الخلق، ولم تنسخ قط في مِلّة. وقد قيل: إنها العشر كلمات المنزّلة على موسى.

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ الإحسان إلى الوالدين برُّهما وحِفظهما وصيانتهما وامتثال أمرهما وإزالة الرّق عنهما وترك السّلطنة عليهما. و«إحساناً» نصب على المصدر، وناصبه فعل مضمر من لفظه؛ تقديره وأحسنوا بالوالدين إحساناً.

الخامسة ـ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ الإملاق الفقر: أي لا تَئِدوا ـ من الموءودة ـ بناتِكم خشية العَيْلة، فإني رازقكم وإيّاهم. وقد كان منهم من يفعل ذلك بالإناث والذكور خشية الفقر، كما هو ظاهر الآية. أملق أي افتقر. وأملقه أي أفقره؛ فهو لازم ومتعد. وحكى النقاش عن مُؤَرِّج أنه قال: الإملاق الجوع بلغة لَخْم. وذكر منذر بن سعيد أن الإملاق الإنفاق؛ يقال: أملق ماله بمعنى أنفقه. وذُكر أن عليّاً رضي الله عنه قال لامرأته: أمْلقي من مالك ما شئت. ورجل مَلِق يُعطِي بلسانه ما ليس في قلبه. فالمَلَق لفظ مشترك يأتي بيانه في موضعه.

السادسة ـ وقد يستدلّ بهذا من يمنع العَزْل؛ لأن الوَأْد يرفع الموجود والنَّسْل؛ والعزل منع أصل النسل فتشابها؛ إلا أن قتل النفس أعظم وِزراً وأقبح فعلاً؛ ولذلك قال

بعض علمائنا؛ إنه يفهم من قوله عليه السلام في العزل:

[٢٩٨٦] «ذلك الوأد الخفي» الكراهة لا التحريم. وقال به جماعة من الصحابة وغيرهم. وقال بإباحته أيضاً جماعةٌ من الصحابة والتابعين والفقهاء؛ لقوله عليه السلام:

[٢٩٨٧] «لا عليكم ألاّ تفعلوا فإنما هو القَدَر» أي ليس عليكم جناح في ألاّ تفعلوا. وقد فَهِم منه الحسن ومحمد بن المُثنّى النَّهْيَ والزّجْرَ عن العزل. والتأويل الأوّل أوْلى؛ لقوله عليه السلام:

[٢٩٨٨] «وإذا أراد الله خلق شيء لم يمنعه شيء». قال مالك والشافعي: لا يجوز العزل عن الحرّة إلا بإذنها. وكأنهم رأوا الإنزال من تمام لذتها، ومن حقها في الولد، ولم يروا ذلك في الموطوءة بملك اليمين، إذ له أن يعزل عنها بغير إذنها، إذ لا حق لها في شيء مما ذُكر.

السابعة ـ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ نظيره ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ [الأنعام: ١٢٠]. فقوله: «مَا ظَهَرَ» نهي عن جميع أنواع الفواحش وهي المعاصي. «وَمَا بَطَنَ» ما عقد عليه القلب من المخالفة. وظَهر وبطَن حالتان تستوفيان أقسام ما جعلت له من الأشياء. و«ما ظهر» نصب على البدل من «الفواحش». «وما بطن» عطف عليه.

الثامنة ـ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ الألف واللام في «النفس» لتعريف الجنس؛ كقولهم: أهلك الناسَ حُبُّ الدرهم والدينار. ومثله ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾﴾ [المعارج: ١٩] ألا ترى قوله سبحانه: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾؟ وكذلك قوله: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾﴾ [العصر: ١ ـ ٢] لأنه قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾. وهذه الآية نهيٌ عن قتل النفس المحرّمةِ، مؤمنةً كانت أو معاهدة إلا بالحق الذي يوجب قتلها. قال رسول الله ﷺ:

[٢٩٨٦] صحيح. أخرجه مسلم ١٤٤٢ ح ١٤١ من حديث جُدامة بنت وهب الأسدية.

[٢٩٨٧] صحيح. أخرجه البخاري ٢٥٤٢ ومسلم ١٤٣٨ ومالك ٢/ ٢٩٤ وأحمد ٣/ ١١ وأبو داود ٢١٧٢ والترمذي ١١٣٨ والنسائي ٦/ ١٠٧ من طرق عدة من حديث أبي سعيد.

[٢٩٨٨] صحيح. هذا اللفظ عند مسلم ١٤٣٨ ح ١٣٣ عن أبي سعيد مرفوعاً، وصدره «ما من كل الماء يكون الولد...» بمثله، وانظر بحث العزل في فتح الباري بإثر حديث ٥٢١٠ / ٩/ ٣٠٥ والمغني لابن قدامة ٧/ ٢٣ وعمدة القاري للعيني ٢٠/ ١٩٥ والجمهور على الرخصة في ذلك.

[٢٩٨٩] «أُمِرت أن أُقاتل الناس حتى يقولوا لا إلّه إلا الله فمن قال لا إلّه إلا الله فقد عَصَمَ مالَه ونفْسَه إلا بحقّه وحسابُهم على الله». وهذا الحق أُمور: منها منع الزكاة وترك الصلاة؛ وقد قاتل الصدّيق مانِعي الزكاة. وفي التنزيل ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥] وهذا بيّن. وقال ﷺ:

[٢٩٩٠] «لا يَحلّ دَمُ أمرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة». وقال عليه السلام:

[٢٩٩١] «إذا بُويع لخليفتين فأقتلوا الآخِرَ منهما». أخرجه مسلم. وروى أبو داود عن أبن عباس قال قال رسول الله ﷺ:

[٢٩٩٢] «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به». وسيأتي بيان هذا في «الأعراف». وفي التنزيل: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ﴾ [المائدة: ٣٣] الآية. وقال: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ﴾ [الحجرات: ٩] الآية. وكذلك من شقّ عصا المسلمين وخالف إمامَ جماعتهم وفرّق كلمتهم وسعى في الأرض فساداً بانتهاب الأهل والمال والبَغي على السلطان والامتناع من حكمه يُقْتَلُ. فهذا معنى قوله: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

وقال عليه السلام:

[٢٩٩٣] «المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعىٰ بذمتهم أدناهم لا يُقتل مسلم بكافر ولا

[٢٩٨٩] متفق عليه وتقدم.

[٢٩٩٠] متفق عليه، وقد مضىٰ.

[٢٩٩١] صحيح. أخرجه مسلم ١٨٥٣، وقد مضىٰ.

[٢٩٩٢] أخرجه أبو داود ٤٤٦٢ والترمذي ١٤٥٦ وابن ماجه ٢٥٦١ والدارقطني ٣/ ١٢٤ وابن الجارود ٨٢٠ والحاكم ٤/ ٣٥٥ وأحمد ١/ ٣٠٠ والبيهقي ٨/ ٢٣٢ من حديث ابن عباس، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي! مع أن مداره على عمرو بن أبي عمرو عن عكرمة. قال الزيلعي في نصب الراية ٣/ ٣٤٠: قال البخاري: عمرو هذا روىٰ عن عكرمة مناكير، وقال النسائي: ليس بالقوي. وقال شيخنا الذهبي في الميزان: عمرو وثقه ابن معين لكن قال: ينكر عليه حديث ابن عباس هذا اهـ وأخرجه الحاكم ٤/ ٣٥٥ من حديث أبي هريرة، وقال الذهبي: عبد الرحمن العمري ساقط. وجاء في تلخيص الحبير ٤/ ٥٤ ما ملخصه: حديث ابن عباس استنكره النسائي، وفي ثبوته اختلاف اهـ وانظر تعليقي على الحديث في كتاب العدة في أول حد الزنا فقد أفضت في تخريجه، والحديث لا يبلغ درجة الحسن. وذهب الألباني في صحيح أبي داود ٣٧٤٥ إلى أنه حسن صحيح.

[٢٩٩٣] صحيح. أخرجه البخاري، وقد مضىٰ.

ذو عهد في عهده ولا يتوارث أهل ملّتين». وروىٰ أبو داود والنَّسائي عن أبي بَكْرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

[٢٩٩٤] «من قتل مُعاهداً في غير كُنهِهِ حَرّم الله عليه الجنة». وفي رواية أُخرىٰ لأبي داود «من قتل رجلاً من أهل الذمة لم يجد ريح الجنة وإنّ ريحها ليوجد من مسيرة سبعين عاماً». في البخاري في هذا الحديث:

[٢٩٩٥] «وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً». خرّجه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.

التاسعة ـ قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى هذه المحرّمات. والكاف والميم للخطاب، ولاحظّ لهما من الإعراب. ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ الوصيّة الأمر المؤكّد المقدور. والكاف والميم محله النصب؛ لأنه ضمير موضوع للمخاطبة. وفي وَصّى ضمير فاعل يعود على الله. وروىٰ مطر الورّاق عن نافع عن ٱبن عمر أن عثمان بن عفان رضي الله عنه أشرف(١) على أصحابه فقال:

[٢٩٩٦] عَلاَم تقتلوني! فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يحل دَمُ ٱمرىء مسلم إلاّ بإحدىٰ ثلاث: رجل زنىٰ بعد حصانة فعليه الرجم أو قتل عمداً فعليه القود أو ٱرتدّ بعد إسلامه فعليه القتل» فوالله ما زنيتُ في جاهلية ولا إسلام، ولا قتلتُ أحداً فأقيد نفسي به، ولا ٱرتددت منذ أسلمت، إني أشهد أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، ذلكم الذي ذكرت لكم وصّاكم به لعلكم تعقلون!

العاشرة ـ قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي بما فيه صلاحه وتثميره، وذلك بحفظ أصوله وتثمير فروعه. وهذا أحسن الأقوال في هذا؛ فإنه

[٢٩٩٤] صحيح. أخرجه أحمد ٥/٣٦ والطيالسي ٨٧٩ وأبو داود ٢٧٦٠ والدارمي ٢/٢٣٥ والنسائي ٨/٢٤ وصححه ابن حبان ٤٨٨١ و٤٨٨٢ والحاكم ١/٤٤ ووافقه الذهبي، كلهم من حديث أبي بكرة، وإسناده صحيح كما قالوا فقد رووه من طريقين رجالهما ثقات، وشاهده الآتي يقويه.

[٢٩٩٥] صحيح. أخرجه البخاري ٣١٦٦ و ٦٩١٤ وأحمد ٢/١٨٦ والنسائي ٨/٢٥ وابن ماجه ٢٦٨٦ واستدركه الحاكم ٢/١٢٦ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وصدره «من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة...».

[٢٩٦٦] أخرجه أبو داود ٤٥٠٢ والترمذي ٢١٥٨ وهو صحيح، وقد مضىٰ.

---

(١) وذلك يوم الدار.

جامع. قال مجاهد: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ بالتجارة فيه، ولا تشتري منه ولا تستقرض.

الحادية عشرة ـ قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ يعني قُوَّتَهُ، وقد تكون في البدن وقد تكون في المعرفة بالتجربة، ولا بُدّ من حصول الوجهين، فإن الأشُدّ وقعت هنا مطلقة. وقد جاء بيان حال اليتيم في سورة «النساء» مقيدة، فقال: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا﴾ [النساء: ٦] فجمع بين قوة البدن وهو بلوغ النكاح، وبين قوة المعرفة وهو إيناس الرشد؛ فلو مُكِّن اليتيم من ماله قبل حصول المعرفة وبعد حصول القوة لأذهبه في شهواته وَبَقِيَ صُعْلوكاً لا مال له. وخصّ اليتيم بهذا الشرط لغفلة الناس عنه وٱفتقاد الآباء لأبنائهم فكان الاهتبال[1] بفقيد الأب أوْلىٰ. وليس بلوغ الأشُد يبيح قُرْب ماله بغير الأحسن؛ لأن الحرمة في حق البالغ ثابتة. وخصّ اليتيم بالذكر لأن خصمه الله. والمعنىٰ: ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن على الأبد حتى يبلغ أشده. وفي الكلام حذف؛ فإذا بلغ أشدّه وأُونس منه الرشد فادفعوا إليه ماله. وٱختلف العلماء في أشُدّ اليتيم؛ فقال ابن زيد: بلوغه وقال أهل المدينة. بلوغه وإيناس رشده. وعند أبي حنيفة: خمس وعشرون سنة. قال ابن العربيّ: وعجباً من أبي حنيفة، فإنه يرىٰ أن المقدرات لا تثبت قياساً ولا نظراً وإنما تثبت نقلاً، وهو يثبتها بالأحاديث الضعيفة، ولكنه سكن دار الضَّرْب[2] فكثر عنده المُدَلَّسْ، ولو سكن المعدن[3] كما قيض الله لمالك لما صدر عنه إلاّ إبريز[*] الدِّين. وقد قيل: إن انتهاء الكهولة فيها مُجْتَمِع الأشُدّ، كما قال سُحيم بن وَثيل:

أخُو خمسين مُجْتَمِعٌ أشُدِّي ... ونَجَّذَنِي[4] مُدَاوَرَةُ الشُّؤونِ

يروي «نجدني» بالدال والذال. والأشُدّ واحد لا جمع له؛ بمنزلة الآنُك وهو الرَّصاص. وقد قيل: واحده شدّ؛ كفَلْس وأَفْلُس. وأصله من شدّ النهار أي ٱرتفع؛ يقال: أتيته شدّ النهار ومدَّ النهار. وكان محمد بن محمد الضَّبيّ ينشدُ بيت عنترة:

عَهْدِي بِه شدّ النهار كأنما ... خُضِبَ الَّلبان ورأسُه بالعِظْلِمِ[5]

---

(١) اغتنام الفرصة وابتغاؤها.

(٢) يراد بدار الضرب: بغداد.

(٣) المعدن هنا: معدن الشريعة ومنجمها المدينة المنورة.

(*) الإبريز: الذهب.

(٤) رجل منجذ: جرب الحروب وعرفها.

(٥) اللّبان: الصدر. العِظلم: صبغ أحمر.

وقال آخر:

تُطيف بـه شَـدّ النهـار ظَعينـةٌ   طـويلـةُ أنقـاء اليـدَيـن سَحُـوق[1]

وكان سيبويه يقول: واحده شِدّة. قال الجوهري: وهو حَسَن في المعنىٰ؛ لأنه يقال: بلغ الغلام شدّته. ولكن لا تجمع فعلة على أفْعُل، وأما أنْعُم فإنما هو جمع نُعْم؛ من قولهم: يوم بُؤس ويوم نُعْم. وأما قول من قال: واحده شَدّ؛ مثلُ كَلْب وأكلب، وشِد مثل ذئب وأذؤب فإنما هو قياس. كما يقولون في واحد الأبابيل: إبَّوْل، قياساً على عِجَّوْل، وليس هو شيئاً سُمع من العرب. قال أبو زيد: أصابتني شُدَّىٰ على فُعْلىٰ؛ أي شِدّة. وأشد الرجل إذا كانت معه دابة شديدة.

الثانية عشرة ـ قوله تعالىٰ: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ أي بالاعتدال في الأخذ والعطاء عند البيع والشراء. والقسط: العدل. ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي طاقتها في إيفاء الكيل والوزن وهذا يقتضي أن هذه الأوامر إنما هي فيما يقع تحت قدرة البشر من التحفظ والتحرّر. وما لا يمكن الاحتراز عنه من تفاوت ما بين الكَيْلين، ولا يدخل تحت قُدرة البشر فمعفوٌ عنه. وقيل: الكيل بمعنىٰ المِكْيَال. يقال: هذا كذا وكذا كَيلاً؛ ولهذا عطف عليه بالميزان. وقال بعض العلماء: لما علم الله سبحانه من عباده أن كثيرا منهم تضيق نفسُه عن أن تطيب للغير بما لا يجب عليها له أمر المعطىٰ بإيفاء ربّ الحق حقّه الذي هو له ، ولم يكلفه الزيادة؛ لما في الزيادة عليه من ضيق نفسه بها. وأمر صاحبَ الحقّ بأخذ حقه ولم يكلفه الرضا بأقلّ منه؛ لما في النقصان من ضيق نفسه. وفي موطأ مالك عن يحيىٰ بن سعيد أنه بلغه عن عبد الله بن عباس أنه قال: ما ظهر الغُلُول في قوم قطُّ إلا ألقىٰ الله في قلوبهم الرّعب، ولا فشا الزنىٰ في قوم إلا كَثُر فيهم الموت، ولا نقص قوم المِكيال والميزان إلا قطع عنهم الرزق، ولا حكم قوم بغير الحق إلا فشا فيهم الدّم، ولا ختر[2] قوم بالعهد إلا سلط الله عليهم العدو. وقال ابن عباس أيضاً: إنكم معشر الأعاجم قد وُليتم أمرين بهما هلك من كان قبلكم الكيل والميزان.

الثالثة عشرة ـ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ يتضمن الأحكام والشهادات. ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي ولو كان الحق على مثل قراباتكم؛ كما تقدم في «النساء». ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ عامّ في جميع ما عهده الله إلى عباده. ويحتمل أن يراد به جميع ما

---

(١) هي المرأة الطويلة.

(٢) الختر: الغدر.

انعقد بين إنسانين. وأضيف ذلك العهد إلى الله من حيث أمر بحفظه والوفاء به ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ تتعظون.

الرابعة عشرة ـ قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ هذه آية عظيمة عطفها على ما تقدم؛ فإنه لما نهىٰ وأمر حذّر هنا عن اتباع غير سبيله، فأمر فيها باتباع طريقه على ما نبينه بالأحاديث الصحيحة وأقاويل السلف. «وأنّ» في موضع نصب، أي وأتل أن هذا صراطي؛ عن الفراء والكسائيّ. قال الفراء: ويجوز أن يكون خفضاً، أي وصّاكم به وبأن هذا صراطي. وتقديرها عند الخليل وسيبويه: ولأن هذا صراطي؛ كما قال: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨] وقرأ الأعمش وحمزة والكسائي «وإنّ هذا» بكسر الهمزة على الاستئناف؛ أي الذي ذكر في هذه الآيات صراطي مستقيماً. وقرأ ابن أبي إسحاق ويعقوب «وأنْ هذا» بالتخفيف. والمخففة مثلُ المشدّدة، إلا أن فيه ضمير القصة والشأن[1]، أي وأنه هذا. فهي في موضع رفع. ويجوز النصب. ويجوز أن تكون زائدة للتوكيد؛ كما قال عز وجل: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ [يوسف: ٩٦] والصراط: الطريق الذي هو دين الإسلام. ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ نصب على الحال، ومعناه مستوياً قويماً لا اعوجاج فيه. فأمر باتباع طريقه الذي طرقه على لسان نبيه محمد ﷺ وشرعه ونهايَتُهُ الجنة. وتشعبت منه طرق فمن سلك الجادّة نجا، ومن خرج إلى تلك الطرق أفضت به إلى النار. قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي تميل. روىٰ الدّارميّ أبو محمد في مسنده بإسناد صحيح: أخبرنا عفان حدّثنا حماد بن زيد حدّثنا عاصم بن بَهْدَلة عن أبي وائل عن عبد الله بن مسعود قال:

[٢٩٩٧] خطّ لنا رسول الله ﷺ يوماً خطاً، ثم قال: «هذا سبيل الله» ثم خطّ خطوطاً عن يمينه وخطوطاً عن يساره ثم قال «هذه سُبُلٌ على كل سبيل منها شيطان يدعو إليها» ثم قرأ هذه الآية. وأخرجه ابن ماجه في سننه عن جابر بن عبد الله قال:

[٢٩٩٨] كنا عند النبيّ ﷺ فخطّ خطاً، وخطّ خطّين عن يمينه، وخط خطين عن

[٢٩٩٧] صحيح. أخرجه الطيالسي ٢٤٤ وأحمد ١/ ٤٣٥ والدارمي ١/ ٦٧ وابن حبان ٦ و ٧ والبزار ٢٢١١ و ٢٢١٢ و ٢٤١٠ والحاكم ٢/ ٣١٨ من حديث ابن مسعود وصححه ووافقه الذهبي وهو كما قالوا حيث رووه من ثلاثة طرق عن ابن مسعود.

[٢٩٩٨] حسن. أخرجه أحمد ٣/ ٣٩٧ وابن ماجة (١١) من حديث جابر، وفيه مجالد بن سعيد غير قوي لكن حديثه حسن في الشواهد وهو شاهد لما قبله.

---

(١) أي الشأن.

يساره، ثم وضع يده في الخط الأوسط فقال هذا سبيل الله ـ ثم تلا هذه الآية ـ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ وهذه السُّبُلَ تعم اليهودية والنصرانية والمجوسية وسائر أهل الملل وأهل البدع والضلالات من أهل الأهواء والشذوذ في الفروع، وغير ذلك من أهل التعمُّق في الجدل والخوض في الكلام. هذه كلّها عرضة للزلل، ومظنة لسوء المعتقد؛ قاله ابن عطية.

قلت: وهو الصحيح. ذكر الطبري في كتاب آداب النفوس: حدّثنا محمد بن عبد الأعلىٰ الصّنعاني قال حدّثنا محمد بن ثَور عن مَعْمر عن أبان أن رجلاً قال لابن مسعود: ما الصراط المستقيم؟ قال: تَرَكَنا محمد ﷺ في أدناه وطرفُه في الجنة، وعن يمينه جَوَادّ[1] وعن يساره جوادّ، وثَمّ رجال يدعون من مَرَّ بهم فمن أخذ في تلك الجوادّ انتهت به إلى النار، ومن أخذ على الصراط انتهى به إلى الجنة، ثم قرأ ابن مسعود: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا﴾ الآية. وقال عبد الله بن مسعود: تعلموا العلم قبل أن يُقبض، وقبضه أن يذهب أهله، ألا وإياكم والتَّنَطُّعَ والتعمّق والبدع، وعليكم بالعتيق[2]. أخرجه الدَّارِمي. وقال مجاهد في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾ قال: البدع. قال ابن شهاب: وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا﴾ [الأنعام: ١٥٩] الآية. فالهَرَبَ الهربَ، والنَّجاةَ النجاةَ! والتمسُّك بالطريق المستقيم والسنن القويم، الذي سلكه السلف الصالح، وفيه المتجر الرابح. روىٰ الأئمة عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ:

[٢٩٩٩] «ما أمرتكم به فخذوه وما نهيتكم عنه فانتهوا». وروىٰ ابن ماجه وغيره عن العِرْباض بن سَارِية قال:

[٣٠٠٠] وَعَظنا رسول الله ﷺ موعظة ذَرَفت منها العيون؛ وَوَجِلَت منها القلوب؛

[٢٩٩٩] صحيح. أخرجه البخاري ٧٢٨٨ ومسلم ١٣٣٧ وأحمد ٢/ ٤٢٨ والترمذي ٢٦٧٩ والنسائي ٥/ ١١٠ وابن ماجه (١) (٢) وابن حبان ١٨ و ١٩ من حديث أبي هريرة بأتم منه، وسياق البخاري «ذروني ما تركتكم، فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم» السياق للبخاري. وآخره عند مسلم فيه تقديم وتأخير.

[٣٠٠٠] حسن. أخرجه أبو داود ٤٦٠٧ والترمذي ٢٦٧٦ وابن ماجه ٤٤ والدارمي ١/ ٤٤ وأحمد ٤/ ١٢٦ =

---

(١) الجوادّ: الطرق. واحدها: جادة.

(٢) العتيق: القديم.

فقلنا: يا رسول الله، إن هذه لموعظةُ مودّع، فما تَعْهَد إلينا؟ فقال: «قد تركتم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك من يعش منكم فسيرىٰ اختلافاً كثيراً فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين بعدي عَضُّوا عليها بالنواجذ وإياكم والأمور المحدثات فإن كل بدعة ضلالة وعليكم بالطاعة وإنْ عبداً حبشيّاً فإنما المؤمن كالجَمَل الأَنِف[1] حيثما قِيد انْقاد» أخرجه الترمذي بمعناه وصححه وروىٰ أبو داود قال حدثنا ابن كثير قال أخبرنا سفيان قال: كتب رجل إلى عمر بن عبد العزيز يسأله عن القدر؛ فكتب إليه: أما بعد، فإني أوصيك بتقوىٰ الله والاقتصاد في أمره واتباع سنة رسول الله ﷺ، وترك ما أحدث المحدثون بعدما جرت به سنته، وكُفُوا مؤونته، فعليك بلزوم الجماعة فإنها لك بإذن الله عصمة، ثم اعلم أنه لم يبتدع الناس بدعةً إلا قد مضىٰ قبلها ما هو دليل عليها أو عبرةٌ فيها؛ فإن السنة إنما سنّها من قد علم ما في خلافها من الخطأ والزلل، والحمق والتعمق؛ فارض لنفسك ما رضي به القوم لأنفسهم؛ فإنهم على علم وقفوا، وببصر نافذ كفوا، وإنهم على كشف الأمور كانوا أقوىٰ، وبفضل ما كانوا فيه أولىٰ، فإن كان الهُدَىٰ ما أنتم عليه فقد سبقتموهم إليه، ولئن قلتم إنما حدث بعدهم فما أحدثه إلا من اتبع غير سبيلهم وَرَغِب بنفسه عنهم؛ فإنهم هم السابقون، قد تكلّموا فيه بما يكْفي ووصفوا ما يَشْفِي، فما دونهم من مقصر، وما فوقهم من مجسر، وقد قصر قوم دونهم فَجَفَوْا، وطَمح عنهم أقوام فَغَلَوْا وإنهم مع ذلك لَعَلىٰ هُدىً مستقيم. وذكر[2] الحديث . وقال سهل بن عبد الله التُسْتَرِيُّ: عليكم بالاقتداء بالأثر والسنة، فإني أخاف أنه سيأتي عن قليل زمانٌ إذا ذكر إنسانٌ النبيّ ﷺ والاقتداء به في جميع أحواله ذَمّوه ونفروا عنه وتبرءوا منه وأذلّوه وأهانوه. قال سهل: إنما ظهرت البدعة على يدي أهل السنة لأنهم ظاهروهم وقاولوهم؛ فظهرت أقاويلهم وَفَشت في العامّة فَسمِعه من لم يكن يسمعه، فلو

= وابن أبي عاصم في السنة ٣٢ و ٥٧ والآجُري في الشريعة ص ٤٦ و ٤٧ وابن حبان (٥) من طرق من حديث العرباض بن سارية وصححه الحاكم ١/ ٩٥ ووافقه الذهبي، وقال الترمذي: حسن صحيح، وهو كما قالوا فيه الوليد صَرَّح بالتحديث، فزالت شبهة التدليس، وقد تابعه غير واحد غير أن أحد المعاصرين قد صنف جزءاً في هذا الحديث، وأعلَّ منه فقط لفظ «وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي» فحكم بضعف هذه الجملة، وصحح باقيه على أن لباقيه شواهد، والله أعلم.

---

(١) هو الذي لا يمتنع على صاحبه.

(٢) ظاهر كلامه أنه ذكر حديث العرباض وليس كذلك، وإنما هو تمام كلام لعمر بن عبد العزيز انظر سنن أبي داود ٤٦١٢.

تركوهم ولم يكلموهم لمات كل واحد منهم على ما في صدره ولم يظهر منه شيء وحمله معه إلى قبره، وقال سهل: لا يُحدث أحدكم بدعةً حتى يُحدث له إبليس عبادة فيتعبد بها ثم يُحدث له بدعة، فإذا نطق بالبدعة ودعا الناس إليها نزع منه تلك الْخَذْمة. قال سهل: لا أعلم حديثاً جاء في المبتدعة أشدّ من هذا الحديث:

[٣٠٠١] «حجب الله الجنة عن صاحب البدعة». قال: فاليهوديّ والنّصرانيّ أرْجىٰ منهم. قال سهل: من أراد أن يكرم دينه فلا يدخل على السلطان، ولا يَخْلُوَنَّ بالنسوان، ولا يخاصِمنّ أهل الأهواء. وقال أيضاً: آتبعوا ولا تبتدعوا، فقد كُفيتم. وفي مسند الدّارِمي: أن أبا موسىٰ الأشعري جاء إلى عبد الله بن مسعود فقال: يا أبا عبد الرحمن، إني رأيت في المسجد آنفاً شيئاً أنكرته ولم أر والحمد لله إلا خيراً! قال: فما هو؟ قال: إن عشت فستراه، قال: رأيتُ في المسجد قوماً حِلقاً حِلَقاً جلوساً ينتظرون الصلاة؛ في كل حَلْقة رجل وفي أيديهم حَصىً فيقول لهم: كَبِّروا مائة؛ فيكبرون مائة. فيقول: هَلِّلُوا مائة؛ فيهلّلون مائة. ويقول: سبحوا مائة؛ فيسبحون مائة. قال: فماذا قلتَ لهم؟ قال: ما قلتُ لهم شيئاً؛ انتظار رأيك وانتظار أمرك. قال أفلا أمرتهم أن يَعُدّوا سيئاتهم وضَمِنت لهم ألا يضيع من حسناتهم. ثم مضىٰ ومضينا معه حتى أتىٰ حلقة من تلك الحِلَق؛ فوقف عليهم فقال: ما هذا الذي أراكـم تصنعون؟ قالوا: يا أبا عبدالرحمن، حَصىً نعدّ به التكبير والتهليل والـتسبيـح . قال: فعُدّوا سيئاتكم وأنا ضامن لكم ألاّ يضيع من حسناتكم شيء، ويحكم يا أمة محمد! ما أسرع هَلْكَتكم. أو مُفْتَتِحِي باب ضلالة! قالوا: والله يا أبا عبد الرحمن، ما أردنا إلا الخير. فقال: وكم من مريد للخير لن يصيبه. وعن عمر بن عبد العزيز وسأله رجل عن شيء من أهل الأهواء والبدع؛ فقال: عليك بدين الأَعْراب والغلام في الكُتّاب، وآلْه عمّا سَوى ذلك. وقال الأوزاعي: قال إبليس لأوليائه مِن أي شيء تأتون بني آدم؟ فقالوا: من كل شيء. قال: فهل تأتونهم من قبل الاستغفار؟ قالوا: هيهات! ذلك شيء قُرِن بالتوحيد. قال: لأبثن فيهم شيئاً لا يستغفرون الله منه. قال: فَبثّ فيهم الأهواء. وقال مجاهد: ولا أدري أيّ النعمتين عليّ أعظم أن هداني للإسلام، أو عافاني من هذه الأهواء. وقال الشعبي: إنما سُمُّوا أصحاب الأهواء لأنهم يَهْوُون في النار. كله عن الدارميّ. وسئل سهل بن عبد الله[1] عن الصلاة خلف المعتزلة والنكاح

[٣٠٠١] ضعيف. ذكره الديلمي ٢٧٣٢ من حديث أنس وصدره: «حجبت التوبة..» بدل «حجبت الجنة» قال الذهبي في الميزان: هذا حديث منكر. ذكره في ترجمة هارون بن موسىٰ ٢٨٧/٤.

---

(١) هو التستري الزاهد.

منهم وتزويجهم فقال: لا، ولا كرامة! هم كفار، كيف يؤمن من يقول: القرآن مخلوق، ولا جنة مخلوقة ولا نار مخلوقة، ولا لله صراط ولا شفاعة، ولا أحد من المؤمنين يدخل النار ولا يخرج من النار من مذنبي أمة محمد ﷺ، ولا عذاب القبر ولا منكر ولا نكير، ولا رؤية لربنا في الآخرة ولا زيادة، وأنّ علم الله مخلوق، ولا يرون السلطان ولا جمعة؛ ويكفرون من يؤمن بهذا. وقال الفُضيل بن عِياض: من أحبّ صاحب بدعة أحبط الله عمله، وأخرج نور الإسلام من قلبه. وقد تقدّم هذا من كلامه وزيادة. وقال سفيان الثّوْري: البدعة أحبّ إلى إبليس من المعصية؛ المعصية يتاب منها، والبدعة لا يتاب منها. وقال ابن عباس: النظر إلى الرجل من أهل السنة يدعو إلى السنّة وينهىٰ عن البدعة، عبادةٌ. وقال أبو العالية: عليكم بالأمر الأوّل الذي كانوا عليه قبل أن يفترقوا. قال عاصم الأحْول: فحدّثت به الحسن فقال: قد نصحك والله وصدقك. وقد مضىٰ في «آل عمران» معنى قوله عليه السلام:

[٣٠٠٢] «تفرّقت بنو إسرائيل على ثنتين وسبعين فرقة وأن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين». الحديث. وقد قال بعض العلماء العارفين: هذه الفرقة التي زادت في فرق أمة محمد ﷺ هم قوم يعادون العلماء ويبغضون الفقهاء، ولم يكن ذلك قطُّ في الأمم السالفة. وقد روىٰ رافع بن خَديج أنه سمع رسول الله ﷺ يقول:

[٣٠٠٣] «يكون في أمتي قوم يكفرون بالله وبالقرآن وهم لا يشعرون كما كفرت اليهود والنصارىٰ». قال فقلت: جُعلت فداك يا رسول الله! كيف ذاك؟ قال: «يُقرُّون ببعض ويكفرون ببعض». قال قلت: جُعلت فداك يا رسول الله! وكيف يقولون؟ قال: «يجعلون إبليس عِدلاً لله في خلقه وقوته ورزقه ويقولون الخير من الله والشر من إبليس». قال: فيكفرون بالله ثم يقرءون على ذلك كتاب الله، فيكفرون بالقرآن بعد الإيمان والمعرفة؟ قال: «فما تلقىٰ أمتي منهم من العداوة والبغضاء والجدال أولئك زنادقة هذه الأمة». وذكر الحديث. ومضىٰ في «النساء» وهذه السورة النهي عن مجالسة أهل البدع والأهواء، وأن من جالسهم حكمه حكمهم فقال: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا ﴾ [الأنعام: ٦٨] الآية. ثم بين في سورة «النساء» وهي مدنية عقوبة من فعل ذلك وخالف ما

[٣٠٠٢] مضىٰ تخريجه. وهو حديث جيد.

[٣٠٠٣] ضعيف. أخرجه الطبراني في الكبير ٤٢٧٠ و ٤٢٧١ و ٤٢٧٢ والديلمي ٨٧٢١ من حديث رافع بن خديج. قال الهيثمي في المجمع ١١٨٣٦: رواه الطبراني بأسانيد في أحسنها ابن لهيعة، وهو لين الحديث اهـ فالحديث ضعيف، وابن لهيعة غير حجة، وأحاديثه واهية راجع ميزان الذهبي.

أمر الله به فقال: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ [النساء: ١٤] الآية. فألحق من جالسهم بهم. وقد ذهب إلى هذا جماعة من أئمة هذه الأمة وحكم بموجب هذه الآيات في مُجالس أهل البدع على المعاشرة والمخالطة منهم أحمد بن حنبل والأوزاعي وابن المبارك فإنهم قالوا في رجل شأنه مجالسة أهل البدع قالوا: يُنهى عن مجالستهم، فإن انتهىٰ وإلا أُلحق بهم، يعنون في الحكم. وقد حمل عمر بن عبد العزيز الحدّ على مُجالس شَرَبة الخمر، وتلا ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠]. قيل له: فإنه يقول إني أجالسهم لأباينهم وأرد عليهم. قال يُنْهىٰ عن مجالستهم، فإن لم ينته أُلحِقَ بهم.

قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ مفعولان. ﴿تَمَامًا﴾ مفعول من أجله أو مصدر. ﴿عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ قرىء بالنصب والرفع. فمن رفع ـ وهي قراءة يحيىٰ بن يَعْمَر وابن أبي إسحاق ـ فعلى تقدير: تماماً على الذي هو أحسنُ. قال المهدوِيّ: وفيه بعدٌ من أجل حذف المبتدأ العائد على الذي. وحكىٰ سيبويه عن الخليل أنه سمع «ما أنا بالذي قائل لك شيئاً». ومن نصب فعلى أنه فعل ماض داخل في الصِّلة؛ هذا قول البصريين. وأجاز الكسائي والفرّاء أنْ يكونَ اسماً نعتاً للذي. وأجازا «مررت بالذي أخيك» ينعتان الذي بالمعرفة وما قاربها. قال النحاس: وهذا محال عند البصريين؛ لأنه نعت للاسم قبل أنْ يتمّ، والمعنىٰ عندهم: على المحسن. قال مجاهد: تماماً على المحسن المؤمن. وقال الحسن في معنىٰ قوله: ﴿تَمَامًا عَلَى﴾ كان فيهم محسن وغير محسن؛ فأنزل الله الكتاب تماماً على المحسنين. والدليل على صحة هذا القول أن ابن مسعود قرأ: «تماماً على الذين أحسنوا». وقيل: المعنىٰ أعطينا موسىٰ التوراة زيادة على ما كان يحسنه موسىٰ مما كان علمه الله قبل نزول التوراة عليه. قال محمد بن يزيد: فالمعنى «تماماً على الذي أحسن» أي تماماً على الذي أحسنه الله عز وجل إلى موسىٰ عليه السلام من الرسالة وغيرها. وقال عبد الله بن زيد معناه على إحسان الله تعالىٰ إلىٰ انبيائه عليهم السلام [من الرسالة وغيرها]. وقال الربيع بن أنس: تماماً على إحسان موسىٰ من طاعته لله عز جل وقاله الفراء. ثم قيل: «ثُمَّ» يدلّ على أنْ الثاني بعد الأوّل، وقصة موسىٰ ﷺ وإتيانه الكتاب قبل هذا؛ فقيل: «ثم» بمعنىٰ الواو؛ أي آتينا موسى الكتاب، لأنهما حرفا عطف. وقيل: تقدير الكلام ثم كنا قد آتينا موسىٰ الكتاب قبل إنزالنا القرآن على محمد ﷺ. وقيل: المعنىٰ قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم، ثم

أتل ما آتينا موسىٰ تماماً. ﴿وَتَفْصِيلًا﴾ عطف عليه. وكذا ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾. ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ﴾ ابتداء وخبر. ﴿أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ نعت؛ أي كثير الخيرات. ويجوز في غير القرآن «مباركاً» على الحال. ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ أي اعملوا بما فيه. ﴿وَاتَّقُوا﴾ أي اتقوا تحريفه. ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥)﴾ أي لتكونوا راجين للرحمة فلا تُعذّبون.

قوله تعالىٰ: ﴿أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (١٥٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ (١٥٧)﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿أَن تَقُولُوا﴾ في موضع نصب. قال الكوفيون. لئلا تقولوا. وقال البصريون: أنزلناه كراهية أن تقولوا: وقال الفرّاء والكسائيّ. المعنىٰ فاتقوا أن تقولوا يا أهل مكة. ﴿إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ﴾ أي التوراة والإنجيل. ﴿عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ أي على اليهود والنصارىٰ، ولم ينزل علينا كتاب. ﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (١٥٦)﴾ أي عن تلاوة كتبهم وعن لغاتهم. ولم يقل عن دراستهما؛ لأن كل طائفة جماعة. ﴿أَوْ تَقُولُوا﴾ عطف علىٰ ﴿أَن تَقُولُوا﴾ ﴿فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي قد زال العذر بمجيء محمد ﷺ. والبينة والبيان واحد؛ والمراد محمد ﷺ، سماه سبحانه بينة. ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ أي لمن اتبعه. ثم قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي فإن كذبتم فلا أحد أظلم منكم. ﴿وَصَدَفَ﴾ أعرض. و﴿يَصْدِفُونَ﴾ يعرضون. وقد تقدم.

قوله تعالىٰ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٥٨)﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ معناه أقمت عليهم الحجة وأنزلت عليهم الكتاب فلم يؤمنوا، فماذا ينتظرون. ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي عند الموت لقبض أرواحهم. ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ قال ابن عباس والضحاك: أَمْرُ ربّك فيهم بالقتل أو غيره، وقد يذكر المضاف إليه والمراد به المضاف؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] يعني أهل القرية. وقوله: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ [البقرة: ٩٣] أي حُبّ العجل. كذلك هنا: يأتي أمر ربك، أي عقوبة ربّك وعذاب ربّك. **ويُقال: هذا من** المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلاّ الله. وقد تقدّم القول في مثله في «البقرة» وغيرها. ﴿أَوْ

﴿يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ قيل: هو طلوع الشمس من مغربها، بيّن بهذا أنهم يُمْهَلون في الدنيا فإذا ظهرت الساعة فلا إمهال. وقيل: إتيانُ الله تعالىٰ مجيئُه لفصل القضاء بين خلقه في موقف القيامة؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾. [الفجر: ٢٢]. وليس مجيئه تعالىٰ حركة ولا انتقالا ولا زوالا؛ لأن ذلك إنما يكون إذا كان الجائي جسماً أو جوهراً. والذي عليه جمهور أئمة أهل السنة أنهم يقولون: يجيء وينزل ويأتي. ولا يُكَيِّفون؛ لأنه﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورىٰ: ١١]. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ:

[٣٠٠٤] «ثلاث إذا خرجْنَ لا ينفع نفساً إيمانُها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً: طلوع الشمس من مغربها والدّجالُ ودابّةُ الأرض». وعن صَفْوان بن عَسّال المُرَادِيّ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول:

[٣٠٠٥] «إن بالمغرب باباً مفتوحاً للتوبة مسيرة سبعين سنة لا يُغْلَق حتى تطلع الشمس من نحوه». أخرجه الدَّارَقُطْنِيّ [والدارميّ] والتِّرمذيّ وقال: هذا حديث حسن صحيح. وقال سفيان: قِبل الشام، خلقه الله يوم خلق السَّمٰوات والأرض. «مفتوحاً» يعني للتوبة لا يُغلق حتى تطلع الشمس منه. قال: حديث حسن صحيح.

قلت: وكذّب بهذا كله الخوارجُ والمعتزلة كما تقدم. وروى ابن عباس قال: سمعت [1]عمر بن الخطاب فقال: يا أيها الناس، إن الرَّجْم حق فلا تُخْدَعُنْ عنه، وإن آية ذلك أن رسول الله ﷺ قد رَجم، وأن أبا بكر قد رَجَم، وأنّا قد رجمنا بعدهما، وسيكون قوم من هذه الأُمة يكذّبونَ بالرَّجْم، ويكذّبون بالدّجال، ويكذّبون بطلوع الشمس من مغربها، ويكّذبون بعذاب القبر، ويكذبون بالشفاعة، ويكذبون بقوم يخرجون من النار بعد ما ٱمْتَحَشُوا. ذكره أبو عمر. وذكر الثعلبيّ في حديث فيه طول[1] عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ما معناه: أن الشمس تُحبس عن الناس ـ حين تكثر المعاصي في الأرض، ويذهب المعروف فلا يأمر به أحد، ويفشو المنكر فلا يُنْهى عنه ـ مقدار ليلة تحت العرش، كلما سجدتْ واستأذنت ربها تعالىٰ من أين تطلع لم يجيء لها جواب حتى

[٣٠٠٤] صحيح. أخرجه مسلم ١٥٧ والديلمي ٢٤٩٨ من حديث أبي هريرة.

[٣٠٠٥] حسن. أخرجه الترمذي ٣٥٣٥ والدارمي ٣٦٣ وابن ماجة ٤٠٧٠ والدارقطني ١/١٩٦ من حديث صفوان، وإسناده حسن لأجل عاصم بن بهدلة، وقال الترمذي: حسن صحيح.

---

(١) يأتي في سورة النور.

(٢) تفرد به الثعلبي، وهو غير حجة، وقد جاء بألفاظ منكرة فيه تدل على وضعه.

يوافيها القمر فيسجد معها، ويستأذن من أين يطلع فلا يُجاء إليهما جواب حتى يُحبسا مقدارَ ثلاث ليال للشمس وليلتين للقمر؛ فلا يعرف طول تلك الليلة إلاَّ المتهجدون في الأرض ، وهم يومئذ عصابة قليلة في كل بلدة من بلاد المسلمين. فإذا تمّ لهما مقدار ثلاث ليال أرسل الله تعالىٰ إليهما جبرائيل عليه السَّلام فيقول: «إن الربّ سبحانه وتعالىٰ يأمركما أن ترجعا إلى مغاربكما فتطلعا منه، وأنه لا ضوء لكما عندنا ولا نور» فيطلعان من مغاربهما أسودين، لا ضوء للشمس ولا نور للقمر، مثلهما في كسوفهما قبل ذلك. فذلك قوله تعالىٰ: ﴿ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ ﴾ [القيامة: ٩] وقوله: ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ ﴾ [التكوير: ١] فيرتفعان كذلك مثل البعيرين المقرونين؛ فإذا ما بلغ الشمس والقمر سُرَّةَ السماء وهي منصفها جاءهما جبريل عليه السلام فأخذ بقرونهما وردّهما إلى المغرب، فلا يغربهما من مغاربهما ولكن يغربهما من باب التوبة ثم يردّ المصراعين، ثم يلتئم ما بينهما فيصير كأنه لم يكن بينهما صَدْع. فإذا أغلق باب التوبة لم تقبل لعبْدٍ بعد ذلك توبة، ولم تنفعه بعد ذلك حسنة يعملها؛ إلاَّ من كان قبل ذلك محسناً فإنه يجري عليه ما كان عليه قبل ذلك اليوم؛ فذلك قوله تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ﴾. ثم إن الشمس والقمر يُكسيان بعد ذلك الضوء والنور، ثم يطلعان على الناس ويغربان كما كانا قبل ذلك يطلعان ويغربان. قال العلماء: وإنما لا ينفع نفساً إيمانُها عند طلوعها من مغربها؛ لأنه خلص إلى قلوبهم من الفزع ما تُخْمَدُ معه كلّ شهوة من شهوات النفس، وتَفْتُر كلّ قوّة من قوى البدن؛ فيصير الناس كلهم لإيقانهم بدُنُو القيامة في حال من حضره الموت في ٱنقطاع الدّواعي إلى أنواع المعاصي عنهم، وبطلانها من أبدانهم؛ فمن تاب في مثل هذه الحال لم تُقبل توبته، كما لا تُقبل توبة من حضره الموت. قال ﷺ:

[٣٠٠٦] «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يُغَرْغِر» أي تبلغ روحه رأس حلقه، وذلك وقت المعاينة الذي يرى فيه مقعده من الجنة أو مقعده من النار؛ فالمشاهد لطلوع الشمس من مغربها مثله. وعلى هذا ينبغي أن تكون توبة كل من شاهد ذلك أو كان كالمشاهد له مردودة ما عاش؛ لأن علمه بالله تعالىٰ وبنبيه ﷺ وبوعده قد صار ضرورة. فإن ٱمتدّت أيام

[٣٠٠٦] حسن. أخرجه الترمذي ٣٥٣٧ وابن ماجه ٤٢٥٣ وأحمد ٢/ ١٣٢ وصححه ابن حبان ٦٢٨ والحاكم ٤/ ٢٥٧ من حديث ابن عمر، ووافقه الذهبي، وهو عند الطبري ٨٨٥٨ والقضاعي ١٠٨٥ من حديث عبادة بن الصامت، وإسناده منقطع، وعند أحمد ٣/ ٤٢٥ عن رجل من الصحابة وإسناده ضعيف.

الدنيا إلى أن ينسىٰ الناس من هذا الأمر العظيم ما كان، ولا يتحدّثوا عنه إلاّ قليلاً، فيصير الخبر عنه خاصّاً وينقطع التواتر عنه؛ فمن أسلم في ذلك الوقت أو تاب قُبل منه. والله أعلم. وفي صحيح مسلم عن عبد الله قال:

[٣٠٠٧] حفِظت من رسول الله ﷺ حديثاً لم أنْسَه بعدُ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الآيات خروجاً طلوعُ الشمس من مغربها وخروجُ الدابة على الناس ضُحًى وأيهما ما كانت قبل صاحبتها فالأُخرىٰ على إثرها قريباً». وفيه عن حذيفة[1] قال: كان رسول الله ﷺ في غرفة ونحن أسفلَ منه، فأطلع إلينا فقال:

[٣٠٠٨] «ما تذكرون»؟ قلنا: الساعة. قال: «إن الساعة لا تكون حتى تكون عشر آيات. خَسْفٌ بالمشرق وخَسْفٌ بالمغرب وخَسْفٌ في جزيرة العرب والدّخَان والدّجّال ودابّةُ الأرض ويأجوجُ ومأجوج وطلوعُ الشمس من مغربها ونارٌ تخرج من قعر عَدَنٍ تُرَحِّل الناس». قال شعبة: وحدّثني عبد العزيز بن رُفَيع عن أبي الطّفيل عن أبي سَرِيحَة[2] مثلَ ذلك، لا يذكر النبيّ ﷺ. وقال أحدهما في العاشرة: ونزول عيسى ابن مريم ﷺ. وقال الآخر: وريحٌ تُلْقِي الناسَ في البحر.

قلت: وهذا حديث متقن في ترتيب العلامات. وقد وقع بعضها وهي الخسوفات على ما ذكر أبو الفرج الجَوْزِي من وقوعها بعراق العجم والمغرب، وهلك بسببها خلق كثير؛ ذكره في كتاب فهوم الآثار وغيره. ويأتي ذكر الدابة في «النمل». ويأجوج ومأجوج في «الكهف». ويُقال: إن الآيات تتابع كالنّظْم في الخيط عاماً فعاماً. وقيل: إن الحكمة في طلوع الشمس من مغربها أن إبراهيم عليه السَّلام قال لنمروذ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ﴾ [البقرة: ٢٥٨] وأن المُلْحدة والمُنَجِّمة عن آخرهم ينكرون ذلك ويقولون: هو غير كائن؛ فَيُطْلِعها الله تعالىٰ يوماً من

[٣٠٠٧] صحيح. أخرجه مسلم ٢٩٤١ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.

[٣٠٠٨] صحيح. أخرجه مسلم ٢٩٠١ والحميدي ٨٢٧ وأحمد ٤/ ٧ وأبو داود ٤٣١١ والترمذي ٢١٨٣ وابن ماجه ٤٠٤١ من حديث حذيفة بن أسيد.

---

(١) هو حذيفة بن أسيد كنيته أبو سريحة.

(٢) أبو سريحة هو حذيفة بن أسيد كما تقدم، وهذه الرواية عند مسلم ٢٩٠١ح ٤٠ و ٤١ والذي رفع الحديث هو فرات بن أبي عبد الرحمن القزاز، وهو ثقة روىٰ له الشيخان فهذه زيادة ثقة وهي مقبولة.

المغرب لِيُرِيَ المنكرين قدرته أن الشمس في مُلْكه، إن شاء أطلعها من المشرق وإن شاء أطلعها من المغرب. وعلى هذا يحتمل أن يكون ردّ التوبة والإيمانِ على من آمن وتاب من المنكرين لذلك المكذبين لخبر النبيّ ﷺ بطلوعها، فأمّا المصدِّقون لذلك فإنه تُقبل توبتهم وينفعهم إيمانهم قبل ذلك. ورُوي عن عبد الله بن عباس أنه قال: لا يقبل من كافر عملٌ ولا توبةٌ إذا أسلم حين يراها، إلاّ من كان صغيراً يومئذ؛ فإنه لو أسلم بعد ذلك قُبل ذلك منه. ومن كان مؤمناً مذنباً فتاب من الذنب قُبل منه. ورُوي عن عِمران بن حُصين أنه قال: إنما لم تقبل توبته وقت طلوع الشمس حين تكون صيحةٌ فيهلك فيها كثير من الناس؛ فمن أسلم أو تاب في ذلك الوقت وهلك لم تقبل توبته، ومن تاب بعد ذلك قبلت توبته، ذكره أبو الليث السَّمَرْقَنْدِيّ في تفسيره. وقال عبد الله بن عمر [و][*]: يبقىٰ الناس بعد طلوع الشمس من مغربها مائة وعشرين سنة حتي يَغْرِسوا النخل. والله بغيبه أعلم. وقرأ ابن عمر وأبن الزبير «يوم تأتي» بالتاء؛ مثل «تلتقطه بعض السَّيَّارة». وذهبت بعض أصابعه. وقال جرير:

لمّـا أتـى خبـرُ الـزّبيـر تـواضَعـتْ ... سُـورُ المـدينة والجبـالُ الخُشّـعُ[1]

قال المبرد: التأنيث على المجاورة لمؤنث لا على الأصل. وقرأ ابن سِيرين «لا تنفع» بالتاء. قال أبو حاتم: يذكرون أن هذا غلط من أبن سِيرين. قال النحاس: في هذا شيء دقيق من النحو ذكره سيبويه، وذلك أن الإيمان والنفس كلّ واحد منهما مشتمل على الآخر فأنّث الإيمان إذ هو من النفس وبها؛ وأنشد سيبويه[2]:

مَشَيْـنَ كمـا أهتـزّتْ رمـاحٌ تَسفّهـتْ ... أعـالِيهَـا مَـرُّ الـريـاح النَّـواسـمِ

قال المَهْدَوِيّ: وكثيراً ما يؤنّثون فعل المضاف المذكر إذا كانت إضافته إلى مؤنّث، وكان المضاف بعض المضاف إليه أو منه أو به؛ وعليه قول ذِي الرمّة:

* مـشين. . . * الـبيت

فأنث المَرّ لإضافته إلى الرياح وهي مؤنثة، إذ كان المَرّ من الرياح. قال النحاس: وفيه قول آخر وهو أن يؤنّث الإيمان لأنه مصدر كما يذكّر المصدر المؤنث؛ مثل: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧٥] وكما قال[3]:

(*) زيادة عن «كتاب الفتن» ص ٣٩٨.

(١) يصف قتل الزبير بن العوام حين انصرف من الجمل.

(٢) البيت لذي الرمة.

(٣) هو حاتم الطائي.

فقد عذرتنا في صحابته العذر

ففي أحد الأقوال أنّث العذر لأنه بمعنى المعذرة. ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ بكم العذاب.

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ﴾ قرأه حمزة والكِسائي «فارقوا» بالألف، وهي قراءة عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه؛ من المفارقة والفراق. على معنى أنهم تركوا دينهم وخرجوا عنه. وكان عليّ يقول: واللَّهِ ما فرّقوه ولكن فارقوه. وقرأ الباقون بالتشديد؛ إلاّ النَّخَعِيّ فإنه قرأ «فَرَقوا» مُخَفَّفاً؛ أي آمنوا ببعض وكفروا ببعض. والمراد اليهود والنصارى في قول مجاهد وقتادة والسُّدِّي والضّحاك. وقد وصفُوا بالتفرق؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾﴾ [البينة: ٤]. وقال: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [النساء: ١٥٠]. وقيل: عنى المشركين، عبد بعضهم الصنم وبعضهم الملائكة. وقيل: الآية عامّة في جميع الكفار. وكل من ابتدع وجاء بما لم يأمر الله عزّ وجل به فقد فرّق دينه. وروى أبو هريرة عن النبيّ ﷺ في هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ﴾.

[٣٠٠٩] «هم أهل البدع والشبهات، وأهل الضلالة من هذه الأمة» ورَوىٰ بَقِيّة بن الوليد حدّثنا شعبة بن الحجاج حدّثنا مُجالد عن الشَّعْبيّ عن شُريح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لعائشة:

[٣٠١٠] «إن الذين فرّقوا دينهم وكانوا شِيعاً إنما هم أصحابُ البِدَع وأصحابُ الأهواء وأصحاب الضلالة من هذه الأُمة، يا عائشة إن لكل صاحب ذنب توبة غير أصحاب البدع وأصحاب الأهواء ليس لهم توبة وأنا بريء منهم وهم منا برآء». وروى

[٣٠٠٩] ضعيف. أخرجه الطبري ١٤٢٧١ من حديث أبي هريرة، وإسناده ضعيف فيه عباد بن كثير وليث بن أبي سليم وكلاهما واهٍ، وقال ابن كثير في تفسيره ٢/٢٠٣: لا يصح عباد بن كثير متروك.

[٣٠١٠] ضعيف جداً، أخرجه الطبراني في الصغير ٥٦٠ وابن الجوزي في الواهيات ٢٠٩ من حديث عمر، وقال: لا يثبت وبقية مدلس، والظاهر أنه سمعه من ضعيف فأسقطه وأعله الهيثمي في المجمع ٨٩٦ بضعف بقية ومجالد بن سعيد، وكذا ضعفه ابن كثير في تفسيره ٢/ ١٢٠٤. ثم إن حجب التوبة عن المبتدع باطل لا يصح.

ليث بن أبي سليم عن طاوس عن أبي هريرة أن النبيّ ﷺ قرأ «إِنَّ الَّذِينَ فَارَقُوا دِينَهُمْ»[1].

ومعنى ﴿شِيَعًا﴾ فِرقاً وأحزاباً. وكل قوم أمْرُهم واحد يتبع بعضهم رأي بعض فهم شِيع. ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ فأوجب براءته منهم؛ وهو كقوله عليه السَّلام: «مَن غَشّنا فليس منا[2]» أي نحن براء منه. وقال الشاعر[3]:

إذا حـاولـتَ فـي أَسَـد فُجـوراً فـإنـي لسـتُ منـك ولسـتَ مِنّـي

أي أنا أبرأ منك. وموضع ﴿فِي شَيْءٍ﴾ نصب على الحال من المضمر الذي في الخبر؛ قاله أبو عليّ. وقال الفراء: هو على حذف مضاف، المعنى لست من عقابهم في شيء، وإنما عليك الإنذار. ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ تعزية للنبي ﷺ.

قوله تعالىٰ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ ابتداء، وهو شرط، والجواب ﴿فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ أي فله عشر حسنات أمثالها؛ فحذفت الحسنات وأُقيمت الأمثال التي هي صفتها مقامها؛ جمع مِثْل. وحكي سيبويه: عندي عشرة نسّابات، أي عندي عشرة رجال نسّابات. وقال أبو عليّ: حَسُن التأنيث في «عَشْرُ أَمْثَالِهَا» لما كان الأمثال مضافاً إلى مؤنّث، والإضافة إلى المؤنث إذا كان إياه في المعنى يحسن فيه ذلك؛ نحو «تَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ». وذهبت بعض أصابعه. وقرأ الحسن وسعيد بن جُبير والأعمش «فله عَشْرٌ أمثالها». والتقدير: فله عشر حسنات أمثالها، أي له من الجزاء عشرة أضعاف مما يجب له. ويجوز أن يكون له مثل، ويضاعف المِثل فيصير عشرة. والحسنة هنا: الإيمان. أي من جاء بشهادة أن لا إله إلاّ الله فله بكل عملٍ عمِله في الدنيا من الخير عشرة أمثاله من الثواب. ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ يعني الشرك ﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ وهو الخلود في النار؛ لأن الشرك أعظم الذنوب، والنار أعظم العقوبة؛ فذلك قوله تعالىٰ: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾ [النبأ: ٢٦] يعني جزاء وافق العمل. وأما الحسنة فبخلاف ذلك؛ لنص الله تعالىٰ على ذلك. وفي الخبر:

[٣٠١١] «الحسنة بعشر أمثالها وأَزِيد والسيئة واحدة وأغفر فالويل لمن غلبت آحاده

[٣٠١١] هو موقوف على ابن مسعود. ذكره ابن كثير في تفسيره ٢/٢٢٦ وعزاه لابن مسعود من قوله.

---

(١) في الإسناد ليث وهو ضعيف مدلس، وقد عنعنه، وقد أسند الطبري ١٤٢٥٧ و١٤٢٥٨ هذه القراءة عن علي رضي الله عنه. وبها قرأ حمزة والكسائي.

(٢) أخرجه مسلم ١٠١ وسيأتي.

(٣) البيت للنابغة الذبياني.

أعشارَه». وروى الأعمش عن أبي صالح قال: الحسنة لا إلٰه إلاّ الله والسيئة الشرك. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ أي لا ينقص ثواب أعمالهم. وقد مضى في «البقرة» بيان هذه الآية. وأنها مخالفة للإنفاق في سبيل الله؛ ولهذا قال بعض العلماء: العشر لسائر الحسنات؛ والسبعمائة للنفقة في سبيل الله، والخاص والعام فيه سواء. وقال بعضهم: يكون للعوامّ عشرة وللخواص سبعمائة وأكثر إلى ما لا يحصى؛ وهذا يحتاج إلى توقيف. والأوّل أصح؛ لحديث خُريم بن فاتك عن النبيّ ﷺ، وفيه:

[٣٠١٢] «وأما حسنة بعشر فمن عَمِل حسنة فله عشر أمثالها وأما حسنة بسبعمائة فالنفقة في سبيل الله».

قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾.

فيه أربع مسائل:

الأولىٰ ـ قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ لما بيّن تعالىٰ أن الكفار تفرّقوا بيّن أن الله هداه إلى الدِّين المستقيم وهو دين إبراهيم ﴿دِينًا﴾ نصب على الحال؛ عن قُطْرُب. وقيل: نصب بـ ﴿هَدَانِي﴾ عن الأخفش. قال غيره: انتصب حملاً على المعنى؛ لأن معنى هداني عرّفني ديناً. ويجوز أن يكون بدلاً من الصراط، أي هداني صراطاً مستقيماً ديناً. وقيل: منصوب بإضمار فعل؛ فكأنه قال: اتبعوا ديناً، واعرفوا ديناً. ﴿قِيَمًا﴾قرأه الكوفيون وابن عامر بكسر القاف والتخفيف وفتح الياء، مصدر كالشبع فوصف به. والباقون بفتح القاف وكسر الياء وشدّها، وهما لغتان. وأصل الياء الواو «قيوِم» ثم أدغمت الواو في الياء كميت. ومعناه ديناً مستقيماً لا عِوج فيه ﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ بدل ﴿حَنِيفًا﴾ قال الزجاج: هو حال من إبراهيم. وقال عليّ بن سليمان: هو نصب بإضمار أعني.

الثانية ـ قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى﴾ قد تقدّم اشتقاق لفظ الصَّلاة. وقيل:

[٣٠١٢] أخرجه الحاكم ٢/٨٧ ح ٢٤٤٢ وأحمد ٤/٣٤٥ ح ١٨٥٥٦ من حديث خريم بن فاتك الأسدي، صححه الحاكم، وقال الذهبي: مسلمة ـ بن جعفر ـ تعبت عليه فلم أعرفه اهـ لكن تابعه شيبان بن عبد الرحمن في رواية أحمد وشيبان ثقة فالحديث قوي.

المراد بها هنا صلاة الليل. وقيل: صلاة العِيد. والنّسك جمع نسِيكة، وهي الذّبيحة، وكذلك قال مجاهد والضحاك وسعيد بن جبير وغيرهم. والمعنى: ذَبْحِي في الحج والعمرة. وقال الحسن: نسكي دِيني. وقال الزجاج: عبادتي؛ ومنه الناسك الذي يتقرّب إلى الله بالعبادة. وقال قوم: النسك في هذه الآية جميع أعمال البر والطاعات؛ من قولك نسك فلان فهو ناسك، إذا تعبّد. ﴿وَمَحْيَاىَ﴾ أي ما أعمله في حياتي ﴿وَمَمَاتِى﴾ أي ما أوصي به بعد وفاتي. ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ أي أفرده بالتقرُّب بها إليه. وقيل: ﴿وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ﴾أي حياتي وموتي له. وقرأ الحسن: «نُسْكِي» بإسكان السين. وأهل المدينة «ومحياي» بسكون الياء في الإدراج. والعامة بفتحها؛ لأنه يجتمع ساكنان. قال النحاس: لم يُجِزه أحد من النحويين إلاّ يونس، وإنما أجازه لأن قبله ألفاً، والألف المدّة التي فيها تقوم مقام الحركة. وأجاز يونس ٱضرِبانْ زيداً، وإنما منع النحويون هذا لأنه جمع بين ساكنين وليس في الثاني إدغام، ومن قرأ بقراءة أهل المدينة وأراد أن يَسْلَم من اللحن وقف على «محياي» فيكون غير لاحِنٍ عند جميع النحويين. وقرأ ٱبن أبي إسحاق وعيسى بن عمر وعاصم الجَحْدرِيّ «وَمَحْيّ» بتشديد الياء الثانية من غير ألف، وهي لغة عُلْيَا مُضَر يقولون: قَفَيّ وَعَصَيّ. وأنشد أهل اللغة[1]:

سَبَقـوا هَويّ وأعْنَقُوا لهـواهم

وقد تقـدّم.

الثالثة ـ قال الكيا الطبريّ: قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ إلى قوله ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ ٱستدلّ به الشافعيّ على افتتاح الصَّلاة بهذا الذكر؛ فإن الله أمر نبيه ﷺ وأنزله في كتابه، ثم ذكر حديث عليّ رضي الله عنه: أنّ النبيّ ﷺ كان إذا افتتح الصَّلاة قال:

[٣٠١٣] «وَجّهتُ وَجْهِيَ للذي فَطَر السَّمٰواتِ والأرض حَنِيفاً وما أنا من المشركين. إنّ صلاتي ونُسُكِي وَمَحْيَاي وَمَمَاتِي لِلَّهِ ربِّ العالمين ـ إلى قوله ـ وأنا من المسلمين».

قلت: روى مسلم في صحيحه عن عليّ بن أبي طالب عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا قام إلى الصَّلاة قال:

[٣٠١٣] مضىٰ تخريجه.

---

(١) البيت لأبي ذؤيب وتمامه: فَتُخرموا ولكل جنب مصرع.

[٣٠١٤] «وجهت وجهي للذي فطر السَّمٰواتِ والأرض حنِيفاً وما أنا من المشركين. إن صلاتِي ونُسُكِي ومحياي ومماتِي لِلَّهِ ربِّ العالمِين لا شريك له وبِذلِك أُمِرت وأنا أوّل المسلِمِين. اللَّهُمَّ أنت الملِك لا إله إلاَّ أنت، أنت ربّي وأنا عبدُك ظلمتُ نفسي وأعترفتُ بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعاً إنه لا يغفر الذّنوب إلاَّ أنت وآهدني لأحسنِ الأخلاق لا يَهْدِي لأحسنها إلاَّ أنت وآصرف عنّي سيئَها لا يصرف عني سيئها إلاَّ أنت لبَّيك وسَعْدَيْكَ والخيرُ كلُّه في يديك والشر ليس إليك. تباركت وتعاليت. أستغفرك وأتوب إليك». الحديث. وأخرجه الدَّارَقُطْنِيّ وقال في آخره: بَلَغَنا عن النَّضْر بن شُميل وكان من العلماء باللغة وغيرها قال: معنى قول رسول الله ﷺ «والشر ليس إليك» الشر ليس مما يُتقرّب به إليك. قال مالك: ليس التوجيه في الصَّلاة بواجب على الناس، والواجب عليهم التكبير ثم القراءة. قال ابن القاسم: لم ير مالك هذا الذي يقوله الناس قبل القراءة: سبحانك اللَّهُمَّ وبحمدك. وفي مختصر ما ليس في المختصر: أن مالكاً كان يقوله في خاصة نفسه؛ لصحة الحديث به، وكان لا يراه للناس مخافة أن يعتقدوا وجوبه. قال أبو الفرج الجَوْزِيّ: وكنت أصلي وراء شيخِنا أبي بكر الدِّينَوري الفقيه في زمان الصّبا، فرآني مرّة أفعل هذا فقال: يا بنيّ، إن الفقهاء قد اختلفوا في وجوب قراءة الفاتحة خلف الإمام، ولم يختلفوا أن الافتتاح سُنّة، فاشتغل بالواجب ودَعِ السُّنَنَ. والحجة لمالكٍ قولُه ﷺ للأعرابيّ الذي علّمه الصَّلاة:

[٣٠١٥] «إذا قمت إلى الصلاة فكَبِّر ثم آقرأ» ولم يقل له سبح كما يقول أبو حنيفة، ولا قل وجهت وجهي، كما يقول الشافعيّ. وقال لأبيّ[1]: «كيف تقرأ إذا آفتتحت الصلاة»؟ قال: قلت الله أكبر، الحمد لله ربّ العالمين. فلم يذكر تَوْجِيهاً ولا تسبيحاً. فإن قيل: فإن علياً قد أخبر أن النبيّ ﷺ كان يقوله. قلنا: يحتمل أن يكون قاله قبل التكبير ثم كَبّر، وذلك حَسَن عندنا. فإن قيل: فقد روى النَّسائيّ والدَّارَقُطْنِي أن النبيّ ﷺ كان إذا آفتتح الصلاة كبر ثم يقول:

[٣٠١٦] «إن صلاتي ونُسُكي» الحديث قلنا: هذا نحمله على النافلة في صلاة الليل؛ كما جاء في كتاب النَّسائيّ عن أبي سعيد قال: كان رسول الله ﷺ إذا آفتتح الصلاة بالليل قال:

[٣٠١٤] انظر ما قبله وهو عند مسلم ٧٧١.

[٣٠١٥] هو بعض حديث المسيء صلاته متفق عليه وتقدم.

[٣٠١٦] تقدم.

---

(١) لم أجده، فلينظر.

[٣٠١٧] «سبحانك اللَّهُمّ وبحمدك تبارك اسمك وتعالى جدّك ولا إله غيرك». أو في النافلة مطلقاً؛ فإن النافلة أخفّ من الفرض؛ لأنه يجوز أن يُصلّيها قائماً وقاعداً وراكباً، وإلى القبلة وغيرها في السفر، فأمْرُها أيسر. وقد روى النَّسائيّ عن محمد بن مَسْلَمة أن رسول الله ﷺ كان إذا قام يصلّي تطوُّعاً قال:

[٣٠١٨] «الله أكبر وجَّهتُ وجْهِيَ للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين. إن صلاتي ونُسُكي ومَحْياي ومماتي لله رب العالمين. لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أوّل المسلمين. اللّهُمّ أنت الملِك لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك». ثم يقرأ. وهذا نصٌّ في التطوع لا في الواجب. وإن صح أن ذلك كان في الفريضة بعد التكبير، فيحمل على الجواز والاستحباب، وأما المسنون فالقراءة بعد التكبير، والله بحقائق الأمور عليم. ثم إذا قاله فلا يقل: «وأنا أوّل المسلمين». وهي:

الرابعة: إذ ليس أحدهم بأوّلهم إلا محمداً ﷺ. فإن قيل: أو ليس إبراهيم والنبيّون قبله؟ قلنا عنه ثلاثة أجوبة: الأوّل: أنه أوّل الخلق أجمع معنًى؛ كما في حديث أبي هريرة من قوله عليه السلام:

[٣٠١٩] «نحن الآخِرون الأوّلون يوم القيامة ونحن أوّل من يدخل الجنة». وفي حديث حُذيفة:

[٣٠٢٠] «نحن الآخِرون من أهل الدنيا والأوّلون يوم القيامة المَقْضِيّ لهم قبل الخلائق». الثاني: أنه أوّلهم لكونه مقدّماً في الخلق عليهم؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ [الأحزاب: ٧]. قال قتادة: إن النبيّ ﷺ قال:

[٣٠٢١] «كنت أوّلَ الأنبياء في الخلق وآخرهم في البعث». فلذلك وقع ذكره هنا

[٣٠١٧] أخرجه أبو داود ٧٧٥ والترمذي ٢٤٢ والنسائي في الكبرىٰ ٩٧٢ و٩٧٣ من حديث أبي سعيد، وقال أبو داود: وهذا الحديث يقولون: هو عن علي بن علي عن الحسن مرسلاً، والوهم من جعفر، وقال الترمذي: قد تكلم في إسناد حديث أبي سعيد، وقال أحمد: لايصح هذا الحديث، وله شاهد من حديث عائشة أخرجه أبو داود ٧٧٦ وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» ٧٠١ و٧٠٢ وكذا صححه أحمد شاكر.

[٣٠١٨] أخرجه النسائي ٢/ ١٣١ من حديث محمد بن مسلمة، وإسناده حسن رجاله كلهم ثقات، لكن كرره النسائي في الكبرىٰ ٩٧٠ بإسناد صحيح من حديث جابر فلم يذكر فيه لفظ «تطوعاً».

[٣٠١٩] صحيح. أخرجه البخاري ٢٣٨ من حديث أبي هريرة وتقدم.

[٣٠٢٠] صحيح. أخرجه مسلم ٨٥٦ من حديث أبي هريرة، وحذيفة معاً بأتم منه.

[٣٠٢١] ضعيف. أخرجه أبو نعيم في الدلائل ١/ ٦ وابن عدي ٣/ ٣٧٣ والديلمي ٤٨٥٠ من حديث قتادة =

مقدّماً قبل نوح وغيره. الثالث: أوّل المسلمين من أهل مِلّته؛ قاله ابن العربِيّ، وهو قول قتادة وغيره. وقد اختلفت الروايات في «أوّل» ففي بعضها ثبوتُها وفي بعضها لا، على ما ذكرنا. وروى عِمران بن حُصين قال: قال رسول الله ﷺ:

[٣٠٢٢] «يا فاطمة قومي فأشهدي أضْحِيَتك فإنه يغفر لك في أوّل قَطْرة من دمها كلَّ ذنب عملتيه ثم قولي: «إن صلاتي ونُسُكي ومَحْيَاي ومماتي لله رب العالمين. لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أوّل المسلمين». قال عمران: يا رسول الله، هذا لك ولأهل بيتك خاصة أم للمسلمين عامّةً؟ قال: «بل للمسلمين عامّة».

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي مالكه. روي أن الكفار قالوا للنبيّ ﷺ: أرجع يا محمد إلى ديننا، وأعبد آلهتنا، وأترك ما أنت عليه، ونحن نتكفّل لك بكل تِباعة تتوقعها في دنياك وآخرتك؛ فنزلت الآية. وهي استفهام يقتضي التقرير والتوبيخ. و«غير» نصب بـ«ـأبْغِي» و«رَبًّا» تمييز.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ أي لا ينفعني في ابتغاء ربٍّ غير الله كونكم على ذلك؛ إذْ لا تكسب كل نفسٍ إلا عليها؛ أي لا يؤخذ بما أتت من المعصية، وركبت من الخطيئة سواها.

الثانية: وقد استدلّ بعض العلماء من المخالفين بهذه الآية على أن بيع الفُضُوليّ لا يصح، وهو قول الشافعيّ. وقال علماؤنا: المراد من الآية تحمل الثواب والعقاب دون أحكام الدنيا؛ بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ على ما يأتي. وبيع الفُضُولِيّ عندنا موقوف على إجازة المالك، فإن أجازه جاز. هذا عُرْوة البارِقيّ قد باع للنبيّ ﷺ واشترى وتصرّف بغير أمره، فأجازه النبيّ ﷺ؛ وبه قال أبو حنيفة. وروى البُخارِيّ والدَّارَقُطْنِيّ عن عُروة بن أبي الجَعْد قال:

= عن الحسن عن أبي هريرة، وإسناده ضعيف لضعف سعيد بن بشير. قال ابن نمير: يروي عن قتادة المنكرات كما في الميزان، ثم إن الحسن لم يسمع أبا هريرة فهذه علة ثانية.

[٣٠٢٢] ضعيف. أخرجه الحاكم ٤/٢٢٢ ح ٧٥٢٤ من حديث عمران بن حصين، وصححه، وقال: له شاهد من حديث أبي سعيد ثم ذكره مختصراً. وتعقبه الذهبي، فقال عن الأول: بل أبو حمزة الثمالي ضعيف جداً، وإسماعيل ليس بذاك، وحديث أبي سعيد فيه عطية العوفي واهٍ.

[٣٠٢٣] عرض للنبيّ ﷺ جَلَب[1] فأعطاني ديناراً وقال: «أيْ عُرْوة آيت الجَلَب فاشتر لنا شاة بهذا الدينار» فأتيتُ الجَلَب فساومْتُ فاْشتريت شاتين بدينار، فجئت أسوقهما ـ أو قال أقودهما ـ فلقيني رجل في الطريق فساومني فبعته إحدى الشاتين بدينار، وجئت بالشاة الأخرى وبدينار، فقلت: يا رسول الله، هذه الشاة وهذا ديناركم. قال: «كيف صنعت»؟ فحدّثته الحديث. قال: «اللَّهُمّ بارك له في صفقة يمينه». قال: فلقد رأيتُني أقف في كُناسة[2] الكوفة فأربح أربعين ألفاً قبل أن أصِل إلى أهلي. لفظ الدَّارَقُطْنِيّ. قال أبو عمر: وهو حديث جيّد، وفيه صحة ثبوت النبيّ ﷺ للشاتين، ولولا ذلك ما أخذ منه الدينار ولا أمضى له البيع.

وفيه دليل على جواز الوكالة، ولا خلاف فيها بين العلماء. فإذا قال الموكل لوكيله: ٱشتر كذا؛ فاشترى زيادةً على ما وُكّل به فهل يلزم ذلك الأمر أم لا؟. كرجل قال لرجل: ٱشتر بهذا الدّرهِم رِطل لحم، صفته كذا؛ فاشترى له أربعة أرطال من تلك الصفة بذلك الدرهم. فالذي عليه مالك وأصحابه أن الجميع يلزمه إذا وافق الصفة ومن جنسها؛ لأنه مُحْسِن. وهو قول أبي يوسف ومحمد بن الحسن. وقال أبو حنيفة: الزيادة للمشتري. وهذا الحديث حُجّة عليه.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي لا تحمل حاملةٌ ثِقْل أخرى، أي لا تؤخذ نفس بذنب غيرها، بل كل نفس مأخوذة بِجُرْمها ومعاقبة بإثمها. وأصل الوِزْر الثِّقْل؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢﴾ [الإسراء: ٢]. وهو هنا الذنب؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنعام: ٣١]. وقد تقدّم. قال الأخفش: يقال وَزِر يَوْزَر، وَوَزَرَ يَزِر، وَوُزِرَ يُوزَر وَزَراً. ويجوز إزْراً، كما يقال: إسادة. والآية نزلت في الوليد بن المغيرة، كان يقول: ٱتبعوا سبيلي أحمل أوزاركم؛ ذكره ابن عباس.

[٣٠٢٣] جيد. أخرجه البخاري ٢/ ٤١٤ وأبو داود ٣٣٨٤ والشافعي ١٣٣٣ وأحمد ٤/ ٣٧٥ والبيهقي ٦/ ١١٢ من حديث شبيب بن غرقدة قال: سمعت الحيَّ يتحدثون عن عروة البارقي... فذكره.
وأخرجه الترمذي ١٢٥٨ وابن ماجه ٢٤٠٢ والدارقطني ٣/ ١٠ من وجه آخر عن عروة البارقي.
قال ابن حجر في التلخيص ٣/ ٥ ما ملخصه: قال النووي والمنذري: إسناده حسن لمجيئه من طريقين، وضعفه المزني فيما نقل البيهقي، لأن الحيّ غير معروفين، وأعله الخطابي أيضاً بأنه غير متصل اهـ لكن هو عند الترمذي متصل وإسناده حسن، وقد جوده ابن عبد البر كما ذكر القرطبي.

---

(١) ما جلبه القوم من غنم ونحوه.
(٢) محلة بالكوفة يشبه أن تكون سوقاً.

وقيل: إنها نزلت رَدًّا على العرب في الجاهلية من مؤاخذة الرجل بأبيه وبابنه وبجَرِيرة حَلِيفه.

قلت: ويحتمل أن يكون المراد بهذه الآية في الآخرة، وكذلك التي قبلها؛ فأما التي في الدنيا فقد يؤاخذ فيها بعضهم بجُرْم بعض، لا سيَّمَا إذا لم يَنْه الطائعون العاصين، كما تقدّم في حديث[1] أبي بكر في قوله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]. وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥]. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]. وقالت زينب بنت جَحْش:

[٣٠٢٤] يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كَثُرَ الخَبَث». قال العلماء: معناه أولاد الزنى. والخَبَث (بفتح الباء) اسم للزنى. فأوجب الله تعالى على لسان رسوله ﷺ دِيَة الخطأ على العاقلة حتى لا يُطَل[2] دَمُ الْحُرّ المسلم تعظيماً للدّماء. وأجمع أهل العلم على ذلك من غير خلاف بينهم في ذلك؛ فدلّ على ما قلناه. وقد يحتمل أن يكون هذا في الدنيا، في ألاّ يؤاخذ زيد بفعل عمرو، وأن كل مباشر لجريمة فعليه مَغَبَّتُها. وروى أبو داود عن أبي رِمْثة قال:

[٣٠٢٥] انطلقت مع أبي نحو النبيّ ﷺ، ثم إن النبيّ قال لأبي: «ابنك هذا»؟ قال: إيْ وَرَبِّ الكعبة. قال: «حقا». قال: أَشْهدُ به. قال: فتبسّم النبيّ ﷺ ضاحكاً من ثبت شَبَهِي في أبِي، ومن حَلِف أبي عليّ. ثم قال: «أمَا إنه لا يَجْنِي عليك ولا تَجْنِي عليه». وقرأ رسول الله ﷺ ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾. ولا يُعارض ما قلناه أوّلاً بقوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]؛ فإن هذا مبيَّن في الآية الأخرى قوله: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥]. فمن كان إماماً في الضلالة ودَعَا إليها واتُّبع عليها فإنه يحمل وِزْر من أضلّه

[٣٠٢٤] صحيح. أخرجه البخاري ٣٣٤٦ ومسلم ٢٨٨٠ وأحمد ٦/٤٢٨ وابن حبان ٣٢٧ من حديث أم حبيبة بنت أبي سفيان أن زينب بنت جحش قالت: «خرج رسول الله ﷺ فزعاً محمراً وجهه يقول: لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب..».

[٣٠٢٥] جيد. أخرجه أبو داود ٤٢٠٧ و ٤٤٩٥ والدارمي ٢/١٩٨ والترمذي ٢٨١٢ والنسائي ٣/١٨٥ والشافعي ٢/٩٨ والحميدي ٨٦٦ وأحمد ٢/٢٢٦ من طرق عن أبي رمثة، وإسناده صحيح على شرط مسلم، وقد صححه ابن حبان ٥٩٩٥ والحاكم ٢/١٩٨ ووافقه الذهبي. وكذا صححه الشيخ شعيب.

---

(١) تقدم.

(٢) أي لا يهدرُ.

من غير أن ينقص من وزر المُضَل شيء، على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ «خلائف» جمع خليفة، ككرائم جمع كريمة. وكل من جاء بعد من مضى فهو خليفة. أي جعلكم خَلَفاً للأمم الماضية والقرون السالفة. قال الشمّاخ:

تصيبُهُم وتخطِئني المنايا وأخلُف في رُبوع عن رُبوعِ

﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ﴾ في الخلق والرزق والقوّة والبَسْطة والفضل والعلم. ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ نصب بإسقاط الخافض، أي إلى درجات. ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ﴾ نصب بلام كَيْ. والابتلاء الاختبار؛ أي ليظهر منكم ما يكون غايته الثواب والعقاب. ولم يزل بعلمه غنيًّا؛ فأبتلى الموسِر بالغني وطلب منه الشكر، وأبتلى المعسر بالفقر وطلب منه الصبر. ويقال: ﴿ليبلوكم﴾ أي بعضكم ببعض. كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ [الفرقان: ٢٠] على ما يأتي بيانه. ثم خوّفهم فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن عصاه. ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾ لمن أطاعه. وقال: «سَرِيعُ الْعِقَابِ» مع وصفه سبحانه بالإمهال، ومع أنّ عقاب النار في الآخرة؛ لأن كل آت قريب؛ فهو سريع على هذا. كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧]. وقال: ﴿يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾﴾ [المعارج: ٦ ـ ٧]. ويكون أيضاً سريع العقاب لمن استحقه في دار الدنيا؛ فيكون تحذيراً لمُواقِع الخطيئة على هذه الجهة. والله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الأعراف

وهي مكية، إلا ثمان آيات، وهي قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ [الأعراف: ١٦٣] إلى قوله: ﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧١]. وروى النَّسائيّ عن عائشة أن رسول الله ﷺ قرأ في صلاة المغرب بسورة الأعراف[1]، فرّقها في ركعتين. صححه أبو محمد عبد الحق.

قوله تعالى: ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾.

قوله تعالى: ﴿الٓمٓصٓ ۝١﴾ تقدّم في أوّل «البقرة» وموضعه رفع بالابتداء. و﴿كِتَٰبٌ﴾ خبره. كأنه قال: «المص» حروف ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾. وقال الكسائيّ: أي هذا كتاب.

قوله تعالى: ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿حَرَجٌ﴾ أي ضِيق؛ أي لا يضيق صدرك بالإبلاغ؛ لأنه رُوي عنه عليه السلام أنه قال:

[٣٠٢٦] «إني أخاف أن يَثْلَغُوا رأسي فيدعوه خبزَة» الحديث. خرّجه مسلم. قال الكِيا: فظاهره النهي، ومعناه نفي الحرج عنه؛ أي لا يضيق صدرك ألاّ يؤمنوا به، فإنما عليك البلاغ، وليس عليك سوى الإنذار به من شيء من إيمانهم أو كفرهم، ومثله قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ [الكهف: ٦] الآية. وقال: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [الشعراء: ٣]. ومذهب مجاهد وقتادة أن الحرَج هنا الشك، وليس هذا شك الكفر إنما هو شك الضيق. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا

[٣٠٢٦] هو بعض حديث أخرجه مسلم ٢٨٦٥ من حديث عياض بن حمار وقد تقدم.

---

(١) أخرجه النسائي بإسناد حسن، وقد تقدم.

﴿يَقُولُونَ ۝٩٧﴾ [الحجر: ٩٧]. وقيل: الخطاب للنبيّ ﷺ والمراد أمّته. وفيه بعدٌ. والهاء في «مِنْهُ» للقرآن. وقيل للإنذار؛ أي أنزل إليك الكتاب لتنذر به فلا يكن في صدرك حرج منه. فالكلام فيه تقديم وتأخير. وقيل للتكذيب الذي يعطيه قوّة الكلام. أي فلا يكن في صدرك ضيق من تكذيب المكذبين له.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ يجوز أن يكون في موضع رفع ونصب وخفض. فالرفع من وجهين؛ قال البصريون: هي رفع على إضمار مبتدأ. وقال الكسائيّ: عطف على «كتاب». والنصب من وجهين؛ على المصدر، أي وذكِّر به ذكرى؛ قاله البصريون. وقال الكسائي: عطف على الهاء في «أنزلناه». والخفض حملاً على موضع «لِتُنْذِرَ بِهِ». والإنذار للكافرين، والذكرى للمؤمنين؛ لأنهم المنتفعون به.

قوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾.

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يعني الكتاب والسنة. قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ۚ﴾ [الحشر: ٧]. وقالت فرقة: هذا أمر يعمّ النبيّ ﷺ وأمّته. والظاهر أنه أمرٌ لجميع الناس دونَه. أي ٱتبعوا ملَّة الإسلام والقرآن، وأحِلوا حلالَه وحرِّموا حرامه، وٱمتثلوا أمره، وٱجتنبوا نهيه. ودلّت الآية على ترك ٱتباع الآراء مع وجود النصِّ.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ﴾ «مِنْ دُونِهِ» من غيره. والهاء تعود على الرب سبحانه، والمعنى: لا تعبدوا معه غيره، ولا تتخذوا مَن عدلَ عن دين الله وليّاً. وكل من رضي مذهباً فأهل ذلك المذهب أولياؤه. وروي عن مالك بن دِينار أنه قرأ «لا تبتغوا من دونه أولياء» أي ولا تطلبوا. ولم ينصرف «أولياء» لأن فيه ألف التأنيث. وقيل: تعود على «ما» من قوله: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾. ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ «ما» زائدة. وقيل: تكون مع الفعل مصدراً.

قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝٤ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ «كم» للتكثير؛ كما أن «رُبَّ» للتقليل. وهي في موضع رفع بالابتداء، و«أهلكنا» الخبر. أي وكثير من القرى ـ وهي مواضع اجتماع

الناس ـ أهلكناها. ويجوز النصب بإضمار فعل بعدها، ولا يقدّر قبلها؛ لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله. ويقوّي الأوّل قوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧]. ولولا اشتغال «أَهْلَكْنَا» بالضمير لانتصب به موضع «كم». ويجوز أن يكون «أَهْلَكْنَا» صفة للقرية، و«كم» في المعنى هي القرية؛ فإذا وصفت القرية فكأنك قد وصفت كم. يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٦]فعاد الضمير على «كم» على المعنى؛ إذ كانت الملائكة في المعنى. فلا يصح على هذا التقدير أن يكون «كم» في موضع نصب بإضمار فعل بعدها. ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا﴾ فيه إشكال للعطف بالفاء. فقال الفرّاء: الفاء بمعنى الواو، فلا يلزم الترتيب. وقيل: أي وكم من قرية أردنا إهلاكها فجاءها بأسنا؛ كقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾. [النحل: ٩٨]. وقيل: إن الهلاك واقع ببعض القوم؛ فيكون التقدير: وكم من قرية أهلكنا بعضها فجاءها بأسنا فأهلكنا الجميع. وقيل: المعنى وكم من قرية أهلكناها في حكمنا فجاءها بأسنا. وقيل: أهلكناها بإرسالنا ملائكة العذاب إليها، فجاءها بأسنا وهو الاستئصال. والبأس: العذاب الآتي على النفس. وقيل: المعنى أهلكناها فكان إهلاكنا إياهم في وقت كذا؛ فمجيء البأس على هذا هو الإهلاك. وقيل: البأس غير الإهلاك؛ كما ذكرنا. وحكى الفرّاء أيضاً أنه إذا كان معنى الفعلين واحداً أو كالواحد قدّمت أيهما شئت؛ فيكون المعنى وكم من قرية جاءها بأسنا فأهلكناها؛ مثل دَنَا فقَرُب، وقَرُب فدنا، وشتمني فأساء، وأساء فشتمني؛ لأن الإساءة والشتم شيء واحد. وكذلك قوله: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾﴾ [القمر: ١]. المعنى ـ والله أعلم ـ أنشق القمر فاقتربت الساعة. والمعنى واحد. ﴿بَيَٰتًا﴾ أي ليلاً؛ ومنه البيت، لأنه يبات فيه. يقال: بات يبيت بيتاً وبياتاً. ﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾﴾ أي أو وهم قائلون، فاستثقلوا فحذفوا الواو؛ قاله الفرّاء. وقال الزجاج: هذا خطأ، إذا عاد الذكرُ أستُغْنِي عن الواو، تقول: جاءني زيد راكباً أو هو ماش، ولا يحتاج إلى الواو. قال المهدويّ: ولم يقل بياتاً أو وهم قائلون لأن في الجملة ضميراً يرجع إلى الأوّل فٱستغنى عن الواو. وهو معنى قول الزجاج سواء، وليس أو للشك بل للتفصيل؛ كقولك: لأكرِمنّك منصفاً لي أو ظالماً. وهذه الواو تسمى عند النحويين واو الوقت. و«قَآئِلُونَ» من القائلة وهي القيْلُولة؛ وهي نوم نصف النهار. وقيل: الاستراحة نصفَ النهار إذا اشتدّ الحرّ وإن لم يكن معها نوم. والمعنى: جاءهم عذابنا وهم غافلون إمّا ليلاً وإمّا نهاراً. والدعوى الدعاء؛ ومنه قوله: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ﴾ [يونس: ١٠]. وحكى النحويون: اللهم أشركنا في صالح دعوى من دعاك. وقد تكون الدّعوى بمعنى الادّعاء. والمعنى: أنهم لم يخلصوا عند الإهلاك إلا على الإقرار بأنهم

كانوا ظالمين. و﴿ دَعْوَىٰهُمْ ﴾ في موضع نصب خبر كان، وٱسمها ﴿ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ ﴾. نظيره ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ﴾ [العنكبوت: ٢٩] ويجوز أن تكون الدعوى رفعاً، و«أَنْ قَالُوا» نصباً، كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ البِرُّ[1] أَن تُوَلُّوا﴾ [البقرة: ١٧٧] برفع «البر» وقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ عاقبةُ[2] الَّذِينَ أَسَئُوا السُّوٓأَىٰ أَن كَذَّبُوا﴾ [الروم: ١٠] برفع «عاقبة».

قوله تعالىٰ: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ ﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ دليل على أن الكفار يحاسبون. وفي التنزيل ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ﴾. [الغاشية: ٢٦]. وفي سورة القصص ﴿ يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [القصص: ٧٨] يعني إذا استقرّوا في العذاب. والآخرة مَواطنُ: موطن يسألون فيه للحساب. وموطن لا يسألون فيه. وسؤالهم سؤال تقرير وتوبيخ وإفضاح. وسؤال الرسل سؤال ٱستشهادٍ بهم وإفصاح؛ أي عن جواب القوم لهم. وهو معنىٰ قوله: ﴿ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ﴾[الأحزاب: ٨] على ما يأتي. وقيل: المعنىٰ ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ أي الأنبياء ﴿ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ ﴾ أي الملائكة الذين أرسلوا إليهم. واللام في «فلنسألنّ» لام القسم وحقيقتها التوكيد. وكذا ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ﴾. قال ابن عباس: ينطق عليهم. ﴿ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ ﴾ أي كنا شاهدين لأعمالهم. ودلت الآية على أن الله تعالىٰ عالمٌ بعلم.

قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ﴾ ابتداء وخبر. ويجوز أن يكون ﴿الْحَقُّ﴾ نعته، والخبر ﴿يَوْمَئِذٍ﴾. ويجوز نصب ﴿الحق﴾ على المصدر. والمراد بالوزن وزن أعمال العباد بالميزان. قال ابن عمر: توزن صحائف أعمال العباد. وهذا هو الصحيح، وهو الذي ورد به الخبر على ما يأتي. وقيل: الميزان الكتاب الذي فيه أعمال الخلق. وقال مجاهد: الميزان الحسنات والسيئات بأعيانها. وعنه أيضاً والضحاكِ والأعمش: الوزن والميزان بمعنى العدل والقضاء، وذِكر الوزن ضربُ مثلٍ؛ كما تقول: هذا الكلام في وزن هذا وفي وزانه، أي يعادله ويساويه وإن لم يكن هناك وَزْنٌ. قال الزجاج: هذا سائغٌ من

---

(١) قراءة حمزة وحفص بالنصب والباقون بالرفع.

(٢) قرأنافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب بالرفع والباقون بالنصب.

جهة اللسان، والأولى أن يتبع ما جاء في الأسانيد الصحاح من ذكر الميزان. قال القشيريّ: وقد أحسن فيما قال، إذ لو حمل الميزان على هذا فليحمل الصراط على الدِّين الحق، والجنة والنار على ما يرد على الأرواح دون الأجساد، والشياطينُ والجنّ على الأخلاق المذمومة، والملائكة على القوى المحمودة. وقد أجمعت الأُمة في الصدر الأوّل على الأخذ بهذه الظواهر من غير تأويل. وإذا أجمعوا على منع التأويل وجب الأخذ بالظاهر، وصارت هذه الظواهر نصوصاً. قال ابن فُورَك: وقَدْ أنكرت المعتزلة الميزان بناءً منهم على أن الأعراض يستحيل وزنها، إذ لا تقوم بأنفسها. ومن المتكلِّمين من يقول: إن الله تعالىٰ يقلِب الأعراض أجساماً فيزنها يوم القيامة. وهذا ليس بصحيح عندنا، والصحيح أن الموازين تثقل بالكتب التي فيها الأعمال مكتوبة، وبها تخف. وقد روي في الخبر ما يحقِّق ذلك، وهو أنه روي:

[٣٠٢٧] «أن ميزان بعضِ بني آدم كاد يخف بالحسنات فيوضع فيه رِق مكتوب فيه «لا إله إلاَّ الله» فيثقل». فقد عُلِمَ أن ذلك يرجع إلى وزن ما كتب فيه الأعمال لا نفس الأعمال، وأن الله سبحانه يخفف الميزان إذا أراد، ويثقله إذا أراد بما يُوضع في كِفتيه من الصحف التي فيها الأعمال. وفي صحيح مسلم عن صَفْوان بن مُحْرِزٍ قال قال رجل لابن عمر:

[٣٠٢٨] كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النَّجْوى؟ قال سمعته يقول: «يُدْنَى المؤمن من ربه يوم القيامة حتى يضع عليه كَنَفه فيُقَرِّره بذنوبه فيقول هل تعرف فيقول أي ربِّ أعرف قال فإني قد سترتها عليك في الدنيا وإني أغفرها لك اليوم فيُعْطَى صحيفة حسناته وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على الله». فقوله: «فيعطى صحيفة حسناته» دليل على أن الأعمال تكتب في الصحف وتوزن. وروى ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله ﷺ:

[٣٠٢٩] «يُصاح برجل من أُمتي يوم القيامة على رؤوس الخلائق فينشر عليه تسعة

[٣٠٢٧] حسن. أخرجه أحمد ٢/٢٢١ ح ٧٠٢٦ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص بأتم منه والمصنف إنما ذكره بمعناه، قال الهيثمي في المجمع ١٠/٨٢: فيه ابن لهيعة وحديثه حسن اهـ وحسنه السيوطي في الدر المنثور ٣/١٣١ والصواب أنه لا يبلغ الحسن، فإن الراوي عن ابن لهيعة هو قتيبة، وليس هو أحد العبادلة لكن شاهده الآتي بعد حديث يقويه.

[٣٠٢٨] صحيح. أخرجه البخاري ٢٤٤١ و ٦٠٧٠ و ٧٥١٤ ومسلم ٢٧٦٨ وأحمد ٢/٧٤ وابن ماجه ١٨٣ وابن حبان ٧٣٥٥ من حديث ابن عمر.

[٣٠٢٩] صحيح. أخرجه الترمذي ٢٦٣٩ وابن ماجه ٤٣٠٠ والحاكم ١/٥٢٩ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وكذا الألباني في صحيح ابن ماجه ٣٤٦٩.

وتسعون سِجِلاً كل سِجِل مدّ البصر ثم يقول الله تبارك وتعالىٰ هل تنكر من هذا شيئاً فيقول لا يا ربّ فيقول أَظَلَمَتْكَ كَتَبَتِي الحافظون فيقول لا ثم يقول ألك عذر ألك حسنة فيهاب الرجل فيقول لا فيقول بلى إن لك عندنا حسنات وإنه لا ظلم عليك اليوم فتخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً عبده ورسوله فيقول يا رب ما هذه البِطاقة مع هذه السِّجِلاّت فيقول إنك لا تظلم فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة». زاد الترمذيّ «فلا يثقل مع اسم الله شيء» وقال: حديث حسن غريب. وسيأتي لهذا الباب مزيد بيان في «الكهف والأنبياء» إن شاء الله تعالىٰ.

قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ «مَوَازِينُهُ» جمع ميزان، وأصله مِوزان، قلبت الواو ياء لكسرة ما قبلها. وقيل: يجوز أن يكون هناك موازين للعامل الواحد يوزن بكل ميزان منها صِنف من أعماله. ويمكن أن يكون ذلك ميزاناً واحداً عُبِّرَ عنه بلفظ الجمع؛ كما تقول: خرج فلان إلى مكة على البغال، وخرج إلى البصرة في السفن. وفي التنزيل: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء: ١٠٥] ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الشعراء: ١٢٣] وإنما هو رسول واحد في أحد التأويلين. وقيل: الموازين جمع موزون، لا جمع ميزان. أراد بالموازين الأعمال الموزونة. ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ مثله. وقال ابن عباس: توزن الحسنات والسيئات في ميزان له لسان وكِفّتان، فأما المؤمن فيؤتى بعمله في أحسن صورة فيوضع في كفة الميزان فتثقل حسناته على سيئاته، فذاك قوله: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾﴾ ويؤتىٰ بعمل الكافر في أقبح صورة فيوضع في كِفّة الميزان فيخف وزنه حتىٰ يقع في النار. وما أشار إليه ابن عباس قريب مما قيل: يخلق الله تعالىٰ كل جزء من أعمال العباد جوهراً فيقع الوزن على تلك الجواهر. وردّه ٱبن فُورك وغيره وفي الخبر:

[٣٠٣٠] «إذا خفت حسنات المؤمن أخرج رسول الله ﷺ بِطاقة كالأنملة فيلقيها في كِفّة الميزان اليمنَى التي فيها حسناته فترجح الحسنات فيقول ذلك العبد المؤمن للنبيّ ﷺ بأبِي أنت وأُميّ! ما أحسن وجهك وما أحسن خلقك فمن أنت؟ فيقول أنا محمد نبيك وهذه صلواتك التي كنتَ تُصلّي عليّ قد وفيتك أحوج ما تكون إليها». ذكره القشيريّ في

[٣٠٣٠] ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/١٣١ بأتم منه وقال: أخرجه ابن أبي الدنيا والنميري في كتاب الأعلام عن عبد الله بن عمر موقوفاً! هـ ولم أقف على إسناده إلى عبدا الله بن عمرو، وبكل حال هو موقوف.

تفسيره. وذكر أن البطاقة (بكسر الباء) رُقعة فيها رقم المتاع بلغة أهل مصر. وقال ابن ماجه: قال محمد بن يحيى: البِطاقة الرُّقعة، وأهل مصر يقولون للرُّقْعة بِطاقة[1]. وقال حذيفة: صاحب الموازين يوم القيامة جبريل عليه السَّلام، يقول الله تعالىٰ: «يا جبريل زِنْ بينهم فرُدّ من بعض على بعض». قال: وليس ثمّ ذهب ولا فضة؛ فإن كان للظالم حسناتٌ أخِذ من حسناته فردّ على المظلوم، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات المظلوم فتحمل على الظالم؛ فيرجع الرجل وعليه مثل الجبال. وروي عن النبيّ ﷺ:

[٣٠٣١] «أن الله تعالىٰ يقول يوم القيامة يا آدم أبرز إلى جانب الكرسي عند الميزان وأنظر ما يرفع إليك من أعمال بَنِيك فمن رجح خيرُه على شره مثقالَ حَبّة فله الجنة ومن رجح شره على خيره مثال حبة فله النار حتى تعلم أني لا أُعَذِّب إلاَّ ظالماً».

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝١٠﴾.

أي جعلناها لكم قراراً ومِهاداً، وهيأنا لكم فيها أسباب المعيشة. والمَعايش جمع مَعيشة، أي ما يُتعيَّش به من المطعم والمشرب وما تكون به الحياة. يُقال: عاش يَعِيش عَيْشاً ومَعاشاً ومَعِيشاً ومَعِيشة وعِيشَة. وقال الزجاج: المَعِيشة ما يُتوصّل به إلى العيش. ومعِيشة في قول الأخفش وكثيرٍ من النحويين مَفْعِلة. وقرأ الأعرج: «مَعَائِشَ» بالهمز. وكذا روى خارجة بن مُصْعَب عن نافع. قال النحاس: والهمز لحن لا يجوز؛ لأن الواحدة معِيشة، أصلها معيِشة، فزيدت ألف الوصل وهي ساكنة والياء ساكنة، فلا بدّ من تحريكٍ إذ لا سبيل إلى الحذف، والألف لا تحرّك فحرّكت الياء بما كان يجب لها في الواحد. ونظيره من الواو مَنارة ومَناوِر، ومَقام ومَقاوِم: كما قال الشاعر:

وَإِنِّــي لقَــوّامٌ مَقــاوِمُ لــم يكــن   جرير ولا مَوْلَىٰ جريرٍ يَقُومها

وكذا مصيبة ومَصَاوِب. وهذا الجيد، ولغة شاذة مصائب، قال الأخفش: إنما جاز مصائب لأن الواحدة معتلّة. وقال الزجاج: هذا خطأ يلزمه عليه أن يقول مقائم. ولكن القول أنه مثل وسادة وإسادة، وقيل: لم يجز الهمز في مَعايش لأن المعيشة مَفْعِلة؛ فالياء

[٣٠٣١] هو صدر الأثر الوارد عن عبد الله بن عمرو، وذلك في الحديث المتقدم مع اختلاف يسير فيه. ولم أره مرفوعاً.

---

(١) قوله «قال ابن ماجه الخ» هو تبع للحديث المتقدم برقم ٣٠٢٩.

أصلية، وإنما يهمز إذا كانت الياء زائدة مثل مدينة ومدائن، وصحيفة وصحائف، وكريمة وكرائم، ووظيفة ووظائف، وشبهه.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ لما ذكر نعمه ذكر ابتداء خلقه. وقد تقدّم معنى الخلق في غير موضع. «ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ» أي خلقناكم نُطفاً ثم صوّرناكم، ثم إنا نخبركم أنا قلنا للملائكة ٱسجدوا لآدم. وعن ابن عباس والضحاك وغيرهما: المعنى خلقنا آدم ثم صورناكم في ظهره. وقال الأخفش: «ثم» بمعنى الواو. وقيل: المعنى «وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ» يعني آدم عليه السّلام، ثم قلنا للملائكة ٱسجدوا لآدم، ثم صورناكم؛ على التقديم والتأخير. وقيل: «وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ» يعني آدم؛ ذكر بلفظ الجمع لأنه أبو البشر. «ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ» راجع إليه أيضاً. كما يُقال: نحن قتلناكم؛ أي قتلنا سيدكم. ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ وعلى هذا لا تقديم ولا تأخير؛ عن ابن عباس أيضاً. وقيل: المعنى ولقد خلقناكم، يريد آدم وحوّاء؛ فآدم من التراب وحوّاء من ضلع من أضلاعه، ثم وقع التصوير بعد ذلك. فالمعنى: ولقد خلقنا أبوَيْكم ثم صوّرناهما؛ قاله الحسن. وقيل: المعنىٰ خلقناكم في ظهر آدم ثم صوّرناكم حين أخذنا عليكم الميثاق. هذا قول مجاهد، رواه عنه ابن جريج وٱبن أبي نجيح. قال النحاس: وهذا أحسن الأقوال. يذهب مجاهد إلى أنه خلقهم في ظهر آدم، ثم صوّرهم حين أخذ عليهم الميثاق، ثم كان السجود بعد. ويقوّي هذا ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. والحديث.

[٣٠٣٢] «أنه أخرجهم أمثال الذّرِّ فأخذ عليهم الميثاق». وقيل: «ثم» للإخبار، أي ولقد خلقناكم يعني في ظهر آدم ﷺ، ثم صَوّرناكم أي في الأرحام. قال النحاس: هذا صحيح عن ابن عباس.

قلت: كل هذه الأقوال محتمل، والصحيح منها ما يَعْضُده التنزيل؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [المؤمنون: ١٢] يعني آدم. وقال: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾[النساء: ١] ثم قال: ﴿جَعَلْنَاهُ﴾ أي جعلنا نسله وذريته ﴿نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾[المؤمنون: ١٣] الآية. فآدم خُلِق من طين ثم صوّر وأكرم بالسجود، وذريته صُوِّروا

[٣٠٣٢] تقدم تخريجه ورد عن جماعة من الصحابة انظر الدر المنثور٣/ ٢٥٩ و ٢٦٥ في الأعراف آية ١٧٤.

في أرحام الأُمهات بعد أن خُلقوا فيها وفي أصلاب الآباء. وقد تقدّم في أوّل سورة «الأنعام» أن كل إنسان مخلوق من نطفة وتُرْبَة، فتأمله. وقال هنا: ﴿خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ وقال في آخر الحشر: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَالِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾[الحشر: ٢٤] فذكر التصوير بعد البَراء. وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالىٰ. وقيل: معنىٰ «وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ» أي خلقنا الأرواح أوّلاً ثم صوّرنا الأشباح آخراً.

قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ استثناء من غير الجنس. وقيل: من الجنس. وقد اختلف العلماء: هل كان من الملائكة أم لا؛ كما سبق بيانه في «البقرة».

قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾.

فيه أربع مسائل:

الأُولىٰ ـ قوله تعالىٰ: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ «ما» في موضع رفع بالابتداء؛ أي أي شيء منعك. وهذا سؤال توبيخ. ﴿أَلَّا تَسْجُدَ﴾ في موضع نصب، أي من أن تسجد. و «لا» زائدة. وفي صۤ ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾ [صۤ: ٧٥] وقال الشاعر:

أَبَى جُودُه لا البخلَ فاستعجلت به   نَعَمْ من فتًى لا يمنع الجودَ نائلُه

أراد أبى جوده البخل، فزاد «لا». وقيل؛ ليست بزائدة؛ فإن المنع فيه طرف من القول والدعاء، فكأنه قال: من قال لك ألاّ تسجد؟ أو من دعاك إلى ألاّ تسجد؟ كما تقول: قد قلت لك ألاّ تفعل كذا. وقيل: في الكلام حذف، والتقدير: ما منعك من الطاعة وأحوجك إلى ألاّ تسجد. قال العلماء: الذي أحوجه إلى ترك السجود هو الكبر والحسد: وكان أضمر ذلك في نفسه إذا أمر بذلك. وكان أمره من قبل خلق آدم؛ يقول الله تعالىٰ: ﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [صۤ: ٧١ ـ ٧٢] فكأنه دخله أمر عظيم من قوله ﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾. فإن في الوقوع توضيع الواقع وتشريفاً لمن وقع له فأضمر في نفسه ألاّ يسجد إذا أمره في ذلك الوقت. فلما نفخ فيه الروح وقعت الملائكة سُجَّداً، وبَقِيَ هو قائماً بين أظهرهم؛ فأظهر بقيامه وترك السجود ما في ضميره. فقال الله تعالىٰ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ أي ما منعك من الانقياد لأمري؛ فأخرج سِرّ ضميره فقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾.

الثانية ـ قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ يدل على ما يقوله الفقهاء من أن الأمر يقتضي

الوجوب بمطلقه من غير قَرِينَة؛ لأن الذّمّ عُلِّق على ترك الأمر المطلق الذي هو قوله عزّ وجلّ للملائكة: ﴿ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ﴾ وهذا بيّن.

الثالثة ـ قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ أي منعني من السجود فضلِي عليه؛ فهذا من إبليس جواب على المعنى. كما تقول: لمن هذه الدار؟ فيقول المخاطَب: مالكها زيد. فليس هذا عين الجواب، بل هو كلام يرجع إلى معنى الجواب. ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ فرأى أن النار أشرف من الطين؛ لعلوّها وصعودها وخفتها، ولأنها جوهر مضيء. قال ابن عباس والحسن وابن سيرين: أوّل من قاس إبليس فأخطأ القياس. فمن قاس الدين برأيه قرنه الله مع إبليس. قال ابن سيرين: وما عبدت الشمس والقمر إلاّ بالمقاييس. وقالت الحكماء: أخطأ عدوّ الله من حيث فضل النار على الطين، وإن كانا في درجة واحدة من حيث هي جماد مخلوق. فإن الطين أفضل من النار من وجوه أربعة:

أحدها ـ أن من جوهر الطين الرّزانة والسكون، والوقار والأناة، والحلم، والحياء، والصبر. وذلك هو الداعي لآدم عليه السَّلام بعد السعادة التي سبقت له إلى التوبة والتواضع والتضرع، فأورثه المغفرة والاجتباء والهداية. ومن جوهر النار الخفة، والطيش، والحدّة، والارتفاع، والاضطراب. وذلك هو الداعي لإبليس بعد الشقاوة التي سبقت له إلى الاستكبار والإصرار؛ فأورثه الهلاك والعذاب واللعنة والشقاء؛ قاله القفّال.

الثاني ـ أن الخبر ناطق بأن تراب الجنة مِسك أذفر، ولم ينطق الخبر بأن في الجنة ناراً وأن في النار تراباً.

الثالث ـ أن النار سبب العذاب، وهي عذاب الله لأعدائه؛ وليس التراب سبباً للعذاب.

الرابع ـ أن الطين مستغنٍ عن النار، والنار محتاجة إلى المكان ومكانها التراب.

قلت ـ ويحتمل قولاً خامساً وهو أن التراب مسجد وطهور[1]؛ كما جاء في صحيح الحديث. والنار تخويف وعذاب؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ [الزمر: ١٦]. وقال ابن عباس: كانت الطاعة أولى بإبليس من القياس فعصى ربه، وهو أوّل من قاس برأيه. والقياس في مخالفة النصّ مردود.

الرابعة ـ واختلف الناس في القياس إلى قائل به، ورادٌّ له؛ فأما القائلون به فهم

(١) تقدم تخريجه، وصدره «أعطيت خمساً لم يُعطهنّ...».

الصحابة والتابعون، وجمهور من بعدهم، وأن التعبد به جائز عقلاً واقع شرعاً، وهو الصحيح. وذهب القفّال من الشافعية وأبو الحسين البصرِيّ إلى وجوب التعبّد به عقلاً. وذهب النظّام[1] إلى أنه يستحيل التعبد به عقلاً وشرعاً؛ وردّه بعض أهل الظاهر. والأوّل الصحيح. قال البخارِيّ في (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة): المعنى لا عصمة لأحد إلاّ في كتاب الله أو سنة نبيه أو في إجماع العلماء إذا وُجد فيها الحكُم فإن لم يوجد فالقياس. وقد ترجم على هذا[2] (باب من شبّه أصلاً معلوماً بأصل مبيَّن قد بيّن الله حكمها ليفهم السائل). وترجم بعد هذا (باب الأحكام التي تعرف بالدلائل وكيف معنى الدلالة وتفسيرها). وقال الطبريّ: الاجتهاد والاستنباط من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وإجماع الأُمة هو الحق الواجب، والفرض اللازم لأهل العلم. وبذلك جاءت الأخبار عن النبيّ ﷺ، وعن جماعة الصحابة والتابعين. وقال أبو تمام المالكيّ: أجمعت الأُمة على القياس؛ فمن ذلك أنهم أجمعوا على قياس الذهب والوَرِق في الزكاة. وقال أبو بكر: أقِيلوني بيعتي. فقال[1] علي: والله لا نقيلك ولا نستقيلك رضيك رسول الله ﷺ لديننا أفلا نرضاك لدنيانا؟ فقاس الإمامة على الصَّلاة. وقاس الصدّيقُ الزكاة على الصَّلاةِ وقال: والله لا أفرق بين ما جمع الله. وصرّح عليّ بالقياس في شارب الخمر بمحضر من الصحابة وقال: إنه إذا سكِر هَذَى، وإذا هَذَى افْترى؛ فحدّه حدّ القاذف. وكتب عمر إلى أبي موسىٰ الأشعري كتاباً فيه: الفَهْم الفَهْمَ فيما يختلِجُ في صدرك مما لم يبلغك في الكتاب والسنة، أعرف الأمثال والأشباه، ثم قِسِ الأُمور عند ذلك، فاعمد إلى أحبِّها إلى الله تعالىٰ وأشبهها بالحق فيما ترى. الحديثَ بطوله ذكره الدارقطنيّ. وقد قال أبو عبيدة لعمر رضي الله عنهما في حديث الوَبَاء، حين رجع عمر من سَرغْ[4]: نَفِرّ من قَدَر الله؟ فقال عمر: نعم! نفِرّ من قَدَر الله إلى قَدَر الله. ثم قال له عمر: أرأيت... فقايسه وناظره بما يشبه من مسألته بمحضر المهاجرين والأنصار، وحسبُك. وأما الآثار وآي القرآن في هذا المعنى فكثير. وهو يدل على أن القياس أصل من أُصول الدين، وعِصمة من عِصم المسلمين، يرجع إليه المجتهدون، ويفزع إليه العلماء العاملون، فيستنبطون به الأحكام. وهذا قول الجماعة الذين هم الحجة، ولا يلتفت إلى من شذَّ عنها. وأما الرأي المذموم والقياس المتكلّف المنهى عنه فهو ما لم يكن على هذه الأُصول المذكورة؛ لأن ذلك ظنٌّ

---

(١) هو إبراهيم النظام إليه تنسب النظامية وهي طائفة من القدرية.

(٢) انظر صحيح البخاري ٣/٢٩٦.

(٣) لا يصح هذا عن علي، فالمشهور عنه أن لم يبايع إلى أن توفيت فاطمة، وذلك بعد ستة أشهر. وإنما ورد هذا عن عمر.

(٣) موضع بين تبوك والشام وانظر هذا الأثر في صحيح البخاري ٥٨٢٩.

ونَزَغٌ من الشيطان؛ قال الله تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء: ٣٦]. وكل ما يورده المخالف من الأحاديث الضعيفة والأخبار الواهية في ذمّ القياس فهي محمولة على هذا النوع من القياس المذموم، الذي ليس له في الشرع أصل معلوم. وتتميم هذا الباب في كتب الأُصول.

قوله تعالىٰ: ﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ ﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا ﴾ أي من السماء. ﴿ فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ لأن أهلها الملائكة المتواضعون. ﴿ فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ أي من الأذلين. ودل هذا أن من عصى مولاه فهو ذليل. وقال أبو رَوْق والبَجَلِيّ: «فَاهْبِطْ مِنْهَا» أي من صورتك التي أنت فيها؛ لأنه افتخر بأنه من النار فشوّهت صورته بالإظلام وزوال إشراقه. وقيل: ﴿ فَٱهْبِطْ مِنْهَا ﴾ أي انتقل من الأرض إلى جزائر البحار؛ كما يُقال: هبطنا أرض كذا أي انتقلنا إليها من مكان آخر، فكأنه أخرج من الأرض إلى جزائر البحار فسلطانه فيها، فلا يدخل الأرض إلاّ كهيئة السارق يخاف فيها حتى يخرج منها. والقول الأوّل أظهر. وقد تقدّم في «البقرة».

قوله تعالىٰ: ﴿ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ ﴾.

سأل النظرة والإمهال إلى يوم البعث والحساب. طلب ألاّ يموت لأن يوم البعث لا موت بعده؛ فقال الله تعالىٰ: ﴿ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ ﴾. قال ابن عباس والسدّي وغيرهما: أَنْظَره إلى النفخة الأُولىٰ حيث يموت الخلق كلهم. وكان طلب الإنظار إلى النفخة الثانية حيث يقوم الناس لرب العالمين؛ فأبى الله ذلك عليه. وقال: ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ ولم يتقدّم ذِكْرُ من يبعث؛ لأن القصة في آدم وذريته، فدلّت القرينةُ على أنهم هم المبعوثون.

قوله تعالىٰ: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولىٰ ـ قوله تعالىٰ: ﴿ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى ﴾ الإغواء إيقاعُ الغيّ في القلب؛ أي فبما أوقعت في قلبي من الغيّ والعِناد والاستكبار. وهذا لأن كفر إبليس ليس كفر جهل، بل هو كفر عناد وٱستكبار. وقد تقدّم في «البقرة». قيل: معنىٰ الكلام القَسم، أي فبإغوائك إياي لأقعدن لهم على صراطك، أو في صراطك؛ فحذف. دليل هذا القول قوله في (صٓ): ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [صٓ: ٨٢] فكأن إبليس أعظم قدر إغواء الله إياه

لما فيه من التسليط على العباد، فأقسم به إعظاماً لقدره عنده. وقيل: الباء بمعنىٰ اللام، كأنه قال: فلإغوائك إياي. وقيل: هي بمعنىٰ مع، والمعنىٰ فمع إغوائك إياي. وقيل: هو ٱستفهام، كأنه سأل بأيّ شيء أغواه؟. وكان ينبغي على هذا أن يكون: فَبِم أغويتني؟. وقيل: المعنىٰ فبما أهلكتني بلعنك إياي. والإغواء الإهلاك، قال الله تعالىٰ: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝﴾ [مريم: ٥٩] أي هلاكاً. وقيل: فبما أضللتني. والإغواء: الإضلال والإبعاد؛ قاله ابن عباس. وقيل: خيبتني من رحمتك؛ ومنه قول الشاعر[1]:

ومن يغو لا يعدم على الغي لائماً

أي من يَخِب. وقال ابن الأعرابيّ: يقال غَوَىٰ الرجل يغـوي غَيّاً إذا فسد عليه أمره، أو فسد هو في نفسه. وهو أحَد معاني قوله تعالىٰ: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝﴾ [طه: ١٢٤] أي فسد عيشه في الجنة. ويقال: غوِي الفصيل إذا لم يدِرّ لبن أمه.

الثانية ـ مذهب أهل السنة أن الله تعالىٰ أضلّه وخلق فيه الكفر، ولذلك نسب الإغواء في هذا إلى الله تعالىٰ. وهو الحقيقة، فلا شيء في الوجود إلا وهو مخلوق له، صادر عن إرادته تعالىٰ. وخالف الإمامية والقدرية وغيرهما شيخهم إبليس الذي طاوعوه في كل ما زينّه لهم، ولم يطاوعوه في هذه المسألة ويقولون: أخطأ إبليسُ، وهو أهل للخطأ حيث نسب الغواية إلى ربه، تعالىٰ الله عن ذلك. فيقال لهم: وإبليس وإن كان أهلاً للخطأ فما تصنعون في نبي مكرم معصوم. وهو نوح عليه السلام حيث قال لقومه: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝﴾ [هود: ٣٤] وقد روي أن طاوساً جاءه رجل في المسجد الحرام، وكان متهماً بالقدر، وكان من الفقهاء الكبار؛ فجلس إليه فقال له طاوس: تقوم أو تُقام؟ فقيل طاوس: تقول هذا لرجل فقيه! فقال: إبليس أفقه منه، يقول إبليس: ربِّ بما أغويتني. ويقول هذا: أنا أُغْوِي نفسي.

الثالثة ـ قوله تعالىٰ: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝﴾ أي بالصّدّ عنه، وتزيين الباطل حتى يهلكوا كما هلك، أو يضلوا كما ضل، أو يُخَيَّبوا كما خُيِّب؛ حسب ما تقدم من المعاني الثلاثة في «أَغْوَيْتَنِي». والصراط المستقيم هو الطريق الموصل إلى الجنة، و «صِرَاطَكَ» منصوب على حذف «علىٰ» أو «في» من قوله: «صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ»؛ كما حكىٰ سيبوية «ضرب زيد الظهر والبطن». وأنشد[2]:

---

(١) هو المرقِّش.

(٢) البيت لساعدة بن جؤية.

لَــدْنٌ بِهَــزِّ الكَــفِّ يَعْسِــلُ مَتْنُــه فيه كما عَسَلَ الطريقَ الثَّعْلَبُ[1]

ومن أحسن ما قيل في تأويل ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ﴾ أي لأصدّنّهم عن الحق، وأرغبنهم في الدنيا، وأشككهم في الآخرة. وهذا غاية في الضلالة. كما قال: ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ ﴾[النساء: ١١٩] حسب ما تقدم. وروىٰ سفيان عن منصور عن الحكم بن عُتَيْبَة قال: «مِنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ» من دنياهم. و«مِنْ خَلْفِهِمْ» من آخرتهم. و«وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ» يعني حسناتهم. و«وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ» يعني سيئاتهم. قال النحاس: وهذا قول حسن وشرحه: أن معنىٰ «ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ» من دنياهم، حتى يكذِّبوا بما فيها من الآيات وأخبار الأمم السالفة «وَمِنْ خَلْفِهِمْ» من آخرتهم حتي يكذِّبوا بها. «وَعَنْ أَيْمَانِهِم» من حسناتهم وأمور دينهم. ويدل على هذا قوله: ﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الصافات: ٢٨]. «وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ» يعني سيئاتهم، أي يتبعون الشهوات؛ لأنه يزينها لهم. ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ أي موحّدين طائعين مظهرين الشكر.

قوله تعالىٰ: ﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ ﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا ﴾ أي من الجنة. ﴿ مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ ﴾. «مَذْؤُوماً» أي مذموماً. والذَّأْمُ: العيب، بتخفيف الميم. قال ابن زيد: مذؤوماً ومذموماً سواء؛ يقال: ذأَمته وذَمَمته وذمته بمعنىً واحد. وقرأ الأعمش «مَذُوماً». والمعنىٰ واحد؛ إلا أنه خفف الهمزة. وقال مجاهد: المذْءوم المنفيّ. والمعنيان متقاربان. والمدحور: المبعَد المطرود، عن مجاهد وغيره. وأصله الدفع. ﴿ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ اللام لام القسم، والجواب «لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ». وقيل: «لَمَنْ تَبِعَكَ» لام توكيد. «لأَمْلأنّ» لام قَسَم. والدليل على هذا أنه يجوز في غير القراءة حذف اللام الأولىٰ، ولا يجوز حذف الثانية. وفي الكلام معنىٰ الشرط والمجازاة؛ أي من تبعك عذبته. ولو قلت: من تبعك أعذبه لم يجز؛ إلا أن تريد لأعذبه. وقرأ عاصم من رواية أبي بكر بن عَيّاش «لِمن تبِعك منهم» بكسر اللام. وأنكره بعض النحويين. قال النحاس: وتقديره ـ والله أعلم ـ من أجل من تبعك. كما يقال: أكرمت فلاناً لك. وقد يكون المعنى: الدّحر لمن تبعك. ومعنىٰ ﴿ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ أي منكم ومن بني آدم، لأن ذكرهم قد جرىٰ إذ قال: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ﴾ خاطب ولد آدم.

قوله تعالىٰ: ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ﴾.

---

(١) العسْل: سير سريع، واللدن: الناعم الليِّن.

قال لآدم بعد إخراج إبليس من موضعه من السماء: ٱسكن أنت وحواء الجنة. وقد تقدم في البقرة معنى الإسكان، فأغنى عن إعادته. وقد تقدّم معنىٰ ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة ٣٥] هناك. والحمد لله.

قوله تعالىٰ: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي إليهما. قيل: داخل الجنة بإدخال الحية إياه. وقيل: من خارج، بالسّلطنة التي جعلت له. وقد مضىٰ هذا في «البقرة». والوسوسة: الصوت الخفيّ. والوَسْوَسَةُ: حديث النفس؛ يقال: وسوست إليه نفسُه وَسوسة ووِسواساً (بكسر الواو). والوَسواس (بالفتح): أسم؛ مثل الزَّلزال. ويقال لهمس الصائد والكلاب وأصوات الحلى: وَسْوَاس. قال الأعشى:

تَسْمعُ للحَلْي وَسَواساً إذا ٱنصرفَتْ كما ٱستعانَ بريح عِشْرِقٌ زَجِلُ[1]

والوسواس: اسم الشيطان، قال الله تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾﴾ [الناس: ٤] ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا﴾ أي ليظهر لهما. واللام لام العاقبة، كما قال: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ وقيل: لام كي. و ﴿وُۥرِيَ﴾ أي سُتر وغُطي عنهما. ويجوز في غير القرآن أُورِيَ، مثل أُقِّتَتْ و﴿مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ من عوراتها وسمي الفرج عورة لأن إظهاره يسوء صاحبه. ودل هذا على قبح كشفها فقيل: إنما بدت سوءاتهما لهما لا لغيرهما، كان عليهما نَوْرٌ[2] لا ترىٰ عوراتهما فزال النور، وقيل: ثوب، فتهافت والله أعلم. ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ «أن» في موضع نصب، بمعنىٰ إلاّ، كراهيةَ أن، فحذف المضاف، هذا قول البصريين. والكوفيون يقولون: لئلا تكونا. وقيل: أي إلا ألاّ تكونا ملكين تعلمان الخير والشر. وقيل: طِمع آدم في الخلود، لأنه علم أن الملائكة لا يموتون إلى يوم القيامة. قال النحاس: وبيّن الله عز وجل فضل الملائكة على جميع الخلق في غير موضع من القرآن؛ فمنها هذا، وهو ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾. ومنه ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [هود: ٣١]. ومنه ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢]. وقال الحسن: فضل الله الملائكة بالصور والأجنحة والكرامة. وقال غيره: فضلهم جل وعز بالطاعة وترك المعصية؛ فلهذا يقع التفضيل في كل شيء. وقال ٱبن فُورك. لا حجة في هذه الآية؛ لأنه يحتمل أن يريد مَلكين في ألاّ يكون لهما شهوة في طعام. وٱختيار ٱبن عباس والزجاج وكثير من العلماء

---

(١) العَشْرق: شجر قدر ذراع له حب صغار إذا جفّ صوّتَ بمرّ الريح.

(٢) النَّوْرُ: الزهر.

تفضيل المؤمنين على الملائكة؛ وقد مضىٰ في «البقرة». وقال الكلبيّ: فضلوا على الخلائق كلهم، غير طائفة من الملائكة: جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت؛ لأنهم من جملة رُسُل الله. وتمسّك كل فريق بظواهر من الشريعة، والفضل بيد الله. وقرأ ابن عباس «مَلِكين» بكسر اللام، وهي قراءة يحيىٰ بن أبي كثير والضحاك. وأنكر أبو عمرو بن العلاء كسر اللام وقال: لم يكن قبل آدم ﷺ مِلك فيصيرا ملكين. قال النحاس: ويجوز على هذه القراءة إسكان اللام، ولا يجوز على القراءة الأولىٰ لخفة الفتحة. قال ابن عباس: أتاهما الملعون من جهة الملك؛ ولهذا قال ﴿أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ [طه: ١٢٠]. وزعم أبو عبيد أن احتجاج يحيىٰ بن أبي كثير بقوله: «ومُلْكٍ لاَ يبْلَىٰ» حجة بينة، ولكن الناس على تركها فلهذا تركناها. قال النحاس: ﴿إلاّ أن تكونا مَلِكَيْن﴾ قراءة شاذّة. وقد أنكر على أبي عبيد هذا الكلام، وجُعِل من الخطأ الفاحش. وهل يجوز أن يتوهم آدم عليه السلام أنه يصل إلى أكثر من ملك الجنة؛ وهي غاية الطالبين. وإنما معنىٰ ﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ المقام في ملك الجنة، والخلود فيه.

قوله تعالىٰ: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ أي حلف لهما. يقال: أقسم إقساماً؛ أي حَلف. قال الشاعر:

وقـاسمهـا بـالله جَهْـداً لأنتـم ألَذّ من السّلْوىٰ[1] إذا ما نَشُورها

وجاء «فاعلت» من واحد. وهو يرّد على من قال: إن المفاعلة لا تكون إلا من ٱثنين. وقد تقدّم في «المائدة». ﴿إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ ليس «لكما» داخلاً في الصلة. والتقدير: إني ناصح لكما لمن الناصحين؛ قاله هشام النحويّ. وقد تقدّم مثله في «البقرة». ومعنىٰ الكلام: ٱتبعاني أرشدكما؛ ذكره قتادة.

قوله تعالىٰ: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ﴾ أوقعهما في الهلاك. قال ابن عباس: غَرّهما باليمين. وكان يظن آدم أنه لا يحلف أحد بالله كاذباً، فغرّهما بوسَوسته وقَسمِه لهما. وقال

---

(١) السلوىٰ العسل، وشار العسل: أخذ من موضعه.

قتادة: حلف بالله لهما حتى خدعهما. وقد يخدع المؤمن بالله. كان بعض العلماء يقول: من خادعنا بالله خَدَعنا. وفي الحديث عنه ﷺ:

[٣٠٣٣] «المؤمن غِرٌّ[1] كريم والفاجر خِبٌّ لَئيم». وأنشد نفطويه:

إنّ الكـريـم إذا تَشـاءُ خَـدَعتَـه وتـرىٰ اللئيـم مُجـرِّبـاً لا يُخْـدَعُ

﴿فَدَلَّىٰهُمَا﴾ يقال: أدلَىٰ دَلْوَه: أرسلها. ودَلاّها: أخرجها. وقيل: «دَلأَهُمَا» أي دلّلَهما؛ من الدالة وهي الجُرْأَة. أي جرّأهما على المعصية فخرجا من الجنة.

قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولىٰ ـ قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ﴾ أي أكلا منها. وقد مضىٰ في «البقرة» الخلاف في هذه الشجرة، وكيف أكل آدم منها. ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ أكلت حوّاء أوّلاً فلم يصبها شيء؛ فلما أكل آدم حلّت العقوبة؛ لأن النهي ورد عليهما كما تقدّم في «البقرة». قال ابن عباس: تقلّص النورُ الذي كان لباسهما فصار أظفاراً في الأيدي والأرجل.

الثانية ـ قوله تعالىٰ: ﴿وَطَفِقَا﴾ ويجوز إسكان الفاء. وحكىٰ الأخفش طَفَق يَطْفِق؛ مثل ضرب يضرب. يقال: طفِق، أي أخذ في الفعل. ﴿يَخْصِفَانِ﴾ وقرأ الحسن بكسر الخاء وشدّ الصاد. والأصل «يَخْتَصِفَانِ» فأدغم، وكسر الخاء لالتقاء الساكنين. وقرأ ابن بريدة ويعقوب بفتح الخاء، ألقيا حركة التاء عليها. ويجوز «يُخَصِّفانِ» بضم الياء، من خَصَّف يخصِّف. وقرأ الزُّهْري «يُخصِفَانِ» من أَخْصَف. وكلاهما منقول بالهمزة أو التضعيف والمعنىٰ: يقطعان الورق ويلزقانه ليستترا به، ومنه خَصَف النعل. والخصَّاف الذي يرقِّعها. والمِخْصف المِثْقب. قال ابن عباس: هو ورق التين. ويروىٰ أن آدم عليه السلام لما بدت سوأته وظهرت عورته طاف على أشجار الجنة يَسُلّ منها ورقة يغطي بها

[٣٠٣٣] حسن. أخرجه أحمد ٢/ ٣٩٤ وأبو داود ٤٧٩٠ والطحاوي في المشكل ٤/ ٢٠٢ والحاكم ١/ ٤٣ من حديث أبي هريرة. وإسناده غير قوي لأجل الحجاج بن فرافصة، وتابعه بشر بن رافع عند الحاكم برقم ١٣٠ والبخاري في الأدب المفرد ٤١٨ وأبي داود ٤٧٩٠ والترمذي ١٩٦٤ وابن عدي ٢/ ٣٣ من حديث بشر بن رافع به، وبشر هذا غير قوي ضعفه غير واحد، لكن يصلح للمتابعة والله أعلم. وانظر صحيح الجامع ٦٦٥٣.

---

(١) الغرّ: الذي لا يفطن للشر. الخِبّ: الخداع المفسد.

عورته؛ فزجرته أشجار الجنة حتى رحمته شجرة التِّين فأعطته ورقة. فـ «طَفِقَا» يعني آدم وحواء «يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ» فكافأ الله التين بأن سوّىٰ ظاهره وباطنه في الحلاوة والمنفعة، وأعطاه ثمرتين في عام واحد مرتين.

الثالثة ـ وفي الآية دليل على قبح كشف العورة، وأنّ الله أوجب عليهما الستر؛ ولذلك ٱبتدرا إلى سترها، ولا يمتنع أن يؤمرا بذلك في الجنة؛ كما قيل لهما «وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَة». وقد حكى صاحب البيان عن الشافعيّ أن من لم يجد ما يستر به عورته إلا ورق الشجر لزمه أن يستتر بذلك؛ لأنه سترة ظاهرة يمكنه التستر بها؛ كما فعل آدم في الجنة. والله أعلم.

قوله تعالىٰ: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ أي قال لهما: ألم أنهكما «قَالاَ رَبَّنَا» نداء مضاف. والأصل يا ربنا. وقيل: إن في حذف «يا» معنىٰ التعظيم. فاعترفا بالخطيئة وتابا صلىٰ الله عليهما وسلم وقد مضىٰ في «البقرة». ومعنىٰ قوله: ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟﴾ تقدّم أيضاً إلى آخر الآية.

قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾

الضمائر كلها للأرض. ولم يذكر الواو في «قال»، ولو ذكرها لجاز أيضاً. وهو كقولك: قال زيد لعمرو كذا قال له كذا.

قوله تعالىٰ: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

فيه أربع مسائل:

الأولىٰ ـ قوله تعالىٰ: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ﴾ قال كثير من العلماء: هذه الآية دليل على وجوب ستر العورة؛ لأنه قال: ﴿يُوَارِي سَوْآتِكُمْ﴾. وقال قوم: إنه ليس فيها دليل على ما ذكروه، بل فيها دلالة على الإنعام فقط.

قلت: القول الأوّل أصح. ومن جملة الإنعام ستر العورة؛ فبين أنه سبحانه وتعالىٰ جعل لذريته ما يسترون به عوراتهم، ودل على الأمر بالتستر. ولا خلاف بين العلماء في وجوب ستر العورة عن أعيُن الناس. وٱختلفوا في العورة ما هي؟ فقال ٱبن أبي ذئب: هي من الرجل الفرج نفسه، القبل والدبر دون غيرهما. وهو قول داود وأهل

الظاهر وابن أبي عَبْلة والطبري؛ لقوله تعالىٰ: ﴿ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ ﴾، ﴿ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا ﴾، ﴿ لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ﴾. وفي البخاريّ عن أنس:

[٣٠٣٤] «فأجرىٰ رسول الله ﷺ في زُقاق خيبر ـ وفيه ـ ثم حَسَر الإزار عن فخذه حتى إني أنظر إلى بياض فخذ نبيّ الله ﷺ». وقال مالك: السرة ليست بعورة، وأكره للرجل أن يكشف فخذه بحضرة زوجته. وقال أبو حنيفة: الركبة عورة. وهو قول عطاء. وقال الشافعيّ: ليست السرة ولا الركبتان من العورة على الصحيح. وحكى أبو حامد الترمذي أن للشافعيّ في السرة قولين. وحجة مالك قوله عليه السلام لجَرْهَدٍ:

[٣٠٣٥] «غطِّ فخذك فإن الفخذ عورة». خرجه البخاريّ تعليقاً وقال: حديث أنس أَسْنَدُ، وحديث جرهدٍ أحوط حتى يخرج من اختلافهم. وحديث جَرْهَدٍ هذا يدل على خلاف ما قال أبو حنيفة. وروي أن أبا هريرة قبّل سُرة الحسن بن عليّ وقال:

[٣٠٣٦] أقبل منك ما كان رسول الله ﷺ يقبل منك. فلو كانت السرة عورة ما قبّلها أبو هريرة، ولا مكّنه الحسن منها. وأما المرأة الحرة فعورة كلها إلا الوجه والكفين. على هذا أكثر أهل العلم. وقد قال النبيّ ﷺ:

[٣٠٣٧] «من أراد أن يتزوج امرأة فلينظر إلى وجهها وكفيها». ولأن ذلك واجب

[٣٠٣٤] صحيح. أخرجه البخاري ٦١٠ و ٤٢٠٠ و ٥١٥٩ و ٦٣٦٩ ومسلم ١٣٦٥ وأحمد ٢/ ١٠٢ من حديث أنس بأتم منه.

[٣٠٣٥] حسن. أخرجه أبو داود ٤٠١٤ والترمذي ٢٧٩٥ و ٢٧٩٦ و ٢٧٩٧ وابن أبي شيبة ٩/ ١١٨ والحميدي ٨٥٨ وأحمد ٣/ ٤٧٩ والدارقطني ١/ ٢٢٤ وابن حبان ١٧١٠ وعلقه البخاري ١/ ٤٧٨ كلهم عن جَرْهد الأسلمي به، وقال الحافظ في الفتح: حسنه الترمذي، وصححه ابن حبان، وضعفه البخاري في تاريخه للاضطراب فيه. وانظر الكلام عليه في نصب الراية ٤/ ٢٤٣ للحافظ الزيلعي، والحديث صححه الحاكم ٤/ ١٨٠، ووافقه الذهبي، وله شاهد تقويه.

[٣٠٣٦] أخرجه ابن حبان ٦٩٦٥ والحكم ٢/ ١٦٨ وأحمد ٢/ ٢٥٥ والبيهقي ٢/ ٢٣٢ من حديث عمير بن إسحاق به، صححه الحاكم على أن الراوي عن أبي هريرة محمد بن سيرين وسكت الذهبي، والصواب أنه عمير بن إسحاق ويكنى بأبي محمد، ومداره عليه قال الحافظ في التقريب: مقبول. وفي الميزان: وثقه يحيىٰ في رواية، وفي رواية: لا يساوي حديثه شيئاً، وقال النسائي: ليس به بأس.

[٣٠٣٧] غريب بهذا اللفظ، ومعناه ثابت فقد بوب مسلم رحمه الله في صحيحه به، فقال: باب ندب النظر إلى وجه المرأة وكفيها لمن يريد تزوجها، ثم أخرج حديث أبي هريرة أن رجلاً أخبر النبي ﷺ أنه تزوج امرأة من الأنصار، فقال له: أنظرت إليها؟ قال: لا، قال: فاذهب فانظر إليها، فإن في أعين الأنصار شيئاً اهـ أخرجه مسلم ١٤٢٤ والحميدي ١١٧٢ وأحمد ٢/ ٢٩٩ والطحاوي في المعاني ٣/ ١٤ والبيهقي ٧/ ٨٤ من حديث أبي هريرة، ولم يذكر أحد حديث المصنف القرطبي.

كشفه في الإحرام. وقال أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام: كل شيء من المرأة عورة حتى ظفرها. وروي عن أحمد بن حنبل نحوه. وأما أمُّ الولد فقال الأثْرَم: سمعته ـ يعني أحمد بن حنبل ـ يسأل عن أم الولد كيف تصلِّي؟ فقال: تغطِّي رأسها وقدميها؛ لأنها لا تباع، وتصلي كما تصلي الحرة. وأما الأَمَةُ فالعورة منها ما تحت ثديها. ولها أن تبدي رأسها ومِعصميها. وقيل: حكمها حكم الرجل. وقيل: يكره لها كشف رأسها وصدرها. وكان عمر رضي الله عنه يضرب الإماء على تغطيتهن رؤوسهن ويقول: لا تَشبَّهن بالحرائر. وقال أصبغ: إن انكشف فخذها أعادت الصلاة في الوقت. وقال أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام: كل شيء من الأمة عورة حتى ظفرها. وهذا خارج عن أقوال الفقهاء؛ لإجماعهم على أن المرأة الحرة لها أن تصلي المكتوبة ويداها ووجهها مكشوف ذلك كله، تباشر الأرض به. فالأمة أولىٰ، وأمُّ الولد أغلظ حالاً من الأمة. والصبيُّ الصغير لا حرمة لعورته. فإذا بلغت الجارية إلى حَدٍّ تأخذها العين وتُشْتَهَى سترت عورتها. وحجة أبي بكر بن عبد الرحمن قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ﴾ [الأحزاب: ٥٩]. وحديث أم سلمة أنها سئلت:

[٣٠٣٨] ماذا تصلي فيه المرأة من الثياب؟ فقالت: تصلي في الدرع والخمار السابغ الذي يُغَيِّب ظهور قدميها. وقد روُي مرفوعاً. والذين أوقفوه على أمِّ سَلَمة أكثر وأحفظ؛ منهم مالك وابن إسحاق وغيرهما. قال أبو داود: ورفعه عبد الرحمن بن عبد الله بن دِينار عن محمد بن زيد عن أمّه عن أم سلمة أنها سألت رسول الله ﷺ. قال أبو عمر: عبد الرحمن هذا ضعيف عندهم؛ إلا أنه قد خرج البخاري بعض حديثه. والإجماع في هذا الباب أقوىٰ من الخبر.

الثانية ـ قوله تعالىٰ: ﴿أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا﴾ يعني المطر الذي ينبت القطن والكتان، ويُقيم البهائم الذي منها الأصواف والأوبار والأشعار؛ فهو مجاز مثل ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ﴾ [الزمر: ٦] على ما يأتي. وقيل: هذا الإنزال إنزال شيء من اللباس مع آدم وحوّاء، ليكون مثالاً لغيره. وقال سعيد بن جبير: «أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ» أي خلقنا

[٣٠٣٨] الراجح الوقف. أخرجه أبو داود ٦٤٠ والحاكم ١/ ٢٥٠ والبيهقي ٢/ ٢٣٣ عن أم سلمة مرفوعاً وكرره أبو داود ٦٣٩ موقوفاً، وقال: رواه مالك وابن أبي ذئب وابن إسحاق وغيرهم عن أم سلمة موقوفاً، ونقل الزيلعي عن ابن الجوزي قوله: تفرد برفعه عبد الرحمن بن دينار، قال أبو حاتم: لا يُحتج به، والظاهر أنه غلط في رفع الحديث. انظر نصب الراية ١/ ٢٩٩ وقال الحافظ في الدراية ١/ ١٢٣: رجح الدارقطني الوقف واختاره القرطبي.

لكم؛ كقوله: ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ﴾ أي خلق. على ما يأتي. وقيل: ألهمناكم كيفية صنعته.

الثالثة ـ قوله تعالىٰ: ﴿ وَرِيشًا ﴾ قرأ أبو عبد الرحمن والحسن وعاصم من رواية المفضّل الضبيّ، وأبو عمرو من رواية الحسين بن علي الجُعْفِيّ «ورياشا». ولم يحكه أبو عبيدة إلا عن الحسن، ولم يفسر معناه. وهو جمع ريشٍ. وهو ما كان من المال واللباس. وقال الفرّاء: رِيشٌ ورياش، كما يقال: لِبس ولِباس. وريش الطائر ما ستره الله به. وقيل: هو الخِصب ورفاهية العيش. والذي عليه أكثر أهل اللغة أن الريش ما ستر من لباس أو معيشة. وأنشد سيبويه:

فـريشِـي منكـم وهَـوايَ مَعْكـم ... وإنْ كـانـت زيـارتُكـم لِمَـامـا

وحكىٰ أبو حاتم عن أبي عبيدة: وهب له دابة بريشها أي بكسوتها وما عليها من اللباس.
والخشن من الثياب، مِمَّا يُتواضع به لله تعالىٰ ويتعبَّد له خيرٌ من غيره. وقال زيد بن علي:

الرابعة ـ قوله تعالىٰ: ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ بين أن التقوىٰ خير لباس؛ كما قال:

إذا المرءُ لم يلبسْ ثياباً من التُّقَىٰ ... تقلّـب عـريـانـاً وإن كـان كـاسيـاً
وخيـرُ لبـاسِ المـرء طـاعـةُ ربـه ... ولا خيـرَ فيمـن كـان لله عـاصيـاً

وروىٰ قاسم بن مالك عن عوف عن مَعْبَد الجُهنِيّ قال: «لِبَاسُ التَّقْوىٰ» الحيَاء.

وقال ابن عباس: «لِبَاسُ التَّقْوىٰ» هو العمل الصالح. وعنه أيضاً: السَّمْت الحسَن في الوجه. وقيل: ما علّمه عز وجل وهدىٰ به. وقيل: «لِبَاسُ التَّقْوىٰ» لبس الصوف والخشن من الثياب، مِمَّا يُتواضع به لله تعالىٰ ويتعبَّد له خيرٌ من غيره. وقال زيد بن علي: «لِبَاسُ التَّقْوىٰ» الدّرع والمِغْفَر؛ والساعدان، والساقان، يُتَّقىٰ بهما في الحرب. وقال عروة بن الزبير: هو الخشية لله. وقيل: هو استشعار تقوىٰ الله تعالىٰ فيما أمر به ونهىٰ عنه.

قلت: وهو الصحيح، وإليه يرجع قول ابن عباس وعروة. وقول زيد بن عليّ حَسَنٌ، فإنه حَضّ على الجهاد. وقال ابن زيد: هو ستر العورة. وهذا فيه تكرار؛ إذ قال أولاً: ﴿ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ ﴾. ومن قال: إنه لبس الخشن من الثياب فإنه أقرب إلى التواضع وترك الرعونات فدَعْوَى؛ فقد كان الفضلاء من العلماء يلبسون الرفيع من الثياب مع حصول التقوى، على ما يأتي مبيناً إن شاء الله تعالى. وقرأ أهل المدينة

والكسائيّ «لِبَاسَ» بالنصب عطفاً على «لِبَاساً» الأول. وقيل: انتصب بفعل مضمر؛ أي وأنزلنا لباس التقوى. والباقون بالرفع على الابتداء. و «ذَلِكَ» نعته و «خَيْرٌ» خبر الابتداء. والمعنى: ولباس التقوى المشار إليه، الذي علمتموه، خير لكم من لبس الثياب التي تُوارِي سوءاتكم، ومن الرّياش الذي أنزلنا إليكم؛ فألبسوه. وقيل: ٱرتفع بإضمار هو؛ أي وهو لباس التقوى؛ أي هو ستر العورة. وعليه يخرج قول ابن زيد. وقيل: المعنى ولباس التقوى هو خير؛ فـ «ذلك» بمعنى هو. والإعراب الأوّل أحسنُ ما قيل فيه. وقرأ الأعمش «ولباسُ التقوى خيرٌ» ولم يقرأ «ذَلِكَ». وهو خلاف المصحف. ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي مما يدل على أن له خالقاً. و «ذلك» رفع على الصفة، أو على البدل، أو عطف بيان.

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

فيه مسألتان:

الأولىٰ ـ قوله تعالىٰ: ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي لا يصرفنكم الشيطان عن الدِّين، كما فتن أبويكم بالإخراج من الجنة. «أَبٌ» للمذكر، و«أبة» للمؤنث. فعلىٰ هذا قيل: أبوان. ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ في موضع نصب على الحال. ويكون مستأنفًا فيوقف على ﴿مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ ﴿لِيُرِيَهُمَا﴾ نصب بلام كيّ. ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾ الأصل «يراءكم» ثم خفّفت الهمزة. «وَقَبِيلُهُ» عطف على المضمر وهو توكيد ليحسن العطف، كقوله: ﴿أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾[البقرة: ٣٥] وهذا يدل على أنه يقبح رأيتك وعمرو، وأن المضمر كالمظهر. وفي هذا أيضاً دليل على وجوب ستر العورة، لقوله: ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ قال الآخرون: إنما فيه التحذير ومن زوال النعمة، كما نزل بآدم ﷺ هذا أن لو ثبت أن شرع آدم يلزمنا، والأمر بخلاف ذلك.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾ «قَبِيلُهُ» جنوده. قال مجاهد: يعني الجن والشياطين. ابن زيد: «قبيله» نسله. وقيل: جيله. ﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾قال بعض العلماء: في هذا دليل على أن الجنّ لا يُرَوْن، لقوله: «مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ» وقيل: جائز أن يُرَوْا لأن الله تعالىٰ إذا أراد أن يُريهم كشف أجسامهم حتىٰ تُرىٰ، قال النحاس: «مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ» يدل على أن الجن لا يُرَون إلا في وقت نبيّ؛ ليكون ذلك دلالة على نبوّته؛ لأن الله جل وعز خلقهم خلقاً لا يُرَون فيه، وإنما يرون إذا نقلوا عن صورهم. وذلك من المعجزات التي لا

تكون إلا في وقت الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم. قال القشيريّ: أجرى الله العادة بأن بني آدم لا يرون الشياطين اليوم. وفي الخبر:

[٣٠٣٩] «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم». وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥﴾ [الناس: ٥]. وقال عليه السلام:

[٣٠٤٠] «إن للمَلك لمة وللشيطان لَمّة ـ أي بالقلب ـ فأما لمة الملَك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق وأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق». وقد تقدم في «البقرة». وقد جاء في رؤيتهم أخبار صحيحة. وقد خرّج البخاريّ عن أبي هريرة قال:

[٣٠٤١] وكّلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، وذكر قصة طويلة، ذكر فيها أنه أخذ الجِنّي الذي كان يأخذ التمر، وأن النبيّ ﷺ قال له: «ما فعل أسِيرك البارحة». وقد تقدّم في «البقرة». وفي صحيح مسلم أن النبيّ ﷺ قال:

[٣٠٤٢] «والله لولا دعوة أخي سليمان لأصبح مُوثَقاً يلعب به وِلدان أهلِ المدينة» ـ في العِفريت الذي تَفَلّت عليه. وسيأتي في «صۤ» إن شاء الله تعالى. ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٧﴾ أي زيادة في عقوبتهم وسوّينا بينهم في الذهاب عن الحق.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٢٨﴾.

الفاحشة هنا في قول أكثر المفسرين طوافهم بالبيت عُراةً. وقال الحسن: هي الشرك والكفر. واحتجوا على ذلك بتقليدهم أسلافهم، وبأن الله أمرهم بها. وقال الحسن: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ قالوا: لو كره الله ما نحن عليه لنقلنا عنه. ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ بيّن أنهم متحكّمون، ولا دليل لهم على أن الله أمرهم بما ٱدّعوا. وقد مضىٰ ذمّ التقليد وذمّ كثير من جهالاتهم. وهذا منها.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ۝٢٩ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟

[٣٠٣٩] صحيح. أخرجه البخاري ٣٢٨١ و ٦٢١٩ ومسلم ٢١٧٥ وأبو داود ٢٤٧٠ وابن ماجه ١٧٧٩ وابن حبان ٣٦٧١ وأحمد ٦/ ٣٣٧ من حديث صفية بنت حُيَيّ، وله قصة.

[٣٠٤٠] أخرجه الترمذي ٢٩٨٨ وتقدم.

[٣٠٤١] صحيح. أخرجه البخاري ٢٣١١ وتقدم.

[٣٠٤٢] أخرجه مسلم ٥٤٢، وسيأتي.

﴿ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ﴾ قال ابن عباس: لا إله إلا الله. وقيل: القسط العدل؛ أي أمر بالعدل فأطيعوه. ففي الكلام حذف. ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ أي توجهوا إليه في كل صلاة إلى القبلة. ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي في أي مسجد كنتم. ﴿وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي وحّدوه ولا تشركوا به. ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾ نظيره ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤] وقد تقدم. والكاف في موضع نصب؛ أي تعودون كما بدأكم؛ أي كما خلقكم أوّل مرة يعيدكم. وقال الزجاج: هو متعلق بما قبله. أي ومنها تخرجون كما بدأكم تعودون. ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾ «فريقاً» نصب على الحال من المضمر في «تَعُودُونَ» أي تعودون فريقين: سعداء، وأشقياء. يقوّي هذا قراءة أُبيّ «تعودون فريقين فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة»؛ عن الكسائي. وقال محمد بن كعب القرظِيّ في قوله تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ قال: من ابتدأ الله خلقه للضلالة صيّره إلى الضلالة، وإن عمِل بأعمال أهل الهدى. ومن ابتدأ الله خلقه على الهدى صيره إلى الهدى، وإن عمِل بأعمال أهل الضلالة. ابتدأ الله خلق إبليس على الضلالة، وعمِل بأعمال السعادة مع الملائكة، ثم ردّه الله إلى ما ابتدأ عليه خلقه. قال: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾[صَ: ٧٤].

وفي هذا رد واضح على القدرية ومن تابعهم. وقيل: «فَرِيقاً» نصب بـ«هَدَى»، «وفَرِيقاً» الثاني نصب بإضمار فعل؛ أي وأضل فريقاً. وأنشد سيبويه[1]:

أصبحتُ لا أحمل السِّلاحَ ولا   أملِك رأسَ البعير إن نَفَراً
والذِّئبُ أخشاه إن مررتُ به   وَحْدِي وأخشَى الرياحَ والمطرا

قال الفرّاء: ولو كان مرفوعاً لجاز. ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وقرأ عيسى ابن عمر: «أنهم» بفتح الهمزة، يعني لأنهم.

قوله تعالى: ﴿۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾.

فيه سبع مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾ هو خطاب لجميع العالم، وإن كان المقصود بها من كان يطوف من العرب بالبيت عرياناً؛ فإنه عامٌّ في كل مسجد للصلاة. لأن العبرة

(١) البيتان للربيع بن ضبع الفزاري.

للعُموم لا للسّبب. ومن العلماء من أنكر أن يكون المراد به الطواف؛ لأن الطواف لا يكون إلا في مسجد واحد، والذي يعم كل مسجد هو الصلاة. وهذا قول مَن خفي عليه مقاصد الشريعة. وفي صحيح مسلم عن ابن عباس قال:

[٣٠٤٣] كانت المرأة تطوف بالبيت وهي عريانة وتقول: من يُعِيرُني تِطْوَافاً؟ تجعله على فرجها. وتقول:

اليـــومَ يَبْـــدُو بعضُـــه أو كلّـــه ... ومـــا بَـــدَا منـــه فـــلا أحِلّـــه

فنزلت هذه الآية: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾. التطْواف (بكسر التاء). وهذه المرأة هي ضُباعة بنت عامر بن قُرْط؛ قاله القاضي عياض. وفي صحيح مسلم أيضاً عن هشام بن عروة عن أبيه قال:

[٣٠٤٤] كانت العرب تطوف بالبيت عراة إلا الحُمْس[1]، والحُمْسُ قريش وما ولدت، كانوا يطوفون بالبيت عُراةً إلا أن تعطيهم الحُمْسُ ثياباً فيعطي الرجالُ الرجالَ والنساءُ النساءَ. وكانت الحمس لا يخرجون من المُزْدَلِفة، وكان الناس كلهم يقفون بعرفات. في غير[2] مسلم: ويقولون نحن أهل الحَرَم، فلا ينبغي لأحد من العرب أن يطوف إلا في ثيابنا، ولا يأكل إذا دخل أرضنا إلا من طعامنا. فمن لم يكن له من العرب صديق بمكة يُعيره ثوباً ولا يَسارٌ يستأجره به كان بين أحد أمرين: إما أن يطوف بالبيت عُرياناً، وإما أن يطوف في ثيابه؛ فإذا فرغ من طوافه ألقى ثوبه عنه فلم يمسه أحد.. وكان ذلك الثوب يسمى اللَّقَى؛ قال قائل من العرب:

كفَـــى حَـــزَنـــا كَـــرِيٍّ عليـــه كـــأنّـــه ... لَقًـــى بيـــن أيـــدي الطـــائفيـــن حَـــرِيـــمُ

فكانوا على تلك الجهالة والبدعة والضلالة حتى بعث الله نبيه محمداً ﷺ؛ فأنزل الله تعالى: ﴿۞ يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ﴾ الآية. وأذّن مؤذّن رسول الله ﷺ: ألا لا يطوف بالبيت عُرْيَان[3].

قلت: ومن قال بأن المراد الصلاة فزينتها النعال؛ لما رواه كُرْز بن وَبْرَة عن عطاء

[٣٠٤٣] أخرجه مسلم ٣٠٢٨ عن ابن عباس به.
[٣٠٤٤] أخرجه مسلم ١٢١٩ ح ١٥٢ عن عروة به.

---

(١) سُمّوا الحمس لأنهم تشددوا في دينهم وهم قريش وما والاها.
(٢) هذه الزيادة ليست عند مسلم كما ذكر القرطبي.
(٣) متفق عليه وتقدم، في بحث الحج.

عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ أنه قال ذات يوم:

[٣٠٤٥] «خذوا زينة الصلاة» قيل: وما زينة الصلاة؟ قال: «البسوا نعالكم فَصلّوا فيها».

الثانية ـ دلت الآية على وجوب ستر العورة كما تقدّم. وذهب جمهور أهل العلم إلى أنها فرض من فروض الصلاة. وقال الأبهرِيّ هي فرض في الجملة، وعلى الإنسان أن يسترها عن أعين الناس في الصلاة وغيرها. وهو الصحيح؛ لقوله عليه السلام لِلْمِسْوَر بن مَخْرَمَة:

[٣٠٤٦] «أرجع إلى ثوبك فخذه ولا تمشوا عُراة». أخرجه مسلم. وذهب إسماعيل القاضي إلى أن ستر العورة من سُنَن الصلاة، وٱحتج بأنه لو كان فرضاً في الصلاة لكان العُريان لا يجوز له أن يصلي؛ لأن كل شيء من فروض الصلاة يجب الإتيان به مع القدرة عليه، أو بدله مع عدمه، أو تسقط الصلاة جملة، وليس كذلك. قال ٱبن العربيّ: وإذا قلنا أن ستر العورة فرض في الصلاة فسقط ثوب إمامٍ فٱنكشف دُبُره وهو راكع فرفع رأسه فغطّاه أجزأه؛ قاله ٱبن القاسم. وقال سُحْنون: وكلّ من نظر إليه من المأمومِين أعاد. وروى عن سحنون أيضاً: أنه يعيد ويعيدون؛ لأن ستر العورة شرط من شروط الصلاة، فإذا ظهرت بطلت الصلاة ـ أصله الطهارة ـ قال القاضي ٱبن العربيّ: أما من قال إن صلاتهم لا تبطل فإنهم لم يفقدوا شرطاً، وأما من قال إنْ أخذه مكانه صَحّت صلاته وتبطل صلاة من نظر إليه فصحيفة يجب محوها ولا يجوز الاشتغال بها. وفي البخارِيّ والنسائِيّ عن عمرو بن سلمة قال:

[٣٠٤٧] لما رجع قومي من عند النبيّ ﷺ قالوا قال: «ليؤمكم أكثركم قراءة للقرآن». قال: فدعوني فعلّموني الركوع والسجود؛ فكنت أُصلّي بهم وكانت عليّ بردة مفتوقة، وكانوا يقولون لأبي: ألا تُغَطِّي عنا ٱسْتَ ٱبنك. لفظ النسائيّ. وثبت عن سهل بن سعد قال:

[٣٠٤٨] لقد كانت الرجال عاقدي أُزُرِهم في أعناقهم من ضيق الأُزُر خلف رسول

[٣٠٤٥] ضعيف. أخرجه ابن عدي في الكامل ٦/ ١٦٢ وابن الجوزي في «الموضوعات» ٢/ ٩٥ من حديث أبي هريرة، وأعله بمحمد بن الفضل الخراساني، وقال: قال يحيىٰ: ليس بشيء، وقال أحمد حديثه حديث أهل الكذب وانظر «تفسير الشوكاني» ٩٨٠ و ٩٧١ بتخريجي.

[٣٠٤٦] صحيح. أخرجه مسلم ٣٤١ من حديث المسور بأتم منه.

[٣٠٤٧] تقدم.

[٣٠٤٨] صحيح. أخرجه البخاري ٨١٤ عن سهل بن سعد به.

الله ﷺ في الصلاة كأمثال الصبيان؛ فقال قائل: يا معشر النساء، لا ترفعن رؤوسكن حتى ترفع الرجال. أخرجه البخاريّ والنسائي وأبو داود.

الثالثة ـ وٱختلفوا إذا رأى عورة نفسه؛ فقال الشافعيّ: إذا كان الثوب ضيقاً يُزرّه أو يخلِّله بشيء لئلا يتجافى القميص فتُرى من الجيب العورة، فإن لم يفعل ورأى عورة نفسه أعاد الصلاة. وهو قول أحمد. ورخّص مالك في الصلاة في القميص محلول الأزرار، ليس عليه سراويل. وهو قول أبي حنيفة وأبي ثور. وكان سالِم يُصلي محلول الأزرار. وقال داود الطائي: إذا كان عظيم اللحية فلا بأس به. وحكى معناه الأَثْرم عن أحمد. فإن كان إماماً فلا يصلي إلا بردائه؛ لأنه من الزينة. وقيل:

[٣٠٤٩] من الزينة الصلاة في النعلين؛ رواه أنس عن النبيّ ﷺ ولم يصحّ. وقيل: زينة الصلاة رفع الأيدي في الركوع وفي الرفع منه. قال أبو عمر: لكل شيء زينة وزينة الصلاة التكبير ورفع الأيدي. وقال عمر رضي الله عنه:

[٣٠٥٠] إذا وَسّع الله عليكم فأوسعوا على أنفسكم، جمع رجل عليه ثيابه، صلَّى في إزار ورِداء، في إزار وقميص، في إزار وقَبَاء، في سراويل ورداء، في سراويل وقميص، في سراويل وقَباء[1] ـ وأحسبه قال: في تُبّان[2] وقميص ـ في تُبَّان ورداء، في تُبَّان وقَباء. رواه البخارِيّ والدارقطنِيّ.

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ قال ٱبن عباس: أحل الله في هذه الآية الأكلَ والشرب ما لم يكن سَرَفاً أو مَخِيلة. فأمّا ما تدعو الحاجة إليه، وهو ما سدّ الجَوْعة وسكَّن الظّمأ، فمندوب إليه عقلاً وشرعاً؛ لما فيه من حفظ النفس وحراسة الحواس؛ ولذلك ورد الشرع بالنهي عن الوصال؛ لأنه يُضعف الجسد ويُميت النفس، ويُضعف عن العبادة، وذلك يمنع منه الشرع ويدفعه العقل. وليس لمن منع نفسه قدر الحاجة حظٌّ من بِرٍّ ولا نصيب من زهد؛ لأن ما حَرَمَها من فعل الطاعة بالعجز والضعف

[٣٠٤٩] ضعيف جداً أخرجه الطبراني في الأوسط كما في المجمع ٢/ ٥٤/ ٢٢٤٩ من حديث ابن مسعود بلفظ: «مِنْ تمام الصلاة الصلاة في النعلين» وأعله الهيثمي بعلي بن عاصم، وأنه تكلم فيه غير واحد، وله علّة ثانية موسىٰ بن سهل الوشاء، ضعيف جداً وحكم السيوطي في الدر ٣/ ١٤٦ بضعف هذا الحديث وحديث أنس أخرجه ابن الجوزي ٢/ ٩٥ وحكم بوضعه.

[٣٠٤٩] موقوف صحيح، أخرجه البخاري ٣٦٥ عن عمر موقوفاً.

---

(١) الإزار: ما يؤتزر به في النصف الأسفل. القباء: يلبس فوق الثياب.

(٢) التُّبان: سروال صغير يستر العورة المغلظة.

أكثر ثواباً وأعظم أجراً. وقد ٱختلف في الزائد على قدر الحاجة على قولين: فقيل حرام، وقيل مكروه. قال ٱبن العربيّ: وهو الصحيح؛ فإن قدر الشبع يختلف بٱختلاف البلدان والأزمان والأسنان والطّعمان. ثم قيل: في قِلّة الأكل منافع كثيرة؛ منها أن يكون الرجل أصح جسماً وأجود حِفظاً وأزكى فهما وأقل نوماً وأخف نفساً. وفي كثرة الأكل كَظّ المعدة ونتن التُّخْمة، ويتولّد منه الأمراض المختلفة، فيحتاج من العلاج أكثر مما يحتاج إليه القليل الأكل. وقال بعض الحكماء: أكبر الدواء تقدير الغذاء. وقد بين النبيّ ﷺ هذا المعنى بياناً شافياً يُغنِي عن كلام الأطباء فقال:

[٣٠٥١] «ما ملأ آدميٌّ وعاء شراً من بطن، بحسْب ٱبن آدم لُقيمات يقمن صُلْبَه فإن كان لا محالة فثلثٌ لطعامه وثلثٌ لشرابه وثلث لنفسَه». خرّجه الترمذيّ من حديث المِقْدام بن مَعْدِي كرِب. قال علماؤنا: لو سمع بُقراط هذه القسمة لعجب من هذه الحكمة. ويذكر أن الرشيد كان له طبيب نصرانِيّ حاذق فقال لعليّ بن الحسين: ليس في كتابكم من علم الطب شيء، والعلم علمان: علم الأديان وعلم الأبدان. فقال له عليّ: قد جمع الله الطب كله في نصف آية من كتابنا. فقال له: ما هي؟ قال قوله عز وجل: ﴿وَكُلُوا وَٱشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾. فقال النصرانِيّ: ولا يؤثر عن رسولكم شيء من الطب. فقال عليّ: جمع رسول الله ﷺ الطب في ألفاظ يسيرة. قال: ما هي؟ قال:

[٣٠٥٢] «المعِدة بيت الأدواء والحِمْيَةُ رأسُ كلّ دواء وأعط كل جسد ما عوّدته». فقال النصرانِيّ: ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طبّاً.

قلت: ويقال إن معالجة المريض نصفان: نصفٌ دواءٌ ونصف حِمْيةٌ. فإن ٱجتمعا فكأنك بالمريض قد برأ وصَحّ، وإلاّ فالحِمية به أولى؛ إذ لا ينفع دواء مع ترك الحِمية. ولقد تنفع الحِمية مع ترك الدواء. ولقد قال رسول الله ﷺ:

[٣٠٥٣] «أصل كل دواء الحِمية». والمعنيّ بها ـ والله أعلم ـ أنها تغني عن كلّ

[٣٠٥١] صحيح. أخرجه الترمذي ٢٣٨٠ وابن ماجه ٣٣٤٩ وأحمد ٤/١٣٢ وابن المبارك في الزهد ٦٠٣ والقضاعي ١٣٤٠ وصححه ابن حبان ٦٧٤ والحاكم ٤/١٢١ من حديث المقدام بن معدي كرب، وإسناده صحيح على شرط مسلم، وقال الترمذي: حسن صحيح. وانظر الصحيحة ٢٢٦٥.

[٣٠٥٢] ذكره السخاوي في المقاصد الحسنة ١٠٣٥ وقال: لا يصح رفعه إلى النبي ﷺ، بل هو من كلام الحارث بن كلدة طبيب العرب أو غيره، ووافقه ابن طولون في الشذرة ٨٨٧.

[٣٠٥٣] لا أصل له. ذكره الغزالي في الإحياء ٣/٨٧ فقال العراقي: لم أجد له أصلاً، ووافقه السخاوي في المقاصد ١٠٣٥ ونقل الشوكاني في «الوفائد» ٤٦٠ عن الصغاني أنه موضوع.

دواء؛ ولذلك يقال: إن الهند جُلّ معالجتهم الحِمية، يمتنع المريض عن الأكل والشرب والكلام عدّةَ أيام فيبرأ ويصح.

الخامسة ـ روى مسلم عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

[٣٠٥٤] «الكافر يأكل في سبعة أمعاء والمؤمن يأكل في مِعًى واحد». وهذا منه ﷺ حضٌّ على التقليل من الدنيا والزهد فيها والقناعة بالبُلْغَة. وقد كانت العرب تمتدح بقلة الأكل وتذم بكثرته. كما قال قائلهم:

تكفيــه فِلْــذةُ كِبْــد إن ألَــمّ بهــا ... من الشِّواء ويُرْوي شُرْبَهُ الغُمَرُ[1]

وقالت أُمُّ زَرْع في ابن أبي زرع: ويُشبعه ذراعُ الجفْرَة[2]. وقال حاتم الطائي يذم بكثرة الأكل:

فــإنــك إن أعطيــتَ بطنــك سُــؤْلَــه ... وفـرجَـك نـالا مُنتهـى الـذَّمّ أجمعـا

وقال الخَطّابيّ: معنى قوله ﷺ: «المؤمنُ يأكل في مِعًى واحد»[3] أنه يتناول دون شبعه، ويؤثِر على نفسه ويُبقي من زاده لغيره؛ فيقنعه ما أكل. والتأويل الأوّل أولى والله أعلم. وقيل في قوله عليه السلام: «والكافر يأكل في سبعة أمعاء» ليس على عمومه؛ لأن المشاهدة تدفعه، فإنه قد يوجد كافر أقلّ أكلاً من مؤمن، ويُسلم الكافرُ فلا يَقِلّ أكله ولا يزيد. وقيل: هو إشارة إلى معيَّن. ضاف النبيّ ﷺ ضيفٌ كافر يقال: إنه الجَهْجَاه الغِفارِيّ. وقيل: ثُمَامة بن أثَال. وقيل: نَضْلة بن عمرو الغِفَاريّ. وقيل: بَصْرة بن أبي بصرة الغِفاريّ. فشرب حِلاَب سبع شياهٍ، ثم إنه أصبح فأسلم فشرِب حلاب شاةٍ فلم يَستتمّه؛ فقال النبيّ ﷺ ذلك[4]. فكأنه قال هذا الكافر. والله أعلم. وقيل: إن القلب لما تنور بنور التوحيد نظر إلى الطعام بعين التقوّى على الطاعة، فأخذ منه قدر الحاجة، وحين كان مُظلِماً بالكفر كان أكله كالبهيمة ترتع حتى تَثْلِط[5].

[٣٠٥٤] صحيح. أخرجه مسلم ٢٠٦٢ من حديث أبي موسىٰ و ٢٠٦١ من حديث جابر و ٢٠٦٠ من حديث ابن عمر.

---

(١) البيت لأعشىٰ باهلة. والغمر: القدح الصغير.

(٢) الجفرة: الصغيرة من ولد المعزي إذا بلغ أربعة أشهر والعامة تقول: سخلة. وحديث أم زرع حديث مشهور مطول أخرجه مسلم وغيره وتقدم.

(٣) تقدم برقم ٣٠٥٤.

(٤) هذا السياق عند مالك ٣/١٠٩ وأحمد ٢/٣٧٥ ومسلم ٢٠٦٣ من حديث أبي هريرة ولم يسم ذاك الضيف، وقد تقدم بيان معنىٰ هذا الحديث، والله أعلم.

(٥) الثلط: الرقيق من الروث.

واختلف في هذه الأمعاء، هل هي حقيقة أم لا؟ فقيل: حقيقة، ولها أسماء معروفة عند أهل العلم بالطب والتشريح. وقيل: هي كنايات عن أسباب سبعة يأكل بها النَّهِم: يأكل للحاجة والخبر[1] والشم والنظر واللمس والذوق ويزيد استغناماً. وقيل: المعنى أن يأكل أكل من له سبعة أمعاء. والمؤمن بخفة أكله يأكل أكل من ليس له إلا مِعًى واحد؛ فيشارك الكافر بجزء من أجزاء أكله، ويزيد الكافر عليه بسبعة أمثاله. والمِعَى في هذا الحديث هو المعدة.

السادسة: وإذا تقرّر هذا فٱعلم أنه يستحب للإنسان غسلُ اليد قبل الطعام وبعده؛ لقوله عليه السلام:

[٣٠٥٥] «الوضوء قبل الطعام وبعده بركة». وكذا في التوراة. رواه زَاذَان عن سَلْمان. وكان مالك يكره غسل اليد النظيفة. والاقتداء بالحديث أوْلى. ولا يأكل طعاماً حتى يعرف أحارًّا هو أم بارداً؟ فإنه إن كان حارًّا فقد يتأذّى. وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال:

[٣٠٥٦] «أبْرِدُوا بالطعام فإن الحارّ غيرُ ذي بركة» حديث صحيح. وقد تقدّم في «البقرة». ولا يشمّه فإن ذلك من عمل البهائم، بل إن ٱشتهاه أكله، وإن كرهه تركه، ويصغّر اللقمة ويكثر مضغها لئلا يُعَدّ شَرِها. ويُسمّي الله تعالى في أوّله ويحمده في آخره. ولا ينبغي أن يرفع صوته بالحمد إلا أن يكون جلساؤه قد فرغوا من الأكل؛ لأن في رفع

[٣٠٥٥] أخرجه أبو داود ٣٧٦١ وأحمد ٥/٤٤١ والحاكم ٤/١٠٦ والديلمي ٧٢٣٧ من حديث سلمان. قال: قرأت في التوراة أن بركة الطعام الوضوء قبله، فذكرت ذلك للنبي ﷺ، فقال: بركة الطعام..»..

قال أبو داود عقب الحديث: وهُو ضعيف، وقال الذهبي: مع ضعف قيس ـ بن الربيع ـ فيه إرسال اهـ وذكره الألباني في ضعيف أبي داود ٨٠٤.

وقد ورد من حديث أنس وأبي هريرة وعائشة وابن عباس بأسانيد واهية لعلها تعتضد بمجموعها، لكن ليس فيها ذكر التوراة.

تنبيه: والوضوء المراد بالحديث هٰهنا هو غسل اليدين، فإنه الوضوء لغة، والله الموفق.

[٣٠٥٦] أخرجه الحاكم ٤/١١٨/ ٧١٢٥ والديلمي ٣٢٧ من حديث أبي هريرة، وإسناده ضعيف، وأخرجه الطبراني في الأوسط كما في المجمع ٥/ ٢٠ / ٧٨٨٧ من وجه آخر عن أبي هريرة، وأعله الهيثمي بضعف عبد الله بن يزيد البكري، لكن له شواهد كثيرة أقواها حديث أسماء بنت أبي بكر أخرجه الحاكم ٤/١١٨ ح ٧١٢٤ وصححه، وقال الذهبي: على شرط مسلم. وانظر المقاصد الحسنة (٩).

---

(١) يريد شهوة الأذن.

الصوت منْعاً لهم من الأكل. وآداب الأكل كثيرة، هذه جملة منها. وسيأتي بعضها في سورة «هود» إن شاء الله تعالى. وللشراب أيضاً آداب معروفة، تركنا ذكرها لشهرتها. وفي صحيح مسلم عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال:

[٣٠٥٧] «إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه وإذا شرب فليشرب بيمينه فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله».

السابعة: قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ أي في كثرة الأكل، وعنه يكون كثرة الشُّرب، وذلك يثقل المعدة، ويثبّط المعدة، ويثبّط الإنسان عن خدمة ربّه، والأخذِ بحظه من نوافل الخير. فإن تعدّى ذلك إلى ما فوقه مما يمنعه القيام بالواجب عليه حَرُمَ عليه، وكان قد أسرف في مطعمه ومشربه. روى أسد بن موسى من حديث عون بن أبي جُحَيْفَة عن أبيه قال:

[٣٠٥٨] أكلت ثريداً بلحم سمين، فأتيت النبيّ ﷺ وأنا أتَجشَّى؛ فقال: «أكفف عليك من جُشائك أبا جحيفة فإن أكثر الناس شِبَعاً في الدنيا أطولهم جوعاً يوم القيامة». فما أكل أبو جحيفة بملء بطنه حتى فارق الدنيا، وكان إذا تغدّى لا يتعشى، وإذا تعشّى لا يتغدّى.

قلت: وقد يكون هذا معنى قولِه عليه السلام:

[٣٠٥٩] «المؤمن يأكل في مِعًى واحد» أي التام الإيمان؛ لأن من حسن إسلامه وكمل إيمانه كأبي جحيفة تفكر فيما يصير إليه من أمر الموت وما بعده؛ فيمنعه الخوف والإشفاق من تلك الأهوال من استيفاء شهواته. والله أعلم. وقال ابن زيد: معنى «وَلاَ تَسْرِفُوا» لا تأكلوا حراماً. وقيل:

[٣٠٥٧] صحيح. أخرجه مالك ٢/٩٢٢ ومسلم ٢٠٢٠ والترمذي ١٨٠٠ وأحمد ٢/٢٣ وابن حبان ٥٢٢٦ ومن حديث ابن عمر.

[٣٠٥٨] أخرجه الحاكم ٤/١٢١ والطبراني في الكبير (٢٢/١٢١) من حديث أبي جحيفة، صححه الحاكم، ورده الذهبي، فقال: فهد بن عوف كذبه علي المديني، وعمر بن موسىٰ هالك، وأخرجه الطبراني (٢٢/٣٢٧) من وجه آخر مختصراً، وقال الهيثمي في المجمع ٥/٣١: فيه محمد بن خالد الكوفي لم أعرفه، وبقية رجاله ثقات، وورد من حديث عبد الله بن عمر أخرجه الترمذي ٢/٧٨ وابن ماجه ٣٣٥٠ وله طرق أُخرىٰ، ولذا صححه الألباني في الصحيحة ٣٤٣.

[٣٠٥٩] مضىٰ برقم ٣٠٥٤.

[٣٠٦٠] «مِن السرف أن تأكل كل ما اشتهيت». رواه أنس بن مالك عن النبيّ ﷺ، خرّجه ابن ماجه في سننه. وقيل: من الإسراف الأكل بعد الشبع. وكذلك ذلك محظور. وقال لقمان لابنه: يا بنيّ لا تأكل شبعاً فوق شبع، فإنك إن تنبذه للكلب خير من أن تأكله. وسأل سَمُرة بن جُنْدُب عن ابنه ما فعل؟ قالوا: بشِم البارحة. قال: بَشم[1]! فقالوا: نعم. قال: أما إنه لو مات ما صليت عليه. وقيل: إن العرب في الجاهلية كانوا لا يأكلون دسماً في أيام حجهم، ويكتفون باليسير من الطعام، ويطوفون عراة. فقيل لهم: ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ﴾ أي لا تسرفوا في تحريم ما لم يحرّم عليكم.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) ﴾.

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ﴾ بيّن أنهم حَرّموا من تلقاء أنفسهم ما لم يحرّمه الله عليهم. والزينة هنا الملبس الحسن، إذا قدر عليه صاحبه. وقيل: جميع الثياب؛ كما روي عن عمر: إذا وسّع الله عليكم فأوسعوا. وقد تقدّم. وروي عن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب شيخ مالك رضي الله عنهم أنه كان يلبس كساء خَزٍّ بخمسين ديناراً، يلبسه في الشتاء، فإذا كان في الصيف تصدّق به، أو باعه فتصدّق بثمنه، وكان يلبَس في الصيف ثوبين من مَتاع مِصر مُمَشَّقَيْن[2] ويقول: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ ﴾.

الثانية: وإذا كان هذا فقد دلّت الآية على لباس الرفيع من الثياب، والتجمُّل بها في الجُمَع والأعياد، وعند لقاء الناس ومزاورة الإخوان. قال أبو العالية: كان المسلمون إذا تزاوَروا تجمّلوا. وفي صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب أنه رأى حُلَّة سِيَرَاء[3] تباع عند باب المسجد، فقال:

[٣٠٦٠] واه بمرة. أخرجه ابن ماجه ٣٣٥٢ وابن الجوزي في الموضوعات ٣/ ٣٠ من حديث أنس، وأعله ابن الجوزي بنوح بن ذكوان ويحيىٰ بن عثمان، وأما البوصيري فأعله بنوح فقط، وقال: متفق على تضنيفه ا هـ.

---

(١) البشم: التخمة.
(٢) ثوب معشق: مصبوغ بالأحمر.
(٣) سِيَرَاء: نوع من البرود فيه خطوط صفر.

[٣٠٦١] يا رسول الله، لو اشتريتها ليوم الجمعة وللوفود إذا قدِموا عليك؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنما يلبس هذا من لا خلاق له في الآخرة». فما أنكر عليه ذكر التجمّل، وإنما أنكر عليه كونها سِيَرَاءَ. وقد اشترى تميم الدّارِي حُلَّة بألف درهم كان يصلي فيها. وكان مالك بن دِينار يلبس الثياب العدَنية الجياد. وكان ثوب أحمد بن حنبل يشترى بنحو الدينار. أين هذا ممن يرغب عنه ويؤثِر لباس الخشن من الكتّان والصوف من الثياب. ويقول: «وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ» هيهات! أترى من ذكرنا تركوا لباس التقوى، لا والله! بل هم أهل التقوى وأولو المعرفة والنُّهَى، وغيرهم أهل دَعْوَى، وقلوبهم خالية من التقوى. قال خالد بن شَوْذَب: شهدت الحسن وأتاه فَرْقَد، فأخذ الحسن بكسائه فمدّه إليه وقال: يا فُرَيْقَد، يأبن أمّ فريقد، إن البِرّ ليس في هذا الكساء، إنما البِرّ ما وَقَرَ في الصدر وصدّقه العمل. ودخل أبو محمد أبن أخي معروف الكرخِيّ على أبي الحسن بن يَسَار وعليه جبة صوف، فقال له أبو الحسن: يا أبا محمد، صوّفت قلبك أو جسمك؟ صوّف قلبك وألبس القُوهِيّ على القُوهِيّ[1] وقال رجل للشّبْليّ: قد ورد جماعة من أصحابك وهم في الجامع، فمضى فرأى عليهم المرقّعات والفُوَط، فأنشأ يقول:

أمّــا الخيــام فــإنهــا كخيــامهــم   وأرى نسـاء الحـيّ غيـر نسـائـه[2]

قال أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله: وأنا أكره لبس الفُوَط والمرقّعات لأربعة أوجه: أحدها: أنه ليس من لبس السلف، وإنما كانوا يرقعون ضرورة. والثاني: أنه يتضمن أدعاء الفقر، وقد أمِر الإنسان أن يظهر أثر نِعَم الله عليه. والثالث: إظهار التزهد؛ وقد أمرنا بستره. والرابع: أنه تشبه بهؤلاء المتزحزحين عن الشريعة. ومن تشبه بقوم فهو منهم. وقال الطبريّ: ولقد أخطأ من آثر لباس الشعر والصوف على لباس القطن والكتان مع وجود السبيل إليه من حلّه. ومَن أكل البقول والعدس وأختاره على خبز البر. ومن ترك أكل اللحم خوفاً من عارض شهوة النساء. وسئل بِشْر بن الحارث عن لبس الصوف، فشق عليه وتبينت الكراهة في وجهه ثم قال: لبس الخَزّ والمعَصْفَر أحب إليّ من لبس الصوف في الأمصار. وقال أبو الفرج: وقد كان السلف يلبسون الثياب المتوسطة، لا المترفعة ولا الدّون، ويتخيّرون أجودها للجمعة والعيد وللقاء الإخوان، ولم يكن تخيّر

[٣٠٦١] صحيح. أخرجه البخاري ٩٤٨ و ٢١٠٤ و ٣٠٥٤ ومسلم ٢٠٦٨ وأبو داود ٤٠٤١ والنسائي ٨/ ٢٠١ وأحمد ٢/ ٥١ وابن حبان ٥١١٣ من حديث ابن عمر عن عمر به.

---

(١) ضرب من الثياب بيض فارس ينسب إلى قهستان.

(٢) لعل الصواب «نسائهم».

الأجود عندهم قبيحاً. وأما اللباس الذي يزري بصاحبه فإنه يتضمن إظهار الزهد وإظهار الفقر، وكأنه لسان شكوى من الله تعالى، ويوجب احتقار اللابس؛ وكل ذلك مكروه مَنْهِيّ عنه. فإن قال قائل: تجويد اللباس هَوَى النفس وقد أُمِرنا بمجاهدتها، وتزيّن للخلق وقد أُمِرنا أن تكون أفعالنا لله لا للخلق. فالجواب ليس كل ما تهواه النفس يُذَمّ، وليس كل ما يُتَزَيّن به للناس يُكره، وإنما يُنْهَى عن ذلك إذا كان الشرع قد نهى عنه أو على وجه الرياء في باب الدِّين. فإن الإنسان يجب[1] أن يُرى جميلاً. وذلك حظ للنفس لا يُلام فيه. ولهذا يسرح شعره وينظر في المرآة ويسوّي عمامته ويلبس بطانة الثوب الخشنة إلى داخل وظهارته الحسنة إلى خارج. وليس في شيء من هذا ما يكره ولا يُذَم. وقد روى مَكْحول عن عائشة قالت: كان نفر من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه على الباب، فخرج يريدهم، وفي الدار رَكْوة فيها ماء؛ فجعل ينظر في الماء ويسوّي لحيته وشعره. فقلت:

[٣٠٦٢] يا رسول الله، وأنت تفعل هذا؟ قال: «نعم إذا خرج الرجل إلى إخوانه فلْيُهَيِّيء من نفسه فإن الله جميل يحب الجمال». وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود عن النبيّ ﷺ قال:

[٣٠٦٣] «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقالُ ذَرّة من كِبر». فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة. قال: «إن الله جميل يحب الجمال الكِبر بَطَر الحق وغَمْطُ الناس». والأحاديث في هذا المعنى كثيرة، تدل كلها على النظافة وحسن الهيئة. وقد روى محمد بن سعد[2] أخبرنا الفضل بن دُكَيْن قال حدّثنا مَنْدل عن ثور عن خالد بن معدان قال: كان رسول الله ﷺ يسافر بالمشط والمرآة والدّهن والسواك والكحل. وعن ابن جريج: مشط عاج يتمشط به. قال ابن سعد: وأخبرنا قَبيصة بن عقبة قال: حدّثنا سفيان عن ربيع بن صَبيح عن يزيد الرّقاشيّ عن أنس بن مالك قال:

[٣٠٦٤] كان رسول الله ﷺ يكثر دهن رأسه ويسرّح لحيته بالماء. أخبرنا يزيد بن هارون حدّثنا عبّاد بن منصور عن عكرمة عن ابن عباس قال:

[٣٠٦٢] أخرجه ابن الجوزي في «تلبيس إبليس» ص ٢٤٨، فيه إرسال، مكحول لم يسمع من عائشة فالإسناد ضعيف.

[٣٠٦٣] صحيح. أخرجه مسلم ٩١ ح١٤٧ وأبو داود ٤٠٩١ والترمذي ١٩٩٨ و ١٩٩٩ وأحمد ١/ ٤١٢ وابن حبان ٢٢٤ واستدركه الحاكم ١/ ٢٦ كلهم من حديث ابن مسعود.

[٣٠٦٤] أخرجه الترمذي في الشمائل ٣٢ من حديث أنس، وإسناده ضعيف لضعف يزيد الرقاشي.

---

(١) لعل الصواب «يحب».

(٢) هو صاحب الطبقات، والحديث مرسل، ابن معدان تابعي، ومع إرساله فيه مِنْدَل بن علي العنزي، ضعفه الحافظ في التقريب.

[٣٠٦٥] كانت لرسول الله ﷺ مُكْحُلة يكتحل بها عند النوم ثلاثاً في كل عين.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ الطيبات اسم عامٌّ لما طاب كَسْباً وطَعْماً. قال ابن عباس وقتادة: يعني بالطيبات من الرزق ما حرّم أهل الجاهلية من البحائر والسوائب والوصائل والحوامي. وقيل: هي كل مستلَذّ من الطعام. وقد ٱختلف في ترك الطيبات والإعراض عن اللذات؛ فقال قوم: ليس ذلك من القُربات، والفعل والترك يستوي في المباحات. وقال آخرون: ليس قُرْبة في ذاته، وإنما هو سبيل إلى الزهد في الدنيا، وقِصر الأمل فيها، وترك التكلف لأجلها؛ وذلك مندوب إليه، والمندوب قُربة. وقال آخرون: ونقل عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله: لو شئنا لاتخذنا صِلاءً وصَلائقَ وصِنَاباً، ولكني سمعت الله تعالى يذمّ أقواماً فقال: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأحقاف: ٢٠]. ويروى «صَرائق» بالراء، وهما جميعاً الجرادق[١]. والصَّلائق (باللام): ما يلصق من اللحوم والبقول. والصِّلاء (بكسر الصاد والمد): الشّواء. والصِّناب: الخردل بالزبيب. وفرق آخرون بين حضور ذلك كله بكُلْفَة وبغير كلفة. قال أبو الحسن علي بن المفضل المقدسي شيخ أشياخنا: وهو الصحيح إن شاء الله عز وجل؛ فإنه لم ينقل عن النبي ﷺ أنه ٱمتنع من طعام لأجل طِيبه قطُّ، بل كان يأكل الحلوى والعسل والبِطّيخ والرطب، وإنما يكره التكلّف لما فيه من التشاغل بشهوات الدنيا عن مهمات الآخرة. والله تعالى أعلم.

قلت: وقد كره بعض الصوفية أكل الطيبات؛ واحتج بقول عمر رضي الله عنه: إياكم واللحم فإن له ضَرَاوَة كضَرَاوَة[٢] الخمر. والجواب أن هذا من عمر قول خرج على من خشي منه إيثار التنعم في الدنيا، والمداومة على الشهوات، وشفاء النفس من اللذات، ونسيان الآخرة والإقبال على الدنيا، ولذلك كان يكتب عمر إلى عماله: إياكم والتنعمَ وزِيّ أهل العجم، وٱخْشَوْشِنوا. ولم يرد رضي الله عنه تحريم شيءٍ أحله الله، ولا تحظير ما أباحه الله تبارك ٱسمه. وقول الله عز وجل أولى ما ٱمتثل وٱعتمد عليه. قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾. وقال عليه السلام:

[٣٠٦٥] أخرجه الترمذي في الشمائل ٤٩ وابن ماجة ٣٤٩٩ من حديث ابن عباس، وفي إسناده عباد بن منصور وهو ضعيف في عكرمة وانظر ضعيف ابن ماجة٧٦٦.

---

(١) جمع جردقة وهي الرغيف.
(٢) أي أن له عادة ينزع إليها كعادة الخمر.

[٣٠٦٦] «سيِّد إدامِ الدنيا والآخرة اللحم». وقد روى هِشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أن النبي ﷺ كان يأكل الطِّبِّيخ بالرطب ويقول:

[٣٠٦٧] «يكسر حر هذا برد هذا وبرد هذا حر هذا». والطِّبِّيخ لغة في البِطِّيخ، وهو من المقلوب. وقد مضى في «المائدة» الردُّ على من آثر أكل الخشن من الطعام. وهذه الآية تردّ عليه وغيرها: والحمد لله.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ يعني بحقها من توحيد الله تعالى والتصديق له؛ فإن الله ينعم ويرزق، فإن وحّده المنعَمُ عليه وصدّقه فقد قام بحق النعمة، وإن كفر فقد أمكن الشيطان من نفسه. وفي صحيح الحديث:

[٣٠٦٨] «لا أحد أصبر على أذى من الله يعافيهم ويرزقهم وهم يدعون له الصاحبة والولد». وتَمَّ الكلام على «الحياة الدنيا». ثم قال «خَالِصَةٌ» بالرفع وهي قراءة ابن عباس ونافع. ﴿خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ أي يُخلِص الله الطيبات في الآخرة للذين آمنوا وليس للمشركين فيها شيء كما كان لهم في الدنيا من الاشتراك فيها. ومجاز الآية: قل هي للذين آمنوا مشتركة في الدنيا مع غيرهم، وهي للمؤمنين خالصةٌ يوم القيامة. فخالصةٌ مستأنف على خبر مبتدأ مضمر. وهذا قول ابن عباس والضحاك والحسن وقتادة والسدّي وابن جريج وابن زيد. وقيل: المعنى أن هذه الطيبات الموجودات في الدنيا هي خالصةٌ يوم القيامة، للمؤمنين في الدنيا؛ وخلوصها أنهم لا يعاقبون عليها ولا يعذبون فقوله: «فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» متعلق «بِآمَنُوا». وإلى هذا يشير تفسير سعيد بن جبير. وقرأ الباقون بالنصب على الحال والقطع؛ لأن الكلام قد تمّ دونه. ولا يجوز الوقف على هذه القراءة على «الدُّنْيَا»؛ لأن ما بعده متعلق بقوله: «لِلَّذِينَ آمَنُوا» حالاً منه؛ بتقدير قل هي ثابتة للذين آمنوا في الحياة الدنيا في حال خلوصها لهم يوم القيامة؛ قاله أبو عليّ. وخبر الابتداء «لِلَّذِينَ آمَنُوا». والعامل في الحال ما في اللام من معنى الفعل في قوله: «لِلَّذِينَ» واختار

[٣٠٦٦] ضعيف جداً. أخرجه ابن ماجه ٣٣٠٥ وابن الجوزي في الموضوعات ٢/٣٠٢ من حديث أبي الدرداء، وأعله البوصيري بضعف سليمان بن عطاء، وقال السندي: قال الترمذي: أتهم بالوضع اهـ وقال ابن الجوزي: يروي أحاديث موضوعة قاله ابن حبان، وكرره ابن الجوزي من حديث ربيعة بن كعب، وأعله بعمرو بن بكر، وأنه يروي الطامات.

[٣٠٦٧] حسن. أخرجه الترمذي ١٨٤٣ والحميدي ٢٥٥ وأبو داود ٣٨٣٦ وابن حبان ٥٢٤٧ من حديث عائشة والسياق لأبي داود وحسنه الترمذي، وله شاهد من حديث أنس أخرجه أحمد ٣/١٤٢ والترمذي في الشمائل ٢٠٠ وابن حبان ٥٢٤٨ وإسناده على شرطهما وانظر «الصحيحة» ٣٢٤٩.

[٣٠٦٨] صحيح. أخرجه البخاري ٦٠٩٩ و ٧٣٧٨ ومسلم ٢٨٠٤ وأحمد ٤/٣٩٥ من حديث أبي موسىٰ.

سيبويه النصب لتقدم الظرف. ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ أي كالذي فصّلت لكم الحلال والحرام أفصِّل لكم ما تحتاجون إليه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

فيه مسألة واحدة:

قال الكلبي: لما لبس المسلمون الثياب وطافوا بالبيت عَيَّرهم المشركون؛ فنزلت هذه الآية. والفواحش: الأعمال المُفْرِطة في القبح، ما ظهر منها وما بطن. وروى رَوح بن عُبادة عن زكريا بن إسحاق عن ٱبن أبي نَجيح عن مجاهد قال: «مَا ظَهَرَ مِنْهَا» نكاح الأمهات في الجاهلية «وَمَا بَطَنَ» الزنى. وقال قتادة: سرّها وعلانيتها. وهذا فيه نظر؛ فإنه ذكر الإثم والبغي فدلّ أن المراد بالفواحش بعضها، وإذا كان كذلك فالظاهر من الفواحش الزنى. والله أعلم. ﴿وَٱلْإِثْمَ﴾ قال الحسن: الخمر. قال الشاعر:

شربتُ الإثمَ حتى ضلّ عقلي ... كذاك الإثمُ تذهبُ بالعقول

وقال آخر:

نشرب الإثم بالصِّوَاع جِهارا ... وترى المسك بيننا مُستعارا[1]

﴿وَٱلْبَغْيَ﴾ الظلم وتجاوز الحدّ فيه. وقد تقدّم. وقال ثعلب: البغي أن يقع الرجل في الرجل فيتكلم فيه، ويبغِي عليه بغير الحق؛ إلا أن ينتصر منه بحق. وأخرج الإثم والبغي من الفواحش وهما منه لعظمهما وفحشهما؛ فنصّ على ذكرهما تأكيداً لأمرهما وقصداً للزجر عنهما. وكذا ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟﴾ ﴿وَأَن تَقُولُوا۟﴾ وهما في موضع نصب عطفاً على ما قبْلُ. وقد أنكر جماعة أن يكون الإثم بمعنى الخمر. قال الفرّاء الإثم ما دون الحدّ والاستطالة على الناس. قال النحاس: فأما أن يكون الإثم الخمر فلا يعرف ذلك، وحقيقة الإثم أنه جميع المعاصي؛ كما قال الشاعر:

إنّي وجدتُ الأمرَ أرشَدُه ... تقْوَى الإلهِ وشرُّه الإثْمُ

قلت: وأنكره ٱبن العربيّ أيضاً وقال: «ولا حجة في البيت»[2]؛ لأنه لو قال: شربت الذنب أو شربت الوِزر لكان كذلك، ولم يوجب قوله أن يكون الذنب والوزر ٱسماً

---

(١) الصّواع: إناء يشرب فيه. وذكر في سورة يوسف على أنه مكيال.

(٢) يريد به البيت الأول.

من أسماء الخمر كذلك الإثم. والذي أوجب التكلم بمثل هذا الجهلُ باللغة وبطريق الأدلة في المعاني».

قلت: وقد ذكرناه عن الحسن. وقال الجوهريّ في الصحاح: وقد يسمى الخمر إثماً، وأنشد:

* شربت الإثم. . . . . . * البيت

وأنشده الهروِيّ في غريبيه، على أن الخمر الإثم. فلا يبعد أن يكون الإثم يقع على جميع المعاصي وعلى الخمر أيضاً لغةً، فلا تناقض. والبغي: التجاوز في الظلم، وقيل: الفساد.

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

فيه مسألة واحدة:

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ أي وقت مؤقت. ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ أي الوقت المعلوم عند الله عز وجل. وقرأ ابن سيرين «جاء آجالهم» بالجمع ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ عنه ساعة ولا أقل من ساعة؛ إلا أن الساعة خصت بالذكر لأنها أقل أسماء الأوقات، وهي ظرف زمان. ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ فدل بهذا على أن المقتول إنما يقتل بأجله. وأجل الموت هو وقت الموت؛ كما أن أجل الدَّين هو وقت حلوله. وكل شيء وُقِّت به شيء فهو أجل له. وأجل الإنسان هو الوقت الذي يعلم الله أنه يموت الحيّ فيه لا محالة. وهو وقت لا يجوز تأخير موته عنه، لا من حيث إنه ليس مقدوراً تأخيرُه. وقال كثير من المعتزلة إلا من شذّ منهم: إن المقتول مات بغير أجله الذي ضُرب له، وأنه لو لم يقتل لحييَ. وهذا غلط، لأن المقتول لم يمت من أجل قتل غيره له، بل من أجل ما فعله الله من إزهاق نفسه عند الضرب له. فإن قيل: فإن مات بأجله فلِم تقتلون ضاربه وتقتصون منه؟. قيل له: نقتله لتعدّيه وتصرفه فيما ليس له أن يتصرف فيه، لا لموته وخروج الروح إذ ليس ذلك من فعله. ولو ترك الناس والتعدّي من غير قصاص لأدّى ذلك إلى الفساد ودَمار العباد. وهذا واضح.

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ شرط. ودخلت النون توكيداً لدخول

«ما». وقيل: ما صلة، أي إن يأتكم. أخبر أنه يرسل إليهم الرسل منهم لتكون إجابتهم أقرب. والقصص إتباع الحديث بعضه بعضاً. ﴿ءَايَٰتِي﴾ أي فرائضي وأحكامي.

﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ﴾ شرط، وما بعده جوابه، وهو جواب الأوّل. أي وأصلح منكم ما بيني وبينه. ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٣٥﴾ دليل على أن المؤمنين يوم القيامة لا يخافون ولا يحزنون، ولا يلحقهم رعب ولا فزع. وقيل: قد يلحقهم أهوال يوم القيامة، ولكن مآلهم الأمن. وقيل: جواب ﴿إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ ما دلّ عليه الكلام، أي فأطيعوهم ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ﴾ والقول الأوّل قول الزجاج.

قوله تعالى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ۝٣٧﴾.

قوله تعالى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ﴾ المعنى أيّ ظلم أشنع من الافتراء على الله تعالى والتكذيب بآياته. ثم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ﴾ أي ما كتب لهم من رزق وعمر وعمل؛ عن ابن زيد. ابن جُبَيْر: من شقاء وسعادة. ابن عباس: من خير وشر. الحسن وأبو صالح: من العذاب بقدر كفرهم. واختيار الطبري أن يكون المعنى: ما كتب لهم، أي ما قدر لهم من خير وشر ورزق وعمل وأجل؛ على ما تقدّم عن ابن زيد وابن عباس وابن جبير. قال: ألا ترى أنه أتبع ذلك بقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ﴾ يعني رسل ملك الموت. وقيل: «الْكِتَاب» هنا القرآن؛ لأن عذاب الكفار مذكور فيه. وقيل: «الكتاب» اللوح المحفوظ. ذكر الحسن بن عليّ الحُلْوَانيّ قال: أَمْلَى عليّ عَلِيُّ بن المدِيني قال: سألت عبد الرحمن بن مَهْدِيّ عن القَدَر فقال لي: كل شيء بقدر، والطاعة والمعصية بقدر، وقد أعظم الفِرية من قال: إن المعاصي ليست بقدر. قال عليّ وقال لي عبد الرحمن بن مهدي: العلم والقدر والكتاب سواء. ثم عرضت كلام عبد الرحمن بن مَهدِيّ على يحيى بن سعيد فقال: لم يبق بعد هذا قليل ولا كثير. وروى يحيى بن مَعِين حدّثنا مَرْوَان الفزارِيّ حدّثنا إسماعيل بن سميع عن بُكير الطويل عن مجاهد عن ابن عباس «أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ» قال: قوم يعملون أعمالاً لا بدّ لهم من أن يعملوها. و«حَتّى» ليست غاية، بل هي ابتداء خبر عنهم. قال الخليل وسيبويه: حتى وإمّا وألاَ لا يُمَلْنَ لأنهن حروف ففَرْقٌ بينها وبين الأسماء نحو حُبْلى وسَكْرَى. قال الزجاج: تكتب حتى بالياء لأنها أشبهت سكرى، ولو كتبت ألاَ بالياء لأشبهت إلَى. ولم تكتب إمّا بالياء لأنها «إنْ» ضُمت إليها

ما. ﴿قَالُوٓا۟ أَيْنَمَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ سؤال توبيخ. ومعنى «تَدْعُونَ» تعبدون. ﴿قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾ أي بطلوا وذهبوا. قيل: يكون هذا في الآخرة. ﴿وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ أي أقرّوا بالكفر على أنفسهم.

قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾ أي مع أممٍ؛ فـ«ـفِي» بمعنىٰ مع. وهذا لا يمتنع؛ لأن قولك: زيد في القوم، أي مع القوم وقيل: هي على بابها. أي ادخلوا في جملتهم. والقائل قيل: هو الله عز وجل، أي قال الله ادخلوا. وقيل: هو مالك خازن النار. ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾أي التي سبقتها إلى النار، وهي أختها في الدين والملة. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا﴾ أي اجتمعوا. وقرأ الأعمش «تداركوا» وهو الأصل، ثم وقع الإدغام فاحتيج إلى ألف الوصل. وحكاه المهدوي عن ابن مسعود. النحاس: وقرأ ابن مسعود «حتىٰ إذا ادّرَكوا» [1]أي أدرك بعضهم بعضاً. وعِصْمَةُ عن أبي عمرو «حتى إذا اْدّاركوا» بإثبات الألف على الجمع بين الساكنين. وحكى: هذان عبدا الله. وله ثلثا المال. وعن أبي عمرو أيضاً: «إذا إداركوا» بقطع ألف الوصل؛ فكأنّه سكت على «إذا» للتذكُّر، فلما طال سكوته قطع ألف الوصل كالمبتدىء بها. وقد جاء في الشعر قطع ألف الوصل نحو قوله:

يا نفسُ صبراً كلُّ حيّ لاقي ... وكلُّ إثنين إلى افتراق

وعن مجاهد وحُميد بن قيس «حتى إذ ادركوا» بحذف ألف «إذا» لالتقاء الساكنين، وحذف الألف التي بعد الدال. «جَمِيعاً» نصب على الحال. ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ﴾ أي آخرهم دخولاً وهم الأتباع لأولاهم وهم القادة. ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ فاللام في «لأولاهم» لام أجل؛ لأنهم لم يخاطبوا أولاهم ولكن قالوا في حق أولاهم ربنا هؤلاء أضلونا. والضِّعف المثل الزائد على مثله مرة أو مرات. وعن ابن مسعود أن الضِّعف هاهنا الأفاعي والحيات. ونظير هذه الآية ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب: ٦٨]. وهناك يأتي ذكر الضِّعف بأشبع من هذا

---

(١) لعل الصواب «ادَّرَكوا» كما في «تفسير الشوكاني» ٢/ ٢٣٢.

وما يترتب عليه من الأحكام، إن شاء الله تعالىٰ. ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ أي للتابع والمتبوع. ﴿وَلَٰكِنْ لَاَ يَعْلَمُونَ﴾ على قراءة من قرأ بالياء؛ أي لا يعلم كل فريق ما بالفريق الآخر، إذ لو علم بعض من في النار أن عذاب أحد فوق عذابه لكان نوع سلوة له. وقيل: المعنى ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ بالتاء، أي ولكن لا تعلمون أيها المخاطبون ما يجدون من العذاب. ويجوز أن يكون المعنى ولكن لا تعلمون يا أهل الدنيا مقدار ما هم فيه من العذاب. ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ أي قد كفرتم وفعلتم كما فعلنا، فليس تستحقون تخفيفاً من العذاب ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي لأرواحهم. جاءت بذلك أخبار صحاح ذكرناها في كتاب (التذكرة). منها حديث البراء بن عازب، وفيه في قبض روح الكافر قال:

[٣٠٦٩] ويخرج منها ريح كأنتن جِيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرّون على ملإٍ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة. فيقولون فلان بن فلان، بأقبح أسمائه التي كان يسمىٰ بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا فيستفتِحون فلا يفتح لهم، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ الآية. وقيل: لا تفتح لهم أبواب السماء إذا دعوا؛ قاله مجاهد والنخعي. وقيل: المعنىٰ لا تفتح لهم أبواب الجنة لأن الجنة في السماء. ودل على ذلك قوله: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ والجمل لا يلج فلا يدخلونها ألْبَتَّة. وهذا دليل قطعيّ لا يجوز العفو عنهم. وعلى هذا أجمع المسلمون الذين لا يجوز عليهم الخطأ أن الله سبحانه وتعالىٰ لا يغفر لهم ولا لأحد منهم. قال القاضي أبو بكر بن الطيب: فإن قال قائل كيف يكون هذا إجماعاً من الأمة؟ وقد زعم قوم من المتكلمين بأن مقلِّدة اليهود والنصارىٰ وغيرهم من أهل الكفر ليسوا في النار. قيل له: هؤلاء قوم أنكروا أن يكون المقلِّد كافراً لشبهة دخلت عليهم، ولم يزعموا أن المقلد كافر وأنه مع ذلك ليس في النار، والعلم بأن المقلد كافر أو غير كافر طريقه النظر دون التوقيف والخبر. وقرأ حمزة والكسائي «لاَ يُفَتَّحُ» بالياء

[٣٠٦٩] أخرجه ابن ماجة ٤٢٦٢ وأحمد ٢/ ٦٤ ـ ٢٨٨ ـ٢٩٦ من حديث أبي هريرة، بنحوه ورجاله كلهم ثقات معروفون، وتقدم. وانظر صحيح ابن ماجة ٣٤٣٧.

مضمومة على تذكير الجمع. وقرأ الباقون بالتاء على تأنيث الجماعة؛ كما قال: ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ۝﴾ [صۤ: ٥٠] فأنث. ولما كان التأنيث في الأبواب غير حقيقي جاز تذكير الجمع. وهي قراءة ابن عباس بالياء. وخفف أبو عمرو وحمزة والكسائي، على معنىٰ أن التخفيف يكون للقليل والكثير، والتشديد للتكثير والتكرير مرة بعد مرة لا غير، والتشديد هنا أولىٰ لأنه على الكثير أدل. والجَمَلُ من الإبل. قال الفرّاء: الجمل زوج الناقة. وكذا قال عبد الله بن مسعود لما سئل عن الجمل فقال: هو زوج الناقة؛ كأنه استجهل من سأله عما يعرفه الناس جميعاً. والجمع جِمَالٌ وأجمال وجمالات وجمائل. وإنما يُسمىٰ جملاً إذا أرْبعَ. وفي قراءة عبد الله: «حتى يلج الجمل الأصفر في سم الخياط». ذكره أبو بكر الأنباري حدّثنا أبي حدّثنا نصر بن داود حدّثنا أبو عبيد حدّثنا حجاج عن ابن جريج عن ابن كثير عن مجاهد قال في قراءة عبد الله...؛ فذكره. وقرأ ابن عباس «الجُمَّل» بضم الجيم وفتح الميم وتشديدها. وهو حبل السفينة الذي يقال له القلْس، وهو حبال مجموعة، جمع جملة؛ قاله أحمد بن يحيىٰ ثعلب. وقيل: الحبل الغليظ من القنّب. وقيل: الحبل الذي يصعد به في النخل. ورویٰ عنه أيضاً وعن سعيد بن جبير: «الجُمل» بضم الجيم وتخفيف الميم هو القلْس أيضاً والحبل، على ما ذكرنا آنفا. وروىٰ عنه أيضاً «الجُمُل» بضمتين جمع جمل؛ كأسد وأُسُد، والجُمْل مثل أسد وأُسْد. وعن أبي السمال «الجَمْل» بفتح الجيم وسكون الميم، وتخفيف «جمل». وسَمُّ الخياط: ثقب الإبرة؛ عن ابن عباس وغيره. وكل ثقب لطيف في البدن يسمىٰ سَمّاً وسُمّاً وجمعه سُموم. وجمع السُّم القاتل سِمَام. وقرأ ابن سِيرين «في سُمِّ» بضم السين. والخياط: ما يخاط به؛ يقال: خِياط ومخيط؛ مثل إزارٍ ومئزر وقناع ومقنع. والمِهَادُ: الفِراش. وغَواشٍ جمع غاشية، أي نيران تغشاهم. ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝﴾ يعني الكفار. والله أعلم.

قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ كلام معترض. أي والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون. ومعنىٰ ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ أي أنه لم يكلف أحداً من نفقات الزوجات إلا ما وجد وتمكن منه، دون ما لا تناله يده، ولم يرد إثبات الاستطاعة قبل الفعل؛ قاله ابن الطيب. نظيره ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق: ٧].

قوله تعالىٰ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى

هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

ذكر الله عز وجل فيما ينعم به على أهل الجنة نزع الغُلِّ من صدورهم. والنزع: الاستخراج. والغِل: الحقد الكامن في الصدر. والجمع غِلال. أي أذهبنا في الجنة ما كان في قلوبهم من الغِل في الدنيا. قال النبيّ ﷺ:

[٣٠٧٠] «الغل على باب الجنة كمَبَارك الإبل قد نزعه الله من قلوب المؤمنين».

وروي عن عليّ رضي الله عنه أنه قال: أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله تعالىٰ فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾. وقيل: نزع الغل في الجنة ألا يحسد بعضهم بعضاً في تفاضل منازلهم. وقد قيل إن ذلك يكون عن شراب الجنة، ولهذا قال: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾﴾[الإنسان: ٢١] أي يطهر الأوضَار[1] من الصدور، على ما يأتي بيانه في سورة «الإنْسَانِ» و «الزُّمَر» إن شاء الله تعالىٰ. ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ أي لـهـذا الثواب؛ بأن أرشدنا وخلق لنا الهداية. وهذا ردّ على القدرية. ﴿وَمَا كُنَّا﴾ قراءة ابن عامر بإسقاط الواو. والباقون بإثباتها. ﴿لِنَهْتَدِيَ﴾ لام كي. ﴿لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ في موضع رفع. ﴿وَنُودُوٓا۟﴾ أصله. نودِيوا ﴿أَن﴾ في موضع نصب مخففة من الثقيلة؛ أي بأنه ﴿تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ﴾. وقد تكون تفسيراً لما نودوا به؛ لأنَّ النداء قول؛ فلا يكون لها موضع. أي قيل لهم: «تِلْكُمُ الْجَنَّةُ» لأنهم وعدوا بها في الدنيا، أي قيل لهم: هذه تلكم الجنة التي وعدتم بها، أو يقال لهم ذلك قبل الدخول حين عاينوها من بعد. وقيل: «تِلْكُمُ» بمعنىٰ هذه. ومعنىٰ ﴿أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ أي ورثتم منازلها بعملكم، ودخولكم إياها برحمة الله وفضله. كما قال ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٠﴾ وقال: ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ﴾ [النساء: ١٧٥]. وفي صحيح مسلم:

[٣٠٧١] «لن يُدخل أحداً منكم عَمَلُه الجنة» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل». وفي غير الصحيح:

[٣٠٧٠] لم أجده بهذا اللفظ. وذكر السيوطي في الدر المنثور ٣/١٥٨ ـ و ٤/١٨٨ ـ ١٨٩ أحاديث كثيرة بمعناه.

[٣٠٧١] صحيح. أخرجه البخاري ٦٤٦٣ ومسلم ٢٨١٦ وابن ماجه ٤٢٠١ وأحمد ٢/٣٨٦ وابن حبان ٣٤٨ من حديث أبي هريرة، وكرره مسلم ٢٨١٧ من حديث جابر و٢٨١٨ من حديث عائشة، وله شواهد فهو حديث مشهور.

---

(١) الوَضَر: وسخ الدسم والبن اهـ قاموس.

[٣٠٧٢] ليس من كافر ولا مؤمن إلا وله في الجنة والنار منزل؛ فإذا دخل أهل الجنة الجنة وأهلُ النار النارَ رُفعت الجنة لأهل النار فنظروا إلى منازلهم فيها، فقيل لهم: هذه منازلكم لو عملتم بطاعة الله. ثم يقال: يا أهل الجنة رِثُوهم بما كنتم تعملون؛ فتقسم بين أهل الجنة منازلهم.

قلت: وفي صحيح مسلم:

[٣٠٧٣] «لا يموت رجل مسلم إلا أدخل الله مكانه في النار يهودياً أو نصرانياً». فهذا أيضاً ميراث؛ نَعَّمَ بفضله من شاء وعذب بعدله من شاء. وبالجملة فالجنة ومنازلها لا تُنال إلا برحمته؛ فإذا دخلوها بأعمالهم فقد ورثوها برحمته، ودخلوها برحمته، إذ أعمالهم رحمة منه لهم وتفضل عليهم. وقِرِىء «أُورِثْتُمُوهَا» من غير إدغام. وقرىء بإدغام التاء في الثاء.

قوله تعالىٰ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ هذا سؤال تقريع وتعيير. ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا﴾ مثل «أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ» أي أنه قد وجدنا. وقيل: هو نفس النداء. ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ﴾ أي نادىٰ وصوت، يعني من الملائكة. «بَيْنَهُمْ» ظرف، كما تقول: أَعْلَم وسطهم. وقرأ والكسائي «نَعِم» بكسر العين. وتجوز على هذه اللغة بإسكان العين. قال مكيّ: من قال «نعِم» بكسر العين أراد أن يفرق بين «نَعَم» التي هي جواب وبين «نعم» التي هي اسم للإبل والبقر والغنم. وقد روي عن عمر إنكار «نعَم» بفتح العين في الجواب، وقال: قل نَعِم. ونَعَم ونَعِم؛ لغتان بمعنىٰ العِدَة والتصديق. فالعدة إذا استفهمت عن موجب نحو قولك: أيقوم زيد؟ فيقول نعم. والتصديق إذا أخبرت عما وقع، تقول: قد كان كذا وكذا، فيقول نعم. فإذا استفهمت عن منفيّ فالجواب بلىٰ نحو قولك ألم أكرمك، فيقول بلىٰ. فنعم، لجواب الاستفهام الداخل على الإيجاب كما في هذه الآية. وبلىٰ، لجواب الاستفهام الداخل على النفي؛ كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. وقرأ البَزِّي وابن عامر وحمزة والكِسائيّ «أنّ لعنة الله» وهو الأصل. وقرأ الباقون

[٣٠٧٢] ليس بمرفوع، أخرجه الطبري ١٤٦٧٣ وأبو الشيخ كما في «الدر» ٣/ ١٥٩ عن السدي من قوله. ولصدره شاهد عند ابن ماجة. ٤٣٤١.

[٣٠٧٣] صحيح. أخرجه مسلم ٢٧٦٧ والطيالسي ٤٩٩ وابن حبان ٦٣٠ من حديث أبي موسى. وانظر شرح هذا الحديث للنووي على صحيح مسلم.

بتخفيف «أن» ورفع اللعنة على الابتداء. فـ «أن» في موضع نصب على القراءتين على إسقاط الخافض. ويجوز في المخففة ألا يكون لها موضع من الإعراب. وتكون مفسرة كما تقدّم. وحكي عن الأعمش أنه قرأ «إن لعنة الله» بكسر الهمزة؛ فهذا على إضمار القول كما قرأ الكوفيون ﴿فَنَادَاهُ[1] الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمحرَابِ إنَّ اللهَ﴾ ويُروىٰ أن طاووساً دخل على هشام بن عبد الملك فقال له: اتق الله واحذر يوم الأذان. فقال: وما يوم الأذان؟ قال: قوله تعالىٰ: ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ فصعق هشام. فقال طاووس: هذا ذُل الصفة فكيف ذل المعاينة.

قوله تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ في موضع خفض لـ «الظالمين» على النعت. ويجوز الرفع والنصب على إضمارَهُمْ أو أعني. أي الذين كانوا يصدون في الدنيا الناس عن الإسلام. فهو من الصدّ الذي هو المنع. أو يصدون بأنفسهم عن سبيل الله أي يعرضون. وهذا من الصدود. ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ يطلبون اعوجاجها ويذمونها فلا يؤمنون بها. وقد مضىٰ هذا المعنى. ﴿ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ أي وكانوا بها كافرين. فحذف وهو كثير في الكلام.

قوله تعالىٰ: ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

قوله تعالىٰ: ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ﴾ أي بين النار والجنة ـ لأنه جرىٰ ذكرهما ـ حاجز؛ أي سُورٌ. وهو السور الذي ذكره الله في قوله: ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ ﴾ [الحديد: ١٣]. ﴿ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ ﴾ أي على أعراف السور؛ وهي شُرَفُه. ومنه عُرف الفرس وعُرف الديك. روى عبد الله بن أبي يزيد عن ابن عباس أنه قال: الأعراف الشيء المُشْرِف. وروى مجاهد عن ابن عباس أنه قال: الأعراف سور له عُرف كَعُرف الديك. والأعراف في اللغة: المكان المُشْرف؛ جمع عُرْف. قال يحيىٰ بن آدم: سألت الكسائيّ عن واحد الأعراف فسكت، فقلت: حدثنا إسرائيل عن جابر عن مجاهد عن ابن عباس قال: الأعراف سور له عرف كعرف الدّيك. فقال: نعم والله، واحده يعني، وجماعته أعراف، يا غلام، هات القرطاس؛ فكتبه. وهذا الكلام خرج مخرج المدح؛ كما قال فيه:

---

(١) قراءة حمزة والكسائي.

﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٣٧] وقد تكلم العلماء في أصحاب الأعراف على عشرة أقوال: فقال عبد الله بن مسعود وحُذيفة بن اليمان وابن عباس والشعبيّ والضحاك وابن جُبير: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم. قال ابن عطية: وفي مسند خيثمة بن سليمان (في آخر الجزء الخامس عشر) حديث عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ:

[٣٠٧٤] «تُوضع الموازين يوم القيامة فتُوزن الحسنات والسيئات فمن رجحت حسناته على سيئاته مثقال صُؤابة[1] دخل الجنة ومن رجحت سيئاته على حسناته مثقال صؤابة دخل النار». قيل: يا رسول الله، فمن ٱستوت حسناته وسيئاته؟ قال: «أولئك أصحاب الأعراف لم يدخلوها وهم يطمعون». وقال مجاهد: هم قوم صالحون فقهاء علماء. وقيل: هم الشهداء؛ ذكره المَهْدويّ. وقال القشيريّ: وقيل هم فضلاء المؤمنين والشهداء، فرغوا من شغل أنفسهم، وتفرغوا لمطالعة حال الناس؛ فإذا رأوا أصحاب النار تعوّذوا بالله أن يُرَدّوا إلى النار، فإن في قدرة الله كل شيء، وخلاف المعلوم مقدور. فإذا رأوا أهل الجنة وهم لم يدخلوها بعدُ يرجون لهم دخولها. وقال شَرَحْبيل بن سعد: هم المستشهِدون في سبيل الله الذين خرجوا عصاة لآبائهم. وذكر الطبري في ذلك حديثاً عن النبيّ ﷺ:

[٣٠٧٥] وأنه تعادل عُقوقهم واستشهادهم. وذكر الثعلبيّ بإسناده عن ابن عباس في قوله عز وجل: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ قال[2]: الأعراف موضع عالٍ على الصراط، عليه العباس وحمزة وعليّ بن أبي طالب وجعفر ذو الجناحين، رضي الله عنهم، يعرفون

[٣٠٧٤] ضعيف. أخرجه أبو الشيخ وابن مردويه وابن عساكر كما في الدر المنثور ٣/ ١٦٢ من حديث جابر، وفيه أبو عباد مجهول، وعبد الله بن محمد بن عقيل صنفه يحيى وغيره، وقد استغربه ابن كثير في تفسيره ٢/ ٢٢٥ و ٢٢٦ بعد أن عزاه لابن مردويه، ورجح وقفه.

[٣٠٧٥] ضعيف. أخرجه الطبري ١٤٧١٢ و ١٤٧١٣ من طريقين عن عبد الرحمن المزني، وإسناده ضعيف، الطريق الأول فيه ثلاثة مجاهيل، والثاني فيه يحيى بن شبل لا يعرف كما في الميزان، وفيه نجيح أبو معشر ضعفه غير واحد، ورجح ابن كثير في تفسيره ٢/ ٢٢٦ الوقف ولفظ الحديث «سئل رسول الله ﷺ» عن أصحاب الأعراف، فقال: «قوم قتلوا في سبيل الله بمعصية آبائهم، فمنعهم قتلهم في سبيل الله عن النار، ومنعتهم معصية آبائهم أن يدخلوا الجنة».

---

(١) الصُّؤابة: بيضة القملة.

(٢) تفرد به الثعلبي ولا يصح عن ابن عباس مثل هذا، والحمل فيه على الثعلبي، فإنه يروي الموضوعات.

محبِّيهم ببياض الوجوه ومُبْغضيهم بسواد الوجوه. وحكى الزَّهرَاوِي أنهم عدول القيامة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم، وهم في كل أمة. وأختار هذا القول النحاس، وقال: وهو من أحسن ما قيل فيه؛ فهم على السور بين الجنة والنار، وقال الزجاج: هم قوم أنبياء[1] وقيل: هم قوم كانت لهم صغائر لم تكفر عنهم بالآلام والمصائب في الدنيا وليست لهم كبائر فيحبسون عن الجنة لينالهم بذلك غَمٌّ فيقع في مقابلة صغائرهم. وتمنىَّ سالم مولىٰ أبي حُذيفة أن يكون من أصحاب الأعراف؛ لأن مذهبه أنهم مذنبون. وقيل: هم أولاد الزِّنَىٰ؛ ذكره القُشَيريّ عن ابن عباس. وقيل: هم ملائكة موكَّلون بهذا السور، يميِّزون الكافرين من المؤمنين قبل إدخالهم الجنة والنار؛ ذكره أبو مجلز. فقيل له: لا يقال للملائكة رجال؟ فقال: إنهم ذكور وليسوا بإناث، فلا يبعد إيقاع لفظ الرجال عليهم ـ؛ كما أوقع على الجنّ في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ٦]. فهؤلاء الملائكة يعرفون المؤمنين بعلاماتهم والكفار بعلاماتهم؛ فيبشِّرون المؤمنين قبل دخولهم الجنة وهم لم يدخلوها بعدُ فيطمعون فيها. وإذا رأوا أهل النار دَعَوْا لأنفسهم بالسلامة من العذاب. قال ابن عطية: واللازم من الآية أن على الأعراف رجالاً من أهل الجنة يتأخر دخولهم ويقع لهم ما وُصف من الاعتبار في الفريقين. و ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ﴾ أي بعلاماتهم، وهي بياض الوجوه وحسنُها في أهل الجنة، وسوادُها وقبحها في أهل النار، إلى غير ذلك من معرفة حَيِّز هؤلاء وحيز هؤلاء.

قلت: فوقف عن التعيين لاضطراب الأثر والتفصيل، والله بحقائق الأمور عليم. ثم قيل: الأعراف جمع عُرْف وهو كل عالٍ مرتفع؛ لأنه بظهوره أعرف من المنخفض. قال أبن عباس: الأعراف شُرَف الصراط. وقيل: هو جبل أُحُد يوضع هناك. قال ابن عطية: وذكر الزَّهْرَاوِيّ حديثاً أن رسول الله ﷺ قال:

[٣٠٧٦] «إن أُحُداً جبل يُحبُّنا ونُحبّه وإنه يوم القيامة يمثّل بين الجنة والنار يُحبس عليه أقوام يعرفون كلاًّ بسيماهم هُمُ إن شاء الله من أهل الجنة». وذكر حديثاً آخر عن صَفْوان بن سُلَيم أن النبيّ ﷺ قال:

[٣٠٧٧] «إن أُحُداً على ركن من أركان الجنة».

[٣٠٧٦] هو معضل: ولم أجده بهذا اللفظ مسنداً، وصدره عند البخاري ١٨٧٢ و٤٤٢٢ ومسلم ١٣٩٢ من حديث أبي حميد الساعدي في أثناء خبر مطول وفيه «فلما رأىٰ أحداً. قال: هذا جبل يحبنا ونحبه».

[٣٠٧٧] ضعيف، أخرجه أبو يعلىٰ ٧٥١٦ والطبراني في الكبير ٥٨١٣ وابن الجوزي في الموضوعات ١/١٤٨ من حديث سهل بن سعد، وأعله بعبد الله والد علي المديني وأنه متروك، وضعفه الهيثمي في المجمع ٥٩١١.

---

(١) هذا باطل معارض بظاهر الآيات الكريمة.

قلت: وذكر أبو عمر عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال:

[٣٠٧٨] «أُحد جبل يحبنا ونحبه وإنه لعلىٰ تُرْعة من تُرع الجنة».

قوله تعالىٰ: ﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ أي نادىٰ أصحابُ الأعراف أصحابَ الجنة. ﴿أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي قالوا لهم سلام عليكم. وقيل: المعنى سلمتم من العقوبة. ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ أي لم يدخل الجنة أصحاب الأعراف، أي لم يدخلوها بعدُ. «وَهُمْ يَطْمَعون» على هذا التأويل بمعنىٰ وهم يعلمون أنهم يدخلونها. وذلك معروف في اللغة أن يكون طَمِع بمعنىٰ عَلِم؛ ذكره النحاس: وهذا قول ابن مسعود وابن عباس وغيرهما، أن المراد أصحاب الأعراف. وقال أبو مجلز: هم أهل الجنة، أي قال لهم أصحاب الأعراف سلام عليكم وأهل الجنة لم يدخلوا الجنة بعدُ وهم يطمعون في دخولها للمؤمنين المارِّين على أصحاب الأعراف. والوقف على قوله: «سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ». وعلى قوله: «لَمْ يَدْخُلُوهَا». ثم يبتدىء «وَهُمْ يَطْمَعُونَ» على معنىٰ وهم يطمعون في دخولها. ويجوز (أن) يكون «وَهُمْ يَطْمَعُونَ» حالاً، ويكون المعنىٰ: لم يدخلها المؤمنون المارّون على أصحاب الأعراف طامعين، وإنما دخلوها غير طامعين في دخولها؛ فلا يوقف على «لم يدخلوها».

قوله تعالىٰ: ﴿۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ أي جهة اللقاء وهي جهة المقابلة. ولم يأت مصدر على تِفْعال غيرُ حرفين: تِلقاء وتِبيان. والباقي بالفتح؛ مثل تَسْيار وتَهمام وتَذكار. وأما الاسم بالكسر فيه فكثير؛ مثل تِقصار وتِمثال. ﴿قَالُوا﴾ أي قال أصحاب الأعراف. ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ سألوا الله ألاّ يجعلهم معهم، وقد علموا أنه لا يجعلهم معهم. فهذا على سبيل التذلّل؛ كما يقول أهل الجنة: ﴿رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ [التحريم: ٨] ويقولون: الحمد لله. على سبيل الشكر لله عز وجل. ولهم في ذلك لَذّةٌ.

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

[٣٠٧٨] ضعيف، أخرجه ابن ماجه ٣١١٥ من حديث أنس وقال البوصيري: ابن إسحاق مدلس وقد عنعنه، وشيخه عبد الله بن مكنف. قال البخاري: في حديثه نظر اهـ وقال الذهبي في الميزان: ابن مكنف مجهول. وانظر الضعيفة ١٨٢٠.

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ أي من أهل النار. ﴿قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ أي للدنيا وٱستكباركم عن الإيمان. ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ﴾ إشارة إلى قوم من المؤمنين الفقراء؛ كبلال وسَلْمان وخَبَّاب وغيرهم. ﴿أَقْسَمْتُمْ﴾ في الدنيا. ﴿لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ﴾ في الآخرة. ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ يوبخونهم بذلك. وزيدوا غَمًّا وحسرة بأن قالوا لهم ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ وقرأ عكرمة «دخلوا الجنة» بغير ألف والدال مفتوحة. وقرأ طلحة بن مُصَرِّف «أُدخِلوا الجنة» بكسر الخاء على أنه فعل ماض[1].

ودلّت الآية على أن أصحاب الأعراف ملائكة أو أنبياء؛ فإن قولهم ذلك إخبار عن الله تعالى ومن جعل أصحاب الأعراف المذنبين كان آخر قولهم لأصحاب النار ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾، ويكون «أَهَؤُلاَءِ الَّذِينَ» إلى آخر الآية من قول الله تعالى لأهل النار توبيخاً لهم على ما كان من قولهم في الدنيا. وروي عن ابن عباس، والأوّل عن الحسن. وقيل: هو من كلام الملائكة الموكلين بأصحاب الأعراف؛ فإن أهل النار يحلفون أن أصحاب الأعراف يدخلون معهم النار فتقول الملائكة لأصحاب الأعراف: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ﴾ قيل: إذا صار أهل الأعراف إلى الجنة طمع أهل النار فقالوا: يا رَبَّنَا إن لنا قرابات في الجنة فأْذن لنا حتى نراهم ونكلمهم. وأهل الجنة لا يعرفونهم لسواد وجوههم، فيقولون: ﴿أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ فبيّن أن ٱبن آدم لا يستغني عن الطعام والشراب وإن كان في العذاب. ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ يعني طعام الجنة وشرابها. والإفاضة التوسعة؛ يقال: أفاض عليه نِعمه.

الثانية: في هذه الآية دليل على أن سقي الماء من أفضل الأعمال. وقد سئل ابن عباس: أي الصدقة أفضل؟ فقال: الماء، ألم تَرَوْا إلى أهل النار حين ٱستغاثوا بأهل الجنة «أن أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ المَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ»؟. وروى أبو داود أن سعداً أتى النبيّ ﷺ فقال:

---

(١) فعل ماض مبني للمجهول كما في أبي حيان.

[٣٠٧٩] أيّ الصدقة أعجب إليك؟ قال: «الماء». وفي رواية: فحفر بئراً فقال «هذه لأمّ سعد». وعن أنس قال: قال سعد: يا رسول الله، إن أمّ سعد كانت تحب الصدقة، أفينفعها أن أتصدّق عنها؟ قال: «نعم وعليك بالماء». وفي رواية أن النبي ﷺ أمر سعد بن عُبادة أن يسقي عنها الماء. فدل على أن تسقي الماء من أعظم القربات عند الله وقد قال بعض التابعين: من كثرت ذنوبه فعليه بسقي الماء. وقد غفر الله ذنوب الذي سقى الكلب، فكيف بمن سقىٰ رجلاً مؤمناً موحداً وأحياه. روىٰ البخاريّ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

[٣٠٨٠] «بينا رجل يمشي بطريق ٱشتدّ عليه العطش فنزل بئراً فشرب منها ثم خرج فإذا كلب يأكل الثَّرَى من العطش فقال لقد بلغ هذا الكلبَ مثلُ الذي بلغ بي فملأ خفّه ثم أمسكه بفِيه ثم رَقِيَ فسقى الكلب فشكر اللَّهُ له فغفر له». قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم لأجراً؟ قال: «في كل ذات كبد رَطْبة أجر». وعكس هذا ما رواه مسلم عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال:

[٣٠٨١] «عُذّبت ٱمرأة في هِرّة سجنتها حتى ماتت فدخلت فيها النار لا هي أطعمتها وسقتها إذ هي حبستها ولا هي تركتها تأكل من خشاش[1] الأرض». وفي حديث عائشة عن النبيّ ﷺ:

[٣٠٨٢] «ومن سَقَى مسلماً شَربة من ماء حيث يوجد الماء فكأنما أعتق رقبة ومن سقى مسلماً شربة من ماء حيث لا يوجد الماء فكأنما أحياها». خرّجه ابن ماجه في السُّنَن.

الثالثة: وقد ٱستدلّ بهذه الآية من قال: إن صاحب الحوض والقِربة أحق بمائه،

[٣٠٧٩] حسن. أخرجه أبو داود ١٦٧٩ من حديث سعد بن عبادة وكرره ١٦٨٠ من وجه آخر عنه و ١٦٨١ وفيه مجهول، لكن يصلح شاهداً لما قبله، ويقويه حديث أنس. وانظر صحيح أبي داود ١٤٧٣ و ١٥٧٤.

[٣٠٨٠] صحيح. أخرجه البخاري ٢٣٦٣ و ٢٤٦٦ و ٦٠٠٩ ومسلم ٢٢٤٤ وأبو داود ٢٥٥٠ ومالك ٣/ ١١٣ وأحمد ٢/ ٣٧٥ وابن حبان ٥٤٤ من حديث أبي هريرة.

[٣٠٨١] صحيح. أخرجه البخاري ٢٣٦٥ و ٣٣١٨ ومسلم ٢٢٤٢ وابن حبان ٥٤٦ من حديث ابن عمر.

[٣٠٨٢] ضعيف. أخرجه ابن ماجه ٢٤٧٤ وابن الجوزي في الموضوعات ٢/ ١٧٠ من حديث عائشة وقال: في إسناده أحمد بن محمد بن علي، قال ابن عدي: كان يضع الحديث، وورد من طريق آخر فيه علي بن زيد واهٍ، وورد من حديث أنس وفيه صالح بن بيان متروك اهـ وقال البوصيري في الزوائد: في إسناده علي بن زيد ضعيف.

---

(١) أي هوام الأرض وحشراتها.

وأن له منعه ممن أراده لأن معنىٰ قوله أهل الجنة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٥٠﴾ لا حقّ لكم فيها. وقد بوّب البخاريّ رحمه الله على هذا المعنى: (باب من رأى أن صاحب الحوض والقربة أحق بمائه) وأدخل في الباب عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال:

[٣٠٨٣] والذي نفسي بيده لأذودنّ رجالاً عن حوضي كما تذاد الغريبة من الإبل عن الحوض». قال المهلّب: لا خلاف أن صاحب الحوض أحق بمائه؛ لقوله عليه السلام: «لأذودنّ رجالاً عن حوضي».

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ۝٥١﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في موضع خفض نعت للكافرين. وقد يكون رفعاً ونصباً بإضمار. قيل: هو من قول أهل الجنة. ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ﴾ أي نتركهم في النار. ﴿كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ أي تركوا العمل به وكذبوا به. و«ما» مصدرية، أي كنسيهم. ﴿وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ۝٥١﴾ عطف عليه، أي وجحدهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ﴾ يعني القرآن. ﴿فَصَّلْنَٰهُ﴾ أي بيناه حتى يعرفه من تدبره. وقيل: ﴿فَصَّلْنَٰهُ﴾ أنزلناه متفرّقاً. ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى﴾ منا به، لم يقع فيه سهو لا غلط. ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ قال الزجاج: أي هاديا وذا رحمة، فجعله حالاً من الهاء التي في «فصلناه». قال الزجاج: ويجوز هدًى ورحمةٌ، بمعنى هو هدى ورحمة. وقيل: يجوز هدى ورحمةٍ بالخفض على البدل من كتاب. وقال الكسائي والفرّاء: ويجوز هدى ورحمةٍ بالخفض على النعت لكتاب. قال الفرّاء: مثل ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ٩٢ و١٥٥]. ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢﴾ خص المؤمنون لأنهم المنتفعون به.

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ۝٥٣﴾.

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ بالهمز، من آل. وأهل المدينة يخفّفون

[٣٠٨٣] صحيح. أخرجه البخاري ٢٣٦٧ ومسلم ٢٤٩ ومالك ١/ ٢٨ وأحمد ٢/ ٣٠٠ وابن حبان ١٠٤٦ من حديث أبي هريرة.

الهمزة. والنظر: الانتظار، أي هل ينتظرون إلا ما وعدوا به في القرآن من العقاب والحساب. وقيل: «ينظرون» من النظر إلى يوم القيامة. فالكناية في «تأويله» ترجع إلى الكتاب. وعاقبة الكتاب ما وعد الله فيه من البعث والحساب. وقال مجاهد: «تأويله» جزاؤه، أي جزاء تكذيبهم بالكتاب. قال قتادة: «تأويله» عاقبته. والمعنى متقارب. ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ أي تبدو عواقبه يوم القيامة. و«يوم» منصوب بيقول، أي يقول الذين نسوه من قبل يومَ تأويله. ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ﴾ استفهام فيه معنى التمني. ﴿فَيَشْفَعُوا﴾ نصب لأنه جواب الاستفهام. ﴿لَنَا أَوْ نُرَدُّ﴾ قال الفرّاء: المعنى أو هل نردّ. ﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ قال الزجاج: نردّ عطف على المعنى، أي هل يشفع لنا أحد أو نردّ. وقرأ ابن إسحاق «أو نرد فنعمل» بالنصب فيهما. والمعنى إلا أن نرد؛ كما قال[1]:

فقلتُ له لا تَبْكِ عينُك إنما نحاول مُلْكاً أو نموتَ فنُعْذَرَا

وقرأ الحسن «أو نرد فنعمل» برفعهما جميعاً. ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ أي فلم ينتفعوا بها، وكل من لم ينتفع بنفسه فقد خسرها. وقيل: خسروا النِّعَم وحَظّ أنفسهم منها. ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ أي بطل ما كانوا يقولون من أنّ مع الله إلهاً آخر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ بيّن أنه المنفرد بقدرة الإيجاد، فهو الذي يجب أن يعبد. وأصل «ستة» سدسة، فأرادوا إدغام الدال في السين فالتقيا عند مخرج التاء فغلبت عليهما. وإن شئت قلت: أبدل من إحدى السينين تاء وأدغم في الدال؛ لأنك تقول في تصغيرها: سديسة، وفي الجمع أسداس، والجمع والتصغير يردّان الأسماء إلى أصولها. ويقولون: جاء فلان سادساً وسادتا وساتا؛ فمن قال: سادتا أبدل من السين تاء. واليوم: من طلوع الشمس إلى غروبها. فإن لم يكن شمس فلا يوم؛ قاله القشيريّ. وقال: ومعنى «فِي ستَّةِ أَيَّامٍ» أي من أيام الآخرة، كل يوم ألف سنة؛ لتفخيم خلق السموات والأرض. وقيل: من أيام الدنيا. قال مجاهد وغيره: أوّلها الأحد وآخرها الجمعة. وذكر هذه المدّة ولو أراد خلقها في لحظة لفعل؛ إذ هو القادر على أن يقول لها كوني فتكون. ولكنه أراد أن يعلم العباد الرفق والتثبت في

(١) هو امرؤ القيس.

الأمور، ولتظهر قدرته للملائكة شيئاً بعد شيء. وهذا عند من يقول: خلق الملائكة قبل خلق السموات والأرض. وحكمة أخرى ـ خلقها في ستة أيام لأن لكل شيء عنده أجلاً. وبين بهذا ترك معاجلة العصاة بالعقاب؛ لأن لكل شيء عنده أجلاً. وهذا كقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ۝٣٨ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [قٓ: ٣٨ و٣٩]. بعد أن قال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ هذه مسألة الاستواء؛ وللعلماء فيها كلام وإجراء. وقد بينا أقوال العلماء فيها في (الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى وصفاته العلى) وذكرنا فيها هناك أربعة عشر قولاً. والأكثر من المتقدّمين والمتأخرين أنه إذا وجب تنزيه الباري سبحانه عن الجهة والتحيّز فمن ضرورة ذلك ولواحقه اللازمة عليه عند عامة العلماء المتقدّمين وقادتهم من المتأخرين تنزيهه تبارك وتعالى عن الجهة، فليس بجهة فوق عندهم؛ لأنه يلزم من ذلك عندهم متى اختص بجهة أن يكون في مكان أو حيز، ويلزم على المكان والحيز الحركة والسكون للمتحيز، والتغير والحدوث. هذا قول المتكلمين. وقد كان السلف الأوّل رضي الله عنهم لا يقولون بنفي الجهة ولا ينطقون بذلك، بل نطقوا هم والكافّة بإثباتها لله تعالى كما نطق كتابه وأخبرت رسله. ولم ينكر أحد من السلف الصالح أنه استوى على عرشه حقيقة. وخص العرش بذلك لأنه أعظم مخلوقاته، وإنما جهلوا كيفية الاستواء فإنه لا تعلم حقيقته. قال مالك رحمه الله: الاستواء معلوم ـ يعني في اللغة ـ والكَيْف مجهول، والسؤال عن هذا بدعة[1]. وكذا قالت أم سلمة رضي الله عنها. وهذا القدر كافٍ، ومن أراد زيادة عليه فليقف عليه في موضعه من كتب العلماء. والاستواء في كلام العرب هو العلوّ والاستقرار. قال الجوهريّ: واستوى من اعوجاج، واستوى على ظهر دابته؛ أي استقرّ. واستوى إلى السماء أي قصد. واستوى أي استولى وظهر. قال:

قد استوى بِشرٌ على العِراق ... من غير سيف ودمٍ مهراق

واستوى الرجل أي انتهى شبابه. واستوى الشيء إذا اعتدل. وحكى أبو عمر بن

---

(١) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره ٢/ ٢٣٠ ما ملخصه: للناس في هذا المقام مقالات كثيرة ليس هذا موضع بسطها، وإنما نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح، مالك والأوزاعي والثوري والليث الشافعي وأحمد وإسحاق وغيرهم من أئمة المسلمين قديماً وحديثاً، وهو: إمرارها كما جاءت، من غير تكييف، ولا تشبيه، ولا تعطيل، والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله تعالىٰ فإن الله لا يشبههُ شيء من خلقه **﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾** اهـ وقد ذكر القرطبي رحمه الله ههنا كلاماً نفيساً في بيان عقيدة السلف فعليك به.

عبد البر عن أبي عبيدة في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] قال: علا. وقال الشاعر:

فأوردتهم ماء بفَيْفَاء قفْرَةٍ وقد حَلّق النجمُ اليمانِيّ فاستَوَى

أي علا وارتفع.

قلت: فعلوّ الله تعالى وٱرتفاعه عبارة عن علوّ مجده وصفاته وملكوته. أي ليس فوقه فيما يجب له من معاني الجلال أحد، ولا معه من يكون العلوّ مشتركاً بينه وبينه؛ لكنه العليّ بالإطلاق سبحانه.

قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ لفظ مشترك يطلق على أكثر من واحد. قال الجوهري وغيره: العرش سرير الملِك. وفي التنزيل ﴿نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا﴾ [النمل: ٤١]، ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [يوسف: ١٠٠]. والعرش: سقف البيت. وعرش القدم: ما نتأ في ظهرها وفيه الأصابع. وعرش السِّماك: أربعة كواكب صغار أسفل من العَوّاء[1]، يقال: إنها عَجُز الأسد. وعرش البئر: طيُّها بالخشب، بعد أن يُطْوَى أسفلها بالحجارة قدر قامة؛ فذلك الخشب هو العرش، والجمع عروش. والعرش اسم لمَكّة. والعرش الملك والسلطان. يقال: ثُلّ عرش فلان إذا ذهب ملكه وسلطانه وعزّه. قال زهير:

تداركتما عَبْساً وقد ثُلَّ عَرْشُهَا وذُبْيَانُ إذ ذَلّتْ بأقدامها النَّعْلُ

وقد يؤوّل العرش في الآية بمعنى المُلْك، أي ما ٱستوى المُلْك إلا له جل وعز. وهو قول حَسَن وفيه نظر، وقد بيّناه في جملة الأقوال في كتابنا. والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾ أي يجعله كالغِشاء، أي يذهب نور النهار ليتم قوام الحياة في الدنيا بمجيء الليل. فالليل للسكون، والنهار للمعاش. وقرىء «يغشّي» بالتشديد؛ ومثله في «الرعد». وهي قراءة أبي بكر عن عاصم وحمزة والكسائي. وخفّف الباقون. وهما لغتان أغْشَى وغَشَّى. وقد أجمعوا على ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝٥٤﴾ [النجم: ٥٤] مشدّداً. وأجمعوا على ﴿فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ﴾ [يسٓ: ٩] فالقراءتان متساويتان. وفي التشديد معنى التكرير والتكثير. والتغشية والإغشاء: إلباس الشيء الشيء. ولم يذكر في هذه الآية دخول النهار على الليل، فاكتفى بأحدهما عن الآخر؛ مثل ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]. ﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُ﴾ [آل عمران: ٢٦]. وقرأ حُميد بن قيس «يغشىٰ الليلَ النهارُ»

---

(١) العوّاء: خمسة كواكب على خط معقف الطرف. وقال ابن سيدة: العوّاء: منزل من منازل القمر.

ومعناه أن النهار يغشى الليل ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ أي يطلبه دائماً من غير فتور. و«يُغْشِي اللَّيْلُ النَّهَارَ» في موضع نصب على الحال. والتقدير: ٱستوى على العرش مغشياً الليل النهار. وكذا «يَطْلُبه حَثِيثاً» حال من الليل؛ أي يغشي الليل النهار طالباً له. ويحتمل أن تكون الجملة مستأنفة ليست بحال. «حَثِيثاً» بدل من طالب المقدّر أو نعت له، أو نعت لمصدر محذوف؛ أي يطلبه طلباً سريعاً. والحث: الإعجال والسرعة. ووَلَّى حثيثاً أي مسرعاً. ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ قال الأخفش: هي معطوفة على السموات؛ أي وخلق الشمس. ورُوي عن عبد الله بن عامر بالرفع فيها كلها على الابتداء والخبر.

قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: صدق الله في خبره، فله الخلق وله الأمر، خلقهم وأمرهم بما أحب. وهذا الأمر يقتضي النهي. قال ابن عيينة: فرق بين الخلق والأمر؛ فمن جمع بينهما فقد كفر. فالخلق المخلوق، والأمر كلامه الذي هو غير مخلوق وهو قوله: «كُنْ». ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يسٓ: ٨٢]. وفي تفرقته بين الخلق والأمر دليل بيّن على فساد قول من قال بخلق القرآن؛ إذ لو كان كلامه الذي هو أمر مخلوقاً لكان قد قال: ألا له الخلق والخلق. وذلك عِيٌّ من الكلام ومستهجَن ومسْتَغَثٌّ. والله يتعالى عن التكلم بما لا فائدة فيه. ويدل عليه قوله سبحانه. ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم: ٢٥] ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾. فأخبر سبحانه أن المخلوقات قائمة بأمره؛ فلو كان الأمر مخلوقاً لافتقر إلى أمر آخر يقوم به، وذلك الأمر إلى أمر آخر إلى ما لا نهاية له. وذلك محال. فثبت أن أمره الذي هو كلامه قديم أزلي غير مخلوق؛ ليصح قيام المخلوقات به. ويدل عليه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥]. وأخبر تعالى أنه خلقهما بالحق، يعني القول وهو قوله للمكوَّنات: «كن». فلو كان الحق مخلوقاً لما صح أن يخلق به المخلوقات؛ لأن الخلق لا يخلق بالمخلوق. يدل عليه ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [الصافات: ١٧١] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنبياء: ١٠١]. ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾ [السجدة: ١٣]. وهذا كله إشارة إلى السبق في القول في القِدم، وذلك يوجب الأزل في الوجود. وهذه النكتة كافية في الردّ عليهم. ولهم آيات احتجوا بها على مذهبهم مثل قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢] الآية. ومثل قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾ [الأحزاب: ٣٨]. و﴿مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الأحزاب: ٣٧] وما كان مثله. قال القاضي أبو بكر: معنىٰ ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ﴾[الأنبياء: ٢] أي من وعظ من النبي ﷺ ووعدٍ وتخويف ﴿إِلَّا

﴿ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ لأن وعظ الرسل صلوات الله عليهم وسلامه وتحذيرهم ذكر. قال الله تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ [الغاشية: ٢١]. ويقال: فلان في مجلس الذكر. ومعنىٰ ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ ﴿ مَفْعُولًا ﴾ أراد سبحانه عقابه وانتقامه من الكافرين ونصره للمؤمنين وما حكم به وقدّره من أفعاله. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا ﴾ [هود: ٤٠] وقال عز وجل: ﴿ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ [هود: ٩٧] يعني به شأنه وأفعاله وطرائقه. قال الشاعر:

لها أمرُها حتى إذا ما تبوّأت ... بأخفافها مَرْعًى تبوّأ مضجَعا

الثانية: وإذا تقرّر هذا فٱعلم أن الأمر ليس من الإرادة في شيء. والمعتزلة تقول: الأمر نفس الإرادة. وليس بصحيح، بل يأمر بما لا يريد وينهى عما يريد. ألا ترى أنه أمر إبراهيمَ بذبح ولده ولم يُرده منه، وأمر نبيه أن يُصلّي مع أُمّته خمسين صلاة،ولم يرد منه إلا خمس صلوات. وقد أراد شهادة حمزة حيث يقول: ﴿ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ﴾ [آل عمران: ١٤٠] وقد نهىٰ الكفار عن قتله ولم يأمرهم به. وهذا صحيح نفيس في بابه، فتأمله.

قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ «تبارك» تفاعل، من البركة وهي الكثرة والاتساع. يقال: بورك الشيء وبورك فيه؛ قاله ابن عرفة. وقال الأزهري: «تبارك» تعالى وتعاظم وٱرتفع. وقيل: إن باسمه يُتَبَرّك ويُتيَمّن. وقد مضى في الفاتحة معنى «رَبِّ الْعَالَمِينَ».

قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ ﴾ هذا أمرٌ بالدعاء وتعبُّد به. ثم قرن جلّ وعز بالأمر صفاتٍ تحسنُ معه، وهي الخشوع والاستكانة والتضرع. ومعنى «خُفْيَةً» أي سراً في النفس ليبعد عن الرياء؛ وبذلك أثنى على نبيه زكريا عليه السلام إذ قال مخبراً عنه: ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾ [مريم: ٣]. ونحوه قول النبيّ ﷺ:

[٣٠٨٤] «خيرُ الذكر الخفيُّ وخيرُ الرزق ما يكفي». والشريعة مقرّرة أن السر فيما

[٣٠٨٤] أخرجه أحمد ١/١٧٢ ـ١٨٠ وأبو يعلىٰ ٧٣١ وابن حبان ٨٠٩ والبيهقي في الشعب ٥٥٢ عن محمد بن عبد الرحمن بن أبي لبيبة عن سعد بن أبي وقاص مرفوعاً، ومداره على ابن أبي لبيبة ضعفه يحيىٰ والدارقطني وغيرهما، وفيه إرسال قال الحافظ في التهذيب ٩/٢٦٨ في ترجمة ابن أبي لبيبة: أرسل عن سعد أحاديث ا هـ فالحديث منقطع أيضاً والوهن في صدره، ولعجزه شاهد مرسل. وانظر ضعيف الجامع ٢٨٨٧.

لم يعترض من أعمال البر أعظم أجراً من الجهر. وقد تقدّم هذا المعنى في «البقرة». قال الحسن بن أبي الحسن: لقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرض عمل يقدرون على أن يكون سراً فيكون جهراً أبداً. ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء فلا يسمع لهم صوت، إن هو إلا الهمس بينهم وبين ربهم. وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾. وذكر عبداً صالحاً رضي فعله فقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾﴾ [مريم: ٣]. وقد استدل أصحاب أبي حنيفة بهذا على أن إخفاء «آمين» أولى من الجهر بها؛ لأنه دعاء. وقد مضى القول فيه في «الفاتحة». وروى مسلم عن أبي موسى قال:

[٣٠٨٥] كنا مع النبيّ ﷺ في سفر ـ وفي رواية في غزاة ـ فجعل الناس يجهرون بالتكبير ـ وفي رواية فجعل رجل كلما علا ثَنِيّة قال: لا إله إلا الله ـ فقال رسول الله ﷺ: «أيها الناس ٱرْبَعُوا[1] على أنفسكم إنكم لستم تدعون أصَمّ ولا غائباً إنكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم». الحديث.

الثانية: وٱختلف العلماء في رفع اليدين في الدعاء؛ فكرهه طائفة منهم جُبير بن مُطْعِم وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير. ورأى شُريح رجلاً رافعاً يديه فقال: من تتناول بهما، لا أمّ لك! وقال مسروق لقوم رفعوا أيديهم: قطعها الله. وٱختاروا إذا دعا الله في حاجة أن يشير بأصبعه السبابة. ويقولون: ذلك الإخلاص. وكان قتادة يشير بأصبعه ولا يرفع يديه. وكره رفع الأيدي عطاء وطاوس ومجاهد وغيرهم. وروي جواز الرفع عن جماعة من الصحابة والتابعين. وروي عن النبيّ ﷺ؛ ذكره البخاريّ. قال أبو موسى الأشعري:

[٣٠٨٦] دعا النبيّ ﷺ ثم رفع يديه ورأيت بياض إبطيه. ومثله عن أنس. وقال ابن عمر:

[٣٠٨٧] رفع النبيّ ﷺ يديه وقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد». وفي صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب قال:

[٣٠٨٥] صحيح. أخرجه مسلم ٢٧٠٤، وتقدم.

[٣٠٨٦] صحيح. أخرجه البخاري ٤٣٢٣ من حديث أبي موسىٰ في أثناء خبر مطول وعلقه في ١١/ ١٤١. وأخرجه ٦٣٤١ من حديث أنس.

[٣٠٨٧] صحيح. أخرجه البخاري ٤٣٣٩ و ٧١٨٩ وأحمد ٢/ ١٥٠ والنسائي ٨/ ٢٣٧ وابن حبان ٤٧٤٩ من حديث ابن عمر، وله قصة.

---

(١) أي ارفقوا بها.

[٣٠٨٨] لما كان يوم بَدْر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين، وهم ألف وأصحابه ثلثمائة وتسعة[1] عشر رجلاً، فاستقبل نبيّ الله ﷺ القبلة مادًّا يديه، فجعل يهتف بربه؛ وذكر الحديث. وروى الترمذيّ عنه قال:

[٣٠٨٩] كان رسول الله ﷺ إذا رفع يديه لم يحطهما حتى يمسح بهما وجهه. قال: هذا حديث صحيح غريب. وروى ابن ماجه عن سَلمان عن النبيّ ﷺ قال:

[٣٠٩٠]«إن ربكم حَيِيٌّ[2] كريم يستحيي من عبده أن يرفع يديه إليه فيردّهما صَفْراً أو قال خائبتين». احتج الأوّلون بما رواه مسلم عن عمارة بن رُوَيبة ورأى بِشر بن مَرْوان على المنبر رافعاً يديه فقال:

[٣٠٩١] قبّح الله هاتين اليدين، لقد رأيت رسول الله ﷺ ما يزيد على أن يقول بيده هكذا؛ وأشار بأصبعه المسبِّحة. وبما روى سعيد بن أبي عَروبة عن قتادة أن أنس بن مالك حدّثه:

[٣٠٩٢] أن النبي ﷺ كان لا يرفع يديه في شيء من الدعاء إلا عند الاستسقاء فإنه كان يرفعهما حتى يُرَى بياضُ إبطيْه. والأوّل أصحّ طُرُقاً وأثبت من حديث سعيد بن أبي عَروبة؛ فإن سعيداً كان قد تغير عقله في آخر عمره. وقد خالفه شعبة في روايته عن قتادة عن أنس بن مالك فقال فيه:

[٣٠٩٣] كان رسول الله ﷺ يرفع يديه حتى يُرى بياض إبطيْه. وقد قيل: إنه إذا

[٣٠٨٨] صحيح. أخرجه مسلم ١٧٦٣ من حديث عمر بأتم منه.

[٣٠٨٩] أخرجه الترمذي ٣٣٧٦ من حديث عمر، وقال: صحيح غريب، وأشار النووي في الأذكار، ١٠٣٨ لضعفه وهو كما قال فإن مداره على حماد بن عيسىٰ الجهني. وقد ضعفه الحافظ في التقريب. وله شاهد بمعناه من حديث السائب بن يزيد عن أبيه، أخرجه أبو داود ١٤٩٢، لكن ضعفه الألباني ١٣٢٠.

[٣٠٩٠] صحيح. أخرجه أبو داود ١٤٨٨ والترمذي ٣٥٥٦ وابن ماجه ٣٨٦٥ والطبراني في الدعاء ٢٠٢ و ٢٠٣ وأحمد ٥/٤٣٨ والحاكم ١/٥٣٥ من عدة طرق عن سلمان مرفوعاً، وقد صححه الحاكم على شرطهما، ووافقه الذهبي، وقال الحافظ في الفتح ١١/١٤٣: إسناده جيد.

[٣٠٩١] صحيح. أخرجه مسلم ٨٧٤ بهذا اللفظ عن عمارة بن رؤيبة.

[٣٠٩٢] صحيح. أخرجه مسلم ٨٩٥ ح ٧ عن أنس به.

[٣٠٩٣] هو عند مسلم ٨٩٥ ح (٥).

---

(١) وقع في الأصل «وسبعة» والتصويب من صحيح مسلم.

(٢) وقع في النسخ «حي» والتصويب عن كتب التخريج.

نزلت بالمسلمين نازلة أن الرفع عند ذلك جميل حسن؛ كما فعل النبيّ ﷺ في الاستسقاء ويوم بَدْر.

قلت: والدعاء حَسَن كيفما تيسر، وهو المطلوب من الإنسان لإظهار موضع الفقر والحاجة إلى الله عز وجل، والتذلل له والخضوع. فإن شاء ٱستقبل القبلة ورفع يديه فحسن، وإن شاء فلا؛ فقد فعل ذلك النبيّ ﷺ حسبما ورد في الأحاديث. وقد قال تعالى: ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾. ولم يرد صفة من رفع يدين وغيرها. وقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا ﴾ [آل عمران: ١٩١] فمدحهم ولم يشترط حالة غير ما ذكر. وقد دعا النبيّ ﷺ في خطبته يوم الجمعة وهو غير مستقبل القبلة(١).

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ يريد في الدعاء وإن كان اللفظ عامّاً إلى(٢) هذا هي الإشارة. والمعتدي هو المجاوز للحدّ ومرتكب الحظر. وقد يتفاضل بحسب ما ٱعتدى فيه. وروي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «سيكون قوم يعتدون في الدعاء». أخرجه ٱبن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة. حدّثنا عفّان حدّثنا حماد بن سلمة أخبرنا سعيد الجُرَيْرِيّ عن أبي نعامة أن عبد الله بن مغفّل سمع ٱبنه يقول: اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها. فقال: أي بني، سَلِ الله الجنة وعُذْ بِه من النار؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول:

[٣٠٩٤] «سيكون قوم يعتدون في الدعاء». والاعتداء في الدعاء على وجوه: منها الجهر الكثير والصياح؛ كما تقدم. ومنها أن يدعو الإنسان في أن تكون له منزلة نبيّ، أو يدعو في محال؛ ونحو هذا من الشطط. ومنها أن يدعو طالباً معصية وغير ذلك. ومنها أن يدعو بما ليس في الكتاب والسنة؛ فيتخير ألفاظاً مفقرة(٣) وكلمات مسجّعة قد وجدها

[٣٠٩٤] جيد. أخرجه أحمد ٤/٨٧ وابن أبي شيبة ١٠/٢٨٨ وأبو داود ٩٦ وابن ماجه ٣٨٦٤ والحاكم ١/١٦٢ و ٥٤٠ وابن حبان ٦٧٦٤ من حديث عبد الله بن المغفّل، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وفي الرواية الثانية، وكرره ابن حبان ٦٧٦٣ من طريق آخر صحيح، ومن طريق ثالث أخرجه أحمد ٤/٨٦ وفي الباب من حديث سعد بن أبي وقاص عند أحمد ١/١٧٢ وأبي داود ١٤٨٠ وفيه راو لم يسم لكن الحديث قوي بشواهده.

---

(١) بوب البخاري به، فقال: باب الدعاء غير مستقبل القبلة، ثم أسند برقم ٦٣٤٢ من حديث أنس قال: «بينا النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة، فقام رجل، فقال: يا رسول الله! ادع الله أن يسقينا...» الحديث. فالنبي ﷺ كان مستقبلاً الناس أثناء الخطبة.

(٢) هكذا ورد في نسخ الأصل.

(٣) أي مقفاة.

في كراريس لا أصل لها ولا معوّل عليها، فيجعلها شعاره ويترك ما دعا به رسولُه عليه السلام. وكل هذا يمنع من استجابة الدعاء؛ كما تقدم في «البقرة» بيانه.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ فيه مسألة واحدة ـ وهو أنه سبحانه نهى عن كل فساد قلّ أو كثر بعد صلاح قلّ أو كثر. فهو على العموم على الصحيح من الأقوال. وقال الضحاك: معناه لا تُعَوِّروا[1] الماء المَعِين، ولا تقطعوا الشجر المثمِر ضِراراً. وقد ورد: قطع الدنانير من الفساد في الأرض. وقد قيل: تجارة الحكام من الفساد في الأرض. وقال القُشَيرِيّ: المراد ولا تشركوا؛ فهو نهي عن الشرك وسفك الدماء والهَرْج في الأرض، وأمر بلزوم الشرائع بعد إصلاحها، بعد أن أصلحها الله ببعثه الرسلَ، وتقرير الشرائع ووضوح مِلّة محمد ﷺ. قال ابن عطية: وقائل هذه المقالة قصد إلى أكبر فساد بعد أعظم صلاح فخصه بالذكر.

قلت: وأما ما ذكره الضحاك فليس على عمومه، وإنما ذلك إذا كان فيه ضرر على المؤمن، وأما ما يعود ضرره على المشركين فذلك جائز؛ فإن النبيّ ﷺ قد عَوّر ماء قَلِيب بدر وقطع شجر الكافرين. وسيأتي الكلام في قطع الدنانير في «هود» إن شاء الله تعالى.

﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أمر بأن يكون الإنسان في حالة ترقب وتخوّف وتأميل لله عز وجل، حتى يكون الرجاء والخوف للإنسان كالجناحين للطائر يحملانه في طريق استقامته، وإن انفرد أحدهما هلك الإنسان، قال الله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر: ٤٩ و٥٠]. فرجّى وخوّف. فيدعو الإنسان خوفاً من عقابه وطمعاً في ثوابه؛ قال الله تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠]. وسيأتي القول فيه. والخوف: الانزعاج لما لا يؤمن من المضار. والطمع: توقع المحبوب؛ قاله القشيري. وقال بعض أهل العلم: ينبغي أن يغلب الخوف الرجاء طول الحياة، فإذا جاء الموت غلب الرجاء. قال النبيّ ﷺ:

[٣٠٩٥] «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظنّ بالله». صحيح أخرجه مسلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ ولم يقل قريبة. ففيه

[٣٠٩٥] صحيح. أخرجه مسلم ٢٨٧٧، وتقدم.

---

(١) عوَّرت عين الماء: إذا سددتها ودفنتها.

سبعة أوجه: أوّلها أن الرَّحمة والرُّحْمُ واحد، وهي بمعنى العفو والغفران؛ قاله الزجاج وٱختاره النحاس. وقال النّضر بن شُمَيْل: الرحمة مصدر، وحقّ المصدر التذكير؛ كقوله: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ﴾ [البقرة: ٢٧٥]. وهذا قريب من قول الزجاج؛ لأن الموعظة بمعنى الوعظ. وقيل: أراد بالرحمة الإحسان؛ ولأن ما لا يكون تأنيثه حقيقياً جاز تذكيره؛ ذكره الجوهريّ. وقيل: أراد بالرحمة هنا المطر؛ قاله الأخفش. قال: ويجوز أن يذكّر كما يذكّر بعض المؤنث. وأنشد[1]:

فلا مُزْنَةٌ وَدَقَت وَدْقَها ولا أرضَ أَبْقَلَ إبْقَالَها

وقال أبو عبيدة: ذُكّر «قَرِيبٌ» على تذكير المكان، أي مكاناً قريباً. قال عليّ بن سليمان: وهذا خطأ، ولو كان كما قال لكان «قَرِيبٌ» منصوباً في القرآن؛ كما تقول: إن زيداً قريباً منك. وقيل: ذكّر على النسب؛ كأنه قال: إن رحمة الله ذات قُرْب؛ كما تقول: ٱمرأة طالق وحائض. وقال الفَرّاء: إذا كان القريب في معنى المسافة يذكّر ويؤنّث، وإن كان في معنى النَّسَبِ يؤنث بلا ٱختلاف بينهم. تقول: هذه المرأة قريبتي، أي ذات قرابتي؛ ذكره الجوهريّ. وذكر غيره عن الفرّاء: يقال في النسب قريبة فلان، وفي غير النسب يجوز التذكير والتأنيث؛ يقال: دارك مِنّا قريبٌ، وفلانة منا قريب؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ۝٦٣﴾ [الأحزاب: ٦٣]. وقال من ٱحتج له: كذا كلام العرب؛ كما قال ٱمرؤ القيس:

له الوَيْلُ إن أَمْسَى ولا أمّ هاشم قريبٌ ولا البَسْبَاسَةُ ٱبنةُ يَشْكُرا

قال الزجاج: وهذا خطأ؛ لأن سبيل المذكر والمؤنث أن يجريا على أفعالهما.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٥٧﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ عطف على قوله: «يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ». ذكر شيئاً آخر من نعمه، ودل على وحدانيته وثبوت إلَهِيّتِه. وقد مضى الكلام في الريح في «البقرة». ورياح جمع كثرة، وأرْوَاح جمع قِلة. وأصل ريح رِوح. وقد خطىء من قال في جمع القلة أرياح. ﴿بُشْرًا﴾ فيه سبع قراءات: قرأ أهل الحرمين وأبو عمرو «نُشُراً» بضم النون والشين جمع ناشر على معنى النسب، أي ذات

(١) هو عامر بن جوين الطائي. والودق: المطر.

نشر؛ فهو مثلُ شاهد وشُهُد. ويجوز أن يكون جمع نَشُور كرَسُول ورُسُل. يقال: ريح النشور إذا أتت من ها هنا وها هنا. والنَّشُور بمعنى المنشور؛ كالرّكوب بمعنى المركوب. أي وهو الذي يرسل الرياح منشرة. وقرأ الحسن وقتادة «نُشْراً» بضم النون وإسكان الشين مخفَّفاً من نُشُر؛ كما يقال: كُتْب ورُسْل. وقرأ الأعمش وحمزة «نَشْراً» بفتح النون وإسكان الشين على المصدر، أعمل فيه معنى ما قبله؛ كأنه قال: وهو الذي ينشر الرّياح نَشْراً. نشرت الشيء فانتشر، فكأنها كانت مطوية فنُشرت عند الهُبُوب. ويجوز أن يكون مصدراً في موضع الحال من الرياح؛ كأنه قال يرسل الرياح مُنْشرة، أي مُحيية؛ من أنْشر الله الميتَ فنَشَر، كما تقول أتانا ركضاً، أي راكضاً. وقد قيل: إن نَشْراً (بالفتح) من النَّشْر الذي هو خلاف الطي على ما ذكرنا. كأن الريح في سكونها كالمطوية ثم ترسل من طَيِّها ذلك فتصير كالمنفتحة. وقد فسره أبو عبيد بمعنى متفرِّقة في وجوهها، على معنى ينشرها ها هنا وها هنا. وقرأ عاصم: «بُشْراً» بالباء وإسكان الشين والتنوين جمع بشير، أي الرياح تبشر بالمطر. وشاهده قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ [الروم: ٤٦]. وأصل الشين الضم، لكن سكِّنت تخفيفاً كرسُل ورُسْل. وروى عنه «بَشْراً» بفتح الباء. قال النحاس: ويقرأ «بُشُراً» و«بَشْر مصدر بَشَره يبشره بمعنى بشَّره» فهذه خمس قراءات. وقرأ محمد اليماني «بُشْرَى» على وزن حُبْلَى. وقراءة سابعة «بُشُرَى» بضم الباء والشين.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ السحاب يذكَّر ويؤنَّث. وكذا كل جمع بينه وبين واحدته هاء. ويجوز نعته بواحد فتقول: سحاب ثقيل وثقيلة. والمعنى: حملت الريح سَحاباً ثِقَالاً بالماء، أي أثقلت بحمله. يقال: أقلّ فلان الشيء أي حمله. ﴿سُقْنَٰهُ﴾ أي السحاب. ﴿لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ أي ليس فيه نبات. يقال: سقته لبلد كذا وإلى بلد كذا. وقيل: لأجل بلد ميت؛ فاللام لام أجل. والبلد كل موضع من الأرض عامر أو غير عامر خالٍ أو مسكون. والبلدة والبلد واحد البلاد والبُلدان. والبَلَد الأثر وجمعه أبلاد. قال الشاعر:

* مِن بعد ما شَمِل البِلَى أبلادَها[1]

والبلد: أُدْحِيّ[2] النَّعام. يقال: هو أذلّ من بَيْضَة البلد، أي من بيضة النعام التي يتركها. والبلدة الأرض؛ يقال: هذه بلدتنا كما يقال بَحْرَتُنا. والبَلْدَة من منازل القمر، وهي ستّة أنْجُم من القوس تنزلها الشمس في أقصر يوم في السنة. والبلدة الصّدر؛ يقال: فلان واسع البلدة أي واسع الصدر. قال الشاعر:

(١) هو عجز بيت لابن الرقاع.
(٢) الادحي: مبيض الأنعام على الرمال، وليس للنعام عش.

أُنِيخَتْ فألقتْ بَلْدَةً فوقَ بلدة قليلٍ بها الأصواتُ إلاّ بُغَامُها[1]

يقول: بركت الناقة فألقت صدرها على الأرض. والبَلدة (بفتح الباء وضمها): نقاوة ما بين الحاجبين؛ فهما من الألفاظ المشتركة. ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ﴾ أي بالبلد. وقيل: أنزلنا بالسحاب الماء؛ لأن السحاب آلة لإنزال الماء. ويحتمل أن يكون المعنى فأنزلنا منه الماء؛ كقوله: ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦] أي منها. ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ الكاف في موضع نصب. أي مثل ذلك الإخراج نحيـي الموتى وخرج البيهقِيّ وغيره عن أبي رَزِين العقيلي قال:

[٣٠٩٦] قلت يا رسول الله، كيف يعيد الله الخلق، وما آية ذلك في خلقه؟ قال: «أمَا مَررت بوادِي قومك جَدْباً ثم مَررت به يهتز خَضِراً» قال: نعم، قال: «فتلك آية الله في خلقه». وقيل: وجه التشبيه أنّ إحياءهم من قبورهم يكون بمطر يبعثه الله على قبورهم، فتنشقّ عنهم القبور، ثم تعود إليهم الأرواح. وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو عن النبيّ ﷺ:

[٣٠٩٧] «ثم يرسل الله ـ أو قال ينزل الله ـ مطراً كأنه الطَّلُّ فتنبت منه أجساد الناس ثم يقال يا أيها الناس هلموا إلى ربكم وقِفوهم إنهم مسؤولون». وذكر الحديث. وقد ذكرناه بكماله في كتاب (التذكرة) والحمد لله. فدل على البعث والنشور؛ وإلى الله ترجع الأمور.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًاۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًاۚ﴾ أي التُّربة الطيبة. والخَبِيثُ الذي في تربته حجارة أو شوك؛ عن الحسن. وقيل: معناه التشبيه، شبَّه تعالى السريعَ الفهم بالبلد الطيب، والبَلِيدَ بالذي خَبُثَ؛ عن النحاس. وقيل: هذا مثل للقلوب؛ فقلب يقبل الوعظ والذِّكرى، وقلب فاسق يَنْبُو عن ذلك؛ قاله

[٣٠٩٦] أخرجه الطيالسي ١٠٨٩ من حديث أبي رزين العقيلي ورجاله ثقات سوىٰ وكيع بن عُدُس ـ بضم العين ـ قال في الميزان: لا يُعرف اهـ وقال صاحب التقريب: مقبول.

[٣٠٩٧] صحيح. هو طرف حديث أخرجه مسلم ٢٩٤٠ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، وفيه ذكر الدجال.

---

(١) البيت لذي الرمة. البغام: صوت الناقة. وأصله للظبي فاستعاره الناقة.

الحسن أيضاً. وقال قتادة: مَثَلُ[1] للمؤمن يعمل محتسِباً متطوّعاً، والمنافق غير محتسب. قال رسول الله ﷺ:

[٣٠٩٨] «والذِي نفسي بيده لو يعلم أحدهم أنه يجد عظماً سميناً أو مِرْمَاتَيْن[2] حسَنَتَين لشهد العِشاء». ﴿نَكِدًا﴾ نصب على الحال، وهو العَسِر الممتنع من إعطاء الخير. وهذا تمثيل. قال مجاهد: يعني: أن في بني آدم الطيب والخبيث. وقرأ طلحة «إلاّ نَكْداً» حذف الكسرة لثقلها. وقرأ ٱبن القَعْقَاع «نَكَداً» بفتح الكاف، فهو مصدر بمعنى ذا نكد. كما قال[3]

* فإنَّمَـا هِيَ إِقْبَـالٌ وإِدْبـارُ *

وقيـل: «نكِـداً» بنصـب الكـاف وخفضهـا بمعنًـى؛ كـالـدّنَـف والـدّنِـف، لغتـان. ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ﴾ أي كما صرفنا من الآيات، وهي الحجج والدّلالات، في إبطال الشرك؛ كذلك نصرف الآيات في كل ما يحتاج إليه الناس. ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ وخصّ الشاكرين لأنهم المنتفعون بذلك.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ لما بيّن أنه الخالق القادر على الكمال ذكر أقاصيص الأمم وما فيها من تحذير الكفار. واللام في «لقد» للتأكيد المنبِّه على القسم. والفاء دالة على أن الثاني بعد الأوّل. ﴿يَٰقَوْمِ﴾ نداء مضاف. ويجوز «يا قومي» على الأصل. ونوح أوّل الرسل [بعثه الله][4] إلى [أهل][4] الأرض بعد آدم عليهما السلام بتحريم البنات والأخوات والعمّات والخالات. قال النحاس: وانصرف لأنه على ثلاثة أحرف. وقد يجوز أن يشتق من ناح ينوح، وقد تقدّم في «آل عمران» هذا المعنىٰ

[٣٠٩٨] صحيح. أخرجه البخاري ٦٤٤ و ٢٤٢٠ ومسلم ٦٥١ وأبو داود ٥٤٩ والترمذي ٢١٧ والنسائي ٢/١٠٧ وأحمد ٢/٣١٤ وابن حبان ٢٠٩٦ من حديث أبي هريرة، ومطلعه «والذي نفسي بيده لقد هممت أن آمر بحطب..».

---

(١) كذا في النسخ، وهو غير واضح. وذكر السيوطي في «الدر» ٤/١٧٣ عن قتادة غير هذا اللفظ. وانظر الطبري ١٤٧٩٧.

(٢) المرماة: ظلف الشاة.

(٣) البيت للخنساء: وصدره: ترتع ما رتعت حتى إذا ادّركت.

(٤) ما بين المعقوفتين مستدرك من أحكام ابن العربي ٢/ ٣١٥.

وغيره فأغنىٰ عن إعادته. قال ابن العربيّ: ومن قال إن إدْرِيسَ كان قبله من المؤرّخين فقد وَهِم. والدليل على صحة وهمِه الحديث الصحيح في الإسراء حين لقي النبيّ ﷺ آدم وإدريس فقال له آدم:

[٣٠٩٩] «مرحباً بالنبيّ الصالح والابن الصالح». وقال له إدْريسٌ: «مَرْحَباً بالنبيّ الصالح والأخ الصالح». فلو كان إدريس أبا لنوح لقال مرحباً بالنبيّ الصالح والابن الصالح. فلما قال له والأخ الصالح دَلّ ذلك على أنه يجتمع معه في نوح، صلوات الله عليهم أجمعين. ولا كلام لمنصف بعد هذا. قال القاضي عِياض: وجاء جواب الآباء ها هنا كنوح وإبراهيم وآدم «مرحباً بالابن الصالح». وقال عن إدريس «بالأخ الصالح» كما ذكر عن موسى وعيسى ويوسف وهارون ويحيـى ممن ليس بِأب بآتفاق للنبيّ ﷺ. وقال المازِريّ: قد ذكر المؤرخون أن إدريس جدّ نوح عليهما السلام. فإن قام الدليل على أنّ إدريس بُعِثَ أيضاً لم يصح قول النسابين أنه قبل نوح؛ لما أخبر عليه السلام من قول آدم أن نوحاً أوّل رسول بعث، وإن لم يقم دليل جاز ما قالوا: وصح أن يحمل أن إدريس كان نبياً غير مرسل. قال القاضي عِياض: قد يجمع بين هذا بأن يقال: اختص بعث نوح لأهل الأرض ـ كما قال في الحديث ـ كافَّة كنبينا عليه السلام. ويكون إدريس لقومه كموسى وهود وصالح ولوط وغيرهم. وقد استدل بعضهم على هذا بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ۝﴾ [الصافات: ١٢٣ و١٢٤]. وقد قيل: إن إلياس هو إدريس. وقد قرىء «سلام على إدْرَاسِين». قال القاضي عياض: وقد رأيت أبا الحسن بن بَطّال ذهب إلى أن آدم ليس برسول؛ ليسلم من هذا الاعتراض. وحديث أبي ذَرٍّ الطوِيل:

[٣١٠٠] حديث أبي ذَرٍّ الطويل: يدل علىٰ أن آدم وإدريس رسولان. قال ابن عطية: ويجمع ذلك بأن تكون بعثة نوح مشهورة لإصلاح الناس وحملهم بالعذاب والإهلاك على الإيمان؛ فالمراد أنه أوّل نبيّ بُعث على هذه الصفة. والله أعلم. وروي عن ابن عباس أن نوحاً عليه السلام بعث وهو ابن أربعين سنة[1]. قال الكلبيّ: بعد آدم بثمانمائة سنة. وقال ابن عباس: وبقي في قومه يدعوهم ألف سنة إلاّ خمسين عاماً؛ كما أخبر التنزيل. ثم عاش بعد الطوفان ستين سنة حتى كثُر الناس وفَشَوْا. وقال وهب: بعث نوح وهو ابن خمسين سنة. وقال عَوْن بن شدّاد: بعث نوح وهو ابن ثلثمائة وخمسين

[٣٠٩٩] متفق عليه يأتي في سورة الإسراء إن شاء الله.

[٣١٠٠] تقدم تخريجه مراراً.

---

(١) هذا القول وما بعده متلقىٰ عن أهل الكتاب، فما ورد في القرآن هو الذي يجب التصديق به.

سنة. وفي كثير من كتب الحديث: الترمذيّ وغيره أن جميع الخلق الآن من ذرية نوح عليه السلام. وذكر النقّاشُ عن سليمان بن أَرْقَم عن الزهريّ: أن العرب وفارس والروم وأهل الشام وأهل اليمن من ولد سَام بن نوح. والسند والهند والزّنج والحبشة والزُّطّ[١] والنُّوبة، وكلُّ جلد أسود من ولد حَامِ بن نوح. والترك وبَرْبَر ووراء الصين ويأجوج ومأجوج والصقالبة كلهم من ولد يَافِثَ بن نوح. والخلق كلهم ذرية نوح.

قوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ برفع «غَيْرُهُ» قراءة نافع وأبي عمرو وعاصم وحمزة. أي ما لكم إله غيره. نعت على الموضع. وقيل: «غير» بمعنى إلا؛ أي ما لكم من إله إلا الله. قال أبو عمرو: ما أعرف الجر ولا النصب. وقرأ الكسائي بالخفض على الموضع. ويجوز النصب على الاستثناء، وليس بكثير؛ غير أن الكسائي والفراء أجازا نصب «غير» في كل موضع يحسن فيه «إلاّ» تَمَّ الكلام أو لم يتم. فأجازا: ما جاءني غيرك. قال الفراء: هي لغة بعض بني أُسْد وقُضَاعَة. وأنشد:

لم يَمْنَع الشُّرْبَ منها غيرَ أن هتفَتْ حمامةٌ في سَحُوقٍ ذاتِ أَوْقَال[٢]

قال الكسائيّ: ولا يجوز جاءني غيرك، في الإيجاب؛ لأن إلا لا تقع ها هنا. قال النحاس: لا يجوز عند البصريين نصب «غير» إذا لم يتم الكلام. وذلك عندهم من أقبح اللحن.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

«المَلأ» أشراف القوم ورؤساؤهم. وقد تقدّم بيانه في «البقرة». والضَّلاَلُ والضَّلاَلَةُ: العدول عن طريق الحق، والذهاب عنه. أي إنا لنراك في دعائنا إلى إله واحد في ضلال عن الحق. ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ بالتشديد من التبليغ، وبالتخفيف من الإبلاغ. وقيل: هما بمعنًى واحد لغتان؛ مثلُ كرَّمه وأكرمه. ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ النُّصح: إخلاص النية من شَوَائب الفساد في المعاملة، بخلاف الغشِّ. يقال: نصحته ونصحت له نَصيحةً ونَصاحة ونُصحا. وهو باللام أفصح. قال الله تعالى: «وَأَنْصَحُ لَكُمْ» والاسم النصيحة. والنّصِيح الناصِحُ، وقوم نُصحاء. ورجل ناصح الجَيْب أي نقيّ القلب. قال الأصمعيّ: الناصح الخالص من

---

(١) الزط: جيل من النَّاس. الواحد: زُطيّ.
(٢) البيت لأبي قيس بن الأسلت.

العسل وغيره. مثلُ الناصع. وكل شيء خَلَص فقد نَصَح. وانتَصَح فلان أقبل على النصيحة. يقال: انْتَصِحْني إنني لك ناصح. والناصح الخياط. والنِّصاح السلك يُخاط به. والنِّصاحات أيضاً الجلود. قال الأعشى:

فتَرى الشُّرْبَ نَشَاوَى كلَّهم ... مثل ما مُدّتْ نِصاحاتُ الرُّبَحْ

الرُّبَحُ لغة في الرُّبَع، وهو الفَصِيل. والرُّبَح أيضاً طائر. وسيأتي لهذا زيادة معنًى في «براءة» إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾ فتحت الواو لأنها واو عطف، دخلت عليها ألف الاستفهام للتقرير. وسبيل الواو أن تدخل على حروف الاستفهام إلا الألف لقوتها. ﴿أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ﴾ أو وعظ من ربكم. ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ أي على لسان رجل. وقيل: «على» بمعنى «مَعَ»، أي مع رجل. وقيل: المعنى أن جاءكم ذكر من ربكم مُنَزّل على رجل منكم، أي تعرفون نسبه. أي على رجل من جنسكم. ولو كان مَلَكاً فربما كان في اختلاف الجنس تنافر الطبع. و«الفُلْك» يكون واحداً ويكون جمعاً. وقد تقدّم في «البقرة». و﴿عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ أي عن الحق؛ قاله قتادة. وقيل: عن معرفة الله تعالى وقدرته، يقال: رجلٌ عَمٍ بكذا، أي جاهل.

قوله تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ﴾ أي وأرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً. قال ابن عباس: أي ٱبن أبيهم. وقيل: أخاهم في القبيلة. وقيل: أي بشراً من بني أبيهم آدم. وفي مصنف أبي داود أن أخاهم هودا أي صاحبهم. وعاد من ولد سام بن نوح. قال ابن إسحاق: وعاد هو ابن عوص بن إرم بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام.

وهود هو هود بن عبد الله بن رباح بن الجلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح. بعثه الله إلى عاد نبياً. وكان من أوسطهم نسباً وأفضلهم حسباً. و«عاد» من لم يصرفه جعله اسماً للقبيلة، ومن صرفه جعله اسماً للحيّ. قال أبو حاتم: وفي حرف أبيّ وابن مسعود «عاد الأولىٰ»[1] بغير ألف. و«هود» أعجمي، وانصرف لخفته، لأنه على ثلاثة أحرف. وقد يجوز أن يكون عربياً مشتقاً من هاد يهود. والنصب على البدل. وكان بين هود ونوح فيما ذكر المفسرون سبعة آباء. وكانت عاد فيما رُوي ثلاث عشرة قبيلة، ينزلون الرمال، رمل عالج. وكانوا أهل بساتين وزروع وعمارة، وكانت بلادهم أخصب البلاد، فسخط الله عليهم فجعلها مفاوز، وكانت فيما روي بنواحي حضرموت إلى اليمن، وكانوا يعبدون الأصنام. ولحق هود حين أهلك قومه بمن آمن معه بمكة، فلم يزالوا بها حتى ماتوا. ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ﴾ أي في حمق وخفة عقل. قال[2]:

مَشَيْنَ كما اهتزّتْ رِماحٌ تسفّهتْ ... أعـاليَهَـا مَـرُّ الـريـاح النَّـواسِـم

وقد تقدّم هذا المعنى في «البقرة». والرؤية هنا وفي قصة نوح قيل: هي من رؤية البصر. وقيل: يجوز أن يراد بها الرأي الذي هو أغلب الظن.

قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ﴾ «خلفاء» جمع خليفة على التذكير والمعنى، وخلائف على اللفظ. منّ عليهم بأن جعلهم سُكَّان الأرض بعد قوم نوح. ﴿وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗ﴾ ويجوز «بصطة» بالصاد لأن بعدها طاء؛ أي طولاً في الخلق وعظم الجسم. قال ابن عباس: كان أطولهم مائة ذراع، وأقصرهم ستين ذراعاً. وهذه الزيادة كانت على خلق آبائهم. وقيل: على خلق قوم نوح. قال وهب: كان رأس أحدهم مثل قبة عظيمة، وكان عين الرجل يفرخ فيها السباع، وكذلك مناخرهم[3]. وروى شهر بن حوشب عن أبي هريرة قال: أن كان الرجل من قوم عاد يتخذ المِصراعين من حجارة لو اجتمع عليها خمسمائة رجل من هذه الأمّة لم يطيقوه، وأن كان أحدهم ليغمِز برجله الأرض فتدخل فيها. ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي نِعم الله، واحدها إِلَى وإِليٌ وإِلْوٌ وأَلَى. كالآناء واحدها إِنَى وإِنْيٌ وإِنْوٌ وأَنَى. ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٦٩﴾ تقدّم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا

(١) قراءة الجماعة ﴿وأنه أهلك عاداً الأولىٰ﴾ [النجم: ٥٠].
(٢) هو ذو الرمة.
(٣) هذا الأثر من مجازفات بني إسرائيل، ووهب بن منبه يروي كثيراً عن أهل الكتاب، وأثر أبي هريرة الآتي لا يصح عنه، وإنما هو من الإسرائيليات.

تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

طلبوا العذاب الذي خوّفهم به وحذرهم منه فقال لهم: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم﴾. ومعنى وقع أي وجب. يقال: وقع القول والحُكم أي وجب، ومثله: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ﴾ [الأعراف: ١٣٤]. أي نزل بهم. ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٨٢]. والرِّجْسُ العذابُ وقيل: عُني بالرجس الرَّيْن على القلب بزيادة الكفر. ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ﴾ يعني الأصنام التي عبدوها، وكان لها أسماء مختلفة. ﴿مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أي من حُجّة لكم في عبادتها. فالاسم هنا بمعنى المسمّى. نظيره ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ [يوسف: ٤٠] وهذه الأسماء مثل العُزّى من العِزّ والأعز واللّات، وليس لها من العزّ والإلٰهيّة شيء. ﴿دَابِرَ﴾ آخِر. وقد تقدّم. أي لم يبق لهم بقية.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾.

وهو ثمود بن عاد بن إرم بن سام بن نوح. وهو أخو جدِيس، وكانوا في سعة من معايشهم؛ فخالفوا أمر الله وعبدوا غيره، وأفسدوا في الأرض. فبعث الله إليهم صالحاً نبيًا، وهو صالح بن عبيد بن آسف بن كاشح بن عبيد بن حاذر بن ثمود. وكانوا قوماً عُرْباً. وكان صالح من أوسطهم نَسَباً وأفضلهم حَسَباً فدعاهم إلى الله تعالى حتى شَمِطَ[1] ولا يتبعه منهم إلا قليل مستضعَفون. ولم ينصرف «ثمود» لأنه جُعل اسماً للقبيلة. وقال أبو حاتم: لم ينصرف لأنه اسم أعجميّ. قال النحاس: وهذا غلط؛ لأنه مشتق من الثَّمد وهو الماء القليل. وقد قرأ القراء ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ﴾ [هود: ٦٨]على أنه اسم للحيّ. وكانت مساكن ثمود الحِجر بين الحجاز والشام إلى وادي القرى. وهم من ولد سام بن نوح. وسميت ثمود لقلة مائها. وسيأتي بيانه في «الحجر» إن شاء الله تعالى.

﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ أخرج لهم الناقة حين سألوه من حجر صَلْد؛ فكان

---

(١) الشمط: شيب اللحية.

لها يوم تشرب فيه ماء الوادي كله، وتسقيهم مثله لبنا لم يشرب قط ألذ وأحلى منه. وكان بقدر حاجتهم على كثرتهم؛ قال الله تعالى: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾﴾ [الشعراء: ١٥٥]. وأضيفت الناقة إلى الله عز وجل على جهة إضافة الخلق إلى الخالق. وفيه معنى التشريف والتخصيص.

﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا﴾ أي ليس عليكم رزقها ومؤونتها.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فيه محذوف، أي وبوأكم في الأرض منازل. ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ أي تبنون القصور بكل موضع. ﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ اتخذوا البيوت في الجبال لطول أعمارهم؛ فإن السقوف والأبنية كانت تبلى قبل فناء أعمارهم. وقرأ الحسن بفتح الحاء، وهي لغة. وفيه حرف من حروف الحلق؛ فلذلك جاء على فعل يفعل.

الثانية: استدل بهذه الآية من أجاز البناء الرفيع كالقصور ونحوها، وبقوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]. ذُكر أن ابناً لمحمد بن سيرين بَنَى داراً وأنفق فيها مالاً كثيراً؛ فذُكر ذلك لمحمد بن سيرين فقال: ما أرى بأساً أن يبني الرجل بناء ينفعه. وروي أنه عليه السلام قال:

[٣١٠١] «إذا أنعم الله على عبد أحبّ أن يُرى أثر النعمة عليه». ومن آثار النعمة البناء الحسن، والثياب الحسنة. ألا ترىٰ لو أنه اشترىٰ جارية جميلة بمال عظيم فإنه يجوز وقد يكفيه دون ذلك؛ فكذلك البناء. وكره ذلك آخرون، منهم الحسن البصري وغيره. واحتجوا بقوله عليه السلام:

[٣١٠٢] «إذا أراد الله بعبد شراً أهلك ماله في الطين واللَّبِن». وفي خبر آخر عنه أنه عليه السلام قال:

[١٣٠١] أخرجه الترمذي ٢٨١٩ من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وحسنه، وهو كما قال للإختلاف المعروف في عمرو عن آبائه، وله شواهد كثيرة.

[٣١٠٢] أخرجه الطبراني في الكبير ١٧٥٥ والصغير ١١٢٧ من حديث جابر، وقال الهيثمي في المجمع=

[٣١٠٣] «من بَنَى فوق ما يكفيه جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه».

قلت: بهذا أقول؛ لقوله عليه السلام:

[٣١٠٤] «وما أنفق المؤمن من نفقة فإن خلفها على الله عز وجل إلا ما كان في بنيان أو معصية». رواه جابر بن عبد الله وخرّجه الدَّارَقُطْنِيّ. وقوله عليه السلام:

[٣١٠٥] «ليس لابن آدم حقّ في سوى هذه الخصال بيت يسكنه وثوب يوارِي عورته وجِلْف[1] الخبز والماء» أخرجه الترمِذيّ.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي نِعمه. وهذا يدلّ على أن الكفار منعم عليهم. وقد مضى في «آل عمران» القول فيه. ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ۝٧٤﴾ تقدّم في «البقرة». والعِثِيّ والعُثُوُّ لغتان. وقرأ الأعمش «تِعثوا» بكسر التاء أخذه من عَثِي يَعْثَى لا من عثا يعثو.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ۝٧٥ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝٧٦﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ

= ٤/ ٦٩: رجاله رجال الصحيح خلا شيخ الطبراني، ولم أجد من ضعفه اهـ وقال الحافظ المنذري في الترغيب ٣/ ٢١: إسناده جيد اهـ وله شواهد راجع المجمع.

[٣١٠٣] ضعيف جداً، أخرجه الطبراني في الكبير ١٠٢٨٧ من حديث ابن مسعود، وقال الهيثمي في المجمع ٦٢٨١: فيه المسيب بن واضح وثقه النسائي وضعفه جماعة، وقال ابن أبي حاتم في العلل ١٨٤٠: قال أبي: هذا حديث باطل لا أصل له بهذا الإسناد. وانظر قصر الأمل لابن أبي الدنيا ٢٥٥.

[٣١٠٤] أخرجه الدارقطني ٣/ ٢٨ والحاكم ٢/ ٥٠ ح ٢٣١١ من حديث جابر. قال الحاكم: صحيح، وتعقبه الذهبي، فقال: عبد الحميد ضعفوه اهـ وفي الميزان: عبد الحميد بن الحسن الهلالي ضعفه المديني والدارقطني وأبو زرعة، وقال أبو حاتم: شيخ، وقال يحيىٰ: ليس به بأس، وفي رواية: ثقة اهـ فالرجل لم يتفقوا على ضعفه، وقد قال الحافظ في التقريب: صدوق يخطىء.

[٣١٠٥] أخرجه الترمذي ٢٣٤١ من حديث عثمان، وقال: حسن صحيح، وصححه الحاكم ٤/ ٣١٢ وافقه الذهبي. والصواب أنه حديث واهٍ، انظر الضعيفة ١٠٦٣.

---

(١) الجِلْف: الخبز وحده بلا أدم معه.

﴿مِنۡهُمۡ﴾ الثاني بدل من الأوّل، لأن المستضعفين هم المؤمنون. وهو بدل البعض من الكل.

قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ﴾ العَقْر الجرح. وقيل: قطع عضو يؤثّر في النفس. وعقرت الفرس: إذا ضربت قوائمه بالسيف. وخيل عَقْرَى. وعقرت ظهر الدابة: إذا أدْبَرْته. قال أمرؤ القيس:

تقـولُ وقـدْ مـالَ الغَبِيـطُ بنـا معـاً　　عَقَرْتَ بعِيري يا أمرأ القيس فأنزِلِ

أي جَرَحتَه وأدْبَرتَه. قال القشيريّ: العقر كشف عُرقوب البعير؛ ثم قيل للنحر عَقر؛ لأن العقر سبب النحر في الغالب. وقد أختلف في عاقر الناقة على أقوال. أصحّها ما في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن زَمْعَة قال:

[٣١٠٦] خطب رسول الله ﷺ فذكر الناقة وذكر الذي عقرها فقال: «إذ أنبعث أشقاها أنبعث لها رجل عزيز عَارِم[1] مَنِيع في رَهْطِه مثل أبي زَمْعَة» وذكر الحديث. وقيل في أسمه: قُدار بن سالف. وقيل: إن ملكهم كان إلى أمرأة يقال لها ملكى، فحسدت صالحاً لمّا مال إليه الناس، وقالت لامرأتين كان لهما خليلان يعشقانِهما: لا تطيعاهما وأسألاهما عقر الناقة؛ ففعلتا. وخرج الرجلان وألجآ الناقة إلى مَضِيق ورماها أحدهما بسهم وقتلاها. وجاء السَّقْبُ وهو ولدها إلى الصخرة التي خرجت الناقة منها فَرَغَا ثلاثاً وأنفجرت الصخرة فدخل فيها. ويقال: إنه الدّابة التي تخرج في آخر الزمان على الناس؛ على ما يأتي بيانه في «النمل». وقال أبن إسحاق: أتْبع السّقْبَ أربعةُ نفر ممن كان عقر الناقة، مِصْدَع وأخوه ذُؤَاب. فرماه مصدع بسهم فأنتظم قلبه، ثم جرّه برجله فألحقه بأمّه، وأكلوه معها. والأوّل أصح؛ فإن صالحاً قال لهم: إنه بَقِي من عمركم ثلاثة أيام، ولهذا رَغَا ثلاثاً. وقيل: عقرها عاقرها ومعه ثمانية رجال، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ﴾ [النمل: ٤٨]على ما يأتي بيانه في «النمل». وهو معنى قوله ﴿فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾ [القمر: ٢٩]. وكانوا يشربون فأعوزهم الماء ليمزجوا شرابهم،

[٣١٠٦] صحيح. أخرجه مسلم ٢٨٥٥ من حديث عبد الله بن زمعة وله تتمة.

---

(١) الشرير المفسد.

وكان يوم لبن الناقة، فقام أحدهم وترصد الناس وقال: لأرِيحَنّ الناس منها؛ فعقرها.

قوله تعالى: ﴿وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي ٱستكبروا. عَتَا يَعْتُو عُتُوًّا أي ٱستكبر. وتَعَتَّى فلان إذا لم يُطِع. والليل العاتِي: الشديد الظلمة؛ عن الخليل.

﴿وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ أي من العذاب. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ أي الزلزلة الشديدة. وقيل: كانت صيحة شديدة خَلعت قلوبَهم؛ كما في قصة ثمود في سورة «هود» في قصة ثمود فأخذتهم الصيحة. يقال: رَجَف الشيء يرْجُف رَجْفاً وَرَجَفَاناً. وأرجفت الريحُ الشجرَ حرّكته. وأصله حركة مع صوت؛ ومنه قوله تعالى ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦﴾ [النازعات: ٦] قال الشاعر:

ولما رأيت الحج قد آنَ وَقتُه ... وظلت مطايا القوم بالقوم تَرْجُفُ

﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ﴾ أي بلدهم. وقيل: وُحِّد على طريق الجنس، والمعنى: في دورهم. وقال في موضع آخر: ﴿فِي دِيَٰرِهِمْ﴾ [هود: ٦٧ و٩٤] أي في منازلهم. ﴿جَٰثِمِينَ ۝٧٨﴾ أي لاصقين بالأرض على رُكَبهم ووجوههم؛ كما يجْثُم الطائر. أي صاروا خامدين من شدّة العذاب. وأصل الجُثُوم للأرنب وشبهها، والموضع مَجْثَم. قال زهير:

بها العِينُ والآرَامُ يَمْشِين خِلْفَة ... وأطلاؤها يَنْهَضْن مِن كل مَجْثَمِ[1]

وقيل: احترقوا بالصاعقة فأصبحوا ميّتين، إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله؛ فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه. ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ أي عند اليأس منهم. ﴿وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ يحتمل أنه قال ذلك قبل موتهم. ويحتمل أنه قاله بعد موتهم؛ كقوله عليه السلام لِقَتْلَى بَدْر:

[٣١٠٧] «هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً» فقيل: أتكلم هؤلاء الجِيَف؟ فقال: «ما أنتم بأسمَع منهم ولكنهم لا يقدرون على الجواب». والأوّل أظهر. يدل عليه ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٧٩﴾ أي لم تقبلوا نُصْحِي.

قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٠﴾.

[٣١٠٧] صحيح. أخرجه مسلم ٢٨٧٤ وأحمد ٣/١٠٤ وأبو يعلىٰ ٣٨٠٨ وابن حبان ٦٥٢٥ من حديث أنس.

---

(١) العين: البقر. والآرام: الظباء. الأطلاء: أولادها.

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ قال الفرّاء: لوط مشتق من قولهم: هذا أَلْيَط بقلبي، أي ألصق. وقال النحاس: قال الزجاج زعم بعض النحويين ـ يعني الفرّاء ـ أن لوطاً يجوز أن يكون مشتقاً من لُطْتُ الحوض إذا ملسته بالطين. قال: وهذا غلط؛ لأن الأسماء الأعجمية لا تشتقّ كإسحاق، فلا يقال: إنه من السُّحق وهو البُعد. وإنما صرف لوط لخفته لأنه على ثلاثة أحرف وهو ساكن الوسط. قال النقاش: لوط من الأسماء الأعجمية وليس من العربية. فأما لُطْتُ الحوض، وهذا أَلْيَط بقلبي من هذا، فصحيح. ولكن الاسم أعجميّ كإبراهيم وإسحاق. قال سيبويه: نُوحٌ ولُوطٌ أسماء أعجمية، إلا أنها خفيفة فلذلك صرِفت. بعثه الله تعالى إلى أمة تسمى سدوم، وكان ابن أخي إبراهيم. ونَصْبُه إما بـ«أَرْسَلْنَا» المتقدّمة فيكون معطوفاً. ويجوز أن يكون منصوباً بمعنى وٱذكر.

الثانية: قوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ يعني إتْيَان الذكور. ذكرها الله باسم الفاحشة ليبيِّن أنها زِنًى؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ [الإسراء: ٣٢].

وٱختلف العلماء فيما يجب على من فعل ذلك بعد إجماعهم على تحريمه؛ فقال مالك: يُرْجَم؛ أَحْصِن أو لم يُحصَن. وكذلك يرجم المفعول به إن كان محتلماً. وروي عنه أيضاً: يرجم إن كان مُحْصَناً، ويحبس ويؤدّب إن كان غير محصن. وهو مذهب عطاء والنخعيّ وٱبن المسيب وغيرهم. وقال أبو حنيفة: يعزَّرُ المحصن وغيره؛ وروي عن مالك. وقال الشافعِيّ: يحدّ حَدّ الزِّنَى قياساً عليه. احتج مالك بقوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الحجر: ٧٤]. فكان ذلك عقوبة لهم وجزاءً على فعلهم. فإن قيل: لا حجة فيها لوجهين؛ أحدهما ـ أن قوم لوط إنما عوقبوا على الكفر والتكذيب كسائر الأمم. الثاني ـ أن صغيرهم وكبيرهم دخل فيها؛ فدلّ على خروجها من باب الحدود. قيل: أمّا الأوّل فغلط؛ فإن الله سبحانه أخبر عنهم أنهم كانوا على معاصي فأخذهم بها؛ منها هذه. وأمّا الثاني فكان منهم فاعل وكان منهم راضٍ، فعُوقب الجميع لسكوت الجماهير عليه. وهي حكمة الله وسنته في عباده. وبَقِي أمرُ العقوبة على الفاعلين مستمراً. والله أعلم. وقد رَوَى أبو داود وابن ماجه والترمِذيّ والنسائِي والدّارَقُطْنِيّ أن رسول الله ﷺ قال:

[٣١٠٨] «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فٱقتلوا الفاعل والمفعول به». لفظ أبي داود وابن ماجه. وعند الترمذِيّ «أحْصنا أو لم يحصنا». وروى أبو داود والدارقطنِيّ عن ٱبن عباس في البِكر يوجد على اللُّوطِية قال: يرجم. وقد رُوي عن أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه أنه حرّق رجلاً يُسمّى الفُجاءة حين عمل عمل قوم لوط بالنار. وهو رأي عليّ بن أبي طالب؛ فإنه لما كتب خالد بن الوليد إلى أبي بكر في ذلك جمع أبو بكر أصحاب النبيّ ﷺ وٱستشارهم فيه؛ فقال عليّ: إن هذا الذنب لم تَعْصِ به أُمّةٌ من الأُمم إلا أُمّة واحدة صنع الله بها ما علمتم، أرى أن يُحرق بالنار. فٱجتمع رأي أصحاب رسول الله ﷺ أن يحرق بالنار. فكتب أبو بكر إلى خالد ابن الوليد أن يحرقه بالنار فأحرقه. ثم أحرقهم ابن الزبير في زمانه. ثم أحرقهم هشام بن الوليد. ثم أحرقهم خالد القَسْرِي بالعراق. ورُوي أن سبعة أُخذوا في زمن ابن الزبير في لِوَاط؛ فسأل عنهم فوجد أربعة قد أُحْصِنوا فأمر بهم فخرجوا بهم من الحرم فرُجِموا بالحجارة حتى ماتوا، وحدّ الثلاثة؛ وعنده ابن عباس وابن عمر فلم ينكرا عليه(1). وإلى هذا ذهب الشافعيّ. قال ابن العربِيّ: والذي صار إليه مالك أحقُّ، فهو أصحّ سنداً وأقوى معتَمَداً. وتعلّق الحنفيون بأن قالوا: عقوبة الزِّنَى معلومة؛ فلما كانت هذه المعصية غيرها وجب ألاّ يشاركها في حدّها. ويأثرون في هذا حديثاً:

[٣١٠٩] «مَن وضع حدّاً في غير حَدٍّ فقد تعدّى وظَلَم». وأيضاً فإنه وطء في فرج لا يتعلّق به إحلالٌ ولا إحصان، ولا وجوبُ مهر ولا ثبوتُ نسب؛ فلم يتعلق به حدّ.

الثالثة ـ فإن أتى بهيمة فقد قيل: لا يقتل هو ولا البهيمة. وقيل: يقتلان؛ حكاه ابن المنْذِر عن أبي سلمة بن عبد الرحمن. وفي الباب حديث رواه أبو داود والدّارقطني عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ:

[٣١١٠] «من وقع على بهيمة فٱقتلوه وٱقتلوا البهيمة معه». فقلنا لابن عباس: ما

[٣١٠٨] مضىٰ برقم ٢٩٩٢.

[٣١٠٩] ضعيف. أخرجه البيهقي ٨/٣٢٧ عن النعمان بن بشير مرفوعاً، وقال: المحفوظ مرسل وانظر نصب الراية ٣/٣٥٤.

[٣١١٠] أخرجه أبو داود ٤٤٦٤ والترمذي ١٤٥٥ و ١٤٥٦ والحاكم ٤/٣٥٥ والبيهقي ٨/٢٣٣ من حديث ابن عباس، وفيه عمرو بن أبي عمرو غير قوي، وأخرجه ابن ماجه ٢٥٦٤ والبيهقي ٨/٢٣٤ وأحمد ١/٣٠٠ عن داود بن حصين عن عكرمة به، وإسناده ضعيف لأجل داود، فإنه ضعيف في =

---

(1) انظر هذه الآثار في نصب الراية ٣/٣٤١ ـ ٣٤٢.

شأن البهيمة؟ قال: ما أراه قال ذلك، إلا أنه كره أن يؤكل لحمها وقد عمل بها ذلك العمل. قال ٱبن المنذر: إن يَكُ الحديث ثابتاً فالقول به يجب، وإن لم يثبت فليستغفر الله من فعل ذلك كثيراً، وإن عزّره الحاكم كان حسناً. والله أعلم. وقد قيل: إن قتل البهيمة لئلا تُلْقِي خَلْقاً مُشَوَّهاً؛ فيكون قتلها مصلحة لهذا المعنى مع ما جاء من السنة. والله أعلم. وقد روى أبو داود عن ابن عباس قال: ليس على الذي زنى بالبهيمة حد. قال أبو داود: وكذا قال عطاء. وقال الحكَم: أرى أن يجلد ولا يبلغ به الحدّ. وقال الحسن: هو بمنزلة الزاني. وقال الزهريّ: يجلد مائة أحصِن أو لم يحصن. وقال مالك والثّوريّ وأحمد وأصحاب الرأي يعزّر. ورُوي عن عطاء والنّخعيّ والحكَم. وٱختلفت الرواية عن الشافعيّ، وهذا أشبه على مذهبه في هذا الباب. وقال جابر بن زيد: يقام عليه الحدّ، إلا أن تكون البهيمة له.

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ «مِن» لاستغراق الجنس، أي لم يكن اللِّواط في أُمّة قبل قوم لوط. والملحِدون يزعمون أن ذلك كان قبلهم. والصدق ما ورد به القرآن. وحكى النقاش أنْ إبليس كان أصْلَ عملهم بأن دعاهم إلى نفسه لعنه الله، فكان يُنكح بعضهم بعضاً. قال الحسن: كانوا يفعلون ذلك بالغُرَبَاء، ولم يكن يفعله بعضهم ببعض. وروى ابن ماجه عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ:

[٣١١١] «إن أخوف ما أخاف على أُمّتي عمل قوم لوط». وقال محمد بن سِيرين: ليس شيء من الدواب يعمل عمل قوم لوط إلا الخنزير والحمار.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ﴾ قرأ نافع وحفص على الخبر بهمزة واحدة مكسورة،

= روايته عن عكرمة، والأشهلي ضعيف. وذكره الألباني في «صحيح أبي داود» ٣٧٤٧.
وقال الحافظ في التلخيص ٤/٥٥: في إسناد هذا الحديث كلام. قال أبو داود: حديث ابن عباس: ليس على الذي يأتي البهيمة حد. يضعف الحديث المرفوع، وكذا رجح الترمذي ما ورد عن ابن عباس موقوفاً، وقال الشافعي: إن صح قلت به. ومال البيهقي إلى تصحيحه. اهـ ملخصاً، فالحديث غير قوي، ولذا لم يعتمده أبو حنيفة وغيره، وانظر نصب الراية ٣/٣٤٣.

[٣١١١] أخرجه الترمذي ١٤٥٧ وابن ماجه ٢٥٦٣ من حديث جابر، وإسناده ليّن لأجل عبد الله بن محمد بن عقيل، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه ٢٠٧٧.

تفسيراً للفاحشة المذكورة، فلم يحسن إدخال الاستفهام عليه لأنه يقطع ما بعده مما قبله. وقرأ الباقون بهمزتين على لفظ الاستفهام الذي معناه التوبيخ، وحسن ذلك لأن ما قبله وبعده كلام مستقل. واختار الأوّل أبو عبيد والكِسائي وغيرهما؛ وٱحتجوا بقوله عز وجل: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنبياء: ٣٤] ولم يقل أفهم. وقال: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤] ولم يقل أنقلبتم. وهذا من أقبح الغلط لأنهما شبَّها شيئين بما لا يشتبهان؛ لأن الشرط وجوابه بمنزلة شيء واحد كالمبتدأ والخبر؛ فلا يجوز أن يكون فيهما استفهامان. فلا يجوز: أفإن مِت أفهم، كما لا يجوز أزيد أمنطلق. وقصة لوط عليه السلام فيها جملتان، فلك أن تستفهم عن كل واحدة منهما. هذا قول الخليل وسيبويه، واختاره النحاس ومكّي وغيرهما ﴿شَهْوَةً﴾ نصب على المصدر، أي تشتهونهم شهوة. ويجوز أن يكون مصدراً في موضع الحال. ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ نظيره ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الشعراء: ١٦٦] في جمعكم إلى الشرك هذه الفاحشة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم﴾ أي لُوطاً وأتباعه. ومعنى ﴿يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ عن الإتيان في هذا المأتى. يقال: تطهّر الرجل أي تنزّه عن الإثم. قال قتادة: عابوهم واللَّهِ بغير عَيْب. ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾ أي الباقين في عذاب الله؛ قاله ٱبن عباس وقتادة. غَبَر الشيء إذا مَضَى، وغبر إذا بَقِيَ. وهو من الأضداد. وقال قوم: الماضي عابر بالعين غير معجمة. والباقي غابر بالغين معجمة. حكاه ٱبن فارس في المجمل. وقال الزجاج: «مِنَ الْغَابِرِينَ» أي من الغائبين عن النجاة وقيل؛ لطول عمرها. قال النحاس: وأبو عبيدة يذهب إلى أن المعنى من المعمِّرين؛ أي أنها قد هرمت. والأكثر في اللغة أن يكون الغابر الباقي؛ قال الراجز:

فما وَنَى محمدٌ مذْ أن غَفَرْ ... له الإلٰهُ ما مضى وما غَبَرْ

قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

سَرَى لُوطٌ بأهله كما وصف الله ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ [هود: ٨١ والحجر: ٦٥] ثم أمر جبريل عليه السلام فأدخل جناحه تحت مدائنهم فاقتلعها ورفعها حتى سمع أهل السماء

صياح الدِّيَكَة ونباح الكلاب، ثم جعل عاليها سافلها، وأمطرت عليهم حجارة من سِجِّيل، قيل: على من غاب منهم. وأدرك ٱمرأةَ لوط، وكانت معه حجرٌ فقتلها. وكانت فيما ذُكر أربع قُرًى. وقيل: خمس فيها أربعمائة ألف. وسيأتي في سورة «هود» قصة لوط بأبين من هذا، إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

فيه أربع مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ قيل في مَدْين: ٱسم بلد وقُطْر. وقيل: اسم قبيلة كما يقال: بَكْر وتَمِيم. وقيل: هم من ولد مَدْيَن بن إبراهيم الخليل عليه السلام. فمن رأى أن مدين ٱسم رجل لم يصرفه لأنه معرفة أعجميّ. ومن رآه اسماً للقبيلة أو الأرض فهو أحْرَى بألاّ يصرفه. قال المهدويّ: ويروى أنه كان ابن بنت لوط. وقال مكيّ: كان زوج بنت لوط. وٱختلف في نسبه؛ فقال عطاء وابن إسحاق وغيرهما: وشعيب هو ٱبن ميكيل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم عليه السلام. وكان ٱسمه بالسريانية بَيْرُوت. وأُمه ميكائيل بنت لوط. وزعم الشرقِيّ بن القُطَامِيّ أن شعيباً بن عَيْفَاء بن يَوْبَبَ بن مدين بن إبراهيم. وزعم ابن سَمْعَان أن شعيباً بن جزي بن يشجر بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم. وشُعَيْب تصغير شَعْب أو شِعْب. وقال قتادة: هو شعيب بن يَوْبَبَ. وقيل: شعيب بن صفوان بن عيفاء بن ثابت بن مدين بن إبراهيم. والله أعلم. وكان أعمىٰ[1] ولذلك قال قومه: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ [هود: ٩١]. وكان يقال له: خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه. وكان قومه أهلَ كفر بالله وبخسٍ للمكيال والميزان.

---

(١) لم يرد شيء من هذا مرفوعاً في حديث صحيح أو حسن، وإنما ورد شيء من هذا عن ابن عباس وابن جبير، وهو متلقىً عن أهل الكتاب، وانظر قصص الأنبياء لابن كثير ص ٢١٢.

﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي بيان، وهو مجيء شعيب بالرسالة. ولم يذكر له معجزة في القرآن. وقيل: معجزته فيما ذكر الكسائي في قصص الأنبياء.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ البخس النقص. وهو يكون في السِّلعة بالتعييب والتزهيد فيها، أو المخادعة عن القيمة، والاحتيال في التزيّد في الكيل والنقصان منه. وكل ذلك من أكل المال بالباطل، وذلك مَنْهِيٌّ عنه في الأُمم المتقدّمة والسالفة على ألسنة الرسل صلوات الله وسلامه على جميعهم وحسبنا الله ونعم الوكيل.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا﴾ عطف على «وَلاَ تَبْخَسُوا». وهو لفظ يعمّ دقيق الفساد وجليله. قال ابن عباس: كانت الأرض قبل أن يبعث الله شعيباً رسولاً يُعمل فيها بالمعاصي وتُسْتَحَلُّ فيها المحارم وتُسفك فيها الدماء. قال: فذلك فسادها. فلما بعث الله شعيباً ودعاهم إلى الله صلحت الأرض. وكل نبيّ بعث إلى قومه فهو صلاحهم.

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ﴾ نهاهم عن القعود بالطرق والصَّدِّ عن الطريق الذي يؤدّي إلى طاعة الله، وكانوا يوعِدون العذاب من آمن. واختلف العلماء في معنى قعودهم على الطرق على ثلاثة معان؛ قال ٱبن عباس وقتادة ومجاهد والسدي: كانوا يقعدون على الطرقات المُفْضِيَةِ إلى شعيب فيتوعدون من أراد المجيء إليه ويصدونه ويقولون: إنه كذاب فلا تذهب إليه؛ كما كانت قريش تفعله مع النبيّ ﷺ. وهذا ظاهر الآية. وقال أبو هريرة: هذا نهي عن قطع الطريق، وأخذ السَّلْب؛ وكان ذلك من فعلهم. وروى عن النبيّ ﷺ أنه قال:

[٣١١٢] «رأيت ليلة أسرِي بي خشبة على الطريق لا يمرّ بها ثوب إلا شقته ولا شيء إلا خرقته فقلت ما هذا يا جبريل قال هذا مَثَلٌ لقوم من أُمتك يقعدون على الطريق فيقطعونه ـ ثم تلا ـ ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ﴾ الآية. وقد مضى القول في اللصوص والمحاربين، والحمد لله. وقال السدي أيضاً: كانوا عَشّارين متقبلين. ومثلهم اليوم هؤلاء المكّاسون الذين يأخذون من الناس ما لا يلزمهم شرعاً من الوظائف المالية

[٣١١٢] ضعيف جداً. أخرجه الطبري ١٤٨٦١ عن أبي هريرة أو غيره ـ شك أبو جعفر الرازي ـ فذكره مرفوعاً. وإسناده ضعيف جداً فيه الحجاج واهٍ. الرازي هو عيسىٰ بن أبي عيسىٰ قال ابن حبان: ينفرد عن المشاهير بالمناكير، وذكره الذهبي في ميزانه بهذا الحديث، وقال: روىٰ حديثاً طويلاً في المعراج فيه ألفاظ منكرة جداً.

بالقهر والجَبْر؛ فضمَّنوا مالاً يجوز ضمان أصله من الزكاة والمواريث والملاهي. والمترتبون في الطرق إلى غير ذلك مما قد كثر في الوجود وعمل به في سائر البلاد. وهو من أعظم الذنوب وأكبرها وأفحشها؛ فإنه غَصْب وظُلْم وعَسْفٌ على الناس وإذَاعَةٌ للمنكر وعمل به ودوام عليه وإقرار له، وأعظمه تضمين الشرع والحكم للقضاء، فإنا لله وإنا إليه راجعون! لم يبق من الإسلام إلا رَسْمه، ولا من الدين إلا اسمه. يَعْضُد هذا التأويل ما تقدّم من النهي في شأن المال في الموازين والأكيال والبخس.

قوله تعالى: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ الضمير في «به» يحتمل أن يعود على اسم الله تعالى، وأن يعود إلى شعيب في قول من رأى القعود على الطريق للصدّ، وأن يعود على السبيل. ﴿عِوَجًاۚ﴾ قال أبو عبيدة والزجاج: كسر العين في المعاني. وفتحها في الأجرام.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ أي كثّر عددكم، أو كثركم بالغنى بعد الفقر. أي كنتم فقراء فأغناكم. «فَاصْبِرُوا» ليس هذا أمراً بالمقام على الكفر، ولكنه وعيد وتهديد. وقال: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ﴾ فذكّر على المعنى، ولو راعى اللفظ قال: كانت.

قوله تعالى: ﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَاۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَاۚ﴾ تقدّم معناه. ومعنى «أَوْ لَتَعُودُنَّ في مِلَّتِنَا» أي لتصِيرُنّ إلى ملتنا. وقيل: كان أتباع شعيب قبل الإيمان به على الكفر، أي لتعودُنّ إلينا كما كنتم من قبل. قال الزجاج: يجوز أن يكون العود بمعنى الابتداء؛ يقال: عاد إليّ من فلان مكروه، أي صار، وإن لم يكن سبقه مكروه قبل ذلك، أي لحقني ذلك منه. فقال لهم شعيب: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾ أي ولو كنا كارهين تجبروننا عليه، أي على الخروج من الوطن أو العود في مِلتكم. أي إن فعلتم هذا أتيتم عظيماً.

﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَاۚ﴾ إياس من العود إلى مِلتهم. ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ﴾ قال أبو إسحاق الزجاج: أي إلا

بمشيئة الله عز وجل، قال: وهذا قول أهل السنة؛ أي وما يقع منا العود إلى الكفر إلى أن يشاء الله ذلك. فالاستثناء منقطع. وقيل: الاستثناء هنا على جهة التسليم للّه عز وجل؛ كما قال: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [هود: ٨٨] والدليل على هذا أن بعده ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَاۚ﴾ وقيل: هو كقولك لا أُكلمك حتى يبيض الغراب، وحتىٰ يلج الجمل في سم الخياط. والغراب لا يبيض أبداً، والجمل لا يلج في سم الخياط.

قوله تعالى: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۚ﴾ أي علِم ما كان وما يكون. «عِلْماً» نصب على التمييز. وقيل: المعنىٰ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ﴾ أي في القرية بعد أن كرهتم مجاورتنا، بل نخرج من قريتكم مهاجرين إلى غيرها. ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ ردّنا إليها. وفيه بعد؛ لأنه يقال: عاد للقرية ولا يقال عاد في القرية.

قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَاۚ﴾ أي اعتمدنا. وقد تقدّم في غير موضع. ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ قال قتادة: بعثه الله إلى أُمتين: أهل مدين، وأصحاب الأَيكة[1]. قال ابن عباس: وكان شعيب كثير الصلاة، فلما طال تمادىٰ قومه في كفرهم وغيهم، ويئس من صلاحهم، دعا عليهم فقال: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ۝٨٩﴾فاستجاب الله دعاءه فأهلكهم بالرجفة.

قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۝٩٠ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٩١ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٩٢ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ۝٩٣﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ أي قالوا لِمن دونهم. ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۝٩٠﴾ أي هالكون. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ أي الزلزلة. وقيل: الصيحة. وأصحاب الأَيكة أهلِكوا بالظُّلّة[2]، على ما يأتي.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَاۚ﴾ قال الجرجانِيّ: قيل هذا كلام مستأنف؛ أي الذين كذبوا شعيبا صاروا كأنهم لم يزالوا موتى. و «يَغْنَوْا» يقيموا؛ يقال: غَنِيت بالمكان إذا أقمت به. وغنِي القوم في دارهم أي طال مُقامهم فيها. والمَغْنَى: المنزل؛ والجمع المَغَاني. قال لَبِيد:

---

(١) الأيكة: الشجر الكثيف الملتفّ.

(٢) الظلة: سحابة فيها نار أمطرتهم بها.

وغَنِيت سِتاً قبلَ مَجْرَى دَاحِسٍ	لو كان للنفس اللَّجُوجِ خُلود

وقال حاتم طيّ:

غنينا زمانا بالتَّصَعْلُكِ والغِنَى	كما الدّهرُ في أيامه العسرُ واليسرُ
كسبنا صُروفَ الدَّهْر لِيناً وغِلظة	وكلّاً سقاناه بكأسيهما الدهرُ
فما زادنا بَغْياً على ذِي قرابة	غِنَانَا ولا أَزْرَى بأحسابنا الفَقْرُ

﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ ابتداء خطاب، وهو مبالغة في الذم والتوبيخ وإعادة لتعظيم الأمر وتفخيمه. ولما قالوا: من اتبع شعيباً خاسر قال الله الخاسرون هم الذين قالوا هذا القول. ﴿ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ أي أحزان. أسيت على الشيء آسى أسىً، وأنا آسٍ.

قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ ﴾ فيه إضمار، وهو فكذب أهلها إلا أخذناهم. ﴿ بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ تقدّم القول فيه. ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ ﴾ أي أبدلناهم بالجدب خِصباً. ﴿ حَتَّىٰ عَفَواْ ﴾ أي كثروا؛ عن ابن عباس. وقال ابن زيد: كثرت أموالهم وأولادهم. وعفا: من الأضداد. عفا: كثر. وعفا: درس. أعلم الله تعالى أنّه أخذهم بالشدّة والرخاء فلم يزدجِروا ولم يشكروا. ﴿ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ ﴾ فنحن مثلهم. ﴿ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً ﴾ أي فجأة ليكون أكثر حسرة.

قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ يقال للمدينة قرية لاجتماع الناس فيها. من قريت الماء إذا جمعته. وقد مضى في «البقرة» مستوفى ﴿ ءَامَنُواْ ﴾ أي صدقوا. ﴿ وَٱتَّقَوْاْ ﴾ أي الشرك. ﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ يعني المطر والنبات. وهذا في أقوام على الخصوص جرىٰ ذكرهم. إذ قد يمتحن المؤمنون بضيق العيش ويكون تكفيراً لذنوبهم. ألا ترىٰ أنه أخبر عن نوح إذ قال لقومه ﴿ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ ﴾ [نوح: ١٠ و ١١]. وعن هود ﴿ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ [هود: ٥٢]. فوعدهم المطر والخصب على التخصيص. يدل

عليه ﴿ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ أي كذبوا الرسل. والمؤمنون صدقوا ولم يكذبوا.

قوله تعالىٰ: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ الاستفهام للإنكار، والفاء للعطف. نظيره: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ [المائدة: ٥٠]. والمراد بالقرى مكة وما حولها؛ لأنهم كذبوا محمداً ﷺ. وقيل: هو عام في جميع القرىٰ. ﴿ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ﴾ أي عذابنا. ﴿ بَيَٰتًا ﴾ أي ليلاً ﴿وهم نائمون﴾ أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا﴾ قرأه الحرميان وابن عامر بإسكان الواو للعطف، على معنىٰ الإباحة؛ مثل ﴿ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الإنسان: ٢٤]. جالس الحسن أو ابن سيرين. والمعنىٰ: أو أمنوا هذه الضروب من العقوبات. أي إن أمنتم ضرباً منها لم تأمنوا الآخر. ويجوز أن يكون «أو» لأحد الشيئين، كقولك: ضربت زيداً أو عمراً. وقرأ الباقون بفتحها بهمزة بعدها. جعلها واو العطف دخلت عليها ألف الاستفهام؛ نظيره ﴿ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا ﴾ [البقرة: ١٠٠]. ومعنىٰ ﴿ ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾ أي وهم فيما لا يجدي عليهم؛ يقال لكل من كان فيما يضره ولا يجدي عليه لاعب، ذكره النحاس. وفي الصحاح. اللعب معروف، واللِّعْب مثله. وقد لعِب يلعَب. وتَلَعَّب: لَعِبَ مرة بعد أُخرىٰ. ورجل تِلْعَابَة: كثير اللعب، والتلعاب (بالفتح) المصدر. وجارية لَعُوبٌ.

قوله تعالىٰ: ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ ﴾ أي عذابه وجزاءه على مكرهم. وقيل: مكره استدراجه بالنعمة والصحة.

قوله تعالىٰ: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ ﴾ أي يُبيِّن. ﴿ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ ﴾ يريد كفار مكة ومن حولهم. ﴿ أَصَبْنَٰهُم ﴾ أي أخذناهم ﴿ بِذُنُوبِهِمْۚ ﴾ أي بكفرهم وتكذيبهم. ﴿ وَنَطْبَعُ ﴾ أي ونحن نطبع؛ فهو مستأنف. وقيل: هو معطوف على أصبنا، أي نصيبهم ونطبع؛ فوقع الماضي موقع المستقبل.

قوله تعالىٰ: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي هذه القرىٰ التي أهلكناها؛ وهي قُرىٰ نُوحٍ وعادٍ ولُوطٍ وهُودٍ وشُعَيْب المتقدّمة الذكر. ﴿نَقُصُّ﴾ أي نتلو. ﴿عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾ أي من أخبارها. وهي تسلية للنبيّ عليه السلام والمسلمين. ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ أي فما كان أولئك الكفار ليؤمنوا بعد هلاكهم لو أحييناهم؛ قاله مجاهد. نظيره ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟﴾ [الأنعام: ٢٨]. وقال ابن عباس والرّبيع: كان في علم الله تعالىٰ يوم أخذ عليهم الميثاق أنهم لا يؤمنون بالرسل. ﴿بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ يريد يوم الميثاق حين أخرجهم من ظهر آدم فآمنوا كرهاً لا طوعاً. قال السدي: آمنوا يوم أخذ عليهم الميثاق كرهاً فلم يكونوا ليؤمنوا الآن حقيقة. وقيل: سألوا المعجزات، فلما رأوها ما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل رؤية المعجزة. نظيره ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]. ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾ أي مثل طبعه على قلوب هؤلاء المذكورين كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين بمحمد ﷺ.

قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾:

«مِن» زائدة، وهي تدل على معنىٰ الجنس؛ ولولا «مِن» لجاز أن يتوهم أنه واحد في المعنىٰ. قال ابن عباس: يريد العهد المأخوذ عليهم وقت الذَّرِّ، ومن نقض العهد قيل له إنه لا عهد له، أي كأنه لم يعهد. وقال الحسن: العهد الذي عهد إليهم مع الأنبياء أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً. وقيل: أراد أن الكفار منقسمون؛ فالأكثرون منهم من لا أمانة له ولا وفاء، ومنهم من له أمانة مع كفره وإن قلّوا؛ روي عن أبي عبيدة.

قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم﴾ أي من بعد نوح وهود وصالح ولوط وشعيب. ﴿مُّوسَىٰ﴾ أي موسىٰ بن عمران. ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي بمعجزاتنا. ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ أي كفروا ولم يصدقوا بالآيات. والظلم: وضع الشيء في غير موضعه.

قوله تعالىٰ: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ أي آخر أمرهم.

قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٤ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝١٠٥ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١٠٦ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝١٠٧ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ۝١٠٨ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝١٠٩ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۝١١٠ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝١١١ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ۝١١٢﴾.

﴿حَقِيقٌ عَلَيَّ﴾[1] أي واجب. ومن قرأ «عَلَىٰ ألاَّ» فالمعنىٰ حريص على ألا أقول. وفي قراءة عبد الله «حقِيق ألا أقول» بإسقاط «على». وقيل: «علىٰ» بمعنىٰ الباء، أي حقيق بألا أقول. وكذا في قراءة أُبيّ والأعمش «بألا أقول». كما تقول: رميت بالقوس وعلى القوس. فـ«حقيقٌ» على هذا بمعنىٰ محقوق ومعنىٰ ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝١٠٥﴾ أي خلّهم. وكان يستعملهم في الأعمال الشاقة. ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾ يستعمل في الأجسام والمعاني. وقد تقدّم. والثعبان: الحية الضخم الذكر، وهو أعظم الحيات. ﴿مُّبِينٌ ۝١٠٧﴾ أي حية لا لبس فيها. ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ أي أخرجها وأظهرها. قيل: من جيبه أو من جناحه؛ كما في التنزيل ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [النمل: ١٢] أي من غير بَرَص. وكان موسىٰ أسمر شديد السّمرة، ثم أعاد يده إلى جيبه فعادت إلى لونها الأوّل. قال ابن عباس: كان لِيَدِهِ نور ساطع يضيء ما بين السماء والأرض. وقيل: كانت تخرج يده بيضاء كالثلج تَلُوح. فإذا ردّها عادت إلى مثل سائر بدنه. ومعنى ﴿عَلِيمٌ ۝١٠٩﴾ أي بالسحر. ﴿مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ أي من مُلْكِكم معاشِرَ القبط، بتقديمه بني إسرائيل عليكم. ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۝١١٠﴾ أي قال فرعون: فماذا تأمرون. وقيل: هو من قول الملأ؛ أي قالوا لفرعون وحده: فماذا تأمرون. كما يخاطب الجبّارون والرؤساء: ما تَرَوْن في كذا. ويجوز أن يكون قالوا له ولأصحابه. و«ما» في موضع رفع، على أن «ذا» بمعنىٰ الذي. وفي موضع نصب، على أن «ما» و«ذا» شيء واحد. ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ﴾ قرأ أهل المدينة وعاصم والكسائيّ بغير همز؛ إلاّ أنّ وَرْشاً والكسائيّ أَشْبعا كسرة الهاء. وقرأ أبو عمرو بهمزة ساكنة والهاء مضمومة. وهما لغتان؛ يقال: أرجأته وأرجيته، أي أخرته. وكذلك قرأ ابن كَثير وابن مُحَيْصِن وهشام؛ إلا أنهم أشبعوا ضَمّة الهاء. وقرأ سائر أهلِ الكوفة «أرجِهْ» بإسكان الهاء. قال الفرّاء: هي لغة للعرب، يقفون على الهاء المكْنِيّ عنها في الوصل إذا تحرّك ما قبلها، وكذا هذه طلحةُ قد أقبلت. وأنكر البصريونَ هذا. قال قتادة:

---

(١) قراءة نافع.

معنىٰ «أَرْجِهِ» أحبسه. وقال ابن عباس: أَخِّرْهُ. وقيل: «أرجِه» مأخوذ من رجا يرجو ؛ أي أطْمِعه ودَعْه يرجو ؛ حكاه النحاس عن محمد بن يزيد. وكسرُ الهاء على الاتباع. ويجوز ضَمّها على الأصل. وإسكانها[1] لَحْنٌ لا يجوز إلا في شذوذ من الشعر. ﴿ وَأَخَاهُ ﴾ عطف على الهاء. ﴿ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ ﴾ نصب على الحال. ﴿ يَأْتُوكَ ﴾ جزم ؛ لأنه جواب الأمر ولذلك حذفت منه النون. قرأ أهل الكوفة إلا عاصماً «بِكُلِّ سَحَّارٍ» وقرأ سائر الناس «ساحِرٍ» وهما متقاربان ؛ إلا أنّ فعالاً أشدّ مبالغة.

قوله تعالىٰ: ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ ﴾ وحُذف ذِكر الإرسال لعلم السامع. قال ابن عبد الحكم: كانوا اثني عشر نَقِيباً، مع كل نَقِيب عشرون عَرِيفا، تحت يدي كل عريف ألفُ ساحرٍ. وكان رئيسهم شمعون في قول مقاتل بن سليمان. وقال ابن جُريج: كانوا تسعمائة من العريش والفيوم والإسكندرية أثلاثا. وقال ابن إسحاق: كانوا خمسة عشر ألف ساحر ؛ وروي عن وهب. وقيل: كانوا أثني عشر ألفاً.، وقال ابن المنكدر ثمانين ألفاً. وقيل: أربعة عشر ألفاً. وقيل: كانوا ثلاثمائة ألف ساحر من الرِّيف، وثلاثمائة ألف ساحر من الصعيد، وثلاثمائة ألف ساحر من الفيُّوم وما والاها[2]. وقيل: كانوا سبعين رجلاً. وقيل: ثلاثة وسبعين ؛ فالله أعلم. وكان معهم فيما رُوي حِبالٌ وِعصِيّ يحملها ثلاثمائة بعير. فالتقمت الحية ذلك كله. قال ابن عباس والسُّدّي: كانت إذا فتحت فاهَا صار شِدْقُها ثمانين ذراعاً ؛ واضعة فكَّها الأسفل على الأرض، وفكّها الأعلي على سُور القصر. وقيل: كان سعة فمها أربعين ذراعاً ؛ فالله أعلم. فقصدت فرعون لتبتلعه، فوثب من سريره فهرب منها واستغاث بموسىٰ ؛ فأخذها فإذا هي عصاً كما كانت. قال وهب[3]: مات من خوف العَصَا خمسة وعشرون ألفاً. ﴿قَالُوا أَئِنَّ[4] لَنَا لأَجْراً﴾ أي جائزة ومالاً. ولم يقل فقالوا بالفاء ؛ لأنه أراد لما جاءوا قالوا، وقرىء «إِنَّ لَنَا» على الخبر. وهي قراءة نافع وابن كثير. ألزموا فرعونَ أن يجعل لهم مالاً إن غَلَبوا؛ فقال لهم فرعون: ﴿ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ أي لمن أهل المنزلة الرفيعة لدينا، فزادهم على ما

---

(١) كذا في الأصول وإعراب القرآن للنحاس، ويلاحظ أنها قراءة أهل الكوفة.

(٢) هذا وما قبله متلقىٰ عن أهل الكتاب، لا حجة فيه البتة والقول الأخير، وهو كونهم، سبعين رجلاً قريب محتمل، والله أعلم.

(٣) وهب هو ابن منبه يروي عن أهل الكتاب، وهذا منها.

(٤) قرأ نافع وابن كثير وحفص وأبو جعفر «إنَّ لنا» وقرأ الباقون «أئن لنا».

طلبوا. وقيل: إنهم إنما قطعوا ذلك لأنفسهم في حكمهم إن غلبوا. أي قالوا: يجب لنا الأجر إن غلبنا. وقرأ الباقون بالاستفهام على جهة الاستخبار. استخبروا فرعون: هل يجعل لهم أجراً إن غلبوا أولا ؛ فلم يقطعوا على فرعون بذلك: إنما استخبروه هل يفعل ذلك ؛ فقال لهم «نعم» لكم الأجر والقُرْب إن غلَبتم.

قوله تعالىٰ: ﴿ قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾.

تأدّبوا مع موسىٰ عليه السلام فكان ذلك سبب إيمانهم. و «أن» في موضع نصب عند الكسائي والفراء، على معنىٰ إما أن تفعل الإلقاء. ومثلهُ قول الشاعر:

قالوا الرُّكوبَ فقلنا تلك عادتنا

﴿ قَالَ أَلْقُوا۟ ﴾ قال الفراء: في الكلام حذف. والمعنىٰ: قال لهم موسىٰ إنكم لن تغلبوا ربكم ولن تبطلوا آياته. وهذا من معجز القرآن الذي لا يأتي مثله في كلام الناس، ولا يقدرون عليه. يأتي اللفظ اليسير بجمع المعاني الكثيرة. وقيل: هو تهديد. أي ابتدئوا بالإلقاء، فسترون ما يحلّ بكم من الافتضاح ؛ إذ لا يجوز على موسىٰ أن يأمرهم بالسحر. وقيل: أمرهم بذلك ليبيّن كذبهم وتمويههم. ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ ﴾ أي الحبال والعِصِيّ. ﴿ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ ﴾ أي خيلوا لهم وقلبوها عن صحة إداركها، بما يُتخيّل من التمويه الذي جرىٰ مجرىٰ الشعوذة وخفة اليد؛ كما تقدم في «البقرة» بيانه. ومعنىٰ ﴿ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ﴾ أي عندهم؛ لأنه كان كثيراً وليس بعظيم على الحقيقة. قال ابن زيد: كان الإجتماع بالإسكندرية فبلغ ذَنَب الحيّة وراء البحيرة. وقال غيره: وفتحت فَاهَا فجعلت تلقف ـ أي تلتقم ـ ما ألقوا من حبالهم وعِصيّهم. وقيل: كان ما ألقوا حبالاً من أَدَم فيها زئبق فتحركت وقالوا هذه حيّات. وقرأ حَفْص «تَلْقف» بإسكان اللام والتخفيف. جعله مستقبل لَقِف يَلْقَف. قال النحاس: ويجوز على هذه القراءة «تِلْقَف» لأنه من لَقِف. وقرأ الباقون بالتشديد وفتح اللام، وجعلوه مستقبل تَلقَّف ؛ فهي تَتَلَقّف. يقال: لقفت الشيء وتلقفته إذا أخذته أو بَلَعته. تَلْقَف وتَلْقَم وتَلْهَم بمعنىً واحد. قال أبو حاتم: وبلغني في بعض القراءات «تَلَقّم» بالميم والتشديد. قال الشاعر:

أنت عَصَا موسى التي لم تزلْ تَلْقَمُ ما يأْفِكُه الساحرُ

ويروى: تلقف. ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي ما يكذبون، لأنهم جاؤوا بحبال وجعلوا فيها زئبقاً حتى تحركت.

قوله تعالىٰ: ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ ﴾ قال مجاهد: فظهر الحق. ﴿ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ نصب على الحال. والفعل منه صغر يَصْغَر صَغَراً وصِغَراً وصَغاراً. أي ٱنقلب قوم فرعونَ وفرعونُ معهم أذِلاّء مَقْهُورين مغلوبين. فأما السحرة فقد آمنوا.

قوله تعالىٰ: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ إنكار منه عليهم. ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا ﴾ أي جرت بينكم وبينه مُواطأة في هذا لتستولوا على مصر، أي كان هذا منكم في مدينة مصر قبل أن تبرزوا إلى هذه الصحراء ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ تهديد لهم. قال ٱبن عباس: كان فرعون أوّلَ من صَلبَ، وقَطَع الأيدي والأرجل من خلافٍ، الرجل اليُمْنَىٰ واليد اليسرىٰ، واليد اليمنىٰ والرجل اليسرىٰ، عن الحسن. ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا ﴾ قرأ الحسن بفتح القاف. قال الأخفش هي لغة يقال: نَقِمت الأمر ونقمته أنكرته، أي لست تكره منا سوى أن آمنا بالله وهو الحق. ﴿ لَمَّا جَآءَتْنَا ﴾ آياته وبيناته. ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ الإفراغ الصب، أي أصببه علينا عند القطع والصلب. ﴿ وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ فقيل: إن فرعون أخذ السحرة وقطعهم على شاطىء النهر، وإنه آمن بموسىٰ عند إيمان السحرة ستمائة ألف[1].

قوله تعالىٰ: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي

---

(١) هذه أرقام خيالية من مجازفات بني إسرائيل، لا حجة فيها البتة، فقد جاء في سورة الصافات في وصف أتباع موسىٰ حكاية عن فرعون ﴿إن هؤلاء لشرذمة قليلون﴾ ولو آمن مثل هذا العدد ما استسلم السحرة لفرعون، ولما خرج موسىٰ من وجه، فرعون باتجاه البحر.

بإيقاع الفرقة وتشتيت الشَّمل. ﴿وَيَذَرَكَ﴾ بنصب الراء جواب الاستفهام، والواو نائبة عن الفاء. ﴿وَءَالِهَتَكَ﴾ قال الحسن: كان فرعون يعبد الأصنام، فكان يَعْبُد ويُعْبَد. قال سليمان التيْمِيُّ: بلغني أن فرعون كان يعبد البقر. قال التيمِيّ: فقلت للحسن هل كان فرعون يعبد شيئاً؟ قال نعم، إنه كان يعبد شيئاً كان قد جعله في عنقه. وقيل: معنىٰ «وآلهتك» أي وطاعتك، كما قيل في قوله تعالىٰ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة ٣١] إنهم ما عبدوهم ولكن أطاعوهم ؛ فصار تمثيلاً. وقرأ نُعيم بن ميسرة «وَيذرُكَ» بالرفع على تقدير وهو يَذُرك». وقرأ الأشهب العقيليّ «وَيَذرْك» مجزوماً مخفف يذرُك لثقل الضمة. وقرأ أنس بن مالك «ونذركُ» بالرفع والنون. أخبروا عن أنفسهم أنهم يتركون عبادته إن ترك موسىٰ حيًّا. وقرأ عليّ بن أبي طالب وابن عباس والضحّاك «وإلاَهتك» ومعناه وعبادتك. وعلى هذه القراءة كان يُعْبَد ولا يَعْبُد، أي ويترك عبادته لك. قال أبو بكر الأنباريّ: فَمن مذهبَ أصحاب هذه القراءة أن فرعون لما قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات: ٢٤] و﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨] نفىٰ أن يكون له رب وإلاهة. فقيل له: ويذرك وإلاهَتَكَ ؛ بمعنىٰ ويتركك وعبادة الناس لك. وقراءة العامة «وَآلِهَتَكَ» كما تقدّم وهي مبنية على أن فرعون ٱدّعىٰ الرُّبُوبيّة في ظاهر أمره وكان يعلم أنه مَرْبُوب. ودليل هذا قولُه عند حضور الحمام ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[يونس: ٩٠] فلم يقبل هذا القول منه لـما أتىٰ بـه بعد إغلاق بـاب التوبة. وكان قبل هذه الحال له إله يعبده سراً دون رب العالمين جل وعز؛ قاله الحسن وغيره. وفي حرف أُبَيّ «أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض وقد تركوك أن يعبدوك». وقيل: «وإلاهتك» قيل: كان يعبد بقرة، وكان إذا ٱستحسن بقرة أمر بعبادتها، وقال: أنا ربكم ورب هذه. ولهذا قال: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا﴾[1] [طه: ١٨]. ذكره ابن عباس والسُّدِّي. قال الزجاج: كان له أصنام صغار يعبدوها قومُه تقرباً إليه فنُسبت إليه؛ ولهذا قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾. قال إسماعيل بن إسحاق: قول فرعون: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾. يدل على أنهم كانوا يعبدون شيئاً غيره. وقد قيل: إن المراد بالإلاهة على قراءة ابن عباس البقرة التي كان يعبدها. وقيل: أرادوا بها الشمس وكانوا يعبدونها. قال الشاعر:

وأعْجَلْنَا الإلاهـة أن تَؤُبَـا

---

(١) مثل هذا لا يصح عن ابن عباس فهذه الآية تتحدث عن السامري كما جاء في سورة طه. والله أعلم.

ثم آنس قومه فقال: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ بالتخفيف، قراءة نافع وابن كثير. والباقون بالتشديد على التكثير. ﴿وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ أي لا تخافوا جانبهم. ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ آنسهم بهذا الكلام. ولم يقل سنقتل موسىٰ لعلمه أنه لا يقدر عليه. وعن سعيد بن جُبير قال: كان فرعون قد مُلىء من موسىٰ رُعْباً؛ فكان إذا رآه بال كما يبول الحمار. ولما بلغ قوم موسىٰ من فرعون هذا قال لهم موسىٰ: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ﴾ أطمعهم في أن يورثهم الله أرض مصر. ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ أي الجنة لمن اتقىٰ وعاقبة كل شيء. آخره. ولكنها إذا أطلقت فقيل: العاقبة لفلان فُهِم منه في العُرْف الخير.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا﴾ أي في ابتداء ولادتك بقتل الأبناء واسترقاق النساء. ﴿وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ أي والآن أُعِيد علينا ذلك؛ يعنون الوعيد الذي كان من فرعون. وقيل: الأذىٰ من قبلُ: تسخيرهم لبني إسرائيل في أعمالهم إلى نصف النهار، وإرسالهم بقيته ليكتسبوا لأنفسهم. والأذى من بعدُ: تسخيرُهم جميع النهار كله بلا طعام ولا شراب؛ قاله جُوَيْبر. وقال الحسن: الأذى من قبلُ ومن بعدُ واحد، وهو أخذ الجزية. ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ «عسى» من الله واجب؛ جدّد لهم الوعد وحقّقه. وقد استُخلِفوا في مصر في زمان داود وسليمان عليهما السلام، وفَتَحُوا بيت المقدس مع يُوشَع بن نون؛ كما تقدّم. ورُوي أنهم قالوا ذلك حين خرج بهم موسى وتبعهم فرعون فكان وراءهم والبحر أمامهم، فحقّق الله الوعيد بأن غرّق فرعون وقومه وأنجاهم. ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ تقدّم نظائره. أي يرى ذلك العمل الذي يجب به الجزاء؛ لأن الله لا يجازيهم على ما يعلمه منهم، إنما يجازيهم على ما يقع منهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾ يعني الجدوب. وهذا معروف في اللغة؛ يقال: أصابتهم سَنَة، أي جدب. وتقديره جَدْبُ سنة. وفي الحديث:

[٣١١٣] «اللَّهُمَّ اْجعلها عليهم سِنين كسِني يوسفَ». ومن العرب من يُعرب النون في السنين؛ وأنشد الفراء:

أرَى مَــرّ السنيــنِ أخَــذْنَ مِنّــي كمـا أخَـذَ السِّـرار[١] مـن الهـلال

قال النحاس: وأنشد سيبويه هذا البيت بفتح النون؛ ولكن أنشد في هذا مالا يجوز غيره، وهو قوله:

وقد جَـاوَزْتُ رأسَ الأربعيـنِ

وحكى الفراء عن بني عامر أنهم يقولون: أقمتُ عنده سِنِيناً يا هذا؛ مصروفاً. قال: وبنو تميم لا يصرفون ويقولون: مضت له سنينُ يا هذا. وسنينُ جمع سنة، والسنة هنا بمعنى الجدب لا بمعنى الحَوْل. ومنه أسْنَتَ القوم أي أجدبوا. قال عبد الله بن الزِّبَعْرى:

عَمْـرُو العُـلاَ هَشَـمَ الثَّـرِيـد لقـومـه ورجـالُ مكـةَ مُسنِتُـون عِجـافُ

﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ أي ليتعظوا وترِق قلوبهم.

قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾.

فيه مسألتان:

الأُولى ـ قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ ﴾ أي الخِصْب والسَّعة. ﴿ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ ﴾ أي أعْطيناها باستحقاق. ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ أي قَحْط ومرض، وهي المسألة: ـ

الثانية ـ ﴿ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ ﴾ أي يتشاءموا به. نظيره ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ ﴾ [النساء: ٧٨]. والأصل «يتطيروا» أدغمت التاء في الطاء. وقرأ طلحة: «تطيّروا» على أنه فعل ماضٍ. والأصل في هذا من الطِّيرةِ وزَجْر الطَّير، ثم كثُرَ استعمالهم حتى قيل لكل من تشاءم: تَطَيَّر. وكانت العرب تتيمّن بالسّانح: وهو الذي يأتي من ناحية اليمين. وتتشاءم بالبارح؛ وهو الذي يأتي من ناحية الشّمال. وكانوا يتطيرون أيضاً بصوت الغراب؛ ويتأوّلونه البَيْن. وكانوا يستدِلون بمجاوبات الطيور بعضِها بعضاً على أُمور، وبأصواتها في غير أوقاتها المعهودة على مثل ذلك. وهكذا الظِّباء إذا مضت سانحة أو

[٣١١٣] صحيح. أخرجه البخاري ٢٩٣٢ ومسلم ٦٧٥ وتقدم.

---

(١) الليلة التي يستتر فيها القمر آخر الشهر.

بارحة، ويقولون إذا بَرَحت: مَنْ لي بالسّانح بعد البارح. إلا أنّ أقوى ما عندهم كان يقع في جميع الطير؛ فسمَّوْا الجميع تَطَيُّراً من هذا الوجه. وتطيّر الأعاجمُ إذا رَأَوا صبِيّاً يذهب به إلى المُعَلِّم بالغداة، ويتيمَّنون برؤية صبيّ يرجع من عند المعلم إلى بيته، ويتشاءمون برؤية السَّقاء على ظهره قِربة مملوءةٌ مشدودة، ويتيمّنون برؤية فارغ السِّقاء مفتوحة قربته؛ ويتشاءمون بالحَمّال المثقّل بالحِمْل، والدابة المُوقرة[1]، ويتيمنون بالحَمّال الذي وضع حِمله، وبالدابة يُحَطّ عنها ثِقْلُها. فجاء الإسلام بالنَّهْي عن التّطيّر والتشاؤم بما يُسمع من صوتِ طائرٍ ما كان، وعلى أيّ حال كان؛ فقال عليه السلام:

[٣١١٤] «أقِرُّوا الطير على مَكِناتها». وذلك إن كثيراً من أهل الجاهلية كان إذا أراد الحاجة أتى الطير في وَكْرها فنفّرها؛ فإذا أخذت ذات اليمين مضى لحاجته، وهذا هو السانح عندهم. وإن أخذت ذات الشمال رجع، وهذا هو البارح عندهم. فنهى النبيّ ﷺ عن هذا بقوله: «أَقِرُّوا الطير على مكناتها» هكذا في الحديث. وأهل العربية يقولون: «وُكِناتها» قال أمرؤ القيس:

وقد أغْتَـدِي والطّيْر في وُكناتـها

والوُكْنة: أسم لكلّ وكْر وعُشّ. والوكن: موضع الطائر الذي يبيض فيه ويُفْرِخ، وهو الخرق في الحيطان والشجر. ويقال: وَكَن الطائر يَكِن وكُوناً إذا حضن بيضه. وكان أيضاً من العرب من لا يرى التطيّر شيئاً، ويمدحون من كذّب به. قال المُرَقِّش:

ولقـد غَـدَوْتُ وكنـتُ لا ... أغـدُو علـى وَاقٍ وحـاتـم[2]
فـإذا الأشـائِـمُ كـالأيـا ... مِـنِ والأيـامِـنُ كـالأشـائـم

وقال عكرمة: كنت عند أبن عباس فمرّ طائر يصيح؛ فقال رجل من القوم: خير، خير. فقال أبن عباس: ما عند هذا لا خير ولا شر. قال علماؤنا: وأما أقوال الطير فلا تعلّق لها بما يجعل دلالة عليه، ولا لها علم بكائن فضلاً عن مستقبل فتُخبِر به، ولا في الناس من يعلم منطق الطير؛ إلا ما كان الله تعالى خصّ به سليمان ﷺ من ذلك، فألتحق التطيّر بجملة الباطل. والله أعلم. وقال ﷺ:

[٣١١٤] صحيح. أخرجه الطيالسي ١٦٣٤ وأحمد ٦/ ٣٨١ وأبو داود ٢٨٣٥ وصححه ابن حبان ٦١٢٦ والحاكم ٤/ ٢٣٧ ووافقه الذهبي، كلهم من حديث أم كرز، وقال في المجمع ٥/ ١٠٦: رواه الطبراني بأسانيد أحدها رجاله ثقات. وانظر صحيح أبي اودد ٢٤٥٩. وصححه الأرناؤط في الإحسان.

---

(١) التي عليها حمل ثقيل.
(٢) الواقُ: الصُّرَدُ. والحاتم: الغراب الأسود.

[٣١١٥] «ليس مِنّا من تحلّم[(١)] أو تكهّن أو ردّه عن سفره تطيّر». وروى أبو داود عن عبد الله بن مسعود عن النبيّ ﷺ قال:

[٣١١٦] «الطِّيَرة شرك ـ ثلاثاً ـ وما مِنا إلاّ[(٢)] ـ ولكِنّ الله يذهبه بالتوكّل». وروى عبد الله بن عمرو بن العاص عن رسول الله ﷺ قال:

[٣١١٧] «من رجّعته الطِّيرة عن حاجته فقد أشرك». قيل: وما كفارة ذلك يا رسول الله؟ قال: «أن يقول أحدهم اللّهُمّ لا طَيْرَ إلا طَيْرُكَ ولا خَيْرَ إلاّ خَيْرُكَ ولا إلَه غيرُك ثم يمضي لحاجته». وفي خبر آخر:

[٣١١٨] «إذا وجد ذلك أحدكم فليقل اللّهُمّ لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يذهب بالسيئات إلا أنت لا حول ولا قوة إلا بك». ثم يذهب متوكّلاً على الله؛ فإن الله يكفيه ما وجد في نفسه من ذلك، وكفاه الله تعالى ما يُهِمّه. وقد تقدم في «المائدة» الفرق بين الفأل والطيرة. ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَـٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ وقرأ الحسن «طَيْرُهم» جمع طائر. أي ما قُدِّر لهم

[٣١١٥] أخرجه الطبراني كما في المجمع ٥/١١٨/٨٤٨٧ من حديث أبي الدرداء، وقال الهيثمي: رواه بإسنادين، ورجال أحدهما ثقات.

[٣١١٦] جيد. أخرجه أبو داود ٣٩١٠ والترمذي ١٦١٤ وابن ماجه ٣٥٣٨ وأحمد ١/٤٣٨ والطيالسي ٣٥٦ والطحاوي في المشكل ١/٣٥٨ والحاكم ١/١٧ ـ ١٨ وابن حبان ٦١٢٢ والبخاري في الأدب المفرد ٩٠٩ من حديث ابن مسعود، قال الترمذي: حسن صحيح. وقال الحاكم: صحيح سنده، رواته ثقات، ووافقه الذهبي، وإسناده على شرطهما، سوىٰ عيسىٰ بن عاصم الأسدي، وهو ثقة كما في التقريب.

[٣١١٧] صحيح. أخرجه أحمد برقم ٧٠٤٥ وعبد الله بن وهب في الجامع ص ١١٠ من حديث عبد الله بن عمرو، وقال الهيثمي في المجمع ٨٤١٢: فيه ابن لهيعة حديثه حسن، وفيه ضعف اهـ الراوي عنه ابن وهب فالحديث حسن، وأخرجه البزار ٣٠٤٨ من حديث بريدة، وإسناده ضعيف لضعف الحسن بن أبي جعفر، وله شواهد انظر الصحيحة ١٠٦٥.

[٣١١٨] أخرجه أبو داود ٣٩١٩ والبيهقي في الشعب ١١٧١ من حديث عروة بن عامر. ورجاله ثقات كلهم إلاّ أن حبيب بن أبي ثابت وإن روىٰ له الشيخان فإنه مدلس وقد عنعنه، وعـروة بن عامر، مختلف في صحبته. وانظر ضعيف أبي داود ٨٤٣.

---

(١) أي أدعى الرؤيا كاذباً.

(٢) قال الخطابي في معالم السنن ٤/٢٣٢: لفظ «وما منا إلا» معناه: إلا من يعتريه التطير، فحذف ذلك اعتماداً على فهم السامع اهـ.

فائدة: قال الترمذي: قال البخاري: كان سليمان بن حرب ينكر لفظ «ما منا» أن يكون مرفوعاً، ويقول: هو قول ابن مسعود، ووافقه الحافظ في الفتح ١٠/٢١٣.

وعليهم. ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾ أن ما لحِقهم من القَحط والشدائد إنما هو من عند الله عز وجل بذنوبهم لا من عند موسى وقومه.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ ﴾ أي قال قوم فرعون لموسى «مهما». قال الخليل: الأصل ما، ما؛ الأُولى للشرط، والثانية زائدة توكيد للجزاء؛ كما تزاد في سائر الحروف، مثلُ إمّا وحيثما وأينما وكيفما. فكرِهوا حرفين لفظهما واحد؛ فأبدلوا من الألف الأُولى هاء فقالوا مهما. وقال الكسائيّ: أصله مَهْ؛ أي أكفف، ما تأتنا به من آية. وقيل: هي كلمة مفردة، يجازى بها ليُجزم ما بعدها على تقدير إنْ. والجواب ﴿ فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾. ﴿ لِتَسْحَرَنَا ﴾ لتصرفنا عما نحن عليه. وقد مضى في «البقرة» بيان هذه اللفظة. قيل: بقي موسى في القبط بعد إلقاء السحرة سُجَّداً عشرين سنة يريهم الآيات إلى أن أغرق الله فرعون، فكان هذا قولهم.

قوله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾.

فيه خمس مسائل:

الأُولى ـ روى إسرائيل عن سِمَاك عن نَوْف الشاميّ قال: مكث موسى ﷺ في آل فرعون بعدما غلب السحرةَ أربعين عاماً. وقال محمد بن عثمان بن أبي شيبة عن مِنجاب: عشرين سنة، يريهم الآيات: الجراد والقُمَّل والضفادع والدّم.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿ الطُّوفَانَ ﴾ أي المطر الشديد حتى عامُوا فيه. وقال مجاهد وعطاء: الطوفان الموت قال الأخفش: واحدته طوفانة. وقيل: هو مصدر كالرُّجْحَان والنُّقْصان؛ فلا يطلب له واحد. قال النحاس: الطوفان في اللغة ما كان مُهْلِكاً من موت أو سَيْل؛ أي ما يطيف بهم فيهلكهم. وقال السُّدِّي: ولم يُصِب بني إسرائيل قطرةٌ من ماء، بل دخل بيوتَ القبط حتى قاموا في الماء إلى تَراقِيهم، ودام عليهم سبعةَ أيام. وقيل: أربعين يوماً. فقالوا: أدع لنا ربك يكشف عنا فنؤمن بك؛ فدعا ربه فرفع عنهم الطوفان فلم يؤمنوا. فأنبت الله لهم في تلك السنة ما لم يُنبته قبل ذلك من الكلأ والزرع. فقالوا: كان ذلك الماء نعمة؛ فبعث الله عليهم الجراد وهو الحيوان المعروف، جمع جرادة في المذكر والمؤنث. فإن أردت الفصل نعتَّ فقلت رأيت جرادة ذكراً ـ فأكل زروعهم وثمارهم حتى أنها كانت تأكل السقوف والأبواب حتى تنهدِم ديارهم. ولم يدخل دُور بني إسرائيل منها شيء.

الثالثة ـ وٱختلف العلماء في قتل الجراد إذا حَلّ بأرض فأفسد؛ فقيل: لا يقتل. وقال أهل الفقه كلهم: يُقتل. ٱحتج الأوّلون بأنه خَلْق عظيم من خلق الله يأكل من رزق الله ولا يَجْرِي عليه القلم. وبما روي:

[٣١١٩] «لا تقتلوا الجراد فإنه جند الله الأعظمُ». وٱحتج الجمهور بأن في تركها فساد الأموال، وقد رخص النبيّ ﷺ بقتال المسلم إذا أراد أخذ ماله؛ فالجراد إذا أرادت فساد الأموال كانت أولى أن يجوز قتلها. ألا ترى أنهم قد ٱتفقوا على أنه يجوز قتل الحية والعقرب؟ لأنهما يؤذيان الناس فكذلك الجراد. روى ٱبن ماجه عن جابر وأنس بن مالك أن النبيّ ﷺ كان إذا دعا على الجراد قال:

[٣١٢٠] «اللَّهُمّ أهلك كباره وٱقتل صغاره وأفسد بيضه وٱقطع دابره وخُذْ بأفواهه عن معايشنا وأرزاقنا إنك سميع الدعاء». قال رجل: يا رسول الله، كيف تدعو على جند من أجناد الله بقطع دابره؟ قال: «إن الجراد نَثْرة الحوت في البحر».

الرابعة ـ ثبت في صحيح مسلم عن عبد الله بن أبي أَوْفَى قال:

[٣١٢١] غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات كنا نأكل الجراد معه. ولم يختلف العلماء في أكله على الجملة، وأنه إذا أخذ حيّاً وقطعت رأسه أنه حلال باتفاق. وأنّ ذلك يتنزل منه منزلة الذكاة فيه. وإنما ٱختلفوا هل يحتاج إلى سبب يموت به إذا صِيد أم لا؛ فعامّتهم على أنه لا يحتاج إلى ذلك، ويؤكل كيفما مات. وحكمه عندهم حكم الحِيتان، وإليه ذهب ٱبن نافع ومُطَرِّف وذهب مالك إلى أنه لا بُدّ له من سبب يموت به؛ كقطع رؤوسه أو أرجله أو أجنحته إذا مات من ذلك، أو يُسْلق أو يطرح في النار؛ لأنه عنده من حيوان البر فَمَيْتَتُه محرّمة. وكان اللّيث يكره أكل ميت الجراد، إلا ما أخذ حيّاً ثم مات فإن أخذه ذكاة. وإليه ذهب سعيد بن المُسَيِّب. وروى الدَّارَقُطْنِيّ عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال:

[٣١٢٢] «أحِلّ لنا ميتتان الحُوت والجراد ودمان الكَبِد والطِّحال». وقال ابن ماجه:

[٣١١٩] مضىٰ تخريجه، وهو حديث ضعيف.

[٣١٢٠] ضعيف جداً. أخرجه ابن ماجة ٣٢٢١ وابن الجوزي في الموضوعات ٣/ ١٤ من حديث جابر وأنس معاً، وقال: فيه موسىٰ بن محمد. قال ابن معين: ليس بشيء، ولا يكتب حديثه، وقال النسائي: منكر الحديث. وأخرجه البيهقي في الشعب ١٠١٣٠ من حديث ابن عمر، وقال: قال القيسي: هذا مجهول، وهذا حديث منكر، والله أعلم اهـ. وحكم الألباني بوضعه في الضعيفة ١١٢.

[٣١٢١] صحيح. أخرجه البخاري ٥٤٩٥ ومسلم ١٩٥٢ وتقدم.

[٣١٢٢] مضى تخريجه.

حدّثنا أحمد بن مَنيع حدّثنا سفيان بن عُيينة عن أبي سعيد سمع أنس بن مالك يقول: كُنّ أزواج النبيّ ﷺ يتهادَيْن الجراد على الأطباق[1]. ذكره ابن المنذر أيضاً.

الخامسة ـ روى محمد بن المنكَدِر عن جابر بن عبد الله عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول:

[٣١٢٣] إن الله تعالى خلق ألف أُمّة ستمائة منها في البحر وأربعمائة في البر وإن أوّل هلاك هذه الأُمم الجراد فإذا هلكت الجراد تتابعت الأُمم مثل نظام السِّلك إذا انقطع». ذكره الترمذيّ الحكيم في (نوادر الأُصول) وقال: وإنما صار الجراد أوّل هذه الأُمم هلاكاً لأنه خُلق من الطينة التي فَضَلت من طينة آدم. وإنما تهلك الأُمم لهلاك الآدميّين لأنها مسخّرة لهم.

رجعنا إلى قصة القبط ـ فعاهدوا موسى أن يؤمنوا لو كُشف عنهم الجراد، فدعا فكشف وكان قد بَقِيَ من زروعهم شيء فقالوا: يكفينا ما بَقِيَ؛ ولم يؤمنوا فبعث الله عليهم القُمّل، وهو صغار الدَّبَى؛ قاله قَتادة. والدَّبَى: الجراد قبل أن يطير، الواحد دَباة. وأرض مَدْبِيّة إذا أكل الدَّبَى نباتها. وقال ابن عباس: القُمّل السُّوس الذي في الحِنطة. وقال ابن زيد: البراغيث. وقال الحسن: دوابّ سود صغار. وقال أبو عبيدة: الحَمْنَان، وهو ضرب من القُرَاد، واحدها حَمْنانة. فأكلت دوابَّهم وزروعهم، ولزمت جلودهم كأنها الجُدَريّ عليهم، ومنعهم النومَ والقرار. وقال حبيب بن أبــي ثابت: القُمّل الجِعلان[2]. والقُمّل عند أهل اللغة ضرب من القِردان. قال أبو الحسن الأعرابِيّ العدويّ: القُمّل دواب صغار من جنس القردان؛ إلا أنها أصغر منها، واحدتها قُمّلة. قال النحاس: وليس هذا بناقض لما قاله أهل التفسير؛ لأنه يجوز أن تكون هذه الأشياء كلّها أرسلت عليهم، وهي أنها كلها تجتمع في أنها تؤذيهم. وذكر بعض المفسرين أنه كان «بعَيْن شمس» كَثِيب من رمل فضربه موسى بعصاه فصار قَمَّلاً. وواحد القَمْل قَمْلة. وقيل: القُمَّلُ القَمْلُ، قاله عطاء الخُراسانيّ. وفي قراءة الحسن «والقَمْل» بفتح القاف وإسكان الميم. فتضرّعوا فلما كُشف عنهم لم يؤمنوا؛ فأرسل الله عليهم الضفادع، جمع ضِفْدِع وهي المعروفة التي تكون في الماء، وفيــه مسألة واحدة وهــي أن النهي ورد عن قتلها؛ أخرجه أبو داود وابن

[٣١٢٣] باطل. أخرجه ابن حبان في «المجروحين» ٢/ ٢٥٧ وابن الجوزي في «الموضوعات» ٣/ ١٣ ـ ١٤ من حديث جابر عن عمر، وقال ابن حبان: لا شك أنه موضوع، محمد بن عيسىٰ يروي عن ابن المنكدر العجائب.

---

(١) أخرجه ابن ماجه ٣٢٢٠ بإسناد ضعيف لضعف أبي سعيد البقال.

(٢) هو دابة سوداء من دواب الأرض.

ماجه بإسناد صحيح. أخرجه أبو داود عن أحمد بن حنبل عن عبد الرزاق وابن ماجه عن محمد بن يحيى النيسابورِيّ الذُّهْليّ عن أبي هريرة قال:

[٣١٢٤] نهى رسول الله ﷺ عن قتل الصُّرَد والضِّفْدع والنّملة والهُدهد. وخرج النسائِيّ عن عبد الرحمن بن عثمان:

[٣١٢٥] أن طبيباً ذكر ضِفْدعاً في دواء عند النبيّ ﷺ؛ فنهاه النبي ﷺ عن قتله. صححه أبو محمد عبد الحق. وعن أبي هريرة قال: الصُّرَد أوّل طير صام. ولَمّا خرج إبراهيم عليه السلام من الشأم إلى الحرم في بناء البيت كانت السَّكِينة[1] معه والصرد؛ فكان الصُّرد دليلَه إلى الموضع، والسّكِينة مقداره. فلما صار إلى البقعة وقعت السَّكِينة على موضع البيت ونادت: أبْنِ يا إبراهيم على مقدار ظِلِّي؛ فنهى النبيّ ﷺ عن قتل الصُّرد لأنه كان دليل إبراهيم على البيت، وعن الضفدع لأنها كان تصبّ الماء على نار إبراهيم. ولَمّا تسلّطت على فرعون جاءت فأخذت الأمكنة كلها، فلما صارت إلى التَّنُّور وَثَبَتْ فيها وهي نار تسعر، طاعة لله. فجعل الله نقِيقها تسبيحاً. يقال: إنها أكثر الدواب تسبيحاً. قال عبد الله بن عمرو: لا تقتلوا الضّفدع فإن نقيقه الذي تسمعون تسبيح. فرُوي أنها ملأت فرشَهم وأوعيتهم وطعامهم وشرابهم؛ فكان الرجل يجلس إلى ذقنه في الضفادع، وإذا تكلّم وثب الضّفدع في فيه. فشكَوْا إلى موسى وقالوا: نتوب؛ فكشف الله عنهم ذلك فعادوا إلى كفرهم؛ فأرسل الله عليهم الدّم فسال النيل عليهم دَماً. وكان الإسرائيليّ يغترف منه الماء، والقبطيُّ الدّمَ. وكان الإسرائيلي يَصُبّ الماء في فم القبطي فيصير دَماً، والقبطيُّ يصب الدّم في فم الإسرائيلي فيصير ماء زلالاً. ﴿ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ﴾ أي مبيّنات ظاهرات؛ عن مجاهد. قال الزجاج: «آيات مفصّلات» نصب على الحال. ويروى أنه كان بين الآية والآية ثمانية أيام. وقيل: أربعون يوماً. وقيل: شهر؛ فلهذا قال «مفصلات». ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ أي ترفّعوا عن الإيمان بالله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن

[٣١٢٤] صحيح. أخرجه أبو داود ٥٢٦٧ وابن ماجه ٣٢٢٤ وعبد الرزاق ٨٤١٥ وأحمد ١/ ٣٣٢ والدارمي ٢/ ٨٨ والبيهقي ٩/ ٣١٧ وصححه ابن حبان ٥٦٤٦ من طرق عن عبيد الله بن عتبة عن ابن عباس مرفوعاً، وهذا إسناد على شرطهما عبيد الله روىٰ له الجماعة.

[٣١٢٥] أخرجه أبو داود ٣٨٧١ و٥٢٦٩ والنسائي ٧/ ٢١٠ من حديث عبد الرحمن بن عثمان، وصححه عبد الحق، وتقدم تخريجه. وانظر صحيح أبي داود ٤٣٨٩.

---

(١) ريح خجوج سريعة الممر.

كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ﴾ أي العذاب. وقرىء بضم الراء، لغتان. قال ابن جبير: كان طاعوناً مات به من القبط في يوم واحد سبعون ألفاً. وقيل: المراد بالرجز ما تقدم ذكره من الآيات. ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ «ما» بمعنى الذي، أي بما استودعك من العلم، أو بما اختصّك به فنبّأك. وقيل: هذا قَسَم، أي بعهده عندك إلاّ ما دعوت لنا؛ فـ«ما» صلة[1]. ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ﴾ أي بدعائك لإلٰهك حتى يكشف عنا. ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ أي نصدّقك بما جئت به. ﴿وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾﴾ وكانوا يستخدمونهم؛ على ما تقدم. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾ يعني أجلهم الذي ضرب لهم في التغريق. ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ أي ينقضون ما عقدوه على أنفسهم. ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ والْيَمُّ البحر. ﴿وَكَانُواْ عَنْهَا﴾ أي النقمة. دلّ عليها﴿فَٱنتَقَمْنَا﴾ وقيل: عن الآيات أي لم يعتبروا بها حتىٰ صاروا كالغافلين عنها.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ﴾ يريد بني إسرائيل. ﴿ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ﴾ أي يُسْتَذَلُّون بالخدمة. ﴿مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ زعم الكِسائي والفرّاء أن الأصل «في مشارق الأرض ومغاربها» ثم حُذِفَ «في» فنصب. والظاهر أنهم وَرِثوا أرض القبط. فهما نصبٌ على المفعول الصريح؛ يقال: ورِثت المال وأورثته المال؛ فلما تعدّى الفعل بالهمزة نصب مفعولين. والأرض هي أرض الشأم ومصر. ومشارقها ومغاربها جهاتُ الشرق والغرب بها؛ فالأرض مخصوصة، عن الحسن وقَتادة وغيرهما. وقيل: أراد جميع الأرض؛ لأنّ مِن بني إسرائيل داود وسليمان وقد ملكا الأرض. ﴿ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ أي بإخراج الزروع والثمار والأنهار. ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ هي قوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ

(١) كذا في جميع النسخ والظاهر أنها مصدرية.

ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾﴾ [القصص: ٥]. ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ أي بصبرهم على أذى فرعون، وعلى أمر الله بعد أن آمنوا بموسى. ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ يقال: عَرَش يَعْرِش إذا بَنَى. قال ابن عباس ومجاهد: أي ما كانوا يبنون من القصور وغيرها. وقال الحسن: هو تعريش الكَرْم. وقرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم «يَعْرُشون» بضم الراء. قال الكسائيّ: هي لغة تميم. وقرأ إبراهيم بن أبي عَبْلَة «يُعرِّشون» بتشديد الراء وضم الياء.

قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْۚ﴾ قرأ حمزة والكِسائيّ بكسر الكاف، والباقون بضمها. يقال: عَكَف يَعْكِف وَيَعْكُف بمعنى أقام على الشيء ولزمه. والمصدر منهما على فُعول. قال قتادة: كان أُولئك القوم من لَخْم، وكانوا نزولاً بالرِّقّة. وقيل: كانت أصنامهم تماثيلَ بقر؛ ولهذا أخرج لهم السامِرِيّ عجلاً. ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌۚ قَالَ﴾ نظيره قول جُهّال الأعْراب وقد رَأَوا شجرة خضراء للكفار تُسَمَّى ذاتَ أَنْوَاط يعظّمونها في كل سنة يوماً:

[٣١٢٦] يا رسول الله، اْجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذاتُ أَنْوَاط. فقال عليه الصلاة والسلام: «الله أكبر. قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ لتركَبُنّ سنَن مَن قبلكم حَذْوَ القُذّة بالقُذّة[1] حتى إنهم لو دخلوا جُحْر ضَبٍّ لدخلتموه». وكان هذا في مَخْرَجه إلى حُنَين، على ما يأتي بيانه في «براءة» إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ أي مُهْلَك، والتّبار: الهلاك. وكل إناء مكسر مُتَبَّر. وأمر مُتَبّر. أي إن العابد والمعبود مهلكان. وقوله: ﴿وَبَٰطِلٌ﴾ أي ذاهب مضمَحِلّ. ﴿مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ «كَانُوا» صلة زائدة. ﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ

[٣١٢٦] تقدم تخريجه وهو حديث صحيح.

---

(١) القذة: ريش السهم. يضرب مثلاً للشيئين يستويان بلا تفاوت.

﴿إِلَٰهًا﴾ أي أطلب لكم إلّهاً غير الله تعالى. يقال: بغيته وبغيت له. ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ أي على عالَمِي زمانكم. وقيل: فضلهم بإهلاك عدوّهم، وبما خصهم به من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾.

ذكَّرهم مِنَّتَه. وقيل: هو خطاب ليهود عصر النبيّ ﷺ. أي وٱذكروا إذ[1] أنجينا أسلافكم؛ حسب ما تقدم بيانه في سورة «البقرة».

قوله تعالىٰ: ﴿۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولىٰ: قوله تعالىٰ: ﴿۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً﴾ ذكر أن مما كرّم الله به موسىٰ ﷺ هذا. فكان وعده المناجاة إكراماً له. ﴿وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾ قال ٱبن عباس ومجاهد ومسروق رضي الله عنهم: هي ذو القعدة وعشر من ذي الحجة. أمره أن يصوم الشهر وينفرد فيه بالعبادة؛ فلما صامه أنكر خُلُوف فَمِه فٱستاك. قيل: بعود خَرْنُوب[2]؛ فقالت الملائكة: إنا كنا نستنشق من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسِّواك. فزيد عليه عشرُ ليال من ذي الحجة. وقيل[3]: إن الله تعالىٰ أوْحىٰ إليه لما آستاك: «يا موسىٰ لا أكلمك حتى يعود فُوك إلى ما كان عليه قبلُ، أما علمت أن رائحة الصائم أحبّ إليّ من ريح المسك». وأمره بصيام عشرة أيام. وكان كلام الله تعالىٰ لـموسـىٰ ﷺ غداة النحر حين فَدَىٰ إسماعيل من الذبح، وأكمل لمحمد ﷺ الحج. وحذفت الهاء من عشر لأن المعدود مؤنث. والفائدة في قوله: ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ وقد علم أن ثلاثين وعشرة أربعون، لئلا يتوهم أن المراد أتممنا الثلاثين بعشر منها؛ فبين أن العشر سوى الثلاثين. فإن قيل: فقد قال في البقرة أربعين وقال هنا ثلاثين؛ فيكون ذلك من البداء؟ قيل: ليس

---

(١) وقع في الأصل «إذا» والمثبت هو الصواب.

(٢) ضرب من الشجر.

(٣) هذا الخبر وما قبله من الإسرائيليات المردودة.

كذلك؛ فقد قال: «وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ» والأربعون، والثلاثون والعشرة قول واحد ليس بمختلف. وإنما قال القولين على تفصيل وتأليف؛ قال أربعين في قولٍ مؤلف، وقال ثلاثين، يعني شهراً متتابعاً وعشراً. وكل ذلك أربعون؛ كما قال الشاعر:

«عشـر وأربـع...»

يعني أربع عشرة، ليلة البدر. وهذا جائز في كلام العرب.

الثانية ـ قال علماؤنا: دلّت هذه الآية على أن ضَرْب الأجل للمواعَدة سُنَّة ماضية، ومعنىً قديم أسسه الله تعالىٰ في القضايا، وحكم به للأمم، وعرّفهم به مقادير التأنّي في الأعمال. وأوّل أجل ضربه الله تعالىٰ الأيام الستة التي خلق فيها جميع المخلوقات، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ۝٣٨﴾ [ق: ٣٨]. وقد بينا معناه فيما تقدّم في هذه السورة من قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤]. قال ٱبن العربيّ: فإذا ضُرِب الأجلُ لمعنىً يحاول فيه تحصيلُ المؤجّل فجاء الأجل ولم يتيسر زيد فيه تبصرةً ومعذرةً. وقد بيّن الله تعالىٰ ذلك لموسىٰ عليه السلام فضرب له أجلاً ثلاثين ثم زاده عشراً تتمة أربعين. وأبطأ موسىٰ عليه السلام في هذه العشر على قومه؛ فما عقلوا جواز التأنّي والتأخر حتى قالوا: إن موسى ضَلَّ أو نَسيَ. ونكثوا عهده وبدّلوا بعده، وعبدوا إلٰهاً غير الله. قال ٱبن عباس: إن موسى قال لقومه: إنّ ربي وعدني ثلاثين ليلة أن ألقاه، وأخلف فيكم هارون، فلما فَصَل[1] موسىٰ إلى ربه زاده الله عشراً؛ فكانت فتنتهم في العشر الذي زاده الله بما فعلوه من عبادة العجل؛ على ما يأتي بيانه. ثم الزيادة التي تكون على الأجل تكون مقدّرة؛ كما أن الأجل مقدر. ولا يكون إلا باجتهاد من الحاكم بعد النظر إلى المعاني المتعلقة بالأمر: من وقت وحال وعمل، فيكون مثل ثلث المدة السالفة؛ كما أجل الله لموسىٰ. فإن رأىٰ الحاكم أن يجمع له الأصل في الأجل والزيادة في مدّة واحدة جاز، ولكن لا بدّ من التربّص بعدها لما يطرأ من العذر على البشر، قاله ٱبن العربيّ. روى البخاري عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال:

[٣١٢٧] «أعْذَر الله إلى ٱمرىء أخر أجله حتى بلغ ستين سنة»[2].

قلت: وهذا أيضاً أصلٌ لإعذار الحُكّام إلى المحكوم عليه مرة بعد أُخرىٰ. وكان

[٣١٢٧] صحيح. أخرجه البخاري ٦٤١٩ من حديث أبي هريرة.

---

(١) أي خرج.

(٢) أي لم يبق له ما يعتذر به حيث أمهل هذه المدة ولم يتب، وانظر ما قاله الحافظ في «الفتح» ١١/ ٢٤٠.

هذا لُطفاً بالخلق، ولينفذ القُيَّام عليهم بالحق. يقال: أعْذَر في الأمر أي بالغ فيه؛ أي أعذر غاية الإعذار الذي لا إعذار بعده. وأكبر الإعذار إلى بني آدم بعثة الرسل إليهم لتتم حجته عليهم، ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥]. وقال: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧] قيل: هم الرسل. ابن عباس: هو الشيب. فإنه يأتي في سنّ الاكتهال، فهو علامة لمفارقة سنّ الصِّبا. وجعل الستين غاية الإعذار لأن الستين قريب من معترك العبّاد، وهو سنّ الإنابة والخشوع والاستسلام لله، وترقب المنية ولقاء الله؛ ففيه إعذار بعد إعذار. الأوّل بالنبيّ عليه السلام، والثاني بالشيب؛ وذلك عند كمال الأربعين؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ [الأحقاف: ١٥]. فذكر عز وجل أن من بلغ أربعين فقد آن له أن يعلم مقدار نِعم الله عليه وعلى والديه ويشكرها. قال مالك: أدركت أهل العلم ببلدنا، وهم يطلبون الدنيا ويخالطون الناس حتى يأتي لأحدهم أربعون سنة؛ فإذا أتت عليهم اعتزلوا الناس.

الثالثة ـ ودلت الآية أيضاً على أن التاريخ يكون بالليالي دون الأيام؛ لقوله تعالىٰ: ﴿ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً﴾ لأن الليالي أوائل الشهور. وبها كانت الصحابة رضي الله عنهم تخبر عن الأيام؛ حتى روي عنها أنها كانت تقول: صمنا خمساً مع رسول الله ﷺ. والعجم تخالف في ذلك، فتحسب بالأيام لأن معوّلها على الشمس. ابن العربيّ: وحساب الشمس للمنافع، وحساب القمر للمناسك؛ ولهذا قال: ﴿۞وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً﴾. فيقال: أرّخت تاريخاً. وورّخت توريخاً؛ لغتان.

قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ﴾ المعنىٰ: وقال موسى حين أراد المضِيّ للمناجاة والمغيب فيها لأخيه هارون: كن خليفتي؛ فدلّ على النيابة. وفي صحيح مسلم عن سعد بن أبي وقّاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لعليّ حين خلّفه في بعض مغازيه:

[٣١٢٨] «أما تَرْضىٰ أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسىٰ إلا أنه لا نبيّ بعدي». فاستدل بهذا الروافضُ والإمامية وسائر فِرَقِ الشِّيعة على أن النبيّ ﷺ استخلف علياً على جميع الأمّة؛ حتى كفر الصحابة الإمامية ـ قبحهم الله ـ لأنهم[1] عندهم تركوا العمل الذي هو النص على استخلاف عليّ واستخلفوا غيره بالاجتهاد منهم. ومنهم من كفر عَلِيّاً إذ لم يقم بطلب حقه. وهؤلاء لا شك في كفرهم وكفر من تبعهم على مقالتهم، ولم يعلموا أن هذا

[٣١٢٨] صحيح. أخرجه مسلم ٢٤٠٤ وتقدم.

(١) الضمير في «لأنهم» يعود على الصحابة. وفي «عندهم» يعود على الإمامية.

ٱستخلاف في حياةٍ كالوكالة التي تنقضي بعزل الموكِّل أو بموته، لا يقتضي أنه متمادٍ بعد وفاته؛ فينْحَلّ على هذا ما تعلق به الإمامية وغيرهم.

[٣١٢٩] وقد ٱستخلف النبيّ ﷺ على المدينة ٱبن أمِّ مكتوم وغيره، ولم يلزم من ذلك استخلافه دائماً بالاتفاق. على أنه قد كان هارون شُرِّك مع موسىٰ في أصل الرسالة، فلا يكون لهم فيه على ما راموه دِلالة. والله الموفق للهداية.

قوله تعالىٰ: ﴿وَأَصۡلِحۡ﴾ أمرٌ بالإصلاح. قال ٱبن جريج: كان من الإصلاح أن يزجر السامريّ ويغيِّر عليه. وقيل: أي ٱرفق بهم، وأصلح أمرهم، وأصلح نفسك؛ أي كن مصلحاً. ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤٢﴾ أي لا تسلك سبيل العاصين، ولا تكن عوناً للظالمين.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ أي في الوقت الموعود. ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ أي أسمعه كلامه من غير واسطة. ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ سأل النظر إليه؛ واشتاق إلى رؤيته لما أسمعه كلامه. فـ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ أي في الدنيا. ولا يجوز الحَمْل على أنه أراد: أرني آية عظيمة لأنظر إلى قدرتك؛ لأنه قال «إِلَيْكَ» و «قَالَ لَنْ تَرَانِي». ولو سأل آية لأعطاه الله ما سأل، كما أعطاه سائر الآيات. وقد كان لموسىٰ عليه السلام فيها مَقْنَع عن طلب آية أُخرىٰ؛ فبطل هذا التأويل. ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾ ضرب له مثالاً مما هو أقوىٰ من بِنْيته وأثبت. أي فإن ثبت الجبل وسكن فسوف تراني، وإن لم يسكن فإنك لا تطيق رؤيتي، كما أن الجبل لا يطيق رؤيتي. وذكر القاضي عِياض عن القاضي أبي بكر بن الطّيب ما معناه: أن موسى عليه السلام رأى الله فلذلك خَرَّ صَعِقاً. وأن الجبل رأىٰ ربّه فصار دَكاً بإدراكٍ خلقه الله له. وٱستَنْبط ذلك من قوله: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾. ثم قال: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ﴾ وتجلّىٰ معناه ظهر؛ من قولك: جَلَوْت العروس

[٣١٢٩] صحيح. أخرجه ابن حبان ٢١٣٤ و ٢١٣٥ من حديث عائشة باب جواز إمامة الأعمىٰ، وإسناده على شرطهما، ونسبه الهيثمي في المجمع ٢/ ٦٥ لأبي يعلىٰ، وقال: رجاله رجال الصحيح، وورد من حديث أنس عند أبي داود ٥٩٥ و ٢٩٣١ وابن الجارود ٣١٠ وإسناده حسن لأجل عمران القطان.

أي أبرزتها. وجَلَوْت السيف أبرزته من الصَّدَإ؛ جلاءً فيهما. وتجلّىٰ الشيء ٱنكشف. وقيل: تجلّىٰ أمره وقدرته؛ قاله قُطْرُب وغيره. وقراءة أهل المدينة وأهل البصرة «دَكاً»؛ يدل على صحتها ﴿دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا﴾ [الفجر: ٢١] وأن الجبل مذكّر. وقرأ أهل الكوفة «دَكَّاءَ» أي جعله مثل أرض دكاء، وهي الناتئة لا تبلغ أن تكون جبلاً. والمذكّر أدَكّ، وجمع دَكَّاء دكّاوات ودُكٌّ؛ مثل حَمْراوات وحُمْرٌ. قال الكسائي: الدّكّ من الجبال: العِراض، واحدها أدَكّ. غيره: والدّكّاوات جمع دَكّاء: رَوَابٍ من طين ليست بالغِلاظ. والدَّكْداكُ كذلك من الرمل: ما التبد بالأرض فلم يرتفع. وناقة دَكّاء لا سنام لها. وفي التفسير: فساخ الجبل في الأرض، فهو يذهب فيها حتى الآن[1]. وقال ٱبن عباس: جعله تراباً. عَطِيّة العَوْفي: رملاً هائلاً. ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ أي مغشيّاً عليه؛ عن ٱبن عباس والحسن وقتادة. وقيل: ميتاً؛ صَعِق الرجل فهو صَعِق. وصُعق فهو مصعوق. وقال قتادة والكلبيّ: خَرّ موسىٰ صعِقاً يوم الخميس يوم عَرَفة، وأعطي التوراة يوم الجمعة يوم النحر. ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ قال مجاهد: من مسألة الرؤية في الدنيا. وقيل: سأل من غير ٱستئذان؛ فلذلك تاب. وقيل: قاله على جهة الإنابة إلى الله والخشوع له عند ظهور الآيات. وأجمعت الأمة على أن هذه التوبة ما كانت عن معصية؛ فإن الأنبياء معصومون. وأيضاً عند أهل السنة والجماعة الرؤيةُ جائزةٌ. وعند المبتدعة سأل لأجل القوم ليبيّن لهم أنها غير جائزة. وهذا لا يقتضي التوبة. فقيل: أي تبت إليك من قتل القبطي؛ ذكره القُشَيْرِي. وقد مضىٰ في «الأنعام» بيان أن الرؤية جائزة. قال عليّ بن مهدِيّ الطبريّ: لو كان سؤال موسىٰ مستحيلاً ما أقدم عليه مع معرفته بالله؛ كما لم يجز أن يقول له يا رب ألك صاحبة وولد. وسيأتي في «القيامة» مذهب المعتزلة والرد عليهم، إن شاء الله تعالىٰ.

قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ قيل: مِن قومي. وقيل: من بني إسرائيل في هذا العصر. وقيل: بأنك لا تُرىٰ في الدنيا لوعدك السابق في ذلك. وفي الحديث الصحيح من حديث أبي هريرة وغيره أن رسول الله ﷺ قال:

[٣١٣٠] «لا تُخَيِّروا بين الأنبياء فإن الناس يَصعقون يوم القيامة فأرفع رأسي فإذا أنا بموسىٰ آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أصعق فيمن صعق فأفاق قبلي أو حُوسب بصفته

[٣١٣٠] صحيح. أخرجه البخاري ٤٦٣٨ و ٦٩١٦ ومسلم ٢٣٧٤ وأبو داود ٤٦٦٨ وأحمد ٣/٣٣ من حديث أبي سعيد وانظر شرحه في فتح الباري ٦/٤٤٦.

---

(١) هذا من الإسرائيليات.

الأولىٰ». أو قال «كفته صعقته الأولىٰ». وذكر أبو بكر بن أبي شيبة عن كعب قال: إن الله تبارك وتعالىٰ قسم كلامه ورؤيته بين محمد وموسى صلىٰ الله وسلم عليهما؛ فكلمه موسى مرتين، ورآه محمد ﷺ مرتين.

قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى﴾ الاصطفاء: الاجتباء؛ أي فضّلتك. ولم يقل على الخلق؛ لأن من هذا الاصطفاء أنه كلمه وقد كلم الملائكة، وأرسله وأرسل غيره. فالمراد «عَلَىٰ النَّاسِ» المرسل إليهم. وقرأ «بِرسالتي» على الإفراد نافع وأبن كثير. والباقون بالجمع. والرسالة مصدر، فيجوز إفرادها. ومن جمع على أنه أرسل بضروب من الرسالة فاختلفت أنواعها، فجمع المصدر لاختلاف أنواعه؛ كما قال: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان: ١٩]. فجمع لاختلاف أجناس الأصوات واختلاف المصوّتين. ووحد في قوله «لَصوْتُ» لما أراد به جنساً واحداً من الأصوات. ودلّ هذا على أن قومه لم يشاركه في التكليم ولا واحد من السبعين؛ كما بيناه في «البقرة».

قوله تعالىٰ: ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾ إشارة إلى القناعة؛ أي أقنع بما أعطيتك. ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ أي من المظهرين لإحساني إليك وفضلي عليك؛ يقال: دابة شَكُور إذا ظهر عليها من السِّمن فوق ما تُعْطَى من العَلَف. والشاكر معرّض للمزيد كما قال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]. ويروى[1] أن موسى عليه السلام مكث بعد أن كلمه الله تعالىٰ أربعين ليلة لا يراه أحد إلا مات من نور الله عز وجل.

قوله تعالىٰ: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ يريد التوراة. وروي في الخبر أنه قبض عليه جبريلُ عليه السلام بجناحه فمر به في العُلاَ حتى أدناه حتى سَمِع صَرِيف القلم حين كتب الله له الألواح[2]؛ ذكره الترمذيّ الحكيم. وقال مجاهد: كانت الألواح من زُمُرُّدَة خضراء. ابن جُبير: من ياقوتة حمراء. أبو العالية: من زَبَرْجَد.

---

(١) هذا الأثر متلقىٰ عن أهل الكتاب لا حجة فيه.

(٢) أخرجه الطبري ١٥٠٨٣ بسنده عن الربيع بن أنس قال: حدثني من لقي أصحاب النبي ﷺ «أنه قربه..» الأثر. فهو غير مرفوع ولا موقوف، بل هو عن تابعي مجهول فلا حجة فيه.

الحسن: من خشب؛ نزلت من السماء. وقيل: من صخرة صمّاء، ليّنها الله لموسىٰ عليه السلام فقطعها بيده ثم شقها بأصابعه؛ فأطاعته كالحديد لداود. قال مقاتل: أي كتبنا لــه في الألواح كنقش الخاتم: الربيع[1] بن أنس: نزلت التوراة وهي سبعون وِقْر[2] بعير. وأضاف الكتابة إلى نفسه على جهة التشريف؛ إذ هي مكتوبة بأمره كتبها جبريل بالقلم الذي كتب به الذكر. واستُمدّ من نهر النور. وقيل: هي كتابة أظهرها الله وخلقها في الألواح. وأصل اللّوح: لَــوْح (بفتح اللام)؛ قال الله تعالىٰ: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج: ٢١ـ٢٢] فكأن اللوح تلوح فيه المعاني. ويروىٰ أنها لوحان، وجاء بالجمع لأن الاثنين جمع. ويقال: رجل عظيم الألواح إذا كان كبير عظم اليدين والرجلين. ابن عباس: وتكسرت الألواح حين ألقاها فرفعت إلا سُدْسَها. وقيل: بقي سُبُعُها ورفعت سِتّة أسباعها. فكان في الذي رفع تفصيل كل شيء، وفي الذي بقي الهدىٰ والرحمة. وأسند أبو نعيم الحافظ عن عمرو بن دينار قال: بلغني أن موسىٰ بن عمران نبيّ الله ﷺ صام أربعين ليلة؛ فلما ألقىٰ الألواح تكسرت فصام مثلها فردّت إليه. ومعنىٰ «مِنْ كُلِّ شَيْءٍ» مما يحتاج إليه في دينه من الأحكام وتبيين الحلال والحرام؛ عن الثَّوْرِيّ وغيره. وقيل: هو لفظ يُذكر تفخيماً ولا يراد به التعميم؛ تقول: دخلت السوق فاشتريت كل شيء. وعند فلان كل شيء. ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأحقاف: ٢٥]. ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣]. وقد تقدّم. ﴿مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي لكل شيء أمروا به من الأحكام؛ فإنه لم يكن عندهم اجتهاد، وإنما خص بذلك أمة محمد ﷺ. ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ في الكلام حذف، أي فقلنا له: خذها بقوة؛ أي بجدّ ونشاط. نظيره ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ وقد تقدّم. ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ أي يعملوا بالأوامر ويتركوا النواهي، ويتدبروا الأمثال والمواعظ. نظيره ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر: ٥٥]. وقال: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٨]. والعَفْوُ أحسنُ من الاقتصاص. والصبر أحسن من الانتصار. وقيل: أحسنها الفرائض والنوافل، وأدْوَنُها المباح. ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ قال الكلبي: «دَارَ الْفَاسِقِينَ» ما مروا عليه إذا سافروا من منازل عاد وثمود، والقرون التي أهلكوا. وقيل: هي جهنم؛ عن الحسن ومجاهد. أي فلتكن منكم على ذُكْر، فاحْذَرُوا أن تكونوا منها. وقيل: أراد بها مصر؛ أي سأريكم ديار القبط ومساكن فرعون خالية عنهم؛ عن ابن جُبير. قتادة: المعنىٰ سأريكم منازل الكفار التي سكنوها قبلكم من الجبابرة والعمالقة لتعتبروا بها؛ يعني الشأم. وهذان القولان يدل

---

(١) في الأصل «ربيع» والمثبت هو الصواب.

(٢) الوِقْر: الحمل.

عليهما ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ﴾ [الأعراف: ١٣٧] الآية. ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٥] الآية، وقد تقدّم. وقرأ ابن عباس وقَسَامة بن زهير «سأورّثكم» من ورث. وهذا ظاهر. وقيل: الدار الهلاك، وجمعه أدوار. وذلك أن الله تعالىٰ لما أغرق فرعون أوْحىٰ إلى البحر أن أقذف بأجسادهم إلى الساحل، قال: ففعل: فنظر إليهم بنو إسرائيل فأراهم هلاك الفاسقين.

قوله تعالىٰ: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤٧)﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ قال قتادة: سأمنعهم فَهْمَ كتابي. وقاله سفيان بن عُيينة. وقيل: سأصرفهم عن الإيمان بها. وقيل: سأصرفهم عن نفعها؛ وذلك مجازاة على تكبّرهم. نظيره: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]. والآيات على هذه المعجزاتُ أو الكتبُ المنزَّلة. وقيل: خَلقُ السموات والأرض. أي أصرفهم عن الاعتبار بها. ﴿يَتَكَبَّرُونَ﴾ يَرَوْن أنهم أفضل الخلق. وهذا ظن باطل؛ فلهذا قال: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ فلَا يتبعون نَبِيّاً ولا يَصْغون إليه لتكبّرهم.

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ يعني هؤلاء المتكبرون. أخبر عنهم أنهم يتركون طريق الرشاد ويتبعون سبيل الغيّ والضلال؛ أي الكفر يتخذوه دِيناً. ثم علل فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي ذلك الفعل الذي فعلته بهم بتكذيبهم. ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦)﴾ أي كانوا في تركهم تدبّر الحق كالغافلين. ويحتمل أن يكونوا غافلين عما يجازون به؛ كما يقال: ما أغفل فلان عما يراد به؛ وقرأ مالك بن دينار «وإن يُروا» بضم الياء في الحرفين؛ أي يفعل ذلك بهم. وقرأ أهل المدينة وأهل البصرة «سَبيل الرُّشْد» بضم الراء وإسكان الشين. وأهل الكوفة إلا عاصماً «الرَّشَد» بفتح الراء والشين. قال أبو عبيد: فَرّق أبو عمرو[١] بين الرُّشْد والرَّشَد فقال: الرُّشْد في الصلاح. والرَّشَد في الدِّين. قال النحاس: «سيبويه يذهب إلى أن الرُّشْد والرَّشَد مثل السُّخْط والسَّخَط، وكذا قال الكسائي. والصحيح عن أبي عمرو غيرُ ما قال أبو عبيد. قال إسماعيل بن إسحاق: حدّثنا نصر بن عليّ عن أبيه عن أبي عمرو بن العلاء قال: إذا كان الرُّشْد وسطَ الآية فهو

(١) كنية ابن العلاء أحد القراء.

مسَكَّن، وإذا كان رأس الآية فهو محرَّك. قال النحاس: يعني برأس الآية نحو ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الكهف: ١٠] فهما عنده لغتان بمعنىً واحد؛ إلا أنه فتح هذا لتتفق الآيات. ويقال: رَشَد يَرشُد، ورَشُد يَرْشد. وحكى سيبويه رَشِد يَرْشَد. وحقيقة الرشْد والرَّشَد في اللغة أن يظفر الإنسان بما يريد. وهو ضدّ الخيبة».

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي من بعد خروجه إلى الطُّور. ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ هذه قراءة أهل المدينة وأهلِ البصرة. وقرأ أهل الكوفة إلا عاصماً «من حِلِيِّهِمْ» بكسر الحاء. وقرأ يعقوب «من حَلْيِهم» بفتح الحاء والتخفيف. قال النحاس: جمع حَلْيٍ حُلِيٌّ وحِلِيٌّ؛ مثلُ ثَدْي وثُدِيّ وثِدِيّ. والأصل «حلُوي» ثم أدغمت الواو في الياء فانكسرت اللام لمجاورتها الياء، وتكسر الحاء لكسرة اللام. وضمها على الأصل. ﴿عِجْلًا﴾ مفعول. ﴿جَسَدًا﴾ نعت أو بدل. ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ رفع بالابتداء. يقال: خار يَخُور خُوَاراً إذا صاح. وكذلك جَأر يَجْأَر جُؤارا. ويقال: خَور يَخْوَر خَوَراً إذا جَبُن وضَعُف. ورُوي في قصص العجل: أن السّامِريّ، واسمه موسى بن ظفر، ينسب إلى قرية تدعى سَامِرة. وُلد عام قَتْل الأبناء، وأخفته أُمه في كهف جبل فغذّاه جبريل فعرفه لذلك؛ فأخذ حين عبر البحر على فرس وَدِيق ليتقدّم فرعونَ في البحر ـ قبضةً من أثر حافر الفرس. وهو معنى قوله ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ [طه: ٩٦]. وكان موسى وعد قومه ثلاثين يوماً، فلما أبطأ في العشر الزائد ومضت ثلاثون ليلة قال لبني إسرائيل وكان مطاعاً فيهم: إن معكم حُلِيّاً من حُليّ آل فرعون، وكان لهم عيد يتزينون فيه ويستعيرون من القبط الحُلِيّ فاستعاروا لذلك اليوم؛ فلما أخرجهم الله من مصر وغرّق القبط بَقِيَ ذلك الحليّ في أيديهم، فقال لهم السَّامِرِيّ: إنه حرام عليكم، فهاتوا ما عندكم فنحرقه. وقيل: هذا الحليّ ما أخذه بنو إسرائيل من قوم فرعون بعد الغرق، وأن هارون قال لهم: إن الحُليّ غنيمة، وهي لا تَحِلّ لكم؛ فجمعها في حُفْرة حَفَرها فأخذها السّامِرِيّ. وقيل: استعاروا الحليّ ليلةَ أرادوا الخروج من مصر، وأوهموا القبط أن لهم عرساً أو مجتمَعاً، وكان السَّامِرِيّ سمع قولهم ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]. وكانت تلك الآلهة على مثال البقر؛ فصاغ لهم عجلاً جسداً، أي مُصْمَتاً[١]؛ غير أنهم كانوا يسمعون منه خُواراً. وقيل: قَلبه الله لحماً ودماً. وقيل: إنه لما ألقى تلك القبضة من

---

(١) المُصْمَت: الذي لا جوف له اهـ قاموس.

التراب في النار على الحُليّ صار عجلاً له خُوار؛ فخار خَوْرَة واحدة ولم يُثنّ ثم قال للقوم: ﴿ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ ﴾[طه: ٨٨] يقول: نَسِيَهُ ها هنا وذهب يطلبه فضلّ عنه ـ فتعالوْا نعبد هذا العجل. فقال الله لموسىٰ وهو يناجيه: ﴿ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ ﴾[طه: ٨٥] فقال موسىٰ: يا ربّ، هذا السّامري أخرج لهم عجلاً من حلِيّهم، فمن جعل له جسداً؟ ـ يريد اللّحم والدّم ـ ومن جعل له خواراً؟ فقال الله سبحانه: أنا فقال: وعِزّتك وجلالك ما أضلّهم غيرُك. قال صدقت يا حكيم الحكماء. وهو معنىٰ قوله: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ﴾[الأعراف: ١٥٥] وقال القَفّال: كان السامِريّ احتال بأن جوّف العجل، وكان قابل به الريح، حتى جاء من ذلك ما يُحاكي الخُوار، وأوهمهم أن ذلك إنما صار كذلك لما طرح في الجسد من التراب الذي كان أخذه من تراب قوائم فرس جبريل. وهذا كلام فيه تهافت، قاله القُشَيْرِيّ.

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ ﴾ بيّن أن المعبود يجب أن يتّصف بالكلام. ﴿ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ﴾ أي طريقاً إلى حجة. ﴿ ٱتَّخَذُوهُ ﴾ أي إلٰهاً. ﴿ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ أي لأنفسهم فيما فعلوا من ٱتخاذه. وقيل: وصاروا ظالمين أي مشركين لجعلهم العجل إلٰهاً.

قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي بعد عوْدِ موسى من المِيقات. يقال للنادم المتحيِّر: قد سقط في يده. قال الأخفش؛ يقال سقط في يده، وأُسقِط. ومن قال: سَقَطَ في أيديهم على بناء الفاعل؛ فالمعنى عنده: سَقط الندم؛ قاله الأزهرِيّ والنحاس وغيرهما. والندم يكون في القلب، ولكنه ذكر اليد لأنه يقال لمن تحصّل على شيء: قد حصل في يده أمر كذا؛ لأن مباشرة الأشياء في الغالب باليد؛ قال الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ [الحج: ١٠]. وأيضاً: الندم وإن حَلّ في القلب فأثره يظهر في البدن؛ لأن النادم يعضّ يده؛ ويضرب إحدى يديه على الأُخرى؛ قال الله تعالى: ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا ﴾ [الكهف: ٤٢] أي ندِم. ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ﴾ [الفرقان: ٢٧] أي من الندم. والنادم يضع ذقنه في يده. وقيل: أصله من الاستئسار، وهو أن يضرب الرجلُ الرجلَ أو يصرَعه فيرميَ به من يديه إلى الأرض ليأسره أو يكتفه؛ فالمرمي مسقوط به في يد الساقط. ﴿ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ ﴾ أي انقلبوا بمعصية الله. ﴿ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ أخذوا في الإقرار بالعبودية والاستغفار.

وقرأ حمزة والكسائيّ «لئن لَمْ ترحمنا ربَّنا وتغفر لنا» بالتاء على الخطاب. وفيه معنى الاستغاثة والتضرُّع والابتهال في السؤال والدعاءِ. «ربَّنا» بالنصب على حذف النداء. وهو أيضاً أبلغ في الدعاء والخضوع. فقراءتهما أبلغ في الاستكانة والتضرع، فهي أوْلى.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنۢ بَعْدِيٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ لم ينصرف «غَضْبَانَ» لأن مؤنّثه غَضْبَى، ولأن الألف والنون فيه بمنزلة ألفي التأنيث في قولك حمراء. وهو نصب على الحال. و «أَسِفاً» شديد الغضب. قال أبو الدَّرداء: الأسف منزلةٌ وراء الغضب أشد من ذلك. وهو أَسِف وأَسِيف وأسْفان وأَسُوف. والأسيف أيضاً الحزين. ابن عباس والسُّدِّي: رجع حزيناً من صنيع قومه. وقال الطبرِيّ: أخبره الله عز وجل قبل رجوعه أنهم قد فُتِنُوا بالعجل؛ فلذلك رجع وهو غضبان. ابن العربيّ: وكان موسى عليه السلام من أعظم الناس غضباً، لكنه كان سريع الفَيْئة[1]؛ فتِلك بتلك. قال ابن القاسم: سمعت مالكاً يقول: كان موسىٰ عليه السلام إذا غَضِب طلع الدُّخَان من قَلَنْسوَتِه[2]، ورفع شعرُ بدنه جُبَّتَه. وذلك أن الغضب جَمْرة تتوقّد في القلب. ولأجله أمر النبيّ ﷺ مَنْ غَضب أن يضطجع. فإن لم يذهب غضبُه أغتسل: فيُخْمِدها اضطجاعُه ويطفئها اغتساله. وسُرْعةُ غضبه كان سبباً لصَكّه مَلَكَ الموت ففقأ عينَه. وقد تقدم في «المائدة» ما للعلماء في هذا. وقال الترمذِيّ الحكيم: وإنما ٱستجاز موسى عليه السلام ذلك لأنه كليم الله؛ كأنه رأى أن من اجترأ عليه أو مدّ إليه يدا بأذًى فقد عَظُم الخطب فيه. ألا ترى[3]أنه ٱحتجّ عليه فقال: من أين تنزع روحي؟ أمن فمِي وقد ناجيت به ربي ! أَمْ مِن سمعي وقد سمعت به كلام رَبِّي ! أم مِن يدي وقد قبضت منه الألواح ! أم مِن قدمي وقد قمتُ بين يديه أُكلمه بالطُّور ! أمْ مِن عيني وقد أشرق وجهي لنوره. فرجع إلى ربّه مُفْحَماً. وفي مُصَنّف أبي داود عن أبي ذرٍّ قال: إن رسول الله ﷺ قال لنا:

---

(١) أي الرجعة.

(٢) لا يصح مثل هذا عن مالك، وإنما هو متلقىٰ عن أهل الكتاب.

(٣) هذا من كلام الحكيم الترمذي، وهو نقله عن الاسرائيليات.

[٣١٣١] «إذا غَضِب أحدكم وهو قائم فليجلس فإن ذهب عنه الغضب وإلا فلْيضطجع». وروي أيضاً عن أبي وائل القاصّ قال: دخلنا على عروة بن محمد السّعدِيّ فكلمه رجل فأغضبه؛ فقام ثم رجع وقد توضأ، فقال: حدّثني أبي عن جدّي عطيّة قال قال رسول الله ﷺ:

[٣١٣٢] «إنّ الغضب من الشيطان وإنّ الشيطان خُلق من النار وإنما تُطفأ النار بالماء فإذا غضب أحدكم فليتوضأ».

قوله تعالى: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنۢ بَعْدِيٓ﴾ ذَمٌّ منه لهم؛ أي بئس العملُ عمِلتم بعدي. يقال: خَلَفَه؛ بما يكره. ويقال في الخير أيضاً. يقال منه: خَلَفَه بخير أو بشر في أهله وقومه بعد شخوصه. ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ أي سبقتموه. والعجلة: التقدّم بالشيء قبل وقته، وهي مذمومة. والسرعة: عَمَل الشيء في أوّل أوقاته، وهي محمودة. قال يعقوب: يقال عجلت الشيء سبقته. وأعجلت الرجل استعجلته، أي حملته على العجلة. ومعنى «أَمْرَ رَبِّكُمْ» أي ميعاد ربكم، أي وعد أربعين ليلة. وقيل: أي تعجّلتم سخط ربكم. وقيل: أعجلتم بعبادة العجل قبل أن يأتيكم أَمْرٌ من ربكم.

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾ فيه مسألتان:

الأُولى ـ قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾ أي مما اعتراه من الغضب والأسف حين أشرف على قومه وهم عاكفون على عبادة العجل، وعلى أخيه في إهمال أمرهم؛ قاله سعيد بن جُبير. ولهذا قيل: ليس الخبر كالمعاينة. ولا التفات لما رُوي عن قتادة إن صح عنه، ولا يصح: أنّ إلقاءه الألواح إنما كان لما رأى فيها من فضيلة أُمة محمد ﷺ ولم يكن ذلك لأُمّته. وهذا قول رديء لا ينبغي أن يضاف إلى موسى ﷺ. وقد تقدّم عن ابن عباس رضي الله عنه أن الألواح تكسّرت، وأنه رفع منها التفصيل وَبَقِيَ فيها الهدى والرحمة.

[٣١٣١] حسن. أخرجه أبو داود ٤٧٨٢ وابن حبان ٥٦٨٨ عن أبي حرب بن أبي الأسود الدؤلي عن أبي ذر، ورجاله على شرط الصحيح لكنه منقطع، لكن وصله أحمد ٥/١٥٢ بذكر أبي الأسود عن أبي ذر، وإسناده على شرط مسلم، لكن عاد أبو داود فأخرجه ٤٧٨٣ مرسلاً. ومع ذلك هو لا يعلل الموصول، وانظر صحيح أبي دود ٤٠٠٠.

[٣١٣٢] أخرجه أبو داود ٤٧٨٤ من حديث عطية بن عروة السعدي، وفيه عروة بن محمد مقبول كذا في التقريب، وأبو وائل اسمه عبد الله بن بحير وثقه يحيىٰ وتكلم فيه ابن حبان، وورد من حديث معاوية عند الديلمي ٤٣١٤ وإسناده ضعيف كما في فيض القدير ٥٨٠٥، وفي زهر الفردوس ٢/ ٣٤٣ من حديث أبي سعيد، وإسناده ضعيف، وهو في ضعيف أبي داود ١٠٢٥.

الثانية ـ وقد ٱستدلّ بعض جُهّال المتصوّفة بهذا على جواز رَمْي الثياب إذا ٱشتد طربُهم على المَغْنَى. ثم منهم من يرمي بها صِحاحاً، ومنهم من يَخْرقها ثم يرمي بها. قال: هؤلاء في غيبة فلا يُلامون؛ فإن موسى عليه السلام لما غلب عليه الغم بعبادة قومه العجلَ، رمى الألواح فكسرها، ولم يدر ما صنع. قال أبو الفرج الجَوْزِيّ: من يصحّح عن موسى عليه السلام أنه رماها رَمْيَ كاسر؟ والذي ذُكر في القرآن ألقاها، فمن أين لنا أنها تكسرت؟ ثم لو قيل: تكسرت فمن أين لنا أنه قصد كسرها؟ ثم لو صححنا ذلك عنه قلنا كان في غيبة، حتى لو كان بين يديه بحر من نار لخاضه. ومَن يصحّح لهؤلاء غيبتهم وهم يعرفون المغنى من غيره، ويحذرون من بئر لو كانت عندهم. ثم كيف تقاس أحوال الأنبياء على أحوال هؤلاء السفهاء. وقد سئل ابن عقيل عن تواجدهم وتخريق ثيابهم فقال: خطأ وحرام؛ وقد نهى رسول الله ﷺ عن إضاعة المال. فقال له[1] قائل: فإنهم لا يعقلون ما يفعلون. فقال: إن حضروا هذه الأمكنة مع علمهم أن الطَّرب يغلِب عليهم فيزيل عقولهم أثموا بما أدخلوه على أنفسهم من التخريق وغيره مما أفسدوا، ولا يسقط عنهم خطاب الشرع؛ لأنهم مخاطبون قبل الحضور بتجنّب هذا الموضع الذي يُفضِي إلى ذلك. كما هم منهِيُّون عن شرب المسكر، كذلك هذا الطَّرَب الذي يسميه أهل التصوف وَجْداً إن صدقوا أن فيه سُكْرَ طبع، وإن كذبوا أفسدوا مع الصَّحْو، فلا سلامة فيه مع الحالين، وتجنّب مواضع الرِّيَب واجبٌ.

قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ أي بلحيته وذؤابته. وكان هارون أكبر من موسى ـ صلوات الله وسلامه عليهما ـ بثلاث سنين، وأحبّ إلى بني إسرائيل من موسى؛ لأنه كان لَيِّن الغضب.

وللعلماء في أخذ موسى برأس أخيه أربعة تأويلات:

الأوّل ـ أن ذلك كان متعارَفاً عندهم؛ كما كانت العرب تفعله من قبض الرجل على لحية أخيه وصاحبه إكراماً وتعظيماً، فلم يكن ذلك على طريق الإذلال.

الثاني ـ أن ذلك إنما كان ليُسرّ إليه نزول الألواح عليه؛ لأنها نزلت عليه في هذه المناجاة وأراد أن يُخفيَها عن بني إسرائيل قبل التوراة. فقال له هارون: لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي؛ لئلا يشتبه سِرارُه على بني إسرائيل بإذلاله.

الثالث ـ إنما فعل ذلك به لأنه وقع في نفسه أن هارون مائلٌ مع بني إسرائيل فيما فعلوه من أمر العجل. ومثل هذا لا يجوز على الأنبياء.

---

(١) الضمير يعود على الإمام ابن عقيل الحنبلي.

الرابع - ضَمّ إليه أخاه ليعلم ما لديه؛ فكره ذلك هارون لئلا يظن بنو إسرائيل أنه أهانه؛ فبيّن له أخوه أنهم استضعفوه، يعني عبَدَة العجل، وكادوا يقتلونه أي قاربوا. فلما سمع عذره قال؛ رب ٱغفر لي ولأخي؛ أي ٱغفر لي ما كان من الغضب الذي ألقيت من أجله الألواح، ولأخي لأنه ظنّه مقصِّراً في الإنكار عليهم وإن لم يقع منه تقصير؛ أي ٱغفر لأخي إن قصّر. قال الحسن: عبد كلّهم العجل غير هارون، إذ لو كان ثَمَّ مؤمن غير موسى وهارون لَما ٱقتصر على قوله: رب ٱغفر لي ولأخي، ولدَعَا لذلك المؤمن أيضاً. وقيل: ٱستغفر لنفسه من فعله بأخيه، فعل ذلك لمَوْجِدته عليه، إذ لم يلحق به فيعرّفه ما جرى ليرجع فيتلافاهم؛ ولهذا قال: ﴿يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ﴾ [طه: ٩٢ - ٩٣] الآية. فبيّن هارون أنه إنما أقام خوفاً على نفسه من القتل. فدلَّت الآية على أن لمن خشي القتل على نفسه عند تغيير المنكر أن يَسْكُت. وقد تقدّم بيان هذا في «آل عمران». ابن العربيّ: وفيها دليل على أن الغضب لا يغيّر الأحكام كما زعم بعض الناس؛ فإن موسى عليه السلام لم يغيّر غضبُه شيئاً من أفعال، بل ٱطردت على مجراها من إلقاء لوح وعتابِ أخ وصكّ مَلَك. المَهْدَوِيّ: لأن غضبه كان لله عز وجل، وسكوته عن بني إسرائيل خوفاً أن يتحاربوا ويتفرّقوا.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ﴾ وكان ٱبنَ أُمّه وأبيه. ولكنها كلمةُ لِين وعطف. قال الزَّجاج: قيل كان هارون أخا موسى لأُمه لا لأبيه. وقُرىء بفتح الميم وكسرها؛ فمن فتح جعل «ٱبن أُم» ٱسماً واحداً كخمسةَ عشر؛ فصار كقولك: يا خمسة عشر أقبلوا. ومن كسر الميم جعله مضافاً إلى ضمير المتكلم ثم حذف ياء الإضافة؛ لأن مبنى النداء على الحذف، وأبقى الكسرة في الميم لتدُلّ على الإضافة؛ كقوله: ﴿يَٰعِبَادِ﴾ [الزمر: ١٠]. يدلّ عليه قراءة ابن السَّمَيْقَع «يابنَ أُمّي» بإثبات الياء على الأصل. وقال الكسائي والفرّاء وأبو عبيد: «يابن أُمَّ» بالفتح، تقديره يابن أُمّاه. وقال البصريون: هذا القول خطأ؛ لأن الألف خفيفة لا تحذف ولكن جعل الاسمين ٱسماً واحداً. وقال الأخفش وأبو حاتم: «يابن أُمِّ» بالكسر كما تقول: يا غلام غلام أقبل، وهي لغة شاذّة والقراءة بها بعيدة. وإنما هذا فيما يكون مضافاً إليك؛ فأما المضاف إلى مضاف إليك فالوجه أن تقول: يا غلام غلامي، ويابن أخي. وجوّزوا يابن أُمَّ، يابن عمَّ، لكثرتها في الكلام. قال الزجاج والنحاس: ولكن لها وجه حسن جيّد، يجعل الابن مع الأُم ومع العَمّ ٱسماً واحداً؛ بمنزلة قولك: يا خمسة عشر أقبلوا، فحذفت الياء كما حذفت من يا غلام ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى﴾ استذلُّوني وعدّوني ضعيفاً. ﴿وَكَادُواْ﴾ أي قاربوا. ﴿يَقْتُلُونَنِى﴾ بنونين؛ لأنه فعل مستقبل. ويجوز الإدغام في غير القرآن. ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ أي لا

تُسرّهم. والشماتة: السرور بما يصيب أخاك من المصائب في الدِّين والدنيا. وهي محرّمة مَنْهِيٌّ عنها. وفي الحديث عن النبيّ ﷺ:

[٣١٣٣] «لا تظهر الشماتةَ بأخيك فيعافيه الله ويبتليك». وكان رسول الله ﷺ يتعوّذ منها ويقول:

[٣١٣٤] «اللَّهُمَّ إني أعوذ بك من سوء القضاء ودَرْك الشقاء وشماتة الأعداء». أخرجه البخاريّ وغيره. وقال الشاعر:

إذا ما الدّهرُ جرّ على أُناسٍ ... كَلاكِلَه أناخَ بآخرينا

فقل للشّامتين بِنَا أفِيقوا ... سَيَلْقَى الشامتون كما لَقِينا

وقرأ مجاهد ومالك بن دِينار «تَشْمَت» بالنصب في التاء وفتح الميم، «الأعداءُ» بالرفع. والمعنى: لا تفعل بي ما تشمت من أجله الأعداء، أي لا يكون ذلك منهم لفعل تفعله أنت بي. وعن مجاهد أيضاً «تَشْمَتْ» بالفتح فيهما «الأعداءَ» بالنصب. قال ابن جِنّي: المعنى فلا تشمت بي أنت يا رب. وجاز هذا كما قال: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥] ونحوه. ثم عاد إلى المراد فأضمر فعلاً نصب به الأعداء؛ كأنه قال: ولا تشمت بي، الأعداء. قال أبو عبيد: وحكيت عن حُميد: «فلا تشمِت» بكسر الميم. قال النحاس: ولا وجه لهذه القراءة؛ لأنه إن كان من شَمِت وجب أن يقول تشمت. وإن كان من أشمت وجب أن يقول تشمت وقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ قال مجاهد: يعني الذين عبدوا العجل. ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ تقدّم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾.

[٣١٣٣] منكر. أخرجه الترمذي ٢٥٠٦ والقضاعي ٩١٧ و٩١٨ و ٩١٩ والطبراني في الكبير (٢٢/ ٥٣) وأبو نعيم ٥/ ٥٦ وابن الجوزي في الموضوعات ٣/ ٢٢٤ من حديث واثلة بن الأسقع، وحسنه الترمذي مع أن مداره عنده على عمر بن إسماعيل بن مجالد كذبه يحيىٰ، وقال ابن عدي: يسرق الحديث، وتوبع لكن مداره عند الجميع على القاسم بن أمية جرحه ابن حبان فقال: يروي المناكير الكثيرة عن حفص بن غياث، ثم قال: لا أصل له من كلام رسول الله ﷺ، ووافقه الحافظ ابن الجوزي فالخبر منكر. وإسناده واهٍ بمرة، والأشبه أن يكون من كلام السلف.

[٣١٣٤] صحيح. أخرجه البخاري ٦٦١٦ ومسلم ٢٧٠٧ والنسائي ٨/ ٢٦٩ من حديث أبي هريرة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ الغضب من الله العقوبة. ﴿وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ لأنهم أُمِروا بقتل بعضهم بعضاً. وقيل: الذِّلة الجِزْية. وفيه بعد؛ لأن الجزية لم تؤخذ منهم وإنما أخذت من ذريّاتهم. ثم قيل: هذا من تمام كلام موسى عليه السلام؛ أخبر الله عز وجل به عَنه، وتمّ الكلام. ثم قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾. وكان هذا القول من موسى عليه السلام قبل أن يتوب القوم بقتلهم أنفسهم، فإنهم لمّا تابوا وعفا الله عنهم بعد أن جرى القتل العظيم ـ كما تقدّم بيانه في «البقرة» ـ أخبرهم أن من مات منهم قتيلاً فهو شهيد، ومن بَقِي حيّاً فهو مغفور له. وقيل: كان ثَمَّ طائفة أشْرِبوا في قلوبهم العجل، أي حُبّه، فلم يتوبوا؛ فهم المعنِيّون بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ﴾. وقيل أراد من مات منهم قبل رجوع موسى من المِيقات. وقيل: أراد أولادهم. وهو ما جرى على قُرَيظة والنضِير؛ أي سينال أولادهم. والله أعلم. ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ أي مثل ما فعلنا بهؤلاء نفعل بالمفترين. وقال مالك بن أنس رحمة الله عليه: ما من مُبْتَدِع إلا وتجد فوق رأسه ذِلّة، ثم قرأ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ ـ حتى قال ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ أي المبتدِعين. وقيل: إن موسى أمر بذبح العجل، فجرى منه دَمٌ وبَرَدَه بالْمِبْرد وألقاه مع الدم في اليَمّ وأمرهم بالشرب من ذلك الماء؛ فمن عبد ذلك العجلَ وأُشْرِبَه ظهر ذلك على أطراف فَمِه؛ فبذلك عرف عبدة العجل. وقد مضى هذا في «البقرة» ثم أخبر الله تعالى أن الله يقبل توبة التائب من الشرك وغيره. وقد مضى هذا في غير موضع. ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي الكفر والمعاصي. ﴿ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ أي من بعد فعلها. ﴿وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ أي من بعد التوبة ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ أي سكن. وكذلك قرأها معاوية بن قُرّة «سكن» بالنون. وأصل السكوت السكون والإمساك؛ يقال: جرى الوادي ثلاثاً ثم سكن، أي أمسك عن الجَرْي. وقال عِكْرمة: سكت موسى عن الغضب؛ فهو من المقلوب. كقولك: أدخلت الأصبع في الخاتم، وأدخلت الخاتم في الأصبع. وأدخلت القَلَنْسُوَة في رأسي، وأدخلت رأسي في القلنسوة. ﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾ التي ألقاها. ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ أي «هُدًى» من الضلالة؛ «وَرَحْمَةٌ» أي من العذاب. والنسخ: نقل ما في كتاب إلى كتاب آخر. ويقال للأصل الذي كتبتَ منه: نسخة، وللفرع نسخة. فقيل: لما تكسّرت الألواح صام موسى أربعين يوماً، فرُدّت عليه وأُعيدت له تلك الألواح

في لوحين، ولم يفقد منها شيئاً، ذكره ابن عباس. قال القُشَيْرِيّ: فعلىٰ هذا ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا﴾ أي وفيما نسخ من الألواح المتكسّرة ونُقل إلى الألواح الجديدة هدًىٰ ورحمةٌ. وقال عطاء: وفيما بقي منها. وذلك أنه لم يبق منها إلا سبعها، وذهب ستّة أسباعها. ولكن لم يذهب من الحدود والأحكام شيء. وقيل: المعنى «وَفِي نُسْخَتِهَا» أي وفيما نُسخ له منها من اللوح المحفوظ هُدًى. وقيل: المعنى وفيما كتب له فيها هدًى ورحمةٌ، فلا يحتاج إلى أصل ينقل عنه. وهذا كما يقال: انسخْ ما يقول فلان، أي أَثبتهُ في كتابك.

قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ أي يخافون. وفي اللام ثلاثة أقوال: قول الكوفيين هي زائدة. قال الكِسائِيّ: حدّثني من سمع الفرزدق يقول: نقدت لها مائة درهم، بمعنى نقدتها. وقيل: هي لام أجْل؛ المعنى: والذين هم من أجل ربّهم يرهبون لا رياء ولا سمعة؛ عن الأخفش. وقال محمد بن يزيد: هي متعلقة بمصدر؛ المعنى: للذين هم رهبتهم لربهم. وقيل: لما تقدّم المفعول حسن دخول اللام، كقوله: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يوسف: ٤٣]. فلما تقدّم المعمول وهو المفعول ضَعُف عملُ الفعل فصار بمنزلة ما لا يتعدَّىٰ.

قوله تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا ۖ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ۖ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا ۖ﴾ مفعولان، أحدهما حذفت منه مِن؛ وأنشد سيبويه[1]:

مِنّا الذي ٱختِير الرجالَ سَماحةً ... وبِرّاً إذا هَبّ الرِّياح الزَّعازِع[2]

وقال الراعي يمدح رجلاً:

أَخترتُك الناسَ إذ رَثّت خلائقُهُم ... وٱختلّ[3] مَن كان يُرْجَىٰ عنده السُّولُ

يريد: اخترتك من الناس. وأصل ٱختار ٱختير؛ فلما تحرّكت الياء وقبلها فتحة قلبت ألفاً، نحو قال وباع.

قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ أي ماتوا. والرجفة في اللغة الزلزلة

---

(١) البيت للفرزدق.

(٢) الزعزعة: تحريك الشيء. وتمسىٰ به الريح.

(٣) اختلّ: افتقر.

الشديدة. ويروى أنهم زلزلوا حتى ماتوا.

قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰيَ﴾ أي أمتّهم؛ كما قال عز وجل: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌاْ هَلَكَ﴾ [النساء: ١٧٦]. «وإياي» عطف. والمعنى: لو شئت أمتَّنا من قبل أن نخرج إلى الميقات بمحضر بني إسرائيل حتى لا يتهموني. أبو بكر بن أبي شيبة: حدّثنا يحيىٰ بن سعيد القَطّان عن سفيان عن أبي إسحاق عن عمارة بن عبد عن عليّ رضي الله عنه قال[1]: ٱنطلق موسىٰ وهارون صلىٰ الله عليهما وٱنطلق شَبّر وشَبير ـ هما ٱبنا هارون ـ فانتهوا إلى جبل فيه سرير، فقام عليه هارون فقُبض روحه. فرجع موسىٰ إلى قومه، فقالوا: أنت قتلته، حسدتنا على لِينه وعلى خُلُقه، أو كلمة نحوها. الشك من سفيان، فقال: كيف أقتله ومعي ٱبناه! قال: فاختاروا من شئتم؛ فاختاروا من كل سُبْط عشرة. قال: فذلك قوله: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا﴾ فانتهوا إليه؛ فقالوا: مَن قتلك يا هارون؟ قال: ما قتلني أحد ولكن الله توفّاني. قالوا: يا موسىٰ، ما تُعْصَى[2]. فأخذتهم الرجفة، فجعلوا يتردّدون يميناً وشمالاً، ويقول: ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰيَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾. قال: فدعا الله فأحياهم وجعلهم أنبياء كلَّهم. وقيل: أخذتهم الرجفة لقولهم: أرنا الله جهرة؛ كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ [البقرة: ٥٥]. على ما تقدّم بيانه في «البقرة». وقال ٱبن عباس: إنما أخذتهم الرجفة لأنهم لم يَنْهَوْا من عبد العجل، ولم يرضَوْا عبادته. وقيل: هؤلاء السبعون غيرُ من قالوا أرنا الله جهرة. وقال وهب: ما ماتوا، ولكن أخذتهم الرجفة من الهيبة حتى كادت أن تَبِين مفاصلُهم، وخاف موسىٰ عليهم الموت. وقد تقدّم في «البقرة» عن وهب أنهم ماتوا يوماً وليلة. وقيل غير هذا في معنىٰ سبب أخذهم بالرجفة. والله أعلم بصحة ذلك. ومقصود الاستفهام في قوله: «أَتُهْلِكُنَا» الجحد؛ أي لست تفعل ذلك. وهو كثير في كلام العرب. وإذا كان نفياً كان بمعنىٰ الإيجاب؛ كما قال:

ألستمْ خيرَ مَنْ ركب المطايا ... وأندىٰ العالمين بُطون راحِ[3]

وقيل: معناه الدعاء والطلب، أي لا تهلكنا؛ وأضاف إلى نفسه. والمراد القوم الذين ماتوا من الرجفة. وقال المبرد: المراد الاستفهام استفهامُ استعظامٍ؛ كأنه يقول: لا

---

(١) موقوف ضعيف. أخرجه الطبري ١٥١٦٧ و١٥١٦٨ عن علي موقوفاً، وإسناده ضعيف لأجل عمارة بن عبد السلولي، قال الذهبي في الميزان: مجهول لا يحتج به قاله أبو حاتم.

(٢) عبارة الطبري «. . لن تعصىٰ بعد اليوم. . .».

(٣) الراح: جمع راحة وهي الكف.

تهلكنا، وقد علم موسى أن الله لا يهلك أحداً بذنب غيره؛ ولكنه كقول عيسىٰ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة: ١١٨] . وقيل: المراد بالسفهاء السبعون. والمعنىٰ: أتهلك بني إسرائيل بما فعل هؤلاء السفهاء في قولهم ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أي ما هذا إلا آختبارك وآمتحانك. وأضاف الفتنة إلى الله عز وجل ولم يضفها إلى نفسه؛ كما قال إبراهيم: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠﴾ [الشعراء: ٨٠] فأضاف المرض إلى نفسه والشفاء إلى الله تعالىٰ. وقال يُوشع: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الكهف: ٦٣]. وإنما آستفاد ذلك موسىٰ عليه السلام من قوله تعالىٰ له: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ﴾ [طه: ٨٥]. فلما رجع إلى قومه ورأى العجل منصوباً للعبادة وله خُوار قال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا﴾ أي بالفتنة. ﴿مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ وهذا رَدٌّ على القدرية.

قوله تعالىٰ: ﴿۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ۝١٥٦﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي وفّقنا للأعمال الصالحة التي تكتب لنا بها الحسنات. ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي جزاء عليها. ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي تُبْنا، قاله مجاهد وأبو العالية وقَتادة. والهَوْد: التوبة؛ وقد تقدّم في «البقرة».

قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾ أي المستحقين له، أي هذه الرجفة والصاعقة عذاب مني أصيب به من أشاء. وقيل: المعنىٰ «من أشاء» أي من أشاء أن أضلّه.

قوله: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ عموم، أي لا نهاية لها، أي من دخل فيها لم تعجز عنه. وقيل: وسِعت كل شيء من الخلق حتى إن البهيمة لها رحمة وعطف على ولدها. قال بعض المفسرين: طمع في هذه الآية كل شيء حتى إبليس، فقال: أنا شيء؛ فقال الله تعالىٰ: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ فقالت اليهود والنصارىٰ: نحن متقون؛ فقال الله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾ الآية. فخرجت الآية عن العموم، والحمد لله. روىٰ حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال: كتبها الله عز وجل لهذه الأمة.

قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ

﴿عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

فيه عشر مسائل:

الأولىٰ - روىٰ يحيىٰ بن أبي كثير عن نَوْف البِكَالِيّ الحِمْيَرِيّ(١): لما ٱختار موسىٰ قومه سبعين رجلاً لميقات ربه قال الله تعالىٰ لموسىٰ: إني(٢) أجعل لكم الأرض مسجداً وطهوراً تصلون حيث أدركتكم الصلاة إلا عند مِرحاض أو حمّام أو قبر، وأَجعل السكِينة في قلوبكم، وأجعلكم تقرؤون التوراة عن ظهر قلوبكم، يقرأها الرجل منكم والمرأة والحر والعبد والصغير والكبير. فقال ذلك موسىٰ لقومه، فقالوا: لا نريد أن نصلي إلا في الكنائس، ولا نستطيع حمل السكِينة في قلوبنا، ونريد أن تكون كما كانت في التابوت، ولا نستطيع أن نقرأ التوراة عن ظهر قلوبنا، ولا نريد أن نقرأها إلا نظراً. فقال الله تعالىٰ: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾-إلى قوله- ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ فجعلها لهذه الأمة فقال موسىٰ: يا رب، ٱجعلني نبيهم. فقال: نبيهم منهم. قال: رب ٱجعلني منهم. قال: إنك لن تدركهم. فقال موسىٰ: يا رب، أتيتك بوفد بني إسرائيل، فجعلت وفادتنا لغيرنا. فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأعراف: ١٥٩]. فرضي موسىٰ. قال نَوْف: فٱحمدوا الله الذي جعل وفادة بني إسرائيل لكم. وذكر أبو نعيم أيضاً هذه القصة من حديث الأوزاعيّ قال: حدّثنا يحيىٰ بن أبي عمرو السّيْبَاني(٣) قال حدثني نَوْف البِكالي إذا افتتح موعظة قال: ألا تحمدون ربكم الذي حفظ غيبتكم وأخذ لكم بعد سهمكم وجعل وفادة القوم لكم. وذلك أن موسىٰ عليه السلام وفَد ببني إسرائيل فقال الله لهم: إني قد جعلت لكم الأرض مسجداً حيثما صليتم فيها تقبلت صلاتكم إلا في ثلاثة مواطن من صلىٰ فيهن لم أقبل صلاته المقبرة والحمام والمرحاض. قالوا: لا، إلا في الكنيسة. قال: وجعلت لكم التراب طهوراً إذا لم تجدوا الماء. قالوا: لا، إلا بالماء. قال: وجعلت لكم حيثما صلىٰ الرجل فكان وحده تقبلت صلاته. قالوا: لا، إلا في جماعة.

الثانية: قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾ هذه الألفاظ كما ذكرنا أخرجت اليهود والنصارىٰ من الاشتراك الذي يظهر في قوله: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ

---

(١) هو نوف بن فَضَالة البِكاليّ ابن امرأة كعب الأحبار، كان يروي عن كتب الأقدمين، انظر الطبري ١٥٢٣٠ وهذا الأثر من إسرائيليات نوف.

(٢) وقع في الأصل «أن» والمثبت عن الطبري ١٥٢٣٠.

(٣) سَيْبَان بطن من حمير.

﴿يَتَّقُونَ﴾ وخلصت هذه العِدة لأمة محمد ﷺ؛ قاله ابن عباس وابن جبير وغيرهما. و«يَتَّبِعُونَ» يعني في شرعه ودينه وما جاء به. والرسول والنبيّ اسمان لمعنيين؛ فإن الرسول أخصُّ من النبيّ. وقدّم الرسول اهتماماً بمعنىٰ الرسالة؛ وإلاّ فمعنىٰ النبوة هو المتقدّم؛ ولذلك ردّ رسول الله ﷺ على البَرَاء حين قال:

[٣١٣٥] وبرسولك الذي أرسلت. فقال له: «قل آمنت بنبيك الذي أرسلت» خرّجه في الصحيح. وأيضاً فإن في قوله: «وبرسولك الذي أرسلت» تكرير الرسالة؛ وهو معنىٰ واحد فيكون كالحشو الذي لا فائدة فيه. بخلاف قوله: «ونبيك الذي أرسلت» فإنهما لا تكرار فيهما. وعلى هذا فكل رسول نبيّ، وليس كل نبيّ رسولا ؛ لأن الرسول والنبيّ قد أشتركا في أمر عام وهو النبأ، وأفترقا في أمر خــاص وهي الرسالة. فإذا قلت: محمد رسول من عند الله تضمّن ذلك أنه نبيّ ورسول الله. وكذلك غيره من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم.

الثالثة: قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْأُمِّىَّ﴾ هو منسوب إلى الأمة الأمية، التي هي على أصل ولادتها. لم تتعلم الكتابة ولا قراءتها؛ قاله ابن عزيز[1]. وقال ابن عباس رضي الله عنه: كان نبيكم ﷺ أمياً لا يكتب ولا يقرأ ولا يحسب؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]. وروي في الصحيح عن ٱبن عمر عن النبيّ ﷺ قال:

[٣١٣٦] «إنّا أمّةٌ أميّة لا نكتب ولا نحسُب». الحديث. وقيل: نسب النبيّ ﷺ إلى مكة أمِّ القرى؛ ذكره النحاس.

الرابعة: قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ روى البخاري قال[2]: حدّثنا محمد بن سنان قال حدّثنا فُلَيْح قال حدثنا هلال عن عطاء بن يَسار لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص قلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة. فقال: أجَلْ، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ

[٣١٣٥] صحيح. أخرجه البخاري ٢٤٧ وغيره، وتقدم.

[٣١٣٦] صحيح. أخرجه البخاري ١٩١٣ من حديث ابن عمر، وقد مضىٰ.

---

(١) أحد علماء المالكية.

(٢) انظر صحيح البخاري ٤٨٣٨.

أَرْسَلْنَاكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥] وحِرْزاً للأمِّيين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكِّل، ليس بفَظٍّ ولا غليظ ولا صَخَّاب في الأسواق. ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله تعالىٰ حتى يِقيم به الملة العَوْجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله، ويفتح بها أعْيُناً عُمْياً، وآذاناً صُمّاً، وقلوباً غُلْفاً. ـ في غير البخاري ـ قال عطاء: ثم لقِيت كَعْباً فسألته عن ذلك فما ٱختلفا حرفاً، إلا أن كعباً قال بلغتِه: قلوباً غُلُوفِياً وآذاناً صموميا وأعينا عموميا. قال ابن عطية: وأظنّ هذا وهماً أو عُجمة. وقد روي عن كعب أنه قالها: قلوباً غلوفاً وآذاناً صموماً وأعينا عموماً. قال الطبري: هي لغة حِميَرية. وزاد كعب في صفة النبيّ ﷺ قال: مولده بمكة، وهجرته بطابة، وملكه بالشأم، وأمّته الحامدون، يحمدون الله على كل حال وفي كل منزل، يُوضئون أطرافهم ويَأْتَزِرون إلى أنصاف ساقهم، رعاة الشمس، يصلّون الصلوات حيثما أدركتهم ولو على ظهر الكناسة[1]، صفهم في القتال مثل صفهم في الصلاة. ثم قرأ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ [الصف: ٤].

الخامسة: قوله تعالىٰ: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ قال عطاء: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بخلع الأنداد، ومكارم الأخلاق، وصلة الأرحام. ﴿وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ عبادة الأصنام، وقطع الأرحام.

السادسة: قوله تعالىٰ: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ مذهب مالك أن الطيّبات هي المحَلَّلات؛ فكأنه وصفها بالطيب؛ إذ هي لفظة تتضمن مدحاً وتشريفاً. وبحسب هذا نقول في الخبائث: إنها المحرمات؛ ولذلك قال ابن عباس: الخبائث هي لحم الخنزير والرِّبا وغيره. وعلى هذا حلّل مالك المتقذرات كالحيات والعقارب والخنافس ونحوها. ومذهب الشافعيّ رحمه الله أن الطيبات هي من جهة الطعم؛ إلا أن اللفظة عنده ليست على عمومها؛ لأن عمومها بهذا الوجه من الطعم يقتضي تحليل الخمر والخنزير، بل يراها مختصة فيما حَلَّله الشرع. ويرىٰ الخبائث لفظاً عاماً في المحرمات بالشرع وفي المتقذرات؛ فيحرم العقارب والخنافس والوزغ وما جرىٰ هذا المجرىٰ. والناس على هذين القولين، وقد تقدّم في «البقرة» هذا المعنىٰ.

السابعة: قوله تعالىٰ: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ الإصر: الثقل؛ قاله مجاهد وقتادة وابن جبير. والإصر أيضاً: العهد؛ قاله ابن عباس والضحاك والحسن. وقد جمعت هذه

---

(١) الكناسة: القمامة. وهذا الأثر عن الدارمي ١/ ٥ ـ ٦.

الآية المعنيين، فإن بني إسرائيل قد كان أخذ عليهم عهد أن يقوموا بأعمال ثقال؛ فوضع عنهم بمحمد ﷺ ذلك العهد وثقل تلك الأعمال؛ كغسل البول، وتحليل الغنائم ومجالسة الحائض ومؤاكلتها ومضاجعتها؛ فإنهم كانوا إذا أصاب ثوب أحدهم بول قرضه. وروي: جلد أحدهم. وإذا جمعوا الغنائم نزلت نار من السماء فأكلتها، وإذا حاضت المرأة لم يقربوها[1]، إلى غير ذلك مما ثبت في الحديث الصحيح وغيره.

الثامنة: قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ فالأغلال عبارة مستعارة لتلك الأثقال. ومن الأثقال ترك الاشتغال يوم السبت؛ فإنه يروى أن موسىٰ عليه السلام رأىٰ يوم السبت رجلاً يحمل قصباً فضرب عنقه. هذا قول جمهور المفسرين. ولم يكن فيهم الدّية، وإنما كان القصاص. وأمِروا بقتل أنفسهم علامة لتوبتهم، إلى غير ذلك. فشبه ذلك بالأغلال؛ كما قال الشاعر:

فليس كعهد الدار يا أم مالك لكن أحاطت بالرقاب السلاسل
وعادَ الفتىٰ كالكَهْل ليس بقائل سوىٰ العدل شيئاً فٱستراح العواذل

فشبه حدود الإسلام وموانِعه عن التخطي إلى المحظورات بالسلاسل المحيطات بالرقاب.

ومن هذا المعنى قول أبي أحمد بن جحش لأبي سفيان:

أذهب بها أذهب بها طُوِّقتَها طوقَ الحمامة

أي لزمك عارها. يقال: طوّق فلان كذا إذا لزمه.

التاسعة: إن قيل: كيف عطف الأغلال وهو جمع على الإصر وهو مفرد؛ فالجواب أن الإصر مصدر يقع على الكثرة. وقرأ ابن عامر «آصارهم» بالجمع: مثل أعمالهم. فجمعه لاختلاف ضروب المآثم. والباقون بالتوحيد؛ لأنه مصدر يقع على القليل والكثير من جنسه مع إفراد لفظه. وقد أجمعوا على التوحيد في قوله: ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وهكذا كلما يرد عليك من هذا المعنىٰ؛ مثل ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]. ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤٣]. و﴿مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ﴾ [الشورىٰ: ٤٥]. كله بمعنى الجمع.

العاشرة: قوله تعالىٰ: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ﴾ أي وقروه ونصروه. قال الأخفش: وقرأ الجحدريّ وعيسىٰ «وعَزرُوه» بالتخفيف. وكذا ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ [المائدة:

---

(١) ما تقدم ورد في أحاديث متفرقة صحيحة تقدم أكثرها.

١٢]يقال: عَزَره يَعْزِره ويعزِّرُهُ. و﴿ٱلنُّورَ﴾ القرآن والفَلَاحُ: الظفر بالمطلوب. وقد تقدّم هذا.

قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

ذكر أن موسىٰ بَشَّر به، وأن عيسىٰ بَشّر به. ثم أمره أن يقول بنفسه «إني رسول الله إليكم جميعاً». و﴿وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ كلمات الله تعالىٰ كتبه من التوراة والإنجيل والقرآن.

قوله تعالىٰ: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾.

أي يدعون الناس إلى الهداية. ﴿يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾معناه في الحكم. وفي التفسير[1]: إن هؤلاء قوم من وراء الصين، من وراء نهر الرّمل، يعبدون الله بالحق والعدل، آمنوا بمحمد وتركوا السبت، يستقبلون قبلتنا، لا يصل إلينا منهم أحد، ولا منا إليهم أحد. فروي أنه لما وقع الاختلاف بعد موسى كانت منهم أمة يهدون بالحق، ولم يقدِروا أن يكونوا بين ظهراني بني إسرائيل حتى أخرجهم الله إلى ناحية من أرضه في عزلة من الخلق، فصار لهم سرَب في الأرض، فمشوا فيه سنة ونصف سنة حتى خرجوا وراء الصين؛ فهم على الحق إلى الآن. وبين الناس وبينهم بحر لا يوصل إليهم بسببه. ذهب جبريل بالنبيّ ﷺ إليهم ليلة المعراج فآمنوا به وعلمهم سوراً من القرآن وقال لهم: هل لكم مكيال وميزان؟ قالوا: لا، قال: فمن أين معاشكم؟ قالوا: نخرج إلى البرية فنزرع، فإذا حصدنا وضعناه هناك، فإذا احتاج أحدنا إليه يأخذ حاجته. قال: فأين نساؤكم؟ قالوا: في ناحية مِنا، فإذا احتاج أحدنا لزوجته صار إليها في وقت الحاجة. قال: فيكذب أحدكم في حديثه؟ قالوا: لو فعل ذلك أحدنا أخذته لظىٰ، إن النار تنزل فتحرقه. قال: فما بال بيوتكم مستوية؟ قالوا لئلا يعلو بعضنا على بعض. قال: فما بال قبوركم على أبوابكم؟ قالوا: لئلا نغفل عن ذكر الموت. ثم لما رجع رسول الله ﷺ إلى الدنيا ليلة الإسراء أنزل عليه[1]: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾ [الأعراف: ١٨١] يعني أمة محمد عليهم السلام. يعلمه أن الذي أعطيت موسىٰ في قومه أعطيتك في أمتك. وقيل: هم الذين آمنوا بنبينا محمد عليه السلام من أهل الكتاب. وقيل: هم قوم من بني إسرائيل تمسكوا بشرع موسىٰ

---

(١) هذا خبر باطل لا أصل له عن رسول الله ﷺ، ذكره البغوي ٢/ ١٧٣ وعزاه للكلبي والضحّاك والربيع، وكلهم يروي عن أهل الكتاب. والظاهر أنه من افتراء الكلبي فإنه كذاب.

قبل نسخه، ولم يبدلوا ولم يقتلوا الأنبياء.

قوله تعالىٰ: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًاۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًاۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًاۚ﴾ عدّد نعمه على بني إسرائيل، وجعلهم أسباطاً ليكون أمر كل سبط معروفاً من جهة رئيسهم؛ فيخف الأمر على موسىٰ. وفي التنزيل: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًاۖ﴾ [المائدة: ١٢] وقد تقدّم. وقوله: ﴿ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ﴾ والسبط مذكر لأن بعده «أُمَماً» فذهب التأنيث إلى الأمم. ولو قال: آثني عشر لتذكير السبط جاز؛ عن الفرّاء. وقيل: أراد بالأسباط القبائل والفرق؛ فلذلك أنث العدد. قال الشاعر

وإن قريشاً كلها عشرُ أبْطُن وأنت بريء من قبائلها العَشْر

فذهب بالبَطْن إلى القَبِيلة والفَصيلة؛ فلذلك أنثها. والبطن مذكّر، كما أن الأسباط جمع مَذكّر. الزجاج: المعنى قطعناهم آثنتي عشرة فرقة. ﴿أَسْبَاطًا﴾ بدل من اثنتي عشرة ﴿أُمَمًاۚ﴾ نعتٌ للأسباط. وروى المفضّل عن عاصم. «وقَطَعْنَاهم» مخففاً. «أَسْبَاطاً» الأسباط في ولد إسحاق بمنزلة القبائل في ولد إسماعيل عليهما السلام. والأسباط مأخوذ من السبط وهو شجر تعلفه الإبل. وقد مضىٰ في «البقرة» مستوفىٰ. وروى مَعْمَر عن همّام بن مُنَبّه عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ في قوله عز وجل: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ قالوا: حَبّة في شعرة. وقيل لهم: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ فدخلوا متورّكين على أستاههم[1]. ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ مرفوع؛ لأنه فعل مستقبل وموضعه نصب. و «ما» بمعنىٰ المصدر، أي بظلمهم. وقد مضىٰ في «البقرة» ما في هذه الآية من المعاني والأحكام. والحمد لله.

قوله تعالىٰ: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى

(١) هو حديث صحيح أخرجه البخاري وغيره وتقدم في سورة البقرة آية: ٥٨ ـ ٥٩.

﴿ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ أي عن أهل القرية؛ فعبّر عنهم بها لما كانت مستقراً لهم أو سببِ اجتماعهم. نظيره ﴿وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢]. وقوله عليه السلام:

[٣١٣٧] «اهتز العرش لموت سعد بن معاذ» يعني أهل العرش من الملائكة، فرحا واستبشاراً بقدومه، رضي الله عنه. أي واسأل اليهود الذين هم جيرانك عن أخبار أسلافهم وما مسخ الله منهم قِردة وخنازير. وهذا سؤال تقرير وتوبيخ. وكان ذلك علامة لصدق النبيّ ﷺ؛ إذ أطلعه الله على تلك الأُمور من غير تعلم. وكانوا يقولون: نحن أبناء الله وأحباؤه، لأنا من سِبط خليله إبراهيم، ومن سِبط إسرائيل وهم بكر الله[1]، ومن سبط موسى كليم الله؛ ومن سبط ولده عزير، فنحن من أولادهم. فقال الله عز وجل لنبيه: سلهم يا محمد عن القرية، أما عذبتهم بذنوبهم؛ وذلك بتغيير فرع من فروع الشريعة.

واُختُلف في تعيين هذه القرية؛ فقال ابن عباس وعِكرمة والسُّدِّي: هي أيلة. وعن ابن عباس أيضاً أنها مَدْين بين أيلة والطور. الزُّهْرِيّ: طَبَرِيّة. قتادة وزيد بن أسلم: هي ساحل من سواحل الشأم، بين مَدْين وعَيْنون، يقال لها: مقناة. وكان اليهود يكتمون هذه القصة لما فيها من السُّبّة عليهم. ﴿ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ أي كانت بقرب البحر؛ تقول: كنت بحضرة الدار أي بقربها. ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ أي يصيدون الحِيتان، وقد نُهوا عنه؛ يقال: سَبَت اليهودُ؛ تركوا العمل في سبتهم. وسُبِت الرجل للمفعول سُباتاً أخذه ذلك، مثل الخرس. وأسبت سكن فلم يتحرك. والقوم صاروا في السبت. واليهود دخلوا في السبت، وهو اليوم المعروف. وهو من الراحة والقَطْع. ويجمع أَسْبُت وسُبُوت وأسبات. وفي الخبر عن رسول الله ﷺ:

[٣١٣٧] صحيح. أخرجه مسلم ٢٤٦٦ والترمذي ٣٨٤٨ وأحمد ٣/٣٤٩ وابن حبان ٧٠٢٩ من حديث جابر.
ومن وجه آخر أخرجه البخاري ٣٨٠٣ وابن ماجه ١٥٨، وله شواهد أُخرىٰ.

---

(١) زعمت اليهود أن الله أوحىٰ إلى إسرائيل أن ولدك بكري من الولد.

[٣١٣٨] «من احتجم يوم السبت فأصابه بَرَص فلا يلومنّ إلا نفسه». قال علماؤنا: وذلك لأن الدّم يجمد يوم السبت، فإذا مددته لتستخرجه لم يجرِ وعاد بَرَصاً. وقراءة الجماعة «يَعْدُون». وقرأ أبو نَهِيك «يُعِدّون» بضم الياء وكسر العين وشد الدال. الأُولى من الاعتداء والثانية من الإعداد؛ أي يهيئون الآلة لأخذها. وقرأ ابن السَّمَيْقَع «في الأسبات» على جمع السبت. ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾ وقرىء «أسباتهم». ﴿شُرَّعًا﴾ أي شوارع ظاهرة على الماء كثيرة. وقال اللّيث: حيتان شُرّع رافعة رؤوسها. وقيل: معناه أن حيتان البحر كانت ترِد يوم السبت عُنُقاً[1] من البحر فتزاحم أيْلة. ألهمها الله تعالى أنها لا تُصاد يوم السبت؛ لنَهْيِه تعالى اليهود عن صيدها. وقيل: إنها كانت تشرع على أبوابهم؛ كالكِباش البيض رافعةً رؤوسها. حكاه بعض المتأخرين؛ فتعدّوا فأخذوها في السبت؛ قاله الحسن. وقيل: يوم الأحد، وهو الأصح على ما يأتي بيانه. ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾ أي لا يفعلون السبت؛ يقال: سبت يسبِت إذا عظّم السبت. وقرأ الحسن «يُسْبِتون» بضم الياء، أي يدخلون في السبت؛ كما يقال: أجمعنا وأظهرنا وأشهرنا، أي دخلنا في الجمعة والظهر والشهر. ﴿لَا تَأْتِيهِمْ﴾ أي حيتانهم. ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم﴾ أي نشدّد عليهم في العبادة ونختبرهم. والكاف في موضع نصب. ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ أي بفسقهم. وسئل الحسين بن الفضل: هل تجد في كتاب الله الحلال لا يأتيك إلا قوتاً، والحرام يأتيك جَزْفاً جَزْفاً؟ قال: نعم، في قصة داود وأيلة ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾. ورُوي في قصص هذه الآية أنها كانت في زمن داود عليه السلام، وأن إبليس أوْحَى إليهم فقال: إنما نُهيتم عن أخذها يوم السبت، فاتّخذوا الحياض؛ فكانوا يسوقون الحِيتان إليها يوم الجمعة فتبقى فيها، فلا يمكنها الخروج منها لقلة الماء، فيأخذونها يوم الأحد. وروى أشهب عن مالك قال. زعم ابن رُومان أنهم كانوا يأخذ الرجل خيطاً ويضع فيه وَهَقة[2]، وألقاها في ذنب الحوت، وفي الطرف الآخر من الخيط وتِد وتركه كذلك إلى الأحد، ثم تطرّق الناس حين رَأَوا من صنع هذا لا يُبْتَلى حتى كثُرَ صيد الحوت، ومُشي به في الأسواق،

[٣١٣٨] باطل. أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات ٣/ ٢١١ ـ ٢١٢ من حديث أنس وأبي هريرة وغيرهما وحكم بوضعه وانتقد رجاله، وأنهم ما بين كذاب ومتروك.

---

(١) أي طوائف، وجاء القوم عنقاً عنقاً أي: قطيعاً قطيعاً.
(٢) الوهقُ: حبل يطرح في عنق الدابة حتى تؤخذ وتمسك.

وأعلن الفسقة بصيده؛ فقامت فرقة من بني إسرائيل ونهت، وجاهرت بالنهي واعتزلت. وقيل: إن الناهين قالوا: لا نساكنكم؛ فقسموا القرية بجدار. فأصبح الناهون ذات يوم في مجالسهم ولم يخرج من المعتدين أحد، فقالوا: إن للناس لشأناً؛ فعلَوْا على الجدار فنظروا فإذا هم قَردة، ففتحوا الباب ودخلوا عليهم، فعرفت القِردة أنسابَها من الإنس، ولم تعرف الإنس أنسابهم من القِردة؛ فجعلت القِردة تأتي نسيبها من الإنس فَتَشُم ثيابه وتبكي؛ فيقول: ألم ننهكم! فتقول برأسها نعم. قال قتادة: صار الشبان قردةً والشيوخ خنازير، فما نجا إلا الذين نَهوْا وهلك سائرهم. فعلى هذا القول إن بني إسرائيل لم تفترق إلا فرقتين. ويكون المعنى في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي قال الفاعلون للواعظين حين وعظوهم: إذا علمتم أن الله مهلكنا فلم تعظوننا؟ فمسخهم الله قردة. ﴿قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ أي قال الواعظون: موعظتنا إياكم معذرةٌ إلىٰ ربكم؛ أي إنما يجب علينا أن نعظكم لعلكم تتقون. أسند هذا القول الطَّبريّ عن ٱبن الكلبيّ. وقال جمهور المفسرين: إن بني إسرائيل افترقت ثلاث فِرَق، وهو الظاهر من الضمائر في الآية. فرقة عَصَتْ وصادت، وكانوا نحواً من سبعين ألفاً. وفرقة نَهَت واعتزلت، وكانوا ٱثنَيْ عشر ألفاً. وفرقة اعتزلت ولم تَنْهَ ولم تَعْص، وأن هذه الطائفة قالت للناهية: لِم تعظون قوماً ـ تريد العاصية ـ الله مهلكُهم أو معذّبهم على غلبة الظن، وما عُهد من فعل الله تعالى حينئذ بالأمم العاصية. فقالت الناهية: موعظتنا معذرةٌ إلى الله لعلّهم يتقون. ولو كانوا فرقتين لقالت الناهية للعاصية: ولعلكم تتقون، بالكاف. ثم ٱختُلف بعد هذا؛ فقالت فرقة: إن الطائفة التي لم تَنْه ولم تَعْص هلكت مع العاصية عقوبةً على ترك النهي؛ قاله ابن عباس. وقال أيضاً: ما أدري ما فُعل بهم؛ وهو الظاهر من الآية. وقال عكْرمة: قلت لابن عباس لمّا قال ما أدري ما فعل بهم: ألا ترى أنهم قد كَرِهوا ما هم عليه وخالفوهم فقالوا: لِمَ تعظون قوماً الله مهلكهم؟ فلم أزل به حتى عرّفته أنهم قد نَجَوْا؛ فكَسَاني حُلّة. وهذا مذهب الحسن. ومما يدل على أنه إنما هلكت الفرقة العادية لا غيرُ قولُه: ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾. وقولُه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ [البقرة: ٦٥] الآية. وقرأ عيسى وطلحة «معذِرةً» بالنصب. ونصبُه عند الكسائيّ من وجهين: أحدهما على المصدر. والثاني على تقدير فعلنا ذلك معذرة. وهي قراءة حَفْص عن عاصم. والباقون بالرفع: وهو الاختيار؛ لأنهم لم يريدوا أن يعتذِروا اعتذاراً مستأنَفاً من أمر لِيمُوا عليه، ولكنهم قيل لهم: لِم تَعظون؟ فقالوا: موعظتنا معذرة. ولو قال رجل لرجل: معذرةً إلى الله وإليك من كذا، يريد اعتذاراً؛ لنصب. هذا قول سيبويه. ودلّت الآية على القول بسدّ الذّرائع. وقد مضى في «البقرة».

ومضى فيها الكلام في الممسوخ هل ينْسُل أم لا، مبيّناً. والحمد لله. ومضى في «آل عمران» و«المائدة» الأمر بالمعروف والنهيُ عن المنكر. ومضى في «النساء» أعتزال أهل الفساد ومجانبتهم، وأن من جالسهم كان مثلهم؛ فلا معنى للإعادة.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾.

والنسيان يطلق على الساهي. والعامد: التارك؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ﴾ أي تركوه عن قصد؛ ومنه ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]. ومعنى ﴿بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾ أي شديد. وفيه إحدى عشرة قراءة: الأُولى ـ قراءة أبي عمرو وحمزة والكِسائيّ «بئيس» على وزن فعيل. الثانية ـ قراءة أهل مكة «بِئيس» بكسر الباء والوزن واحد. والثالثة ـ قراءة أهل المدينة «بِيْسٍ» الباء مكسورة بعدها ياء ساكنة بعدها سين مكسورة منوّنة، وفيها قولان. قال الكسائي: الأصل فيه «بِييس» خفيفة الهمزة، فالتقت ياءان فحذفت إحداهما وكسر أوّله؛ كما يقال: رَغِيف وشهيد. وقيل: أراد «بئس» على وزن فِعل؛ فكسر أوله وخفف الهمزة وحذف الكسرة؛ كما يقال: رَحِم ورِحْم. الرابعة ـ قراءة الحسن، الباء مكسورة بعدها همزة ساكنة بعدها سين مفتوحة. الخامسة ـ قرأ أبو عبد الرحمن المقرىء «بَئِسٍ» الباء مفتوحة والهمزة مكسورة والسين مكسورة منوّنة. السادسة ـ قال يعقوب القارىء: وجاء عن بعض القراء «بعذاب بَئِسَ» الباء مفتوحة والهمزة مكسورة والسين مفتوحة. السابعة ـ قراءة الأعمش «بَيْئسٍ» على وزن فيعل. وروى عنه «بَيْأسٍ» على وزن فيعل. وروى عنه «بَئِّسٍ» بباء مفتوحة وهمزة مشددة مكسورة، والسين في كله مكسورة منوّنة، أعني قراءة الأعمش. العاشرة ـ قراءة نصر بن عاصم «بعذاب بَيِّس» الباء مفتوحة والياء مشدّدة بغير همز. قال يعقوب القارىء: وجاء عن بعض القراء «بِئْيَسٍ» الباء مكسورة بعدها همزة ساكنة بعدها ياء مفتوحة. فهذه إحدى عشرة قراءة ذكرها النحاس. قال عليّ بن سليمان: العرب تقول جاء ببنات بِيسٍ أي بشيء رديء. فمعنى «بِعَذَابٍ بِيسٍ» بعذاب رديء. وأما قراءة الحسن فزعم أبو حاتم أنه لا وجه لها، قال: لأنه لا يقال مررت برجل بِئس، حتى يقال: بئس الرجل، أو بئس رجلاً. قال النحاس: وهذا مردود من كلام أبي حاتم؛ حكى النحويون: إن فعلت كذا وكذا فبِهَا ونِعْمَتْ. يريدون فبها ونعمت الخصلة. والتقدير على قراءة الحسن: بعذاب بئس العذاب.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ أي فلما تجاوزوا في معصية الله. ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟

﴿قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾ يقال: خسأته فخسأ؛ أي باعدته وطردته. وقد تقدّم في «البقرة». ودلّ على أن المعاصي سبب النقمة، وهذا لا خفاء به فقيل: قال لهم ذلك بكلام يُسمع، فكانوا كذلك. وقيل: المعنىٰ كوّناهم قردة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٦٧﴾﴾.

أي أعلم أسلافهم أنهم إن غيّروا ولم يؤمنوا بالنبيّ الأُميّ بعث الله عليهم من يعذّبهم. وقال أبو عليّ: «آذن» بالمد، أعلم. و «أذّن» بالتشديد، نادى. وقال قوم: آذن وأذّن بمعنى أعلم؛ كما يقال: أيقن وتيقّن. قال زهير:

فقلتُ تَعَلَّمْ إن للصيد غرّةً ... فإلاّ تُضَيّعها فإنك قاتِلُهْ

وقال آخر:

تعلّم إن شر الناس حيّ ... يُنَادَى في شعارهم يَسار

أي أعلم. ومعنى ﴿يَسُومُهُمۡ﴾ يذيقهم؛ وقد تقدّم في «البقرة». قيل: المراد بُخْتَنَصّر. وقيل: العرب. وقيل: أمّة محمد ﷺ. وهو أظهر؛ فإنهم الباقون إلى يوم القيامة. والله أعلم. قال ابن عباس: «سُوءَ الْعَذَابِ» هنا أخذ الجِزْية. فإن قيل: فقد مُسِخوا، فكيف تؤخذ منهم الجزية؟ فالجواب أنها تؤخذ من أبنائهم وأولادهم، وهم أذلّ قوم، وهم اليهود. وعن سعيد بن جبير «سُوءَ الْعَذَابِ» قال: الخَراج، ولم يَجْب نبيّ قطّ الخَراج، إلا موسى عليه السلام هو أوّل من وضع الخراج، فجباه ثلاث عشرة سنة، ثم أمسك، ونبينا عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنۡهُمۡ دُونَ ذَٰلِكَۖ وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ﴾ أي فرّقناهم في البلاد. أراد به تشتيت أمرهم، فلم تُجمع لهم كلمة. ﴿مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ رفع على الابتداء. والمراد من آمن بمحمد عليه السلام، ومن لم يبدّل منهم ومات قبل نسخ شرع موسى. أو هم الذين وراء الصين؛ كما سبق. ﴿وَمِنۡهُمۡ دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾ منصوب على الظرف. قال النحاس: ولا نعلم أحداً رفعه. والمراد الكفار منهم. ﴿وَبَلَوۡنَٰهُم﴾ أي ٱختبرناهم. ﴿بِٱلۡحَسَنَٰتِ﴾ أي بالخصْب والعافية. ﴿وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي الجدب والشدائد. ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ ليرجعوا عن كفرهم.

قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦٩﴾.

قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ﴾ يعني أولاد الذين فرّقهم في الأرض. قال أبو حاتم: «الخَلْف» بسكون اللام: الأولاد، الواحد والجميع فيه سواء. و «الخلف» بفتح اللام البَدَل، ولداً كان أو غريباً. وقال ابن الأعرابيّ: «الْخَلَفُ» بالفتح الصالح، وبالجزم الطالح. قال لَبيد:

ذهبَ الذين يُعاشُ في أكنافِهم   وبقيْتُ في خلْف كجِلْد الأجْرَبِ

ومنه قيل للرديء من الكلام: خَلْف. ومنه المثل السائر «سَكَت ألْفاً ونطق خَلْفاً». فخلفٌ في الذَّم بالإسكان، وخَلَفٌ بالفتح في المدح. هذا هو المستعمل المشهور. قال ﷺ:

[٣١٣٨ م] «يَحمِل هذا العلم مِن كل خَلَف عدولُه». وقد يستعمل كل واحد منهما موضع الآخر. قال حسان بن ثابت:

لنا القَدَمُ الأولَى إليك وخَلْفُنا   لأوّلنا في طاعة اللّه تابع

وقال آخر:

إنا وجدنا خَلَفاً بئس الخلَفْ   أغلق عنا بابَه ثم حلف

لا يُدخل البوابُ إلا من عرف   عبداً إذا ما ناء بالحِمل وَقَفْ

ويروى: خَضَف؛ أي رَدَم. والمقصود من الآية الذّمّ. ﴿وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ قال المفسرون: هم اليهود، ورِثوا كتاب الله فقرؤوه وعلموه، وخالفوا حكمه وأتوْا محارمه مع دراستهم له. فكان هذا توبيخاً لهم وتقريعاً. ﴿يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾ ثم أخبر عنهم أنهم يأخذون ما يعرض لهم من متاع الدنيا لشدّة حرصهم ونهمهم. ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾ وهم لا يتوبون. ودلّ على أنهم لا يتوبون.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُ﴾ والعَرَض: متاع الدنيا؛ بفتح الراء. وبإسكانها ما كان من المال سوى الدراهم والدنانير. والإشارة في هذه الآية إلى الرَشا

[٣١٣٨] أخرجه البزار ١٤٣ وابن عبد البرّ في «التمهيد» ١/ ٥٩ من حديث أبي هريرة وابن عمر وإسناده ضعيف. فيه خالد بن عمرو، وهو منكر الحديث قاله البزار. وكرره ابن عبد البر عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري مرسلاً، وكرره من حديث أبي أمامة وإسناده ضعيف، فالحديث غير قوي.

والمكاسب الخبيثة. ثم ذمّهم بٱغترارهم في قولهم «سَيُغْفَرُ لَنَا» وأنهم بحال إذا أمكنتهم ثانية ٱرتكبوها، فقطعوا باغترارهم بالمغفرة وهم مصِرّون، وإنما يقول سيغفر لنا من أقْلَع وندم.

قلت: وهذا الوصف الذي ذمّ الله تعالى به هؤلاء موجود فينا. أسند الدارِمِيّ أبو محمد: حدّثنا محمد بن المبارك حدّثنا صدقة بن خالد عن ابن جابر عن شيخ يُكْنَى أبا عمرو عن معاذ بـن جبل رضي الله عنه قال: سَيَبْلَى القرآنُ في صدور أقوام كما يَبْلَى الثّوب فيتهافَت، يقرؤونه لا يجدون له شهوة ولا لذة، يَلْبَسون جلود الضأن على قلوب الذئاب، أعمالُهم طمع لا يخالطه خوف، إن قصّروا قالوا سنبلغ، وإن أساؤوا قالوا سيغفر لنا، إنا لا نشرك بالله شيئاً. وقيل: إن الضمير في «يَأْتِهِمْ» ليهود المدينة؛ أي وإن يأت يهودَ يَثْرِبَ الذين كانوا على عهد النبيّ ﷺ عَرَضٌ مثْلُه يأخذوه كما أخذه أسلافهم.

قوله تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾فيه مسألتان.

الأُولى: قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يريد التوراة. وهذا تشديد في لزوم قول الحق في الشرع والأحكام، وألاّ يميل الحكام بالرُّشَا إلى الباطل.

قلت: وهذا الذي لزم هؤلاء وأُخذ عليهم به الميثاق في قول الحق، لازم لنا على لسان نبيّنا ﷺ وكتابِ رَبّنا، على ما تقدّم بيانه في «النساء». ولا خلاف فيه في جميع الشرائع، والحمد لله.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ﴾ أي قرؤوه، وهم قَرِيبُو عهد به. وقرأ أبو عبد الرحمن «وٱدّارسوا ما فيه» فأدغم التاء في الدال. قال ٱبن زيد: كان يأتيهم المُحِقّ بِرشوة فيُخرجون له كتاب الله فيحكمون له به، فإذا جاء المبطل أخذوا منه الرشوة وأخرجوا له كتابهم الذي كتبوه بأيديهم وحكموا له. وقال ٱبن عباس: ﴿أَلاَّ يَقُولُوا عَلَىٰ الله إلاَّ الْحَقَّ﴾ وقد قالوا ٱلباطل في غُفران ذنوبهم الذي يوجبونه ويقطعون به. وقال ابن زيد يعني في الأحكام التي يحكمون بها؛ كما ذكرنا. وقال بعض العلماء: إن معنىٰ ﴿ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ﴾أي مَحَوْه بترك العمل به والْفَهْم له؛ من قولك: درستِ الريح الآثار، إذا مَحَتْها. وخط دارس ورَبْع دارس، إذا ٱمّحى وعفا أثره. وهذا المعنى مواطىء ـ أي موافق ـ لقوله تعالى: ﴿ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ الآية. [البقرة: ١٠١] وقوله: ﴿ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٨٧] حسب ما تقدّم بيانه في «البقرة».

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي بالتوراة، أي بالعمل بها؛ يقال: مسك به وتمسك به أي استمسك به. وقرأ أبو العالِية وعاصم في رواية أبي بكر «يُمْسِكُونَ» بالتخفيف من أمسك يمسك. والقراءة الأُولى أوْلى؛ لأن فيها معنى التكرير والتكثير للتمسك بكتاب الله تعالى وبدينه فبذلك يُمدحون. فالتمسك بكتاب الله والدِّين يحتاج إلى الملازمة والتكرير لفعل ذلك. وقال كعب بن زهير:

فما تَمسّكُ بالعهد الذي زعمتْ إلاّ كما تُمسك الماءَ الغرابيلُ

فجاء به على طبعه يذمّ بكثرة نقض العهد.

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ ﴾ «نتقنا» معناه رفعنا. وقد تقدّم بيانه في «البقرة». ﴿ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ ﴾ أي كأنه لارتفاعه سحابة تُظلّ. ﴿ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ ﴾ أي بِجدّ. وقد مضى في «البقرة» إلى آخر الآية.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ ﴾.

فيه ست مسائل:

الأولىٰ ـ قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ ﴾ أي وٱذكر لهم مع ما سبق من تذكير المواثيق في كتابهم ما أخذتُ من المواثيق من العباد يوم الذّرّ. وهذه آية مُشْكَلةٌ، وقد تكلم العلماء في تأويلها وأحكامها، فنذكر ما ذكروه من ذلك حسب ما وقفنا عليه. فقال قوم: معنىٰ الآية أن الله تعالىٰ أخرج من ظهور بني آدم بعضهم من بعض. قالوا: ومعنىٰ: ﴿ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ دلّهم بخلقه على توحيده؛ لأن كل بالغ يعلم ضرورة أن له ربّاً واحداً. ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ أي قال: فقام ذلك مقام الإشهاد عليهم، والإقرار منهم؛ كما قال تعالىٰ في السموات والأرض. ﴿ قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [فصلت: ١١]. ذهب إلى هذا القَفّالُ وأطنب. وقيل: إنه سبحانه أخرج الأرواح قبل خلق الأجساد، وأنه جعل فيها من المَعْرِفة ما علمت به ما خاطبها.

قلت: وفي الحديث عن النبيّ ﷺ غيرُ هذين القولين، وأنه تعالى أخرج الأشباح فيها الأرواح من ظهر آدم عليه السلام. وروىٰ مالك في موطّئه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سئل عن هذه الآية ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ فقال عمر رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يُسأل عنها. فقال رسول الله ﷺ:

[٣١٣٩] «إن الله تعالىٰ خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذُرِّية فقال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذُرِّية فقال خلقتُ هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون». فقال رجل: ففيم العمل؟ قال فقال رسول الله ﷺ: «إن الله إذا خلق العبد للجنة أستعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فُيدخلَه الجنة وإذا خلق العبد للنار أستعلمه بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله الله النار». قال أبو عمر: هذا حديث منقطع الإسناد؛ لأن مسلم بن يسار لم يَلْق عمر. وقال فيه يحيىٰ بن مَعين: مسلم بن يسار لا يُعرف، بينه وبين عمر نعيمُ بن ربيعة، ذكره النسائيّ، ونعيم غير معروف بحمل العلم. لكن معنىٰ هذا الحديث قد صحّ عن النبيّ ﷺ من وجوه ثابتة كثيرة من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وعبد الله بن مسعود وعليّ بن أبي طالب وأبي هريرة رضي الله عنهم أجمعين وغيرهم. روىٰ الترمِذِيّ وصححه عن أبي هريرة قال إن رسول الله ﷺ قال:

[٣١٤٠] «لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كلُّ نَسَمة هو خالقها من

[٣١٣٩] أخرجه مالك ٢/ ٨٩٨ وأحمد ١/ ٤٤ أبو داود ٤٧٠٣ والترمذي ٣٠٧٥ وابن حبان ٦١٦٦ والحاكم ١/ ٢٧ و ٢/ ٣٢٤ و ٥٤٤ من حديث مسلم بن يسار عن عمر، صححه الحاكم في المواضع الثلاثة، وخالفه الذهبي فقال عقب الرواية الأولىٰ: فيه إرسال، وقال الترمذي: حديث حسن ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر، وقال الدارقطني في علله ٢/ ٢٢٢: يروي هذا الحديث زيد بن أبي أنيسة وفيه واسطة بين عمر ومسلم وهو نعيم بن ربيعة. وهذا الإسناد المتصل عند أبي داود ٤٧٠٤ لكن نعيم غير مشهور، ولذا قال الحافظ في التقريب: مقبول. وللحديث شواهد يصحُّ بها إن شاء الله، وانظر صحيح أبي داود ٣٩٣٦، لكن ضعف الشيخ فقرة «مسح ظهره».

[٣١٤٠] أخرجه الترمذي ٣٣٦٨ وصححه ابن حبان ٦١٦٧ والحاكم ١/ ٦٤ و٤/ ٢٦٣ ووافقه الذهبي، كلهم من حديث سعيد المقبري عن أبي هريرة مرفوعاً، وإسناده على شرط مسلم، طوله ابن حبان وغيره. وأخرجه ابن سعد ١/ ٢٧ والحاكم ٢/ ٥٨٥ من حديث أبي صالح عن أبي هريرة به، وإسناده قوي وصححه الحاكم، وأقره الذهبي، وأخرجه الحاكم ١/ ٤٦ وصححه من حديث الشعبي عن أبي هريرة به. والطبري ١/ ٩٦٠ من طريق أبي سلمة عن أبي هريرة به، فالحديث صحيح بهذه الطرق. وانظر صحيح الترمذي ٢٤٥٩.

ذُرِّيته إلى يوم القيامة وجعل بين عَيْنَيْ كلِّ رجل منهم وَبيصاً من نور ثم عَرَضَهُمْ على آدم فقال يا ربّ من هؤلاء قال هـؤلاء ذُرِّيتك فرأىٰ رجلاً منهم فأعجبه وبِيصُ ما بين عينيه فقال أيْ ربِّ من هذا؟ فقال هذا رجل من آخر الأمم من ذُرِّيتك يقال له داود فقال ربِّ كم جعلت عُمْرَه قال ستين سنة قال أي رَبِّ زِدْه من عُمْرِي أربعين سنةً فلما ٱنقضىٰ عُمْر آدم عليه السلام جاءه مَلَك الموت فقال أو لم يبق من عُمْري أربعون سنةً قال أوَ لم تُعْطِها ٱبنك داود قال فجَحَد آدم فجحدت ذريته ونسي آدم فنسيت ذريته». في غير الترمذي: فحينئذ أمر بالكُتّاب والشهود. في رواية: فرأىٰ فيهم الضعيف والغنيّ والفقير والذليل والمبتلى والصحيح. فقال لـه آدم: يا ربّ، ما هذا؟ ألا سويت بينهم! قال: أردت أن أشكر. وروى عبد الله بن عمرو عن النبيّ ﷺ أنه قال:

[٣١٤١] «أخذوا من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس». وجعل الله لهم عقولاً كنملة سليمان. وأخذ عليهم العهد بأنه ربّهم وأن لا إله غيره. فأقرّوا بذلك وٱلتزموه، وأعلمهم بأنه سيبعث إليهم الرسل؛ فشهد بعضهم على بعض. قال أُبيّ بن كعب: وأشهد عليهم السموات السبع، فليس من أحد يُولد إلى يوم القيامة إلا وقد أُخِذ عليه العهد.

وٱختُلف في الموضع الذي أخذ فيه الميثاق حين أخرجوا على أربعة أقوال[1]؛ فقال ابن عباس: ببطن نَعْمان، وادٍ إلى جنب عَرفة. وَرُوِيَ عـنـه أن ذلك برهبا ـ أرض بالهند ـ الذي هبط فيه آدم عليه السلام. وقال يحيىٰ بن سلام قال ابن عباس في هذه الآية: أهبط الله آدم بالهند، ثم مسح على ظهره فأخرج منه كل نَسمة هو خالقها إلى يوم القيامة، ثم قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ قال يحيىٰ قال الحسن: ثم أعادهم في صُلب آدم عليه السلام[2]. وقال الكَلْبِي: بين مكة والطائف. وقال السُّدِّي: في السماء الدنيا حين أهبط من الجنة إليها مسح على ظهره فأخرج من صفحة ظهره اليمنىٰ ذرية بيضاء مثل اللؤلؤ، فقال لهم ٱدخلوا الجنة برحمتي. وأخرج من صفحة ظهره اليسرىٰ ذرّية سوداء وقال لهم ٱدخلوا النار ولا أبالي. قال ابن جُريج: خرجت كل نفس مخلوقة للجنة بيضاء. وكل نفس مخلوقة للنار سوداء.

[٣١٤١] الراجح وقفه. أخرجه الطبري ١٥٣٦٥ من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً، وفي إسناده أحمد بن أبي طيبة. قال ابن عدي: حدث بأحاديث كثيرة غرائب ذكره ابن كثير في تفسيره ٢/ ٢٧٣ ثم كرره ابن جرير ١٥٣٦٦ و ١٥٣٦٧ بإسنادين صحيحين عن عبد الله موقوفاً ورجح الطبري الوقف، ومثله ابن كثير.

---

(١) كل ذلك متلقىٰ عن أهل الكتاب ولا حجة فيه.

(٢) أثر الحسن لا حجة فيه، وهو غريب.

الثانية ـ قال ابن العربيّ رحمـــه الله: «فإن قيل فكيف يجوز أن يعذب الخلق وهم لم يُذنبوا، أو يُعاقبهم على ما أراده منهم وكتبه عليهم وساقهم إليه، قلنا: ومن أين يمتنع ذلك، أعقلاً أم شرعاً؟ فإن قيل: لأن الرحيم الحكيم منا لا يجوز أن يفعل ذلك. قلنا: لأن فوقه آمراً يأمره وناهياً ينهاه، وربنا تعالىٰ لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، ولا يجوز أن يقاس الخلق بالخالق. ولا تُحمل أفعال العباد على أفعال الإله، وبالحقيقة الأفعال كلها لله جل جلاله، والخلْق بأجمعهم له، صَرَّفهم كيف شاء، وحَكَم بينهم بما أراد، وهذا الذي يجده الآدميّ إنما تبعث عليه رِقة الجِبِلّة وشفقة الجنسيّة وحبُّ الثناء والمدح؛ لما يتوقع في ذلك من الانتفاع، والباري تعالىٰ متقدّس عن ذلك كله، فلا يجوز أن يعتبر به».

الثالثة ـ واختلف في هذه الآية، هل هي خاصّة أو عامّة. فقيل: الآية خاصة؛ لأنه تعالىٰ قال: ﴿مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ﴾ فخرج من هذا الحديث من كان من ولد آدم لصُلْبه. وقال جل وعز: ﴿أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ﴾ فخرج منها كلُّ مَن لم يكن له آباء مشركون. وقيل: هي مخصوصة فيمن أخذ عليه العهد على ألسنة الأنبياء. وقيل: بَل هي عامّة لجميع الناس؛ لأن كلّ أحد يعلم أنه كان طفلاً فغُذّي ورُبِّيَ، وأن له مُدَبِّراً وخالقاً. فهذا معنىٰ ﴿وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾. ومعنىٰ ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾أي إن ذلك واجب عليهم. فلما اعترف الخلق لله سبحانه بأنه الربّ ثم ذهلوا عنه ذكّرهم بأنبيائه وختم الذّكر بأفضل أصفيائه لتقوم حجته عليهم فقال له: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ﴿٢١﴾ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية: ٢١ ـ ٢٢] ثم مكّنه من السيطرة، وآتاه السلطنة، ومكّن له دينه في الأرض. قال الطَّرْطوشي: إن هذا العهد يلزم البشر وإن كانوا لا يذكرونه في هذه الحياة، كما يلزم الطلاقُ من شُهد عليه به وقد نَسِيَه».

الرابعة ـ وقد استدل بهذه الآية من قال: إن من مات صغيراً دخل الجنة لإقراره في الميثاق الأوّل. ومن بلغ العقل لم يغنه الميثاق الأوّل. وهذا القائل يقول: أطفال المشركين في الجنة، وهو الصحيح في الباب. وهذه المسألة اختُلف فيها لاختلاف الآثار، والصحيح ما ذكرناه. وسيأتي الكلام في هذا في «الروم» إن شاء الله. وقد أتينا عليها في كتاب «التّذكرة» والحمد لله.

الخامسة ـ قوله تعالىٰ: ﴿مِن ظُهُورِهِمۡ﴾ بدل اشتمال من قوله ﴿مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾. وألفاظ الآية تقتضي أن الأخذ إنما كان من بني آدم، وليس لآدم في الآية ذكر بحسب اللفظ. ووجه النظم على هذا: وإذ أخذ ربُّك من ظهور بني آدم ذريتهم. وإنما لم يذكر ظهر آدم لأن المعلوم أنهم كلّهم بَنُوه، وأنهم أخرجوا يوم الميثاق من ظهره. فاستغنىٰ عن

ذكره لقوله: ﴿مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾. ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قرأ الكوفيون وابن كثير بالتوحيد وفتح التاء، وهي تقع للواحد والجمع؛ قال الله تعالىٰ: ﴿هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: ٣٨] فهذا للواحد؛ لأنه إنما سأل هبة ولد فَبشّر بيحيىٰ. وأجمع القراء على التوحيد في قوله: ﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ [مريم: ٥٨] ولا شيء أكثر من ذرية آدم. وقال: ﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ فهذا للجمع. وقرأ الباقون «ذُرِّيَّاتِهِمْ» بالجمع، لأن الذرية لما كانت تقع للواحد أتىٰ بلفظ لا يقع للواحد فجمع لتخلص الكلمة إلى معناها المقصود إليه لا يُشركها فيه شيء وهو الجمع؛ لأن ظهور بني آدم استخرج منها ذريات كثيرة متناسبة، أعقاب بعد أعقاب، لا يعلم عددهم إلا الله؛ فجمع لهذا المعنىٰ.

السادسة ـ قوله تعالىٰ: ﴿بَلَىٰ﴾ تقدّم القول فيها في «البقرة» عند قوله: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ [البقرة: ٨١] مستوفىٰ فتأمله هناك. ﴿أَن يَقُولُواْ﴾ ﴿أو يقولوا﴾ قرأ أبو عمرو بالياء فيهما. ردّهما على لفظ الغَيْبة المتكرر قبله، وهو قوله: ﴿مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِم وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِم﴾ وقوله: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ أيضاً لفظ غيبة. وكذا ﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ ﴿وَلَعَلَّهُمْ﴾ فحمله على ما قبله وما بعده من لفظ الغيبة. وقرأ الباقون بالتاء فيهما؛ ردّوه على لفظ الخطاب المتقدّم في قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ ويكون «شَهِدْنا» من قوله الملائكة. لما قالوا «بَلىٰ» قالت الملائكة: ﴿شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ﴾ ﴿أو تَقُولُوا﴾ أي لئلا تقولوا: وقيل: معنىٰ ذلك أنهم لما قالوا بلىٰ، فأقروا له بالربوبية، قال الله تعالىٰ للملائكة أشهدوا قالوا شهدنا بإقراركم لئلا تقولوا أو تقولوا. وهذا قول مجاهد والضحاك والسُّدِّي. وقال ابن عباس وأبي بن كعب: قوله «شَهِدْنَا» هو من قول: بني آدم. والمعنىٰ: شهدنا أنك ربُّنا وإلٰهُنَا، وقال ابن عباس: أشهد بعضهم على بعض؛ فالمعنىٰ على هذا قالوا بلىٰ شهد بعضنا على بعض؛ فإذا كان ذلك من قول الملائكة فيوقف على «بلىٰ» ولا يحسن الوقف عليه إذا كان من قول بني آدم؛ لأن «أن» متعلقة بما قبل بلىٰ، من قوله: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ لئلا يقولوا: وقد روىٰ مجاهد عن ابن عمرو[1] أن النبيّ ﷺ قال:

[٣١٤٢] «أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم كما يؤخذ بالمشط من الرأس فقال لهم ألست بربكم قالوا بلى قالت الملائكة شهدنا أن تقولوا». أي شهدنا عليكم بالإقرار بالرُّبوبية لئلا تقولوا. فهذا يدلّ على التاء. قال مَكِّيّ: وهو الاختيار لصحة معناه،

[٣١٤٢] هو الحديث المتقدم، والصواب أنه موقوف.

---

(١) وقع في الأصل «عمر» والتصويب من الطبري ١٥٣٦٥.

ولأن الجماعة عليه. وقد قيل: إن قوله «شَهِدْنَا» من قول الله تعالى والملائكة. والمعنىٰ: فشهدنا على إقراركم؛ قاله أبو مالك، وروي عن السّدِّي أيضاً. ﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي ٱقتدنا بهم. ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ بمعنى: لست تفعل هذا. ولا عذر للمقلِّد في التوحيد.

قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾﴾.

ذكر أهل الكتاب قصة عرفوها في التوارة. وٱختُلف في تعيين الذي أوتي الآيات. فقال ابن مسعود وابن عباس: هو بَلْعَامُ بن باعُوراء، ويقال ناعم، من بني إسرائيل في زمن موسىٰ عليه السلام[1]، وكان بحيث إذا نظر رأىٰ العرش. وهو المعني بقوله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ ولم يقل آية، وكان في مجلسه اثنتا عشرة ألف محبرة للمتعلمين الذين يكتبون عنه. ثم صار بحيث أنه كان أوّل من صنّف كتاباً في أن «ليس للعالم صانع». قال مالك بن دينار: بُعث بلعام بن باعوراء إلى مَلِك مَدْين ليدعوه إلى الإيمان؛ فأعطاه وأقطعه فٱتبع دينه وترك دين موسىٰ؛ ففيه نزلت هذه الآيات. روىٰ المُعْتَمِر بنُ سليمان عن أبيه قال: كان بلعام قد أوتيٰ النّبوة[1]، وكان مجابَ الدعوة، فلما أقبل موسىٰ في بني إسرائيل يريد قتال الجبّارين، سأل الجبارون بلعام بن باعوراء أن يدعُوَ على موسىٰ فقام ليدعُوَ فتحوّل لسانه بالدعاء على أصحابه. فقيل له في ذلك؛ فقال: لا أقدر على أكثر مما تسمعون؛ وٱندلع لسانه على صدره. فقال: قد ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة، فلم يبقَ إلا المكر والخديعة والحيلة، وسأمكر لكم، فإني أرى أن تُخرجوا إليهم فتياتكم فإن الله يبغض الزنىٰ، فإن وقعوا فيه هلكوا؛ ففعلوا فوقع بنو إسرائيل في الزنىٰ، فأرسل الله عليهم الطاعون فمات منهم سبعون ألفاً، وقد ذكر هذا الخبر بكماله الثّعلبيّ وغيره. ورُوي[1] أن بلعام بن باعوراء دعا ألا يدخل موسىٰ مدينة الجبارين، فاستُجيب له وبقي في التِّيه. فقال موسىٰ: يا ربّ بأي ذنب بقينا في التِّيه. فقال: بدعاء بلعام. قال: فكما سمعت دعاءه عليّ فاسمع دعائي عليه. فدعا موسىٰ أن ينزع الله عنه الاسم الأعظم؛ فسلخه الله ما كان عليه، وقال أبو حامد في آخر كتاب منهاج العارفين

---

(١) هذه الأخبار متلقاة عن أهل الكتاب يستأنس ببعضها وبعضها مردود منكر، مثل كونه نبياً فإن ما فعله ينافي العصمة، والأنبياء معصومون، وسيأتي كلام الماوردي وأنه نفىٰ أن يكون نبياً سيذكره القرطبي بعد قليل.

له: وسمعت بعض العارفين يقول إن بعض الأنبياء سأل الله تعالىٰ عن أمر بلعام وطرده بعد تلك الآيات والكرامات، فقال الله تعالىٰ: لم يشكرني يوماً من الأيام على ما أعطيته، ولو شكرني على ذلك مَرّة لما سلبته. وقال عكرمة: كان بلعام نبياً وأوتي كتاباً. وقال مجاهد: إنه أوتي النبوّة؛ فرشاه قومه على أن يسكت ففعل وتركهم على ما هم عليه. قال الماوردِيّ: وهذا غير صحيح؛ لأن الله تعالىٰ لا يصطفي لنبوّته إلا من علم أنه لا يخرج عن طاعته إلى معصيته. وقال عبد الله بن عمرو بن العاص وزيد بن أسلم: نزلت في أميّة بن أبي الصَّلْت الثَّقفِيّ، وكان قد قرأ الكتب وعلم أن الله مرسِل رسولاً في ذلك الوقت، وتمنّىٰ أن يكون هو ذلك الرسول، فلما أرسل الله محمداً ﷺ حسده وكفر به. وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ:

[٣١٤٣] «آمن شِعْره وَكَفر قلبه». وقال سعيد بن المُسَيِّب[١]: نزلت في أبي عامر بن صَيفي، وكان يلبس المُسُوح في الجاهلية؛ فكفر بالنبيّ ﷺ. وذلك أنه دخل على النبيّ ﷺ المدينة فقال: يا محمد، ما هذا الذي جئت به؟ قال: «جئتُ بالحنيفيّة دينِ إبراهيم». قال: فإني عليها. فقال النبيّ ﷺ: «لستَ عليها لأنك أدخلت فيها ما ليس منها». فقال أبو عامر: أمات الله الكاذب منا طريداً وحيداً. فقال النبيّ ﷺ: «نعم أمات الله الكاذب منا كذلك» وإنما قال هذا يُعَرّض برسول الله ﷺ حيث خرج من مكة. فخرج أبو عامر إلى الشام ومَرّ إلى قَيْصر وكتب إلى المنافقين: ٱستعدُّوا فإني آتيكم من عند قَيْصر بجند لنُخرج محمداً من المدينة؛ فمات بالشام وحيداً. وفيه نزل: ﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [التوبة: ١٠٧] وسيأتي في براءة. وقال ابن عباس في رواية: نزلت في رجل كان له ثلاث دعوات يُستجاب له فيها، وكانت له امرأة يقال لها «البَسُوس» فكان له منها ولد؛ فقالت: ٱجعل لي منها دعوة واحدة. فقال: لك واحدة، فما تأمرين؟ قالت: ٱدع الله أن يجعلني أجمل امرأة في بني إسرائيل. فلما علمت أنه ليس فيهم مثلها رغبت عنه؛ فدعا الله عليها أن يجعلها كلبة نباحة. فذهب فيها دعوتان؛ فجاء بنوها وقالوا: لا صبر لنا عن هذا، وقد صارت أمنا كلبة يعيّرنا الناس بها، فٱدع الله أن يردها كما كانت؛ فدعا فعادت إلى ما كانت، وذهبت الدعوات فيها. والقول الأوّل أشهر وعليه

[٣١٤٣] ضعيف. ذكره العجلوني في الكشف (١٩) فقال: رواه أبو بكر بن الأنباري في المصاحف وإسناده ضعيف كما قال المناوي، وانظر الضعيفة ٢٥٤٦.

---

(١) هذا مرسل. ويأتي في سورة التوبة آية (١٠٨).

الأكثر. قال عبادة بن الصامت: نزلت في قريش، آتاهم الله آياته التي أنزلها الله تعالىٰ على محمد ﷺ فأنسلخوا منها ولم يقبلوها. قال ٱبن عباس: كان بلعام من مدينة الجبارين. وقيل: كان من اليمن. ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ أي من معرفة الله تعالىٰ، أي نزع منه العلم الذي كان يعلمه. وفي الحديث عن النبيّ ﷺ:

[٣١٤٤] «العلم علمان علم في القلب فذلك العلم النافع وعلم على اللسان فذلك حجة الله تعالىٰ على ٱبن آدم». فهذا مثل علم بَلْعَام وأشباهه، نعوذ بالله منه؛ ونسأله التوفيق والممات على التحقيق. والانسلاخ: الخروج؛ يقال: ٱنسلخت الحية من جلدها أي خرجت منه. وقيل: هذا من المقلوب، أي انسلخت الآيات منه. ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي لحِق به؛ يقال: أتبعت القوم أي لحقتهم. وقيل: نزلت في اليهود والنصارىٰ، ٱنتظروا خروج محمد ﷺ فكفروا به.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ﴾ يريد بلعام. أي لو شئنا لأمتناه قبل أن يعصى فرفعناه إلى الجنة. ﴿بِهَا﴾ أي بالعمل بها. ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي ركن إليها؛ عن ٱبن جبير والسدي. مجاهد: سكن إليها؛ أي سكن إلى لذاتها. وأصل الإخلاد اللزوم. يقال: أخلد فلان بالمكان إذا أقام به ولزمه. قال زهير:

لمــن الــديــار غشيتَهــا بــالغَــرْقَــد كَـالْوَحـي[1] في حجـر المسِيـل المخلـد

يعني المقيم؛ فكأن المعنى لزم لذّات الأرض فعبر عنها بالأرض، لأن متاع الدنيا على وجه الأرض. ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ أي ما زينّ له الشيطان. وقيل: كان هواه مع الكفار. وقيل: اتبع رِضا زوجته، وكانت رغِبت في أموالٍ حتى حملته على الدعاء على موسىٰ.

[٣١٤٤] ضعيف. أخرجه الخطيب ٤/٣٤٦ وابن الجوزي في الواهيات ٨٨ من حديث جابر، وأعله ابن الجوزي بيحيىٰ بن يمان، قال أحمد: ليس بحجة، وقال أبو داود: يخطىء في الأحاديث، ويقلبها وكرره ابن الجوزي ٨٩ من حديث أنس، وقال: فيه أبو الصلت، وهو كذاب بإجماعهم.

---

(١) الوحي هنا: الكتاب.

﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ ابتداء وخبر. ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ﴾ شرط وجوابه. وهو في موضع الحال، أي فمثله كمثل الكلب لاهثاً. والمعنىٰ: أنه على شيء واحد لا يَرْعَوي عن المعصية؛ كمثل الكلب الذي هذه حالته فالمعنىٰ: أنه لاهث على كل حال، طردته أو لم تطرده. قال ٱبن جُرَيْج: الكلب منقطع الفؤاد، لا فؤاد له، إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث؛ كذلك الذي يترك الهدىٰ لا فؤاد له، وإنما فؤاده منقطع. قال القتيبي: كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش، إلا الكلب فإنه يلهث في حال الكلال وحال الراحة وحال المرض وحال الصحة وحال الري وحال العطش. فضربه الله مثلاً لمن كذب بآياته فقال: إن وعظته ضَلّ وإن تركته ضلّ؛ فهو كالكلب إن تركته لهث وإن طردته لهث؛ كقـولـه تعـالـىٰ: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾ [الأعراف: ١٩٣]. قال الجوهري: لهث الكلب (بالفتح) يلهث لهثاً ولُهَاثاً (بالضم) إذا أخرج لسانه من التعب أو العطش؛ وكذلك الرجل إذا أعْيَىٰ. وقوله: ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ﴾ لأنك إذا حملت على الكلب نبح ووَلّىٰ هارباً، وإذا تركته شدّ عليك ونبح؛ فيتعِب نفسه مقبلاً عليك ومدبراً عنك فيعتريه عند ذلك ما يعتريه عند العطش من إخراج اللسان. قال الترمذي الحكيم «في نوادر الأصول»: إنما شبهه بالكلب من بين السباع لأن الكلب ميت الفؤاد، وإنما لهاثه لموت فؤاده. وسائر السباع ليست كذلك فلذلك لا يلهثن. وإنما صار الكلب كذلك لأنه لما نزل آدم ﷺ إلى الأرض شمِت به العدو، فذهب إلى السباع فأشلاهم[1] على آدم، فكان الكلب من أشدّهم طلباً. فنزل جبريل بالعصا التي صرفت إلى موسىٰ بمدَيْن وجعلها آية له إلى فرعون وملئه، وجعل فيها سلطاناً عظيماً وكانت من آس الجنة؛ فأعطاها آدم ﷺ يومـئـذ ليطرد بها السباع عن نفسه، وأمره فيما روي أن يدنو من الكلب ويضع يده على رأسه، فمن ذلك ألفه الكلب ومات الفؤاد منه لسلطان العصا، وألف به وبولده إلى يومنا هذا، لوضع يده على رأسه وصار حارساً مِن حُرّاس ولده. وإذا أُدِّب وعلم الاصطياد تأدّب وقبل التعليم؛ وذلك قوله: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٥]. السّدّي: كان بلعام بعد ذلك يلهث كما يلهث الكلب. وهذا المثل في قول كثير من أهل العلم بالتأويل عامٌّ في كل من أوتي القرآن فلم يعمل به. وقيل: هو في كل منافق. والأوّل أصح. قال مجاهد في قوله تعالىٰ: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ أي إن [تطرده][2] بدابتك أو برجلك يلهث أو تتركه يلهث. وكذلك من يقرأ الكتاب ولا يعمل بما فيه. وقال غيره:

---

(١) أشلاهم: أغراهم. والعدو هنا إبليس.

(٢) في الأصل «تحمل عليه» والمثبت عن الطبري ١٥٤٤٦ و١٥٤٤٧.

هذا شرُّ تمثيل؛ لأنه مثله في أنه قد غلب عليه هواه حتى صار لا يملك لنفسه ضرّاً ولا نفعاً بكلب لاهثٍ أبداً، حُمِل عليه أو لم يحمل عليه؛ فهو لا يملك لنفسه ترك اللهثان. وقيل: من أخلاق الكلب الوقوع بمن لم يَخِفه على جهة الابتداء بالجفاء، ثم تهدأ طائشته بنيل كل عوض خسيس. ضربه الله مثلاً للذي قَبِل الرِّشوة في الدِّين حتى انسلخ من آيات ربِّه. فدلّت الآية لمن تدبرها على ألاّ يغترّ أحد بعمله ولا بعلمه؛ إذ لا يدري بما يُختم له. ودلّت على منع أخذ الرشوة لإبطال حَقٍّ أو تغييره. وقد مضىٰ بيانه في «المائدة». ودلّت أيضاً على منع التقليد لعالم إلا بحجة يبينها؛ لأن الله تعالىٰ أخبر أنه أعطىٰ هذا آياته فانسلخ منها فوجب أن يخاف مثل هذا على غيره وألاّ يقبل منه إلا بحجة.

قوله تعالى: ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ أي هو مثل جميع الكفار. وقوله: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ﴾ يقال: ساء الشيءُ قَبُح، فهو لازم، وساء يسوء مَساءة، فهو متعَدٍّ؛ أي قَبُح مَثَلُهم. وتقديره: ساء مَثَلاً مَثَلُ القوم؛ فحذف المضاف، ونصب «مثلاً» على التمييز. قال الأخفش: فجُعِل المثلُ القومَ مجازاً. والقوم مرفوع بالابتداء أو على إضمار مبتدأ. التقدير: ساء المثل مثلاً هو مثل القوم. وقدّره أبو عليّ: ساء مثلاً مثلُ القوم. وقرأ عاصم الجَحْدرِيّ والأعمش «ساء مثل القوم» رفع مثلاً بساء.

قوله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾.

تقدّم معناه في غير موضع. وهذه الآية تردّ على القدرية كما سبق، وتردّ على من قال إن الله تعالى هدى جميع المكلفين ولا يجوز أن يُضِلّ أحداً.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

أخبر تعالى أنه خلق للنار أهلاً بعدلِهِ، ثم وصفهم فقال: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ أي بمنزلة من لا يفقه؛ لأنهم لا ينتفعون بها، ولا يعقلون ثواباً ولا يخافون عقاباً. و ﴿أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ الهدى. و ﴿ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ المواعظ. وليس الغرض نفي الإدراكات عن حواسهم جملة كما بيناه في «البقرة». ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ لأنهم لا يهتدون إلى ثوابٍ، فهم كالأنعام؛ أي هِمتهم الأكل والشرب، وهم أضل لأن الأنعام تُبصر منافعها ومضارها وَتَتْبَع مالكها، وهم بخلاف ذلك. وقال عطاء: الأنعام تعرف الله، والكافر لا يعرفه. وقيل: الأنعام مطيعة لله تعالى، والكافر غير مطيع. ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ

﴿ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٧٩﴾ أي تركوا التدبر وأعرضوا عن الجنة والنار.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٨٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ فيه ست مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ أمر بإخلاص العبادة لله، ومجانبة المشركين والملحِدين. قال مقاتل[1] وغيره من المفسرين: نزلت الآية في رجل من المسلمين، كان يقول في صلاته: يا رحمن يا رحيم. فقال رجل من مشركي مكة: أليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون ربّاً واحداً، فما بال هذا يدعو ربين اثنين؟ فأنزل الله سبحانه وتعالى ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾.

الثانية ـ جاء في كتاب الترمذِيّ وسنن ابن ماجه وغيرهما حديث عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ نص فيه: أن لله تسعة وتسعين اسماً[2]؛ في أحدهما ما ليس في الآخر. وقد بينا ذلك في (الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى). قال ابن عطية ـ وذكر حديث الترمذِي ـ وذلك الحديث ليس بالمتواتر، وإن كان قد قال فيه أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث صَفْوَان بن صالح، وهو ثقة عند أهل الحديث. وإنما المتواتر منه قوله ﷺ:

[٣١٤٥] «إن لله تسعة وتسعين أسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة». ومعنى «أحصاها» عدّها وحفِظها. وقيل غير هذا مما بيناه في كتابنا. وذكرنا هناك تصحيح حديث الترمذيّ، وذكرنا من الأسماء ما اجتُمِع عليه وما اختُلف فيه مما وقفنا عليه في كتب أئمتنا ما يُنَيِّف على مائتي اسم. وذكرنا قبل تعيينها في مقدمة الكتاب اثنين وثلاثين فصلاً فيما يتعلق بأحكامها، فمن أراده وقف عليه هناك وفي غيره من الكتب الموضوعة في هذا الباب. والله الموفق للصواب، لا رب سِواه.

الثالثة ـ واختلف العلماء من هذا الباب في الاسم والمسمى، وقد ذكرنا ما للعلماء من ذلك في (الكتاب الأسنى). قال ابن الحصار: وفي هذه الآية وقوع الاسم على

[٣١٤٥] متفق عليه، وقد مضىٰ في المقدمة.

---

(١) لا يصح، ومقاتل يروي المنكرات.

(٢) يعني أن الترمذي رواه بإسنادين في أحدهما سرد الأسماء دون الآخر، وتقدم في مقدمة الكتاب.

المسمى ووقوعه على التسمية. فقوله: ﴿وَلِلَّهِ﴾ وقع على المسمى، وقوله: ﴿ٱلْأَسْمَآءُ﴾ وهو جمع أسم واقع على التسميات. يدل على صحة ما قلناه قوله: ﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾، والهاء في قوله: ﴿فَٱدْعُوهُ﴾ تعود على المسمى سبحانه وتعالى، فهو المدعوّ. والهاء في قوله «بهَا» تعود على الأسماء، وهي التسمِيات التي يدعى بها لا بغيرها. هذا الذي يقتضيه لسان العرب. ومثل ذلك قول رسول الله ﷺ:

[٣١٤٦] «لي خمسة أسماء أنا محمد وأحمد» الحديثَ. وقد تقدّم في «البقرة» شيء من هذا. والذي يذهب إليه أهل الحق أن الاسم هو المسمى، أو صفة له تتعلق به، وأنه غير التسمية. قال ابن العربيّ عند كلامه على قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾: فيه ثلاثة أقوال. قال بعض علمائنا: في ذلك دليل على أن الاسم المسمى؛ لأنه لو كان غيره لوجب أن تكون الأسماء لغير الله تعالى. الثاني ـ قال آخرون: المراد به التسميات؛ لأنه سبحانه واحد والأسماء جمع.

قلت ـ ذكر ابن عطية في تفسيره أن الأسماء في الآية بمعنى التسميات إجماعاً من المتأوّلين لا يجوز غيره. وقال القاضي أبوبكر في كتاب [١]التمهيد: تأويل قول النبي ﷺ: «للَّه تسعة وتسعون أسماً من أحصاها دخل الجنة»[٢] أي أن له تسعة وتسعين تسمية بلا خلاف، وهي عبارات عن كون الله تعالى على أوصاف شتى، منها ما يستحقه لنفسه ومنها ما يستحقه لصفة تتعلق به، وأسماؤه العائدة إلى نفسه هي هو، وما تعلق بصفة له فهي أسماء له. ومنها صفات لذاته. ومنها صفات أفعال. وهذا هو تأويل قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ أي التسميات الحسنى. الثالث ـ قال آخرون منهم: وللَّه الصفات.

الرابعة ـ سمى الله سبحانه أسماءه بالحسنى لأنها حسنة في الأسماع والقلوب؛ فإنها تدل على توحيده وكرمه وجوده ورحمته وإفضاله. والحسنى مصدر وصف به. ويجوز أن يقدّر «الْحُسْنَى» فُعْلَى، مؤنث الأحسن؛ كالكبرى تأنيث الأكبر، والجمع الكُبَر والحُسَن.

[٣١٤٦] صحيح. أخرجه البخاري ٣٥٣٢ و ٤٨٩٦ ومسلم ٢٣٥٤ والترمذي ٢٨٤٠ وابن حبان ٦٣١٣ وأحمد ٤/ ٨٠ من حديث جبير بن مطعم، وتمامه «وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يُحشر الناس على قدمه، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبيّ» وكرره الإمام مسلم ٢٣٥٥ من حديث أبي موسىٰ.

---

(١) كذا في الأصول، ولعل الصواب «الأمد الأقصىٰ» راجع أحكام القرآن ٢/ ٣٣٧.

(٢) تقدم قبل حديث واحد.

وعلى الأوّل أفرد كما أفرد وصف ما لا يعقل؛ كما قال تعالى: ﴿مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٨] و ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ [سبأ: ١٠].

الخامسة ـ قوله تعالى: ﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ أي ٱطلبوا منه بأسمائه؛ فيطلب بكل ٱسم ما يليق به، تقول: يا رحيم ارحمني، يا حكيم ٱحكم لي، يا رازق ٱرزقني، يا هادي ٱهدني، يا فتاح ٱفتح لي، يا توّاب تب عليّ؛ هكذا. فإن دعوت بٱسم عام قلت: يا مالك ٱرحمني، يا عزيز ٱحكم لي، يا لطيف ٱرزقني. وإن دعوت بالأعمّ الأعظم فقلت: يا الله؛ فهو متضمن لكل ٱسم. ولا تقول: يا رزاق ٱهدني؛ إلا أن تريد يا رزاق ٱرزقني الخير. قال ابن العربيّ: وهكذا، رتب دعاءك تكن من المخلصين. وقد تقدّم في «البقرة» شرائط الدعاء، وفي هذه السورة أيضاً. والحمد لله.

السادسة ـ أدخل القاضي أبو بكر بن العربيّ عدّة من الأسماء في أسمائه سبحانه، مثل متِم نوره، وخير الوارثين، وخير الماكرين، ورابع ثلاثة، وسادس خمسة، والطيّب، والمعلِّم؛ وأمثال ذلك. قال ابن الحصار: واقتدى في ذلك بابن بَرّجَان[1]، إذ ذكر في الأسماء «النظيف» وغير ذلك مما لم يرد في كتاب ولا سنة.

قلت: أمّا ما ذكر من قوله «مما لم يرد في كتاب ولا سنة» فقد جاء في صحيح مسلم «الطيب»[2]. وخرج الترمذِيّ «النظيف». وخرج عن ابن عباس أن النبيّ ﷺ كان يقول في دعائه:

[٣١٤٧] رب أَعِنِّي ولا تعِن عليّ وأنصرني ولا تنصر عليّ وأمكر لي ولا تمكر عليّ» الحديث. وقال فيه: حديث حسن صحيح. فعلى هذا جائز أن يقال: يا خير الماكرين امكر لي ولا تمكر عليّ. والله أعلم. وقد ذكرنا «الطيب، والنظيف» في كتابنا

[٣١٤٧] صحيح. أخرجه أبو داود ١٥١٠ والترمذي ٣٥٥١ وابن ماجه ٣٨٣٠ والنسائي في اليوم والليلة ٦٠٧ وأحمد ٣/ ٣١٠ وصححه ابن حبان ٢٤١٤ والحاكم ١/ ٥١٩ ووافقه الذهبي كلهم من حديث ابن عباس، وله تتمة وقال الترمذي: حسن صحيح، ووافقه النووي في الأذكار ١٠٣٢ وهو صحيح. وانظر صحيح أبي داود ١٣٣٧.

---

(١) هو عبد السلام بن عبد الرحمن أبو الحكم اللخمي الإشبيلي المفسر، توفي سنة ٥٣٦.

(٢) يشير المصنف لما أخرجه مسلم ١٠١٥ من حديث أبي هريرة «إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً...». وحديث «إن الله نظيف يحب النظافة..» أخرجه الترمذي ٢٧٩٩ وابن حبان في المجروحين ١/ ٢٧٥ وابن الجوزي في الواهيات ٢/ ٧١٢ من حديث سعد بن أبي وقاص وضعَّفوه لتفرد خالد بن إلياس به.

وغيره مما جاء ذكره في الأخبار، وعن السلف الأخيار، وما يجوز أن يسمى به ويدعى، وما يجوز أن يسمى به ولا يدعى، وما لا يجوز أن يسمى به ولا يدعى. حسب ما ذكره الشيخ أبو الحسن الأشعريّ. وهناك يتبين لك ذلك إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠)﴾ فيه مسألتان:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿يُلْحِدُونَ﴾ الإلحاد: الميل وترك القصد؛ يقال: ألحد الرجل في الدين. وألحد إذا مال. ومنه اللحد في القبر؛ لأنه في ناحيته. وقرىء «يَلْحَدُونَ» لغتان والإلحاد يكون بثلاثة أوجه: أحدها بالتغيير فيها كما فعله المشركون، وذلك أنهم عدلوا بها عما هي عليه فسمَّوا بها أوثانهم؛ فاشتقوا اللاَّتَ من الله، والعزى من العزيز، ومَنَاةَ من المنان قاله ابن عباس وقتادة. الثاني ـ بالزيادة فيها. الثالث ـ بالنقصان منها؛ كما يفعله الجهال الذين يخترعون أدعية يسمون فيها الله تعالى بغير أسمائه، ويذكرونه بغير ما يذكر من أفعاله؛ إلى غير ذلك مما لا يليق به. قال ابن العربيّ: «فَحَذَارِ منها، ولا يدعونّ أحدكم إلا بما في كتاب الله والكتب الخمسة؛ وهي البخاريّ ومسلم والترمذيّ وأبو داود والنسائي. فهذه الكتب التي يدور الإسلام عليها، وقد دخل فيها ما في الموطأ الذي هو أصل التصانيف، وذَرُوا ما سواها، ولا يقولَنّ أحدكم أختار دعاء كذا وكذا[1]، فإن الله قد اختار له وأرسل بذلك إلى الخلق رسوله ﷺ».

الثانية ـ معنى الزيادة في الأسماء التشبيه، والنقصان التعطيل. فإن المشبهة وصفوه بما لم يأذن فيه، والمعطلة سلبوه ما اتصف به، ولذلك قال أهل الحق: إن ديننا طريق بين طريقين، لا بتشبيه ولا بتعطيل. وسئل الشيخ أبو الحسن البوشَنْجِيّ عن التوحيد فقال: إثبات ذات غيرِ مشبَّهة بالذوات، ولا معطلة من الصفات. وقد قيل في قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾ معناه اتركوهم ولا تحاجّوهم ولا تعرضوا لهم. فالآية على هذا منسوخة بالقتال؛ قاله ابن زيد. وقيل: معناه الوعيد؛ كقوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١)﴾ [المدثر: ١١] وقوله: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ [الحجر: ٣]. وهو الظاهر من الآية؛ لقوله تعالى: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠)﴾. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١)﴾.

في الخبر أن النبي ﷺ قال:

---

(١) وفي هذا رد لما شاع على الألسنة من أدعية وأذكار تخالف السنة.

[٣١٤٨] «هم هذه الأُمة». وروي أنه قال:

[٣١٤٩] «هذه لكم وقد أعطى الله قوم موسى مثلها». وقرأ هذه الآية وقال:

[٣١٥٠] «إنّ من أُمتي قوماً على الحق حتى ينزل عيسى ابن مريم». فدلّت الآية على أن الله عز وجل لا يُخْلِي الدنيا في وقت من الأوقات من داعٍ يدعُو إلى الحق.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ ﴾.

أخبر تعالى عمن كذّب بآياته أنه سيستدرجهم. قال ابن عباس: هم أهل مكة. والاستدراج هو الأخذ بالتدريج، منزلة بعد منزلة. والدّرج: لَفُّ الشيء؛ يقال: أدرجته ودرّجته. ومنه أدرج الميت في أكفانه. وقيل: هو من الدّرجة؛ فالاستدراج أن يُحَطّ درجة بعد درجة إلى المقصود. قال الضحاك: كلما جدّدوا لنا معصية جدّدنا لهم نعمة. وقيل لذي النون: ما أقصى ما يخدع به العبد؟ قال: بالألطاف والكرامات؛ لذلك قال سبحانه: ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ ﴾ نسبغ عليهم النعم وننسيهم الشكر؛ وأنشدوا:

أحسنتَ ظنّك بالأيام إذ حَسُنتْ ... ولم تَخَفْ سوءَ ما يأتي به القَدَرُ
وسالمَتْك اللّيالي فاغترَرْتَ بها ... وعند صَفْوِ الليالي يحدثُ الكَدَرُ

قوله تعالى: ﴿ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَأُمْلِى لَهُمْ ﴾ أي أطيل لهم المدة وأُمهلهم وأُؤخِّر عقوبتهم. ﴿ إِنَّ كَيْدِى ﴾ أي مكري. ﴿ مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ ﴾ أي شديد قويّ. وأصله من المتن، وهو اللحم الغليظ الذي عن جانب الصلب. قيل: نزلت في المستهزئين من قريش، قتلهم الله في ليلة واحدة بعد أن أمهلهم مدّة. نظيره ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً ﴾ [الأنعام: ٤٤]. وقد تقدّم.

قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ ﴾ أي فيما جاءهم به محمد ﷺ. والوقف على «يَتَفَكَّرُوا» حسن. ثم قال: ﴿ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ﴾ ردّ لقولهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ

[٣١٤٨] ضعيف. أخرجه الطبري ١٥٤٦٩ عن ابن جريج وهذا معضل، ومع إعضاله فيه حجاج بن أرطاة واهٍ.

[٣١٤٩] ضعيف. أخرجه الطبري ١٥٤٧١ بسنده عن قتادة بلاغاً.

[٣١٥٠] مرسل. أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٣/ ٢٧٢ عن الربيع بن أنس مرسلاً، وقد صح هذا الحديث بغير هذا السياق. وليس فيه ذكر الآية.

ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾﴾ [الحجر: ٦]. وقيل:

[٣١٥١] نزلت بسبب أن رسول الله ﷺ قام ليلة على الصّفا يدعو قريشاً، فخِذا فخذاً؛ فيقول: «يا بني فلان». يحذرهم بأس الله وعقابه. فقال قائلهم: إن صاحبهم هذا لمجنون، بات يصوّت حتى الصباح.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فيه أربع مسائل:

الأُولى ـ قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟﴾ عجب من إعراضهم عن النظر في آياته؛ ليعرفوا كمال قدرته، حسب ما بيناه في سورة «البقرة». والملكوت من أبنية المبالغة، ومعناه الملك العظيم. وقد تقدّم.

الثانية ـ استدل بهذه الآية ـ وما كان مثلها من قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ وقولِهِ تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾ [قٓ: ٦] وقولِهِ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾ [الغاشية: ١٧] الآية. وقولِهِ: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٢١] ـ من قال بوجوب النظر في آياته والاعتبار بمخلوقاته. قالوا: وقد ذم الله تعالى من لم ينظر، وسلبهم الانتفاع بحواسهم فقال: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ الآية.

وقد اختلف العلماء في أوّل الواجبات، هل هو النظر والاستدلال، أو الإيمان الذي هو التصديق الحاصل في القلب الذي ليس من شرط صحته المعرفة. فذهب القاضي وغيره إلى أن أوّل الواجبات النظر والاستدلال؛ لأن الله تبارك وتعالى لا يعلم ضرورة، وإنما يعلم بالنظر والاستدلال بالأدلة التي نصبها لمعرفته. وإلى هذا ذهب البخارِيّ رحمه الله حيث بوّب في كتابه (باب العلم قبل القول والعمل لقول الله عز وجل: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾) [محمد: ١٩]. قال القاضي: من لم يكن عالماً بالله فهو جاهل، والجاهل به كافر. قال ابن رشد في مقدماته: وليس هذا بالبيّن؛ لأن الإيمان يصح باليقين الذي قد يحصل لمن هداه الله بالتقليد، وبأوّل وهلة من الاعتبار بما أرشد الله إلى الاعتبار به في غير ما آية. قال: وقد استدل الباجِيّ على من قال إن النظر والاستدلال أوّل الواجبات

[٣١٥١] ضعيف، أخرجه الطبري ١٥٤٧٤ بسنده عن قتادة قال: ذُكر لنا..» فالخبر واهٍ لجهالة المخبر.

بإجماع المسلمين في جميع الأعصار على تسمية العامة والمقلِّد مؤمنين. قال: فلو كان ما ذهبوا إليه صحيحاً لما صح أن يسمى مؤمناً إلا من عنده علم بالنظر والاستدلال. قال: وأيضاً فلو كان الإيمان لا يصح إلا بعد النظر والاستدلال لجاز للكفار إذا غلب عليهم المسلمون أن يقولوا لهم: لا يحل لكم قتلنا؛ لأن من دينكم أن الإيمان لا يصح إلا بعد النظر والاستدلال فأخرونا حتى ننظر ونستدل. قال: وهذا يؤدّي إلى تركهم على كفرهم، وألا يقتلوا حتى ينظروا ويستدِلوا.

قلت: هذا هو الصحيح في الباب، قال رسول الله ﷺ:

[٣١٥٢] «أُمِرت أن أُقاتل الناس حتى يقولوا لا إلّه إلاَّ الله ويؤمنوا بي وبما جئت به فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله». وترجم ابن المنذر في كتاب الأشراف (ذكر صفة كمال الإيمان) أجمع كل من يحفظ عنه من أهل العلم على أن الكافر إذا قال: أشهد أن لا إلّه إلاَّ الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وأن كل ما جاء به محمد حق، وأبرأ من كل دين يخالف دين الإسلام ـ وهو بالغ صحيح العقل ـ أنه مسلم. وإن رجع بعد ذلك وأظهر الكفر كان مرتداً يجب عليه ما يجب على المرتدّ. وقال أبو حفص الزنجانيّ وكان شيخنا القاضي أبو جعفر أحمد بن محمد السِّمنانيّ يقول: أوّل الواجبات الإيمان بالله وبرسوله وبجميع ما جاء به، ثم النظر والاستدلال المؤدّيان إلى معرفة الله تعالى؛ فيتقدم وجوب الإيمان بالله تعالى عنده على المعرفة بالله. قال: وهذا أقرب إلى الصواب وأرفق بالخلق؛ لأن أكثرهم لا يعرفون حقيقة المعرفة والنظر والاستدلال. فلو قلنا: إن أوّل الواجبات المعرفة بالله لأدّى إلى تكفير الجمّ الغفير والعدد الكثير، وألا يدخل الجنة إلا آحاد الناس، وذلك بعيد؛ لأن الرسول ﷺ قطع بأن أكثر أهل الجنة أُمّته، وأن أُمم الأنبياء كلهم صف واحد وأُمته ثمانون صفا. وهذا بيّن لا إشكال فيه. والحمد لله.

الثالثة ـ ذهب بعض المتأخرين والمتقدّمين من المتكلمين إلى أن من لم يعرف الله تعالى بالطرق التي طرقوها والأبحاث التي حرروها لم يصح إيمانه وهو كافر؛ فيلزم على هذا تكفير أكثر المسلمين، وأوّل من يبدأ بتكفيره آباؤه وأسلافه وجيرانه. وقد أورد على بعضهم هذا فقال: لا تشنّع عليّ بكثرة أهل النار. أو كما قال ـ

قلت: وهذا القول لا يصدر إلا من جاهل بكتاب الله وسنة نبيه؛ لأنه ضيق رحمة

[٣١٥٢] متفق عليه، وتقدم مراراً.

الله الواسعة على شِرذِمة يسيرة من المتكلمين، واقتحموا في تكفير عامّة المسلمين. أين هذا من قول الأعرابي الذي كشف عن فرجه ليبول، وأنتهره أصحاب النبيّ ﷺ:

[٣١٥٣] اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً. فقال النبيّ ﷺ: «لقد حجرت واسعاً». خرّجه البخاريّ والترمذيّ وغيرهما من الأئمة. أترى هذا الأعرابيّ عرف الله بالدليل والبرهان والحجة والبيان؟ وأن رحمته وسعت كل شيء، وكم من مثله محكوم له بالإيمان. بل اكتفى ﷺ من كثير ممن أسلم بالنطق بالشهادتين، وحتى إنه اكتفى بالإشارة في ذلك. ألا تراه لما قال للسوداء:

[٣١٥٤] «أين الله»؟ قالت: في السماء. قال: «من أنا»؟ قالت: أنت رسول الله. قال: «أعتقها فإنها مؤمنة». ولم يكن هناك نظر ولا استدلال، بل حكم بإيمانهم من أوّل وهلة، وإن كان هناك عن النظر والمعرفة غفلة. والله أعلم.

الرابعة ـ ولا يكون النظر أيضاً والاعتبار في الوجوه الحِسان من المُرد والنِّسوان. قال أبو الفرج الجوزي: قال أبو الطيب طاهر بن عبد الله الطبريّ: بلغني عن هذه الطائفة التي تسمع السماع أنها تضيف إليه النظر إلى وجه الأمرد، وربما زينته بالحلى والمصبغات من الثياب، وتزعم أنها تقصد به الازدياد في الإيمان بالنظر والاعتبار والاستدلال بالصنعة على الصانع. وهذه النهاية في متابعة الهوى ومخادعة العقل ومخالفة العلم. قال أبو الفرج: وقال الإمام أبو الوفاء بن عقيل: لم يُحِلّ الله النظر إلاّ علىٰ صورةٍ لا ميل للنفس إليها، ولا حظ للهوى فيها؛ بل عبرة لا يمازجها شهوة، ولا يقارنها لذّة. ولذلك ما بعث الله سبحانه امرأة بالرسالة، ولا جعلها قاضياً ولا إماماً ولا مؤذناً؛ كل ذلك لأنها محل شهوة وفتنة. فمن قال: أنا أجد من الصور المستحسنة عبراً كذّبناه. وكل من ميّز نفسه بطبيعة تخرجه عن طباعنا كذبناه، وإنما هذه خُدَع الشيطان للمدّعين. وقال بعض الحكماء: كل شيء في العالم الكبير له نظير في العالم الصغير، ولذلك قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ [التين: ٤] وقال: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١﴾ [الذاريات: ٢١]. وقد بينا وجه التمثيل في أوّل «الأنعام». فعلى العاقل أن ينظر إلى نفسه ويتفكر في خلقه من حين كونه ماء دافقاً إلى كونه خلقاً سَوِيّاً، يُعان بالأغذية ويُرَبَّى بالرّفق، ويُحفظ باللّين حتي يكتسب القُوَى ويبلغ الأشدّ. وإذا هو قد قال: أنا، وأنا، ونسي حين أتى عليه

[٣١٥٣] صحيح. أخرجه البخاري ٦٠١٠ وأحمد ٢/ ٢٨٣ وأبو داود ٣٨٠ والترمذي ١٤٧ والنسائي ٣/ ١٤ وابن حبان ٩٨٧ من حديث أبي هريرة.

[٣١٥٤] صحيح، أخرجه مسلم ٥٣٧، وتقدم.

حِين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً، وسيعود مقبوراً؛ فياويحه إن كان محسوراً. قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ﴾ ـ إلى قوله ـ﴿ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ١٦] فينظر أنه عبد مربوب مكلف، مخوّف بالعذاب إن قصر، مرتجياً بالثواب إن أئتمَر، فيقبِل على عبادة مولاه فإنه وإن كان لا يراه يراه ولا يخشى الناس والله أحق أن يخشاه، ولا يتكبر على أحد من عباد الله؛ فإنه مؤلف من أقذار، مشحون من أوضار[1]، صائر إلى جنة إن أطاع أو إلى نار. وقال ابن العربيّ: وكان شيوخنا يستحبون أن ينظر المرء في الأبيات الحكمية التي جمعت هذه الأوصاف العلمية:

كيف يَزْهُو مَن رجيعُه[2] ... أبدَ الدهر ضجيعُه
فهو منه وإليه ... وأخوه ورضيعُه
وهو يدعوه إلى الحشّـ ... ـس[3] بصُغْر فيطيعُه

قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ معطوف على ما قبله؛ أي وفيما خلق الله من الأشياء. ﴿ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ﴾ أي وفي آجالهم التي عسى أن تكون قد قربت؛ فهو في موضع خفض معطوف على ما قبله. وقال ابن عباس: أراد بأقتراب الأجل يوم بَدْر ويوم أُحُد. ﴿ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ أي بأيّ قرآن غير ما جاء به محمد ﷺ يصدقون. وقيل: الهاء للأجل، على معنى بأيّ حديث بعد الأجل يؤمنون حين لا ينفع الإيمان؛ لأن الآخرة ليست بدار تكليف.

قوله تعالى: ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾.

بيّن أن إعراضهم لأن الله أضلّهم. وهذا ردّ على القدرية. ﴿ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ ﴾ بالرفع على الاستئناف. وقرىء بالجزم حملاً على موضع الفاء وما بعدها. ﴿ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ أي يتحيّرون. وقيل: يتردّدون. وقد مضى في أوّل «البقرة» مستوفى.

قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾

---

(١) الأوضار: الأوساخ.
(٢) الرجيع: العذرة والروث.
(٣) النخل المجتمع. ثم كنى به الخلاء.

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ «أَيَّانَ» سؤال عن الزمان؛ مثل متى.

قال الراجز:

أيّـان تقضِـي حـاجتـي أيّـانَ أمـا تـرى لِنجحِهـا أوَانَـا

وكانت اليهود تقول للنبيّ ﷺ: إن كنت نبياً فأخبرنا عن الساعة متى تقوم. وروي أن المشركين قالوا ذلك لفرط الإنكار. و «مُرْسَاهَا» في موضع رفع بالابتداء عند سيبويه، والخبر «أيان». وهو ظرف مبني على الفتح؛ بني لأن فيه معنى الاستفهام. و «مُرْسَاهَا» بضم الميم، من أرساها الله، أي أثبتها، أي متى مُثْبَتُها، أي متى وقوعها. وبفتح الميم من رَسَتْ، أي ثبتت ووقفت؛ ومنه ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ﴾ [سبأ: ١٣]. قال قتادة: أي ثابتات. ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ ابتداء وخبر، أي لم يبينها لأحد؛ حتى يكون العبد أبداً على حذر ﴿لَا يُجَلِّيهَا﴾ أي لا يظهرها. ﴿لِوَقْتِهَآ﴾ أي في وقتها ﴿إِلَّا هُوَ﴾. والتجلية: إظهار الشيء؛ يقال: جلا لي فلان الخبر إذا أظهره وأوضحه. ومعنى ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خفِي علمها على أهل السموات والأرض. وكل ما خفِي علمه فهو ثقيل على الفؤاد. وقيل: كبر مجيئها على أهل السموات والأرض؛ عن الحسن وغيره. ابن جريج والسدي: عظم وصفها على أهل السموات والأرض. وقال قتادة وغيره: المعنى لا تطيقها السموات والأرض لعظمها: لأن السماء تنشق والنجوم تتناثر والبحار تنضُب. وقيل: المعنى ثقلت المسألة عنها. ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ أي فجأة، مصدر في موضع الحال ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾ أي عالم بها كثير السؤال عنها. قال ابن فارس: الحفِيّ العالِم بالشيء. والحفِيّ: المستقصي في السؤال. قال الأعشى:

فـإن تسـألـي عنّـي فيـا رب سـائـل حَفِيٍّ عن الأعشَى به حيثُ أصْعَدَا

يقال: أحفى في المسألة وفي الطلب، فهو محفٍ وحفِي على التكثير، مثل مخصِب وخصيب. قال محمد بن يزيد: المعنى يسألونك كأنك حفِي بالمسألة عنها، أي ملحٌّ. يذهب إلى أنه ليس في الكلام تقديم وتأخير. وقال ابن عباس وغيره: هو على التقديم والتأخير، والمعنى: يسألونك عنها كأنك حفِيّ بهم أي حفي ببرهم وفرِح بسؤالهم. وذلك لأنهم قالوا: بيننا وبينك قرابة فأسِرّ إلينا بوقت الساعة. ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ ليس هذا تكريراً، ولكن أحد العِلمين لوقوعها والآخر لكنهها.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أي لا أملك أن أجلب إلى نفسي

خيراً ولا أدفع عنها شراً؛ فكيف أملك عِلم الساعة. وقيل: لا أملك لنفسي الهدى والضلال. ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ في موضع نصب بالاستثناء. والمعنى: إلا ما شاء الله أن يملكني ويمكنني منه. وأنشد سيبويه[1]:

مهما شاء بالناس يفعل

﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ المعنى لو كنت أعلم ما يريد الله عز وجل مني من قبل أن يعرِّفنيه لفعلته. وقيل: لو كنت أعلم متى يكون لي النصر في الحرب لقاتلت فلم أغلب. وقال ابن عباس: لو كنت أعلم سنة الجدب لهيأت لها في زمن الخصب ما يكفيني. وقيل: المعنى لو كنت أعلم التجارة التي تنفق لاشتريتها وقت كسادها. وقيل: المعنى لو كنت أعلم متى أموت لاستكثرت من العمل الصالح؛ عن الحسن وابن جُريج. وقيل: المعنى لو كنت أعلم الغيب لأجَبْتُ عن كل ما أُسألُ عنه. وكله مراد، والله أعلم. ﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ هذا استئناف كلام، أي ليس بي جنون؛ لأنهم نسبوه إلى الجنون. وقيل: هو متصل، والمعنى لو علمتُ الغيب لما مسّني سوءٌ ولحذِرت، ودل على هذا قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾[2].

قوله تعالى: ﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ قال جمهور المفسرين: المراد بالنفس الواحدة آدم. ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يعني حوّاء. ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ ليأنس بها ويطمئن، وكان هذا كله في الجنة. ثم ابتدأ بحالة أُخرى هي في الدنيا بعد هبوطهما فقال: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ كناية عن الوِقاع. ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ كلّ ما كان في بطن أو على رأس شجرة فهو حَملٌ بالفتح. وإذا كان على ظهر أو على رأس فهو حِمل بالكسر. وقد حكى يعقوب في حِمل النخلة الكَسْر. وقال أبو سعيد السيرافيّ: يقال في حمل المرأة حَمل وحِمل، يشبه مرّة لاستبطانه بحَملِ المرأة، ومرّة لبُروزه وظهوره بحمل الدّابّة. والْحَمل أيضاً مصدر حَمَل عليه يحمِل حَملاً إذا صال. ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ يعني

(١) عجز بيت للأسود بن يعفر وصدره: ألاهل لهذا الدهر من متعلل.

(٢) في بعض النسخ «مبينٌ» وعلى هذا تكون من سورة الشعراء، آية: ١١٥.

المنيّ؛ أي استمرت بذلك الحمل الخفيف. يقول: تقوم وتقعد وتَقَلَّب، ولا تكترث بحمله إلى أن ثقل؛ عن الحسن ومجاهد وغيرهما. وقيل: المعنى فاستمر بها الحمل، فهو من المقلوب؛ كما تقول: أدخلت القَلَنْسوة في رأسي. وقرأ عبد الله بن عمر «فَمَارَتْ بِهِ» بألف والتخفيف؛ من مَار يَمُور إذا ذهب وجاء وتصرّف. وقرأ ابن عباس ويحيى بن يَعْمَر «فَمَرَتْ بِهِ» خفيفة من المِرْيَة، أي شكّت فيما أصابها؛ هل هو حمل أو مرض، أو نحو ذلك.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ صارت ذات ثقل؛ كما تقول: أثمر النخل. وقيل: دخلت في الثقل؛ كما تقول: أصبح وأمسى. ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ الضمير في «دَعَوَا» عائد على آدم وحوّاء. على هذا القول ما رُوي في قصص هذه الآية أن حوّاء لما حملت أوّل حمل لم تدرِ ما هو. وهذا يقوّي قراءة من قرأ «فَمَرَتْ بِهِ» بالتخفيف. فجزِعت لذلك؛ فوجد إبليس السبيل إليها. قال الكلبيّ: إن إبليس أتى حوّاء في صورة رجل لما أثقلت في أوّل ما حملت فقال: ما هذا الذي في بطنك؟ قالت: ما أدري! قال: إني أخاف أن يكون بهيمة. فقالت ذلك لآدم عليه السلام. فلم يزالا في هَمٍّ من ذلك. ثم عاد إليها فقال: هو مِن الله بمنزلةٍ، فإن دعوتُ الله فولدتِ إنساناً أفتسمّينه بي؟ قالت نعم. قال: فإني أدعو الله. فأتاها وقد ولدت فقال: سمِّيه باسمي. فقالت: وما اسمك؟ قال: الحارث ـ ولو سَمَّى لها نفسه لعرفته ـ فسمته عبد الحارث. ونحو هذا مذكور[1] من ضعيف الحديث، في الترمذيّ وغيره. وفي الإسرائيليات كثير ليس لها ثبات؛ فلا يعوّل عليها من له قَلْبٌ، فإن آدم وحوّاء عليهما السلام وإن غرَّهما بالله الغَرُور فلا يُلدغ المؤمن من جُحْر مرّتين، على أنه قد سُطِّر وكُتب. قال قال رسول الله ﷺ:

[٣١٥٥] «خدعهما مرتين خدعهما في الجنة وخدعهما في الأرض». وعُضِد هذا

[٣١٥٥] ضعيف جداً، أخرجه الطبري ١٥٥٤٣ عن عبد الرحمن بن زيد، وهذا معضل، ومع ذلك ابن زيد ضعيف.

---

(١) يشير المصنف لما أخرجه الترمذي ٣٠٧٧ والحاكم ٢/٥٤٥/٤٠٠٣ من حديث سمرة مرفوعاً «كانت حواء لا يعيش لها ولد، فطاف بها إبليس، فقال: سميه عبد الحارث فسمته عبد الحارث، فعاش: وكان ذلك من وحي الشيطان». قال الترمذي: حسن غريب ورواه بعضهم فلم يرفعه اهـ وصححه الحاكم، وسكت الذهبي! في حين رجع الذهبي في الميزان، فقال: صححه الحاكم، وهو حديث منكر اهـ وأسنده الطبري ١٥٥٣١ و ١٥٥٣٢ بأسانيد صحيحة عن قتادة من قوله و ١٥٥٣٣ عن مجاهد من قوله، وهذا هو الصواب، والخبر من الإسرائيليات، لا يصح مرفوعاً البتة، وانظر ابن كثير ٢/٢٨٦ ـ ٢٨٧.

بقراءة السلمِيّ «أتشركون» بالتاء. ومعنى ﴿صَٰلِحًا﴾ يريد ولداً سوياً. ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَآۚ﴾ واختلف العلماء في تأويل الشرك المضاف إلى آدم وحواء، وهي: -

الثالثة - قال المفسرون: كان شِرْكاً في التسمية والصفة، لا في العبادة والربوبية. وقال أهل المعاني: إنهما لم يذهبا إلى أن الحارث ربهما بتسميتهما ولدهما عبد الحارث، لكنهما قصدا إلى أن الحارث كان سبب نجاة الولد فسمّياه به كما يسمِّي الرجل نفسه عبد ضيفه على جهة الخضوع له، لا على أن الضيف ربُّه؛ كما قال حاتم:

وإني لَعبد الضّيف ما دام ثاوياً ... وما فيّ إلاّ تِيكَ من شِيمة العبدِ

وقال قوم: إن هذا راجع إلى جنس الآدميين والتبيين عن حال المشركين من ذرّية آدم عليه السلام، وهو الذي يُعوّل عليه. فقوله: ﴿جَعَلَا لَهُۥ﴾ يعني الذكر والأُنثى الكافرين، ويُعنى به الجنسان. ودلّ على هذا ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠)﴾ ولم يقل يشركان. وهذا قولٌ حسنٌ. وقيل: المعنى «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ» من هيئة واحدة وشكل واحد «وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا» أي من جنسها «فَلَمَّا تَغَشَّاهَا» يعني الجنسين. وعلى هذا القول لا يكون لآدم وحوّاء ذكر في الآية؛ فإذا آتاهما الولد صالحاً سليماً سوِياً كما أراداه صرفاه عن الفِطرة إلى الشرك، فهذا فعل المشركين. قال ﷺ:

[٣١٥٦] «ما من مولود إلا يولد على الفطرة - في رواية علىٰ هذه الملة - أبواه يُهَوِّدانِه ويُنَصِّرانه ويُمَجِّسانِه». قال عكرمة: لم يخص بها آدم، ولكن جعلها عامة لجميع الخلق بعد آدم. وقال الحسين بن الفضل: وهذا أعجب إلى أهل النظر؛ لما في القول الأول من المضاف من العظائم بنبيّ الله آدم. وقرأ أهل المدينة وعاصم «شِرْكاً» على التوحيد. وأبو عمرو وسائر أهل الكوفة بالجمع، على مثل فُعَلاَء، جمع شريك. وأنكر الأخفش سعيد القراءة الأُولى، وهي صحيحة على حذف المضاف، أي جعلا له ذا شرك؛ مثل ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] فيرجع المعنىٰ إلىٰ أنهم جعلوا له شركاء.

الرابعة - ودلّت الآية على أن الحمل مرض من الأمراض. روى ابن القاسم ويحيى عن مالك قال: أوّل الحمل يُسْرٌ وسرور، وآخره مرض من الأمراض. وهذا الذي قاله مالك: «إنه مرض من الأمراض» يعطيه ظاهر قوله: ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ وهذه الحالة مشاهدة في الحُمّال، ولأجل عظم الأمر وشدّة الخطب.

[٣١٥٦] متفق عليه وتقدم مراراً.

[٣١٥٧] جُعل موتُها شهادةً، كما ورد في الحديث:

وإذا ثبت هذا من ظاهر الآية فحال الحامل حال المريض في أفعاله. ولا خلاف بين علماء الأمصار أن فعل المريض فيما يَهَب ويُحابِي في ثُلُثه. وقال أبو حنيفة والشافعيّ: إنما يكون ذلك في الحامل بحال الطَّلْقِ، فأما قبل ذلك فلا. واحتجّوا بأن الحمل عادةٌ والغالب فيه السلامة. قلنا: كذلك أكثر الأمراض غالبه السلامة، وقد يموت من لم يمرَض.

الخامسة ـ قال مالك: إذا مضت للحامل ستة أشهر من يوم حملت لم يجز لها قضاء في مالها إلا في الثلث. ومن طلّق زوجته وهي حامل طلاقاً بائناً فلما أتى عليها ستةُ أشهر فأراد ٱرتجاعها لم يكن له ذلك؛ لأنها مريضة ونكاح المريضة لا يصح.

السادسة ـ قال يحيى: وسمعت مالكاً يقول في الرجل يحضر القتال: إنه إذا زحف في الصف للقتال لم يجز له أن يقضي في ماله شيئاً إلا في الثلث، وإنه بمنزلة الحامل والمريض المخوف عليه ما كان بتلك الحال. ويلتحق بهذا المحبوس للقتل في قصاص. وخالف في هذا أبو حنيفة والشافعيّ وغيرهما. قال ابن العربيّ: وإذا استوعبت النظر لم تَرْتَب في أن المحبوس على القتل أشدّ حالاً من المريض، وإنكار ذلك غفلة في النظر؛ فإن سبب الموت موجود عندهما، كما أن المرض سبب الموت، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾. وقال رُوَيْشَد الطائيّ:

يا أيها الراكبُ المُزْجِي مَطِيَّتَه ... سائلْ بني أَسَدٍ ما هذه الصَّوْتُ
وقل لهم بادروا بالعُذْر والتمسوا ... قولاً يُبَرّئُكم إنّي أنا المَوْتُ

ومما يدل على هذا قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠]. فكيف يقول الشافعيّ وأبو حنيفة: الحال الشديدة إنما هي المبارزة؛ وقد أخبر الله عز وجل عن مقاومة العدو وتَداني الفريقين بهذه الحالة العظمى من بلوغ القلوب الحناجر، ومن سوء الظنون بالله، ومن زلزلة القلوب واضطرابها؛ هل هذه حالة ترى على المريض أم لا؟ هذا ما لا يشك فيه منصِف، وهذا لمن ثبت في اعتقاده، وجاهد في الله حق جهاده، وشاهد الرسول وآياته؛ فكيف بنا؟

[٣١٥٧] صحيح. أخرجه مالك ٢٣٣٠/١ والشافعي ١٩٩/١ وأبو داود ٣١١١ والنسائي ٥١/٦ وابن ماجه ٢٧٠٣ وصححه ابن حبان ٣١٨٩ و ٣١٩٠ والحاكم ٣٥١/١ كلهم من حديث جابر بن عتيك «الشهادة سبع سوى القتل في سبيل الله.. والمرأة تموت بجمع شهيد» اهـ أي تموت وفي بطنها ولد ولم يمسها رجل، وانظر شرح السنة ٤٣٥/٥ وللحديث شواهد كثيرة وهو صحيح.

السابعة ـ وقد اختلف علماؤنا في راكب البحر وقت الهَوْل؛ هل حكمه حكم الصحيح أو الحامل. فقال ابن القاسم: حكمه حكم الصحيح. وقال ابن وهب وأشهب: حكمه حكم الحامل إذا بلغت ستة أشهر. قال القاضي أبو محمد: وقولهما أقيس؛ لأنها حالة خوف على النفس كإثقال الحمل. قال ابن العربي: وابن القاسم لم يركب البحر، ولا رأى دوداً على عود. ومن أراد أن يوقن بالله أنه الفاعل وحده لا فاعل معه، وأن الأسباب ضعيفة لا تعلق لموقن بها، ويتحقّق التوكل والتفويض فليركب البحر.

قوله تعالى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا ﴾ أي أيعبدون ما لا يقدر على خلق شيء. ﴿ وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ ﴾ أي الأصنام مخلوقة. وقال: «يُخْلَقُونَ» بالواو والنون لأنهم اعتقدوا أن الأصنام تضر وتنفع، فأجريت مجرى الناس؛ كقوله: ﴿ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنبياء: ٣٣]. وقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ ﴾ [النمل: ١٨]. ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ ﴾ أي إن الأصنام، لا تنصر ولا تنتصر.

قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ﴾ قال الأخفش: أي وإن تدعو الأصنام إلى الهدى لا يتبعوكم. ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ ﴾ قال أحمد بن يحيى: لأنه رأس آية. يريد أنه قال: ﴿ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ ﴾ ولم يقل أم صَمتم. وصامتون وصَمَتم عند سيبويه واحد. وقيل: المراد مَن سبق في علم الله أنه لا يؤمن. وقرىء «لاَ يَتَّبِعُوكُمْ» «مشدّداً ومخفّفاً» لغتان بمعنًى. وقال بعض أهل اللغة: «أَتْبَعَهُ» ـ مخففاً ـ إذا مضى خلفه ولم يدركه. و «اتَّبَعَهُ» ـ مشدّداً ـ إذا مضى خلفه فأدركه.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ حاجّهم في عبادة الأصنام «تَدْعُونَ» تعبدون. وقيل: تدعونها آلهة ﴿ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ أي من غير الله. وسميت

الأوثان عِباداً لأنها مملوكة لله مسخّرة. الحسن: المعنى أن الأصنام مخلوقة أمثالكم. ولما اعتقد المشركون أن الأصنام تضر وتنفع أجراها مجرى الناس فقال: ﴿فَٱدْعُوهُمْ﴾ ولم يقل فادعوهن. وقال: «عِبَادٌ»، وقال: «إِنَّ الّذِينَ» ولم يقل إنّ الّتي. ومعنى «فَٱدْعُوهُمْ» أي فاطلبوا منهم النفع والضر. ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ أن عبادة الأصنام تنفع. وقال ابن عباس: معني فادعوهم فاعبدوهم. ثم وبّخهم الله تعالى وسَفّه عقولهم فقال: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ الآية. أي أنتم أفضل منهم فكيف تعبدونهم. والغرض بيان جهلهم؛ لأنّ المعبود يتصف بالجوارح. وقرأ سعيد بن جبير: «إن الذين تدعون من دون الله عباداً أمثالكم» بتخفيف «إن» وكسرها لالتقاء الساكنين، ونصب «عبَاداً» بالتنوين، «أمثالَكم» بالنصب. والمعنى: ما الذين تدعون من دون الله عباداً أمثالكم، أي هي حجارة وخشب؛ فأنتم تعبدون ما أنتم أشرف منه. قال النحاس: وهذه قراءة لا ينبغي أن يقرأ بها من ثلاث جهات: أحدها ـ أنها مخالفة للسّواد. والثانية ـ أن سيبويه يختار الرفع في خبر إنْ إذا كانت بمعنى ما، فيقول: إنْ زيد منطلق؛ لأن عمل «ما» ضعيف، و «إنْ» بمعناها فهي أضعف منها. والثالثة ـ إن الكسائيّ زعم أن «إنْ» لا تكاد تأتي في كلام العرب بمعنى «ما»، إلا أن يكون بعدها إيجاب؛ كما قال عز وجل: ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾﴾. [الملك: ٢٠] ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾الأصل أن تكون اللام مكسورة، فحذفت الكسرة لثقلها. ثم قيل: في الكلام حذف، المعنى: فادعوهم إلى أن يتّبعوكم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين أنهم آلهة. وقرأ أبو جعفر وشيبة ﴿أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يبطُشون بِهَا﴾ بضم الطاء، وهي لغة. واليد والرجل والأُذن مؤنثات يُصَغَّرْن بالهاء. وتزاد في اليد ياء في التصغير، وتردّ إلى أصلها فيقال: يُدَيّة بالتشديد لإجتماع الياءين.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾ أي الأصنام. ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾ أنتم وهي. ﴿فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾﴾ أي فلا تؤخرون. والأصل «كِيدُونِي» حذفت الياء لأن الكسرة تدل عليها. وكذا «فَلاَ تُنْظِرُونِ». والكيد المكر. والكيد الحرب؛ يقال: غزا فلم يلق كيداً. ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي الذي يتولّى نصري وحفظي اللّهُ. ووليُّ الشيءِ: الذي يحفظه ويمنع عنه الضرر. والكتاب: القرآن. ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ أي يحفظهم. وفي صحيح مسلم عن عمرو بن العاص قال:

[٣١٥٨] سمعت رسول الله ﷺ جهاراً غير سر يقول: «ألا إنّ آل أبي ـ يعني

[٣١٥٨] صحيح. أخرجه مسلم ٢١٥ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، بهذا اللفظ.

فلاناً[1] ـ ليسوا لي بأولياء إنما وَلِيِّي اللَّهُ وصالح المؤمنين». وقال الأخفش: وقرىء «إنّ ولِيِّ اللَّهِ الذي نزّل الكتابَ» يعني جبريل. النحاس. هي قراءة عاصم الجَحْدَرِيّ. والقراءة الأُولى أبْيَن؛ لقوله: ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ ﴾ كرره ليبين أن ما يعبدونه لا ينفع ولا يضر. ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ شرط، والجواب ﴿ لَا يَسْمَعُوا۟ ﴾. ﴿ وَتَرَىٰهُمْ ﴾ مستأنف. ﴿ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ ﴾ في موضع الحال. يعني الأصنام. ومعنىٰ النظر فتح العينين إلى المنظور إليه؛ أي وتراهم كالناظرين إليك. وخبر عنهم بالواو وهي جماد لا تبصر؛ لأن الخبر جرىٰ على فعل من يعقل. وقيل: كانت لهم أعين من جواهر مصنوعة فلذلك قال ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ ﴾. وقيل: المراد بذلك المشركون، أخبر عنهم بأنهم لا يبصرون حين لم ينتفعوا بأبصارهم.

قوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولىٰ ـ هذه الآية من ثلاث كلمات، تضمنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات. فقوله: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾ دخل فيه صلة القاطعين، والعفو عن المذنبين، والرفق بالمؤمنين، وغير ذلك من أخلاق المطيعين. ودخل في قوله: ﴿ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ ﴾ صلةُ الأرحام، وتقوى الله في الحلال والحرام، وغَضّ الأبصار، والاستعداد لدار القرار. وفي قوله: ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ الحَضُّ على التعلّق بالعلم، والإعراض عن أهل الظلم، والتنزه عن منازعة السفهاء. ومساواة الجهلة الأغبياء، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة والأفعال الرشيدة.

قلت: هذه الخصال تحتاج إلى بسط، وقد جمعها رسول الله ﷺ لجابر بن سليم. قال جابر بن سليم أبو جُرَيّ:

[٣١٥٩] ركبت قَعودي ثم أتيت إلى مكة فطلبت رسول الله ﷺ، فأنخت قعودي

[٣١٥٩] صحيح. أخرجه الطيالسي ١٢٠٨ والبخاري في الأدب المفرد ١١٨٢ وصححه ابن حبان ٥٢١ من=

---

(١) قوله «يعني فلاناً» هي من بعض الرواة خشي أن يسميه، فيترتب عليه مفسدة وفتنة، قال عياض: المراد بذلك الحكم بن أبي العاص اهـ انظر مسلم بشرح النووي.

بباب المسجد، فدلُّوني على رسول الله ﷺ، فإذا هوجالس عليه بُرْد من صوف فيه طرائقُ حُمر؛ فقلت: السلام عليك يا رسول الله. فقال: «وعليك السلام». فقلت: إنّا معشر أهل البادية، قوم فينا الجفاء؛ فعلِّمني كلماتٍ ينفعني الله بها. قال: «أدْن» ثلاثاً، فدنوت فقال: «أعِد عليّ» فأعدت عليه فقال: «أتق الله ولا تحقرنّ من المعروف شيئاً وأن تلقى أخاك بوجه منبسط وأن تُفرغ من دَلْوك في إناء المستسقي وإن أمرؤ سبّك بما لا يعلم منك فلا تُسبّه بما تعلم فيه فإن الله جاعل لك أجراً وعليه وِزْراً ولا تسبّن شيئاً مما خولك الله تعالىٰ». قال أبو جُرَيّ: فوالذي نفسي بيده، ما سَببت بعده شاة ولا بعيراً. أخرجه أبو بكر البزار في مسنده بمعناه. وروى أبو سعيد المَقْبُرِيّ عن أبيه عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ أنه قال:

[٣١٦٠] «إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق». وقال ابن الزبير: ما أنزل الله هذه الآية إلا في أخلاق الناس. وروى البخاري من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن الزبير في قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ قال: ما أنزل الله هذه الآية إلا في أخلاق الناس. وروى سفيان بن عُيَيْنة عن الشعبيّ أنه قال:

[٣١٦١] إن جبريل نزل على النبيّ ﷺ، فقال له النبيّ ﷺ: «ما هذا يا جبريل»؟ فقال: «لا أدري حتى أسأل العالم» في رواية «لا أدري حتى أسأل ربي» فذهب فمكث ساعة ثم رجع فقال: «إن الله تعالىٰ يأمرك أن تعفو عمن ظلمك وتعطي من حرمك وتصل من قطعك». فنظمه بعض الشعراء فقال:

مكارم الأخلاق في ثلاثةٍ من كَمُلَتْ فيه فذلك الفَتَىٰ

= حديث سليم بن جابر الهجيمي. ورجاله رجال الصحيحين سوىٰ قرة بن موسىٰ وهو ثقة وتابعه غير واحد عند ابن حبان ٥٢٢ وأحمد ٥/ ٦٤ وأبي داود ٤٠٨٤. وانظر صحيح أبي داود ٣٤٤٢.

[٣١٦٠] أخرجه أبو يعلىٰ ٦٥٥٠ والبزار ١٩٧٧ والحاكم ١/ ١٢٤ من حديث عبد الله بن سعيد المقبري عن أبيه عن أبي هريرة مرفوعاً، وصححه الحاكم، وتعقبه الذهبي، فأعله بالمقبري وأنه واهٍ، وكذا ضعفه الهيثمي في المجمع ٨/ ٢٢ وأخرجه البزار ١٩٧٩ من وجه آخر عن أبي هريرة به. ولذا حسنه انظر. جمع الجوامع ٤٥٥٦.

[٣١٦١] مرسل. أخرجه الطبري ١٥٥٥٨ عن سفيان بن عيينة عن رجل مرسلاً وكرره ١٥٥٥٩ عن سفيان عن أميّ بن ربيعة مرسلاً، وذكره السيوطي في الدر ٣/ ٢٨٠ فقال:.
أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم عن الشعبي مرسلاً وابن مردويه عن جابر مرفوعاً اهـ والمرفوع ضعيف الإسناد.

إعطاءُ مَن تحرِمه ووَصلُ مَن تَقْطَعُه والعفْوُ عَمّن ٱعتدَى

وقال جعفر الصادق: أمر الله نبيه بمكارم الأخلاق في هذه الآية، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية. وقال ﷺ:

[٣١٦٢] «بُعثت لأتمِّم مكارم الأخلاق». وقال الشاعر:

كلُّ الأمور تزول عنك وتنقضي إلاّ الثناء فإنه لك باقي
ولو أنني خُيِّرتُ كلّ فضيلة ما ٱخترت غير مكارم الأخلاق

وقال سهل بن عبد الله: كلّم الله موسىٰ بطُور سَيْنَاء. قيل له: بأيّ شيء أوصاك؟ قال: بتسعة أشياء: الخشية في السر والعلانية، وكلمة الحق في الرضا والغضب، والقصد في الفقر والغِنَىٰ، وأمرني أن أصل من قطعني، وأعطي من حرمني، وأعفو عمن ظلمني، وأن يكون نطقي ذكراً، وصَمتِي فِكْراً، ونظري عبرة.

قلت: وقد روي عن نبينا محمد ﷺ أنه قال:

[٣١٦٣] «أمرني ربي بتسع الإخلاص في السر والعلانية والعدل في الرضا والغضب والقصد في الغنىٰ والفقر وأن أعفو عمن ظلمني وأصل من قطعني وأعطي من حرمني وأن يكون نطقي ذكراً وصمتي فكراً ونظري عبرة». وقيل: المراد بقوله: «خُذِ الْعَفْوَ» أي الزكاة؛ لأنها يسير من كثير. وفيه بعدٌ؛ لأنه من عفا إذا دَرَس. وقد يقال: خذ العفو منه، أي لا تنقص عليه وسامحه. وسبب النزول يردّه، والله أعلم. فإنه لما أمره بمحاجّة المشركين دله على مكارم الأخلاق، فإنها سبب جرّ المشركين إلى الإيمان. أي ٱقبل من الناس ما عفا لك من أخلاقهم وتيسر؛ تقول: أخذت حقي عَفْواً صَفْواً، أي سهلاً.

الثانية ـ قوله تعالىٰ: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ أي بالمعروف. وقرأ عيسىٰ بن عمر «العُرُف» بضمتين؛ مثل الحُلُم؛ وهما لغتان. والعُرْف والمَعْرُوف والعَارِفَة: كل خصلة حسنة ترتضيها العقول، وتطمئن إليها النفوس.

قال الشاعر:

من يفعل الخير لا يَعْدَم جَوازِيَه لا يذهب العُرْف بين الله والناس

وقال عطاء: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ يعني بلا إله إلا الله.

[٣١٦٢] حسن. أخرجه أحمد ٢/ ٣٨١ من حديث أبي هريرة، وقال الهيثمي في المجمع ٨/ ١٨٨: رجاله رجال الصحيح، وله شواهد أُخرىٰ، لذا صححه الألباني في الصحيحة (٤٥).

[٣١٦٣] ضعيف جداً، ذكره الذهبي في «الميزان» ٣/ ٥٥٠ في ترجمة محمد بن زكريا الغلابي، وهو ضعيف، وقد رواه عن ابن عائشة عن أبيه وهذا معضل كما قال الذهبي.

الثالثة ـ قوله تعالىٰ: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ أي إذا أقمت عليهم الحجة وأمرتهم بالمعروف فجهلوا عليك فاعرض عنهم؛ صيانة له عليهم ورفعاً لقدره عن مجاوبتهم. وهذا وإن كان خطاباً لنبيه عليه السلام فهو تأديب لجميع خلقه. وقال ابن زيد وعطاء: هي منسوخة بآية السيف. وقال مجاهد وقتادة: هي مُحْكَمة؛ وهو الصحيح لما رواه البخاري عن عبد الله بن عباس قال: قدم عُيَيْنَة بن حِصن بن حذيفة بن بَدْر فنزل على ابن أخيه الحرّ بن قيس بن حِصن، وكان من النفر الذين يُدنِيهم عُمَرُ، وكان القراءُ أصحاب مجالِس عمر ومشاورته، كُهولاً كانوا أو شُبّاناً. فقال عُيَيْنَة لابن أخيه: يا بن أخي، هل لك وجه عند هذا الأمير، فتستأذن لي عليه. قال: سأستأذن لك عليه؛ فٱستأذن لعُيَيْنَة. فلما دخل قال: يا بن الخطاب، والله ما تعطينا الجَزْل، ولا تحكم بيننا بالعدل! قال: فغضب عمر حتى هَمّ بأن يقع به. فقال الحُرّ: يا أمير المؤمنين، إن الله قال لنبيه عليه السلام ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ وإن هذا من الجاهلين. فوالله ما جاوزها عمرُ حين تلاها عليه، وكان وقافاً عند كتاب الله عز وجل.

قلت: فاستعمال عمر رضي الله عنه لهذه الآية واستدلال الحر بها يدل على أنها مُحْكَمة لا منسوخة. وكذلك استعملها الحسن بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهما؛ على ما يأتي بيانه. وإذا كان الجَفَاء على السلطان تعمُّداً واستخفافاً بحقه فله تعزيره. وإذا كان غير ذلك فالإعراض والصّفح والعفو؛ كما فعل الخليفة العدل.

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾.

فيه مسألتان:

الأولىٰ ـ لما نزل قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ قال عليه السلام:

[٣١٦٤] «كيف يا رب والغضب»؟ فنزلت: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾. ونزغ الشيطان: وساوسه. وفيه لغتان: نزغ ونغز، يقال: إياك والنُّزّاغ والنُّغّاز، وهم المُوَرِّشُون[1]. الزجاج: النَّزْغ أدنىٰ حركة تكون، ومن الشيطان أدنىٰ وَسْوَسَة. قال سعيد بن المسيب: شهدت عثمان وعلياً وكان بينهما نَزْغٌ من الشيطان فما أبقىٰ واحدٌ منهما لصاحبه شيئاً، ثم لم يَبْرحَا حتى استغفر كل واحد منهما لصاحبه. ومعنىٰ ﴿يَنزَغَنَّكَ﴾: يصيبنّك ويعرض لك عند الغضب وسوسةٌ بما لا يحل. ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ أي ٱطلب النجاة من ذلك بالله.

[٣١٦٤] ضعيف جداً، أخرجه الطبري ١٥٥٦٤ عن ابن وهب عن ابن زيد، وهذا ضعيف لكونه مرسلاً، وابن زيد ضعيف فهاتان علتان.

---

(١) التوريش: التحريش.

فأمر تعالىٰ أن يدفع الوسوسة بالالتجاء إليه والاستعاذة به؛ ولله المثل الأعلىٰ. فلا يستعاذ من الكلاب إلاّ بربِّ الكلاب. وقد حكي عن بعض السلف أنه قال لتلميذه: ما تصنع بالشيطان إذا سوّل لك الخطايا؟ قال: أجاهده. قال: فإن عاد؟ قال: أجاهده. قال: فإن عاد؟ قال: أجاهده. قال: هذا يطول، أرأيت لو مررت بغنم فنبحك كلبها ومنع من العبور ما تصنع؟ قال: أكابده وأردّه جهدي. قال: هذا يطول عليك، ولكن استغث بصاحب الغنم يكفّه عنك.

الثانية ـ النَّغْزُ والنَّزْغ والهَمْز والوَسْوَسَة سواء؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾﴾ [المؤمنون: ٩٧] وقال: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾﴾ [الناس: ٤] وأصل النزغ الفساد؛ يقال: نَزَغ بيننا؛ أي أفسد. ومنه قوله: ﴿نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ﴾ [يوسف: ١٠٠] أي أفسد. وقيل: النزغ الإغواء والإغراء؛ والمعنى متقارب.

قلت: ونظير هذه الآية ما في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ:

[٣١٦٥] «يأتي الشيطان أحدكم فيقول له من خلق كذا وكذا حتى يقول له من خلق ربك فإذا بلغ فليستعذ بالله ولْيَنْتَهِ». وفيه عن عبد الله قال:

[٣١٦٦] سُئل النبيّ ﷺ عن الوسوسة قال: «تلك مَحْضُ الإيمان». وفي حديث أبي هريرة: «ذلك صَرِيح الإيمان»(١) والصريح الخالص. وهذا ليس على ظاهره؛ إذ لا يصح أن تكون الوسوسة نفسها هي الإيمان، لأن الإيمان اليقين، وإنما الإشارة إلى ما وجدوه من الخوف من الله تعالىٰ أن يعاقبوا على ما وقع في أنفسهم. فكأنّه قال جَزَعُكم من هذا هو محض الإيمان وخالصه؛ لصحة إيمانكم، وعلمكم بفسادها. فسمَّى الوسوسة إيماناً لما كان دفعها والإعراض عنها والردّ لها وعدم قبولها والجزعُ منها صادراً عن الإيمان. وأما أمره بالاستعاذة فلكون تلك الوساوس من آثار الشيطان. وأما الأمر بالانتهاء فَعَن الركون إليها والالتفات نحوها. فمن كان صحيح الإيمان واستعمل ما أمره به ربه ونبيه ونفعه وانتفع به. وأما من خالجته الشبهة وَغَلَب عليه الحِس ولم يقدر على الانفكاك عنها فلا بُدّ من مشافهته بالدليل العقليّ؛ كما قال ﷺ للذي خالطته شبهةُ الإبل الجُرْب حين قال النبيّ ﷺ،

[٣١٦٥] صحيح. أخرجه البخاري ٣٢٧٦ ومسلم ١٣٤ ح٢١٤ من حديث أبي هريرة.
[٣١٦٦] صحيح. أخرجه مسلم ١٣٣ من حديث ابن مسعود.

---

(١) هذا اللفظ عند مسلم ١٣٢ من حديث أبي هريرة.

[٣١٦٧] «لا عَدْوَى». فقال[1] أعرابي: فما بال الإبل تكون في الرّمل كأنها الظباء فإذا دخل فيها البعير الأجرب أجربها؟ فقال ﷺ: «فمن أعدى الأوّل» فٱستأصل الشبهة من أصلها. فلما يئس الشيطان من أصحاب محمد ﷺ بالإغراء والإضلال أخذ يشوش عليهم أوقاتهم بتلك الأَلْقيات. والوساوسُ: التُّرَّهَات؛ فنفرت عنها قلوبهم وعظم عليهم وقوُعها عندهم فجاؤوا ـ كما في الصحيح ـ فقالوا:

[٣١٦٨] يا رسول الله. إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدُنا أن يتكلم به. قال: «أو قد وجدتموه»؟ قالوا: نعم. قال: «ذلك صريح الإيمان» رَغْماً للشيطان حسب ما نطق به القرآن في قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]. فالخواطر التي ليست بمستقرّة ولا ٱجْتَلَبتها الشبهةُ فهي التي تُدفَع بالإعراض عنها؛ وعلى مثلها يطلق اسم الوسوسة. والله أعلم. وقد مضىٰ في آخر «البقرة» هذا المعنىٰ، والحمد لله.

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾.

فيـه مسألتان:

الأولىٰ: قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾ يريد الشرك والمعاصي. ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَيْفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ هذه قراءة أهل البصرة وأهل مكة وقراءة أهل المدينة وأهلِ الكوفة «طَائِفٌ». وروي عن سعيد بن جبير «طَيِّفٌ» بتشديد الياء. قال النحاس: كلام العرب في مثل هذا «طَيْفٌ» بالتخفيف؛ على أنه مصدر من طاف يَطِيفُ. قال الكسائيّ: هو مخّفف من «طَيِّف» مثل مَيْتٌ ومَيِّتٌ. قال النحاس: ومعنىٰ «طَيْف» في اللغة ما يُتخيلّ في القلب أو يُرَىٰ في النوم؛ وكذا معنىٰ طائف. وقال أبو حاتم: سألت الأصْمَعيّ عن طَيِّف؛ فقال: ليس في المصادر فيعل. قال النحاس: ليس هو بمصدر، ولكن يكون بمعنىٰ طائف. والمعنىٰ: إن الذين ٱتقوا المعاصي إذا لحقهم شيء تفكروا في قدرة الله عز وجل وفي إنعامه عليهم فتركوا المعصية؛ وقيل: الطَّيْفُ والطّائِفُ معنيان مختلفان. **فالأول** ـ التخيّل. **والثاني** ـ الشيطان نفسه. فالأول مصدر طاف الخيال يَطُوف طَيْفاً؛ ولم يقولوا من هذا

[٣١٦٧] صحيح. أخرجه البخاري ٥٧١٧ و ٥٧٧٠ و ٧٧٧٥ ومسلم ٢٢٢٠ وأحمد ٢/٢٦٧ وابن حبان ٦١١٦ من حديث أبي هريرة.

[٣١٦٨] هذا لفظ مسلم ١٣٢ من حديث أبي هريرة وتقدم.

---

(١) وقع في الأصل «وقال» والتصويب من كتب الحديث..

طائف في اسم الفاعل. قال السهيلِيّ: لأنه تخَيُّل لا حقيقة له. فأما قوله: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ [القلم: ١٩] فلا يقال فيه: طيْفٌ؛ لأنه اسم فاعل حقيقة، ويقال: إنه جبريل. قال الزجاج: طفت عليهم أطوف، وطاف الخيال يَطيف. وقال حسان:

فَدَعْ هذا ولكن مَن لِطَيْف ... يُؤَرِّقُني إذا ذهب العِشَاء

مجاهد: الطَّيْف الغضب. ويسمىٰ الجنون والغضب والوسوسة طَيْفاً؛ لأنه لَمَّةٌ من الشيطان تُشَبَّه بِلَمَّةِ[1] الخيال. ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ أي منتهون. وقيل: فإذا هم على بصيرة. وقرأ سعيد بن جبير: «تَذَّكَّرُوا» بتشديد الذال. ولا وجه له في العربية؛ ذكره النحاس.

الثانية ـ قال عصام بن المُصْطَلِق: دخلت المدينة فرأيت الحسن بن عليّ عليهما السلام، فأعجبني سَمْتُه وحُسن رُوائه؛ فأثار منِّي الحسد ما يُجِنّه صدري لأبيه من البُغْض؛ فقلت: أنت ابن أبي طالب! قال نعم. فبالغت في شتمه وشتم أبيه؛ فنظرة إليّ نظرة عاطفٍ رَؤوف، ثم قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ فقرأ إلى قوله: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ ثم قال لي: خفِّض عليك، أستغفر الله لي ولك، إنك لو استعنتنا أعنّاك، ولو استرْفَدْتَنَا أرفدناك، ولو استرشدتنا أرشدناك. فتوسم فيَّ الندم على ما فرط منِّي فقال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [يوسف: ٩٢] أمن أهل الشأم أنت؟ قلت نعم. فقال:

شِنْشِنَةٌ أعرفُها من أَخْزَمِ[2]

حَيَّاك الله وبيَّاك، وعافاك، وآداك[3]؛ انبسط إلينا في حوائجك وما يعرض لك، تجدنا عند أفضل ظنك، إن شاء الله. قال عصام: فضاقت عليّ الأرض بما رَحُبَت، ووددت أنها ساخت بي، ثم تسلّلْتُ منه لِوَاذاً[4]، وما على وجه الأرض أحبُّ إليّ منه ومن أبيه.

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾ قيل: المعنىٰ وإخوان الشياطين وهم الفجّار من ضُلاّل الإنس تمدّهم الشياطين في الغيّ. وقيل للفجار

---

(١) اللَّمّة: الخطرة بالقلب.

(٢) الشنشنة: العادة والطبيعة. وأخزم: اسم رجل.

(٣) بيّاكَ: بوأك منزلاً. وآداك: قواك وأعانك.

(٤) اللِّواذ: الاستتار.

إخوان الشياطين لأنهم يقبلون منهم. وقد سبق في هذه الآية ذكر الشيطان. هذا أحسن ما قيل فيه؛ وهو قول قتادة والحسن والضحاك. ومعنىٰ «لاَ يُقْصِرُونَ» أي لا يتوبون ولا يرجعون. وقال الزجاج: في الكلام تقديم وتأخير؛ والمعنىٰ: والذين تدعون من دونه لا يستطيعون لكم نصراً ولا أنفسهم ينصرون، وإخوانهم يمدّونهم في الغيّ؛ لأنّ الكفار إخوان الشياطين. ومعنىٰ الآية: إن المؤمن إذا مسه طَيْف من الشيطان تنبّه عن قُرْب؛ فأما المشركون فيمدّهم الشيطان. و «لاَ يُقْصِرُونَ» قيل: يرجع إلى الكفار على القولين جميعاً. وقيل: يجوز أن يرجع إلى الشيطان. قال قتادة: المعنىٰ ثم لا يُقصرون عنهم ولا يرحمونهم. والإقصار: الانتهاء عن الشيء، أي لا تقصر الشياطين في مدّهم الكفار بالغيّ. وقوله: ﴿فِى ٱلْغَىِّ﴾ يجوز أن يكون متصلاً بقوله: «يَمُدُّونَهُمْ» ويجوز أن يكون متصلاً بالإخوان. والغيّ: الجهل. وقرأ نافع «يُمِدُّونَهُمْ» بضم الياء وكسر الميم. والباقون بفتح الياء وضم الميم. وهما لغتان مَدّ وأَمَدّ. ومَدّ أكثر، بغير الألف؛ قاله مكيّ. النحاس: وجماعة من أهل العربية ينكرون قراءة أهل المدينة؛ منهم أبو حاتم وأبو عبيد، قال أبو حاتم: لا أعرف لها وجهاً، إلا أن يكون المعنىٰ يزيدونهم في الغيّ. وحكى جماعة من أهل اللغة منهم أبو عبيد أنه يقال إذا كَثَّر شيء شيئاً بنفسه مدّه، وإذا كثَّره بغيره قيل أَمَدّه، نحو ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءالَفٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مُسَوِّمِين﴾[آل عمران: ١٢٥]. وحكي عن محمد بن يزيد أنه احتج لقراءة أهل المدينة قال: يقال مددت له في كذا أي زينته له واستدعيته أن يفعله. وأمددته في كذا أي أعنته برأي أو غير ذلك. قال مكيّ: والاختيار الفتح؛ لأنه يقال: مددت في الشر، وأمددت في الخير؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ [البقرة: ١٥]. فهذا يدل على قوة الفتح في هذا الحرف؛ لأنه في الشر، والغيّ هو الشر، ولأن الجماعة عليه. وقرأ عاصم الجَحْدَرِيّ «يُمَادُّونهُمْ فِي الغيّ». وقرأ عيسىٰ بن عمر «يَقْصُرُونَ» بفتح الياء وضم الصاد وتخفيف القاف. والباقون «يُقْصِرُونَ» بضدّه. وهما لغتان. قال امرؤ القيس:

سَمَا لَكَ شَوْقٌ بعد ما كان أَقْصَرَا

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ﴾ أي تقرؤها عليهم. ﴿قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾ لولا بمعنىٰ هَلّا. ولا يليها على هذا المعنىٰ إلا الفعل ظاهراً أو مضمراً، وقد تقدّم القول فيها في «البقرة» مستوفى. ومعنى «ٱجْتَبَيْتَهَا» اختلقتها من نفسك. فأعلمهم أن الآيات من قبل

الله عز وجل، وأنه لا يقرأ عليهم إلا ما أنزله عليه. يقال: اجْتَبَيْتُ الكلام أي ٱرتَجَلْته وٱختلقته، وٱخترعته إذا جئت به من عند نفسك. ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ﴾ أي من عند الله لا من عند نفسي. ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ يعني القرآن، جمع بصيرة، هي الدلالة والعبرة. أي هذا الذي دللتكم به على أن الله عز وجل واحدٌ بَصَائِرُ، أي يُستبصَر بها. وقال الزجاج: «بَصَائِرُ» أي طُرُقٌ. والبصائر طُرُقُ الدِّين. قال الجُعْفِيّ:

راحوا بصائرهم على أكتافهم ... وبَصيرتِي يَعْدُوا بها عَتِدٌ وأي

﴿وَهُدًى﴾ رشد بيان. ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ أي ونعمة.

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤)﴾.
فيه مسألتان:

الأولىٰ ـ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ قيل: إن هذا نزل في الصلاة، رُوي عن ابن مسعود وأبي هريرة وجابر والزُّهْرِيّ وعبيد[1] بن عمير وعطاء بن أبي رَباح وسعيد بن المسيِّب. قال سعيد: «كان المشركون يأتون رسول الله ﷺ إذا صَلَّىٰ؛ فيقول بعضهم لبعض بمكة: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦]. فأنزل الله جل وعز جواباً لهم ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾. وقيل: إنها نزلت في الخطبة؛ قاله سعيد بن جُبير ومجاهد وعطاء وعمرو بن دِينار وزيد بن أسلم والقاسم بن مُخَيْمَرة ومسلم بن يَسَار وشَهْر بن حَوْشَبْ وعبد الله بن المبارك. وهذا ضعيف؛ لأن القرآن فيها قليل، والإنصات يجب في جميعها؛ قاله ابن العربيّ. النقاش: والآية مكية، ولم يكن بمكة خطبة ولا جمعة. وذكر الطبريّ عن سعيد بن جبير أيضاً أن هذا في الإنصات يوم الأضْحَىٰ ويوم الفطر ويوم الجمعة، وفيما يَجْهر به الإمام فهو عامّ. وهو الصحيح لأنه يجمع جميع ما أوجبته هذه الآية وغيرها من السُّنّة في الإنصات. قال النقاش: أجمع أهل التفسير أن هذا الاستماع في الصلاة المكتوبة وغير المكتوبة. النحاس: وفي اللغة يجب أن يكون في كل شيء، إلا أن يدل دليلٌ على اختصاص شيء. وقال الزجاج: يجوز أن يكون «فَٱسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا» ٱعملوا بما فيه ولا تجاوزوه. والإنصات السكوت للاستماع والإصغاء والمراعاة. أنْصَتُ يُنصت إنصاتاً؛ وَنَصت أيضاً؛ قال الشاعر:

قال الإمامُ عليكم أمْرَ سيِّدكم ... فلم نُخالف وأنصتنا كما قالا

ويُقال: أنصتوه وأنصتوا له: قال الشاعر:

(١) وقع في الأصل «وعبيد الله» والتصويب من الطبري ١٥٥٩٦.

إذا قالتْ حَذامِ فأنصِتوها ... فإنّ القولَ ما قالت حَذامِ

وقال بعضهم في قوله «فَاسْتَمِعُوا لهُ وَأَنْصِتُوا»: كان هذا لرسول الله ﷺ خاصاً لِيَعيه عنه أصحابه.

قلت: هذا فيه بعدٌ، والصحيح القول بالعموم؛ لقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ والتخصيص يحتاج إلى دليل. وقال عبد الجبار بن أحمد في فوائد القرآن له: إن المشركين كانوا يكثرون اللغط والشغب تَعَنّتاً وعناداً؛ على ما حكاه الله عنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾. فأمر الله المسلمين حالة أداء الوَحْي أن يكونوا على خلاف هذه الحالة وأن يستمعوا، ومدح الجنّ على ذلك فقال: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ [الأحقاف: ٢٩] الآية. وقال محمد بن كعب القُرَظِيّ[1]: كان رسول الله ﷺ إذا قرأ في الصَّلاة أجابه مَن وراءَه؛ إذا قال: بسم الله الرّحمٰن الرّحيم، قالوا مثل قوله، حتى يقضيَ فاتحة الكتاب والسُّورة. فلبث بذلك ما شاء الله أن يلبث؛ فنزل: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ فأنْصَتُوا. وهذا يدل على أن المعنى بالإنصات تركُ الجهر على ما كانوا يفعلون من مجاوبة رسول الله ﷺ. وقال قتادة في هذه الآية: كان الرجل يأتي وهم في الصَّلاة فيسألهم كم صلّيتم، كم بَقِي؛ فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾. وعن مجاهد أيضاً: كانوا يتكلمون في الصَّلاة بحاجتهم؛ فنزل قوله تعالىٰ: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾. وقد مضى في الفاتحة الاختلاف في قراءة المأموم خلف الإمام. ويأتي في «الجمعة» حكم الخطبة، إن شاء الله تعالىٰ.

قوله تعالىٰ: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ نظيره ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥] وقد تقدّم. قال أبو جعفر النحاس: ولم يختلف في معنى ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ أنه في الدعاء.

قلت: قد رُوي عن ابن عباس أنه يعني بالذكر القراءةَ في الصَّلاة. وقيل: المعنى اقرأ القرآن بتأمّل وتدبُّر. «تَضَرُّعاً» مصدر، وقد يكون في موضع الحال. «وَخِيفَةً» معطوف عليه. وجمع خيفة خِوَف؛ لأنه بمعنى الخَوْف؛ ذكره النحاس. وأصل خِيفة خِوْفَة، قلبت

---

(١) هذا مرسل. انظر الدر المنثور ٣/ ٢٨٥.

الواو ياء لانكسار ما قبلها. خاف الرجل يخاف خوفاً وخِيفة ومَخافة، فهو خائف، وقوم خُوَّف على الأصل، وخُيَّف على اللفظ. وحكى الفراء أنه يُقال أيضاً في جمع خِيفة خِيف. قال الجوهري: والخِيفة الخوف، والجمع خِيف، وأصله الواو. ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ﴾ أي دون الرفع في القول. أي أسمع نفسك؛ كما قال: ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾ [الإسراء: ١١٠] أي بين الجهر والمخافتة. ودلّ هذا على أن رفع الصوت بالذكر ممنوع؛ على ما تقدم في غير موضع. ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ قال قتادة وابن زيد: الآصال العَشيَّات. والغدوّ جمع غُدْوة. وقرأ أبو مِجْلَز «بالْغُدُوِّ وَالإِيصالِ» وهو مصدر آصلنا، أي دخلنا في العَشِيّ. والآصال جمع أُصُل؛ مثل طُنُب وأطْنَاب؛ فهو جمع الجمع، والواحد أصيل، جُمِع على أُصُل؛ عن الزجاج. الأخفش: الآصال جمع أَصِيل؛ مثلُ يَمِين وأيْمَان. الفراء: أُصُل جمع أصيل، وقد يكون أُصُل واحداً، كما قال الشاعر:

* ولا بأحسن منها إذْ دَنَا الأُصُلُ *

الجوهرِيّ: الأصِيل الوقت بعد العصر إلى المغرب، وجمعه أُصُل وآصال وأصائل؛ كأنه جمع أصِيلة؛ قال الشاعر:

لعمـرِي لأنـتَ البيْـتُ أكـرِمُ أهلَـه وأقعـد فـي أفيـائـه بـالأصـائـل

ويجمع أيضاً على أُصْلان؛ مثل بَعير وبُعْران؛ ثم صغّروا الجمع فقالوا أُصَيْلان، ثم أبدلوا من النون لاماً فقالوا أُصَيْلال؛ ومنه قول النابغة:

وقفــتُ فيهــا أُصَيْــلالاً أُســائلهــا عَيَّتْ جواباً وما بالرَّبْع من أحدِ

وحكى اللّحْيانِيّ: لقيته أُصَيْلالا. ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ أي عن الذكر.

قـولـه تعـالـى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾.

فيه ثمان مسائل:

الأُولىٰ ـ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ يعني الملائكة بإجماع. وقال ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ والله تعالىٰ بكل مكان لأنهم قريبون من رحمته، وكل قريب من رحمة الله عز وجل فهو عنده؛ عن الزجاج. وقال غيره: لأنهم في موضع لا ينفذ فيه إلا حكم الله. وقيل: لأنهم رُسُل الله؛ كما يقال: عند الخليفة جيش كثير. وقيل: هذا على جهة التشريف لهم، وأنهم بالمكان المكرم؛ فهو عبارة عن قربهم في الكرامة لا في المسافة. ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ أي ويعظمونه وينزهونه عن كل سوء. ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ قيل: يصلون. وقيل: يَذِلّون، خلاف أهل المعاصي.

الثانية ـ والجمهور من العلماء في أن هذا موضعُ سجود للقارىء. وقد ٱختلفوا في عدد سجود القرآن؛ فأقصى ما قيل: خمس عشرة. أوّلها خاتمة الأعراف، وآخرها خاتمة العَلَق. وهو قول ٱبن حبيب وٱبن وهب ـ في رواية ـ وإسحاق. ومن العلماء من زاد سجدة الحِجْر قوله تعالى: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ۝٩٨﴾ [الحجر: ٩٨] على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى. فعلى هذا تكون ست عشرة. وقيل: أربع عشرة؛ قاله ابن وهب في الرواية الأُخرى عنه. فأسقط ثانية الحج. وهو قول أصحاب الرأي، والصحيح سقوطها؛ لأن الحديث لم يصح بثبوتها. ورواه ابن ماجه وأبو داود في سننهما عن عبد الله بن مُنين من بني عبد كُلال عن عمرو بن العاص:

[٣١٦٩] أن رسول الله ﷺ أقرأه خمس عشرة سجدة في القرآن؛ منها ثلاث في المفصّل، وفي الحج سجدتان. وعبد الله بن مُنين لا يحتج به؛ قاله أبو محمد عبد الحق. وذكر أبو داود أيضاً من حديث عقبة بن عامر قال قلت:

[٣١٧٠] يا رسول الله، أفي سورة الحج سجدتان؟. قال: «نعم ومن لم يسجدهما فلا يقرأهما». في إسناده عبد الله بن لَهِيعة، وهو ضعيف جداً. وأثبتهما الشافعيّ وأسقط سجدة ص. وقيل: إحدى عشرة سجدة، وأسقط اخرة الحج وثلاث المفصل. وهو مشهور مذهب مالك. وروي عن ابن عباس وابن عمر وغيرهما. وفي سنن ٱبن ماجه عن أبي الدرداء قال:

[٣١٦٩] أخرجه أبو داود ١٤٠١ وابن ماجه ١٠٥٧ والحاكم ١/٢٢٣ والدارقطني ١/٤٠٨ من حديث عمرو بن العاص. قال الحاكم: احتج الشيخان بأكثر رواته وليس في سجود القرآن أتم منه، وتعقبه الزيلعي، فقال في نصب الراية ٢/١٨٠: ابن مُنين فيه جهالة، وقال عبد الحق: لا يحتج به، ووافقه ابن القطان.
وقال ابن حجر في التلخيص ٢/٦: حسنه المنذري والنووي، وضعفه عبد الحق وابن القطان، وابن منين مجهول، ثم ذكره الحافظ في التقريب، فقال: وثقه يعقوب بن سفيان، وللحديث شواهد تقويه منها الآتي.

[٣١٧٠] أخرجه أبو داود ١٤٠٢ والترمذي ٥٧٨ والحاكم ١/٢٢١ والدارقطني ١/٤٠٨ وأحمد ٤/١٥١ من حديث عقبة بن عامر، ومداره على ابن لهيعة قال الترمذي: إسناده ليس بالقوي، وقال ابن حجر في الدراية ١/٢١٠: فيه ابن لهيعة ـ يعني ضعيف ـ ورواه أبو داود في مراسيله عن خالد بن معدان مرسلاً، وقال: أبو داود: قد أُسند هذا الحديث ولا يصح اهـ فالحديث واهٍ بهذا التمام أما صدره فله شواهد منها المتقدم، ومنها ما هو موقوف، انظر المستدرك ١/٢٢١ و٢/٣٩٠.

[٣١٧١] سجدت مع النبيّ ﷺ إحدى عشرة سجدة ليس فيها من المفصل شيء، الأعراف والرعد والنحل وبني إسرائيل ومريم والحج سجدة والفرقان وسليمان سورة النمل والسجدة وصّ وسجدة الحواميم. وقيل: عشر، وأسقط آخرة الحج وصّ وثلاث المفصل؛ ذُكر عن ابن عباس. وقيل: إنها أربع، سجدة الّمّ تنزيل وحم تنزيل والنجم والعلق. وسبب الخلاف اختلاف النقل في الأحاديث والعمل، واختلافهم في الأمر المجرّد بالسجود في القرآن، هل المراد به سجود التلاوة أو سجود الفرض في الصلاة؟

الثالثة ـ واختلفوا في وجوب سجود التلاوة؛ فقال مالك والشافعيّ: ليس بواجب. وقال أبو حنيفة: هو واجب. وتعلّق بأن مطلق الأمر بالسجود على الوجوب، وبقوله عليه السلام:

[٣١٧٢] «إذا قرأ ٱبن آدم سجدة فسجد ٱعتزل الشيطان يبكي يقول يا وَيْلَه». وفي رواية أبي كُرَيب «يا ويلي»، وبقوله عليه السلام إخباراً عن إبليس ـ لعنه الله ـ:

«أمر[1] ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار». أخرجه مسلم. ولأن النبيّ ﷺ كان يحافظ عليه. وعوّل علماؤنا على حديث عمر الثابت ـ خرّجه البخاري ـ أنه قرأ آية سجدة على المِنبر فنزل فسجد وسجد الناس معه، ثم قرأها في الجمعة الأُخرى فتهيأ الناس للسجود، فقال: «أيها الناس على رِسْلكم! إن الله لم يكتبها علينا إلاّ أن نشاء»[2]. وذلك بمحضر الصحابة رضي الله عنهم أجمعين من الأنصار والمهاجرين. فلم ينكر عليه أحد فثبت الإجماع به في ذلك. وأما قوله: «أُمِر ابن آدم بالسجود» فإخبار عن السجود الواجب. ومواظبة النبيّ ﷺ تدل على الاستحباب! والله أعلم.

الرابعة ـ ولا خلاف في أن سجود القرآن يحتاج إلى ما تحتاج إليه الصلاة من طهارة حَدَث ونَجس ونيةٍ واستقبالِ قبلة ووقت. إلا ما ذكر البخاري عن ابن عمر أنه كان يسجد على غير طهارة. وذكره ابن المنذر عن الشعبيّ. وعلى قول الجمهور هل يحتاج إلى تحريم ورفع يدين عنده وتكبير وتسليم؟ اختلفوا في ذلك؛ فذهب الشافعيّ وأحمد

[٣١٧١] ضعيف. أخرجه ابن ماجه ١٠٥٦ من حديث أبي الدرداء وقال البوصيري: في إسناده عثمان بن فائد وهو ضعيف.

[٣١٧٢] صحيح. أخرجه مسلم ٨١ وأحمد ٢/٤٤٣ وابن ماجه ١٠٥٢ وابن خزيمة ٥٤٩ وابن حبان ٢٧٥٩ من حديث أبي هريرة.

---

(١) هذا تمام الحديث المتقدم.

(٢) أخرجه البخاري ١٠٧٧.

وإسحاق إلى أنه يكبر ويرفع للتكبير لها. وقد روى في الأثر عن ابن عمر.

[٣١٧٣] أن النبيّ ﷺ كان إذا سجد كبّر، وكذلك إذا رفع كبّر، ومشهور مذهب مالك أنه يكبر لها في الخفض والرفع في الصلاة. وٱختلف عنه في الكبير لها في غير الصلاة؛ وبالتكبير لذلك قال عامّة الفقهاء، ولا سلام لها عند الجمهور. وذهب جماعة من السلف وإسحاق إلى أنه يسلم منها. وعلى هذا المذهب يتحقق أن التكبير في أوّلها للإحرام. وعلى قول من لا يسلم يكون للسجود فحسب. والأوّل أولىٰ، لقوله عليه السلام:

[٣١٧٤] «مفتاح الصلاة الطهور وتحريمها التكبير وتحليلها التسليم» وهذه عبادة لها تكبير، فكان لها تحليل كصلاة الجنازة بل أولى، لأنها فعل وصلاة الجنازة قول. وهذا اختيار ابن العربيّ.

الخامسة ـ وأما وقته فقيل: يسجد في سائر الأوقات مطلقاً؛ لأنها صلاة لسبب. وهو قول الشافعيّ وجماعة. وقيل: ما لم يُسْفِر الصبح، أو ما لم تصفرّ الشمس بعد العصر. وقيل: لا يسجد بعد الصبح ولا بعد العصر. وقيل: يسجد بعد الصبح ولا يسجد بعد العصر. وهذه الثلاثة الأقوال في مذهبنا. وسبب الخلاف معارضة ما يقتضيه سبب قراءة السجدة من السجود المرتّب عليها لعموم النهي عن الصلاة بعد العصر وبعد الصبح. وٱختلافهم في المعنى الذي لأجله نُهي عن الصلاة في هذين الوقتين، والله أعلم.

السادسة ـ فإذا سجد يقول في سجوده:

[٣١٧٥] اللَّهُمَّ أحطط عني بها وِزْراً، واكتب لي بها أجراً، واجعلها لي عندك ذخراً. رواه ابن عباس عن النبيّ ﷺ؛ ذكره ابن ماجه.

السابعة ـ فإن قرأها في صلاة، فإن كان في نافلة سجد إن كان منفرداً أو في جماعة وأمن التخليط فيها. وإن كان في جماعة لا يأمن ذلك فيها فالمنصوص جوازه. وقيل: لا يسجد. وأما في الفريضة فالمشهور عن مالك النّهيُ عنه فيها، سواء كانت صلاة سر أو جهر، جماعة أو فرادى. وهو معلّل بكونها زيادة في أعداد سجود الفريضة. وقيل: معلّل بخوف التخليط على الجماعة؛ وهذا أشبه. وعلى هذا لا يمنع منه الفرادى ولا الجماعة التي يأمن فيها التخليط.

الثامنة ـ روى البخاريّ عن أبي رافع قال: صلّيت مع أبي هريرة العَتَمة، فقرأ «إِذَا

[٣١٧٣] أخرجه داود ١٤١٣ والبيهقي ٢/ ٣٢٥ بإسناد ضعيف لضعف عبد الله بن عمر العمري.

[٣١٧٤] أخرجه أبو داود ٦١ وغيره، وقد تقدم.

[٣١٧٥] أخرجه ابن ماجه ١٠٥٣ من حديث ابن عباس بإسناد حسن رجاله ثقات كلهم.

السَّمَاءُ انْشَقَّتْ» فسجد؛ فقلت: ما هذه؟ قال: سجدت بها خلف أبي القاسم ﷺ، فلا أزال أسجد فيها حتىٰ ألقاه[1]. انفرد بإخراجه. وفيه: «وقيل لعمران بن حُصين: الرجل يسمع السجدة ولم يجلس لها؟ قال: أرأيت لو قعد لها! كأنه لا يوجبه عليه. وقال سَلْمان: ما لهذا غدونا. وقال عثمان: إنما السجدة على من ٱستمعها. وقال الزُّهريّ: لا يسجد إلا أن يكون طاهراً، فإذا سجدت وأنت في حَضَر فاستقبل القبلة، فإن كنت راكباً لا عليك حيث كان وجهك. وكان السائب لا يسجد لسجود القاص»[2] والله أعلم.

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ١٠٧٨ عن أبي هريرة به.

(٢) هو من يسرد القصص يعظ بها الناس.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأنفال

مدنيّة بدريّة في قول الحسن وعكرمة وجابر وعطاء. وقال ابن عباس: هي مدنية إلا سبع آيات، من قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الأنفال: ٣٠] إلى آخر السبع آيات.

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١﴾.

فيه سبع مسائل:

الأُولى ـ روى عُبادة بن الصّامت قال:

[٣١٧٦] خرج رسول الله ﷺ إلى بَدر فَلَقوا العدوّ؛ فلما هزمهم الله أتبعتهم طائفة من المسلمين يقتلونهم، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ، واستولت طائفة على العسكر والنهب؛ فلما نفى الله العدوّ ورجع الذين طلبوهم قالوا: لنا النفل، نحن الذين طلبنا العدوّ وبنَا نفاهم الله وهزمهم. وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ: ما أنتم أحقّ به منا، بل هو لنا، نحن أحدقنا برسول الله ﷺ لئلا ينال العدوّ منه غِرة. وقال الذين استولوا على العسكر والنهب: ما أنتم بأحقّ منا، هو لنا، نحن حَوَيْنَاه واستوْلَينا عليه؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١﴾. فقسمه رسول الله ﷺ عن فُوَاقٍ بينهم. قال أبو عمر: قال أهل العلم بلسان العرب: استَلْوَوْا أطافوا وأحاطوا؛ يقال: الموت مُسْتَلْوٍ على العباد. وقوله: «فقسمه عن فُواق» يعني عن سرعة. قالوا: والفُوَاق ما بين حَلْبَتي الناقة. يقال: انتظره فُواقَ ناقة، أي هذا المقدار. ويقولونها بالضم والفتح: فُواق وفَواق. وكانَ هذا قبل أن ينزل: ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ [الأنفال: ٤١] الآية. وكأنّ

[٣١٧٦] أخرجه الحاكم ٢/٣٢٦/٣٢٥٩ والطبري ١٥٦٦٦و ١٥٦٦٧ والواحدي ٤٧٠ من حديث عبادة بن الصامت، وصححه الحاكم على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. وللحديث شواهد بنحوه. انظر الدر المنثور ٣/٢٩٢ ـ ٢٩٣.

المعنى عند العلماء: أي إلى الله وإلى الرسول الحكم فيها والعملُ بها بما يقرّب من الله تعالى. وذكر محمد بن إسحاق قال: حدّثني عبد الرحمن بن الحارث وغيره من أصحابنا عن سليمان بن موسى الأشْدَق عن مكحول عن أبي أمامة الباهليّ قال[١]: سألت عُبادة بن الصّامت عن الأنفال فقال: فينا معشر أصحاب بدرٍ نزلت حين اختلفنا في النّفلَ، وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا وجعله إلى الرسول، فقسمه رسول الله ﷺ عن بَواء. يقول: على السّوَاء. فكان ذلك تقوى الله وطاعة رسوله وصلاح ذات البَيْن. ورُوي في الصحيح عن سعد بن أبي وَقّاص قال:

[٣١٧٧] أغتنم أصحاب رسول الله ﷺ غنيمة عظيمة، فإذا فيها سيف، فأخذتهُ فأتيت به النبيّ ﷺ فقلت: نَفّلني هذا السيف، فأنا من قد علمتَ حاله. قال: «ردّه من حيث أخذته» فانطلقت حتى أردت أن ألقيَه في القَبَض[٢] لامتني نفسي فرجعت إليه فقلت: أعطنيه. قال: فشدّ لي صوته «ردّه من حيث أخذته» فانطلقت حتى أردت أن ألقِيَه في القَبَض لامتني نفسي فرجعت إليه فقلت: أعطنيه، قال: فشدّ لي صوته «ردّه من حيث أخذته» فأنزل الله ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾. لفظ مسلم. والروايات كثيرة، وفيما ذكرناه كفاية، والله الموفق للهداية.

الثانية ـ الأنفال واحدها نَفَل بتحريك الفاء؛ قال[٣]:

إنّ تَقْوَى رَبِّنا خيرُ نَفَل ... وبإذن الله رَيْثِي والعَجَلْ

أي خير غنيمة. والنَّفْل: اليمين؛ ومنه الحديث «فتبرئكم يهود بنَفْل خمسين منهم»[٤]. والنَّفْل الانتفاء؛ ومنه الحديث «فأنتفل من ولدها»[٥]. والنَّفَل: نبت معروف. والنَّفْل: الزيادة على الواجب، وهو التطوع. وولد الولد نافلة؛ لأنه زيادة على الولد. والغنيمة نافلة؛ لأنها زيادة فيما أحل الله لهذه الأمة مما كان محرّماً على غيرها. قال ﷺ:

[٣١٧٧] صحيح. أخرجه مسلم ١٧٤٨ ح ٣٤ وأحمد ١/ ١٨٠ وسعيد بن منصور ٢٦٨٩ والواحدي ٤٦٨ من حديث سعد.

---

(١) هو الحديث المتقدم وهذا اللفظ عند الطبري ١٥٦٦٧.

(٢) هو ما جمع من الغنيمة قبل أن تقسم.

(٣) قائله لبيد.

(٤) هو عند البخاري ٦٨٩٩، وتقدم.

(٥) هو من كلام ابن عمر، ذكره ابن الجوزي في غريب الحديث ٢/ ٤٢٧ وابن الأثير في النهاية ٥/ ١٠٠.

[٣١٧٨] «فُضِّلت على الأنبياء بست - وفيها - وأُحِلَّت لِيَ الغنائم». والأنفال: الغنائم أنفسها. قال عنترة:

إنّا إذا ٱحمر الوَغَى نُروِي القنا ونَعِفّ عند مقاسم الأنفال

أي الغنائم.

الثالثة - وٱختلف العلماء في محل الأنفال على أربعة أقوال: الأول - محلها فيما شذ عن الكافرين إلى المسلمين أو أخذ بغير حرب. الثاني - محلها الخمس. الثالث - خمس الخمس. الرابع - رأس الغنيمة؛ حسب ما يراه الإمام. ومذهب مالك رحمه الله أن الأنفال مواهب الإمام من الخمس، على ما يرى من الاجتهاد، وليس في الأربعة الأخماس نفل، وإنما لم ير النفل من رأس الغنيمة لأن أهلها معيَّنون وهم المُوجِفون[1]، والخمس مردود قسمه إلى ٱجتهاد الإمام. وأهلُه غير معيّنين. قال ﷺ:

[٣١٧٩] «مالي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس والخمس مردود عليكم». فلم يمكن بعد هذا أن يكون النفل من حق أحد، وإنما يكون من حق رسول الله ﷺ وهو الخمس. هذا هو المعروف من مذهبه وقد روي عنه أن ذلك من خمس الخمس. وهو قول ابن المسيِّب والشافعيّ وأبي حنيفة. وسبب الخلاف حديثُ ابن عمر، رواه مالك قال:

[٣١٨٠] بعث رسول الله ﷺ سَرِيَّة قِبَل نَجْد فَغنِموا إبلاً كثيرة، وكانت سُهْمانهم ٱثْنَيْ عشر بعيراً أو أحد عشر بعيراً؛ ونُفِّلوا بعِيراً بعيراً. هكذا رواه مالك على الشك في رواية يحيى عنه، وتابعه على ذلك جماعة رواةِ الموطأ إلا الوليد بن مسلم فإنه رواه عن مالك عن نافع عن ابن عمر، فقال فيه[2]: فكانت سُهْمانهم ٱثني عشر بعيراً، ونُفِّلوا بعيراً بعيراً. ولم يشُك. وذكر الوليد بن مسلم والحكم بن نافع عن شعيب بن أبي حمزة عن نافع عن ٱبن عمر قال: بعثنا رسول الله ﷺ في جيش قبل نجد - في رواية الوليد: أربعة آلاف - وٱنبعثت سرية من الجيش - في رواية الوليد: فكنت ممن خرج فيها - فكان سهمان

[٣١٧٨] متفق عليه، وتقدم.

[٣١٧٩] ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/١٨٦ فقال: أخرجه ابن أبي حاتم عن جبير بن مطعم مرفوعاً ا هـ. ولم أقف على إسناده، وتفرد ابن أبي حاتم به دليل على وهنه.

[٣١٨٠] صحيح. أخرجه البخاري ٤٣٣٨ ومسلم ١٧٤٩ وأحمد ٢/ ١٠ وأبو داود ٢٧٤٤ وابن حبان ٤٨٣٢ من حديث ابن عمر.

---

(١) الإيجاف: سرعة الخيل.

(٢) هذه الرواية لأبي داود ٢٧٤١.

الجيش أثنى عشر بعيراً، اثني عشر بعيراً؛ ونفل أهل السرية بعيراً بعيراً؛ فكان سهمانهم ثلاثة عشر بعيراً[1]؛ ذكره أبو داود. فاحتج بهذا من يقول إن النَّفل إنما يكون من جملة الخمس. وبيانه أن هذه السرية لو نزّلت على أن أهلها كانوا عشرةً مثلاً أصابوا في غنيمتهم مائة وخمسين، أخرج منها خمسها ثلاثين وصار لهم مائة وعشرون، قُسِّمت على عشرة وجب لكل واحد أثنا عشر بعيراً، اثنا عشر بعيراً، ثم أعطى القوم من الخمس بعيراً بعيراً؛ لأن خمس الثلاثين لا يكون فيه عشرة أبعرة. فإذا عرفت ما للعشرة عرفت ما للمائة والألف وأزيد. واحتج من قال: إن ذلك كان من خمس الخمس بأن قال: جائز أن يكون هناك ثياب تباع ومتاع غير الإبل، فأعطى من لم يبلغه البعير قيمة البعير من تلك العُرُوض. ومما يعضد هذا ما روى مسلم في بعض طرق هذا الحديث: فأصبنا إبلاً وغنماً؛ الحديثَ. وذكر محمد بن إسحاق[2] في هذا الحديث أن الأمير نفّلهم قبل القسم، وهذا يوجب أن يكون النفل من رأس الغنيمة، وهو خلاف قول مالك. وقول من روى خلافه أولى لأنهم حفّاظ؛ قاله أبو عمر رحمه الله. وقال مكحول والأوزاعيّ: لا ينفَّل بأكثر من الثلث؛ وهو قول الجمهور من العلماء. قال الأوزاعيّ: فإن زادهم فَلْيَف لهم ويجعل ذلك من الخمس. وقال الشافعيّ: ليس في النَّفَل حدّ لا يتجاوزه الإمام.

الرابعة ـ ودلّ حديث ابن عمر على ما ذكره الوليد والحكَم عن شعيب عن نافع أن السريّة إذا خرجت من العسكر فغَنِمت أن العسكر شركاؤهم. وهذه مسألة وحُكْم لم يذكره في الحديث غير شعيب عن نافع، ولم يختلف العلماء فيه، والحمد لله.

الخامسة ـ واختلف العلماء في الإمام يقول قبل القتال: من هدم كذا من الحِصْن فله كذا، ومن بلغ إلى موضع كذا فله كذا، ومن جاء برأسٍ فله كذا، ومن جاء بأسير فله كذا؛ يُضَرِّيهم. فرُوِي عن مالك أنه كرهه. وقال: هو قتال على الدنيا. وكان لا يجيزه. قال الثَّوْرِيّ: ذلك جائز ولا بأس به.

قلت: وقد جاء هذا المعنى مرفوعاً من حديث ابن عباس قال: لما كان يوم بدر قال النبيّ ﷺ:

[٣١٨١] «من قتل قتيلاً فله كذا ومن أسر أسيراً فله كذا». الحديث بطوله. وفي

[٣١٨١] صحيح. أخرجه أبو داود ٢٧٣٧ و ٢٧٣٨ و ٢٧٣٩ والحاكم ٢/ ٣٢٦ والبيهقي ٦/ ٢٩١ والواحدي ٤٦٩ من حديث ابن عباس، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، والطريق الثاني عند أبي داود على شرط مسلم. وهو في صحيح أبي داود ٢٣٧٦ و ٢٣٧٧.

---

(١) أخرجه أبو داود ٢٧٤١ بإسناد حسن.

(٢) حديث ابن إسحاق عند أبي داود ٢٧٤٣ وإسناده حسن.

رواية عكرمة عنه عن النبيّ ﷺ: «من فعل كذا وكذا وأتى مكان كذا وكذا فله كذا». فتسارع الشُّبان وثبت الشيوخ مع الرايات؛ فلما فُتح لهم جاء الشبان يطلبون ما جُعل لهم فقال لهم الأشياخ: لا تذهبون به دوننا، فقد كنا رِدْءاً لكم؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ﴾ ذكره إسماعيل بن إسحاق أيضاً. ورُوي عن عمر بن الخطاب أنه قال لجرير بن عبد الله البَجَلي لما قدم عليه في قومه وهو يريد الشأم: هل لك أن تأتي الكوفة ولك الثلث بعد الخمس من كل أرض وسَبْي؟. وقال بهذا جماعة فقهاء الشأم: الأوزاعي ومكحول وابن حَيوَة وغيرهم. ورأوا الخمس من جملة الغنيمة، والنفل بعد الخمس ثم الغنيمة بين أهل العسكر؛ وبه قال إسحاق وأحمد وأبو عبيد. قال أبو عبيد: والناس اليوم على أن لا نفل من جهة الغنيمة حتى تخمس. وقال مالك: لا يجوز أن يقول الإمام لسَرِيّة؛ ما أخذتم فلكم ثلثه. قال سُحْنُون: يريد ابتداء. فإن نزل[1] مضى، ولهم أنصباؤهم في الباقي. وقال سحنون: إذا قال الإمام لسَرِيّة ما أخذتم فلا خمس عليكم فيه؛ فهذا لا يجوز، فإن نزل[1] رددته، لأن هذا حكم شاذّ لا يجوز ولا يمضي.

السادسة ـ واستحب مالك رحمه الله ألاّ ينفّل الإمام إلا ما يظهر كالعمامة والفرس والسيف. ومنع بعض العلماء أن ينفل الإمام ذهباً أو فضة أو لؤلؤاً ونحوه. وقال بعضهم: النفل جائز من كل شيء. وهو الصحيح لقول عمر ومقتضى الآية، والله أعلم.

السابعة ـ قوله تعالىٰ: ﴿فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ﴾ أمر بالتقوىٰ والإصلاح، أي كونوا مجتمعين على أمر الله في الدعاء: اللَّهُمَّ أصلح ذات البَيْن، أي الحال التي يقع بها الاجتماع. فدل هذا على التصريح بأنه شَجَر بينهم اختلاف. أو مالت النفوس إلى التّشاحّ؛ كما هو منصوص في الحديث. وتقدّم معنىٰ التقوىٰ، أي اتقوا الله في أقوالكم، وأفعالكم، وأصلحوا ذات بينكم. ﴿وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ في الغنائم ونحوها. ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١﴾ أي إن سبيل المؤمن أن يمتثل ما ذكرنا. وقيل: «إنْ» بمعنىٰ «إذْ».

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾

---

(١) لعل مراده «فإن وقع» وقد وقع في بعض النسخ «ترك» بدل «نزل».

قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ قال العلماء: هذه الآية تحريض على إلزام طاعة الرسول ﷺ فيما أمر به من قسمة تلك الغنيمة. والوجل: الخوف. وفي مستقبله أربع لغات: وَجِل يَوْجَل ويَاجَل ويَيْجَل ويِيْجَل، حكاه سيبويه. والمصدر وَجِل وَجَلا ومَوْجِلاً؛ بالفتح. وهذا مَوْجِله (بالكسر) للموضع والاسم. فمن قال: يـاجَلُ في المستقبل جعل الواو ألفاً لفتحة ما قبلها. ولغة القرآن الواو ﴿ قَالُواْ لَا تَوْجَلْ ﴾ [الحجر: ٥٣]. ومن قال: «يِيجل» بكسر الياء فهي على لغة بني أسد، فإنهم يقولون: أنا إيجل، ونحن نِيجل، وأنت تِيجل؛ كلها بالكسر. ومن قال: «يَيْجل» بناه على هذه اللغة، ولكنه فتح الياء كما فتحوها في يعلم، ولم تكسر الياء في يعلم لاستثقالهم الكسر على الياء. وكسرت في «ييجل» لتقوىٰ إحدىٰ الياءين بالأُخرىٰ. والأمر منه «إيجَلْ» صارت الواو ياء لكسرة ما قبلها. وتقول: إنِّي منه لأَوْجَل. ولا يقال في المؤنث: وَجْلاء: ولكن وَجِلة. وروى سفيان عن السدّي في قوله جل وعز: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ قال: إذا أراد أن يظلم مظلمة قيل لـه ٱتق الله، كَفّ ووَجِل قلبه.

الثانية ـ وصف الله تعالىٰ المؤمنين في هذه الآية بالخوف والوَجَل عند ذكره. وذلك لقوة إيمانهم ومراعاتهم لربهم، وكأنهم بين يديه. ونظير هذه الآية ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج: ٣٤ ـ ٣٥]. وقال: ﴿ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الرعد: ٢٨]. فهذا يرجع إلى كمال المعرفة وثقة القلب. والوَجَل: الفزع من عذاب الله، فلا تناقض. وقد جمع الله بين المعنيين في قوله: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر: ٢٣]، أي تسكن نفوسهم من حيث اليقين إلى الله وإن كانوا يخافون الله. فهذه حالة العارفين. بالله، الخائفين من سطوته وعقوبته؛ لا كما يفعله جهال العوامّ والمبتدعة الطَّغَام[1] من الزّعيق والزّئير ومن النُّهاق الذي يشبه نُهاق الحمير. فيقال لمن تعاطىٰ ذلك وزعم أن ذلك وَجْدٌ وخشوع: لم تبلغ أن تساوي حال الرسول ولا حال أصحابه في المعرفة بالله، والخوف منه، والتعظيم لجلاله؛ ومع ذلك فكانت حالهم عند المواعظ

---

(١) الطغام: أراذل الناس وأوغادهم.

الفهم عن الله والبكاء خوفاً من الله. ولذلك وصف الله أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكره وتلاوة كتابه فقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣)﴾ [المائدة: ٨٣]. فهذا وصف حالهم وحكاية مقالهم. ومن لم يكن كذلك فليس على هديهم ولا على طريقتهم؛ فمن كان مُسْتَنّاً فليستَنّ، ومن تعاطىٰ أحوال المجانين والجُنُون فهو من أخسّهم حالاً؛ والجنون فنون. روى مسلم عن أنس بن مالك أن الناس سألوا النبيّ ﷺ حتى أَحْفَوْه في المسألة، فخرج ذات يوم فصعد المنبَرَ فقال:

[٣١٨٢] «سَلُوني لا تسألوني عن شيء إلا بينته لكم ما دمتُ في مقامي هذا». فلما سمع ذلك القومُ أَرَمُّوا(١) ورهِبوا أن يكون بين يَـدَيْ أمرٍ قد حضر. قال أنس: فجعلت ألتفت يميناً وشمالاً فإذا كل إنسان لافٌّ رأسه في ثوبه يبكي. وذكر الحديث. وروى الترمذي وصححه عن العِرْباض بن سارِيَة قال:

[٣١٨٣] وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة ذرفت منها العيون، وَوجِلَت منها القلوب. الحديث. ولم يقل: زَعَقْنا ولا رَقَصْنا ولا زَفَنّا(٢) ولا قُمنا.

الثالثة ـ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ أي تصديقاً. فإن إيمان هذه الساعة زيادةٌ على إيمان أمس؛ فمن صدّق ثانياً وثالثاً فهو زيادة تصديق بالنسبة إلى ما تقدّم. وقيل: هو زيادة انشراح الصدر بكثرة الآيات والأدلة؛ وقد مضىٰ هذا المعنىٰ في «آل عمران». ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢)﴾ تقدّم معنىٰ التوكل في «آل عمران» أيضاً. ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣)﴾ تقدّم في أوّل سورة «البقرة». ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أي الذي استوىٰ في الإيمان ظاهرهم وباطنهم. ودلّ هذا على أن لكل حق حقيقة؛ وقد قال عليه السلام لحارثة:

[٣١٨٤] «إن لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك»؟ الحديث. وسأل رجل الحسن

[٣١٨٢] صحيح. أخرجه البخاري ٦٢٩٤ ومسلم ٢٣٥٩ وأحمد ٣/ ١٦٢ وابن حبان ١٠٦ من حديث أنس مطولاً.

[٣١٨٣] حديث حسن وتقدم.

[٣١٨٤] ضعيف. أخرجه الطبراني في الكبير ٣٣٦٧ من حديث الحارث بن مالك الأنصاري، أعله الهيثمي=

---

(١) أرمَّ الرجل: إذا سكت.

(٢) زَفَنَ: رقص.

فقال: يا أبا سعيد؛ أمؤمن أنت؟ فقال له: الإيمان إيمانان، فإن كنت تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والجنة والنار والبعث والحساب فأنا به مؤمن. وإن كنت تسألني عن قول الله تبارك وتعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ فوالله ما أدري أنا منهم أم لا. وقال أبو بكر الواسِطِيّ: من قال أنا مؤمن بالله حقاً؛ قيل له: الحقيقة تشير إلى إشراف وٱطلاع وإحاطة؛ فمن فقده بطل دعواه فيها. يريد بذلك ما قاله أهل السنة: إنّ المؤمن الحقيقي من كان محكوماً له بالجنة، فمن لم يعلم ذلك من سرّ حكمته تعالىٰ فدعواه بأنه مؤمن حقاً غير صحيح.

قوله تعالىٰ: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾

قوله تعالىٰ: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾ قال الزجاج: الكاف في موضع نصب؛ أي الأنفال ثابتة لك كما أخرجك ربك من بيتك بالحق. أي مثل إخراجك ربك من بيتك بالحق. والمعنىٰ: امضِ لأمرك في الغنائم ونَفِّل من شئت وإن كرهوا؛ لأن بعض الصحابة قال لرسول الله ﷺ حين جعل لكل من أتىٰ بأسير شيئاً قال: يبقىٰ أكثر الناس بغير شيء. فموضع الكاف في «كما» نَصْبٌ كما ذكرنا. وقاله الفرّاء أيضاً. قال أبو عبيدة: هو قَسَم، أي والذي أخرجك؛ فالكاف بمعنىٰ الواو، وما بمعنىٰ الذي. وقال سعيد بن مَسْعَدة: المعنىٰ أولئك هم المؤمنون حقاً كما أخرجك ربك من بيتك بالحق. قال: وقال بعض العلماء «كما أخرجك ربك من بيتك بالحق فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم». وقال عكرمة: المعنىٰ أطيعوا الله ورسوله كما أخرجك. وقيل: «كَمَا أَخْرَجَكَ» متعلّق بقوله «لَهُمْ دَرَجَاتٌ» المعنىٰ: لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم. أي هذا الوعد للمؤمنين حق في الآخرة كما أخرجك ربك من بيتك بالحق الواجب له؛ فأنجزك وعدك وأظفرك بعدوّك وأوْفىٰ لك؛ لأنه قال عز وجل: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾. فكما أنجز هذا الوعد في الدنيا كذا يُنْجزكم ما وعدكم به في الآخرة. وهذا قول حسن ذكره النحاس واختاره. وقيل: الكاف في «كما» كافُ التشبيه، ومخرجه على سبيل المجازاة؛ كقول القائل لعبده: كما وجهتك إلى أعدائي فٱستضعفوك وسألت مَدَداً

= في المجمع ١/٥٧ بابن لهيعة وأن فيه من يحتاج إلى الكشف عنه. قال: وأخرجه البزار من حديث أنس، وفيه يوسف بن عطية لا يحتج به اهـ وقال العراقي في الإحياء ٤/٢٢٠: كلا الإسنادين ضعيفين، ونقل الحافظ في الإصابة ١/٢٨٩ عن البيهقي قوله: هذا حديث منكر. قال ابن حجر: إسناده ضعيف جداً.

فأمددتك وقويتك وأزحت علتك، فخذهم الآن فعاقبهم بكذا. وكما كسوتك وأجريت عليك الرزق فاعمل كذا وكذا. وكما أحسنت إليك فاْشكرني عليه. فقال: كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وغَشّاكم النُّعاس أَمَنَةً منه ـ يعني به إياه ومن معه ـ وأنزل من السماء ماء ليطهركم به، وأنزل عليكم من السماء ملائكة مُرْدِفين؛ فاضربوا فوق الأعناق واْضربوا منهم كل بنان. كأنه يقول: قد أزحت عِلَلكم، وأمددتكم بالملائكة فاضربوا منهم هذه المواضع، وهو المَقْتَل؛ لتبلغوا مراد الله في إحقاق الحق وإبطال الباطل. والله أعلم.
﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾﴾ أي لكارهون ترك مكة وترك أموالهم وديارهم.

قوله تعالىٰ: ﴿ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾ مجادلتهم: قولهم لما ندبهم إلى العِير وفات العِير وأمرهم بالقتال ولم يكن معهم كبير أُهْبَة شقّ ذلك عليهم وقالوا: لو أخبرتنا بالقتال لأخذنا العدّة. ومعنىٰ «فِي الْحَقِّ» أي في القتال. «بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ» لهم أنك لا تأمر بشيء إلا بإذن الله. وقيل: بعد ما تبيّن لهم أن الله وعدهم إما الظَّفَر بالعِير أو بأهل مكة، وإذ فات العير فلا بدّ من أهل مكة والظَّفَر بهم. فمعنىٰ الكلام الإنكارُ لمجادلتهم. ﴿ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ﴾ كراهة للقاء القوم. ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾﴾ أي يعلمون أن ذلك واقع بهم؛ قال الله تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ: ٤٠] أي يعلم.

قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ «إِحْدَىٰ» في موضع نصب مفعول ثان. «أَنَّهَا لَكُمْ» في موضع نصب أيضاً بدلاً من «إحدىٰ». ﴿ وَتَوَدُّونَ﴾ أي تحبون. ﴿ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ قال أبو عبيدة: أي غير ذات الحدّ. والشوكة: السلاح. والشوْك: النبت الذي له حَدٌّ. ومنه رجل شائِك السلاح، أي حديد السلاح. ثم يقلب فيقال: شاكِي السلاح. أي تودّون أن تظفروا بالطائفة التي ليس معها سلاح ولا فيها حرب؛ عن الزجاج. ﴿ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي أن يظهر الإسلام. والحَقُّ حَقٌّ أبداً، ولكن إظهاره تحقيق له من حيث إنه إذا لم يظهر أشبه الباطل. «بِكَلِمَاتِهِ» أي بوعده؛ فإنه وعد نبيّه ذلك في سورة «الدّخان» فقال: ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ

﴿ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الدخان: ١٦] أي من أبي جهل وأصحابه. وقال: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣ والفتح: ٢٨]. وقيل: «بِكَلِمَاتِه» أي بأمره؛ إياكم أن تجاهدوهم. ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾﴾ أي يستأصلهم بالهلاك. ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ أي يظهر دين الإسلام ويُعزّه. ﴿وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ أي الكفر. وإبطاله إعدامه؛ كما أن إحقاق الحق إظهارُه ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨]. ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ الاستغاثة: طلب الغَوْث والنَّصر. غوّث الرجل قال: واغوثاه. والاسم الغَوْث والغُوَاث والغَوَاث. واستغاثني فلان فأغثته؛ والاسم الغِياث؛ عن الجوهري. وروى مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال:

[٣١٨٥] لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وسبعة عشر رجلاً؛ فاستقبل نبيّ الله ﷺ القِبلة، ثم مدّ يديه، فجعل يهتف بربه: «اللهم أنجز لي ما وعدتني. اللهم آتني ما وعدتني. اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض». فما زال يهتف بربه مادّاً يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه. فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبيّ الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك. فأنزل الله تعالىٰ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ فأمدّه الله بالملائكة. وذكر الحديث. ﴿مُرْدَفِينَ﴾ بفتح الدال قراءة نافع. والباقون بالكسر اسم فاعل، أي متتابعين، تأتي فرقة بعد فرقة، وذلك أهْيب في العيون. و «مُرْدَفين» بفتح الدال على ما لم يسم فاعله؛ لأن الناس الذين قاتلوا يوم بدر أردفوا بألف من الملائكة، أي أنزلوا إليهم لمعونتهم على الكفار. فمردَفين بفتح الدال نعت لألف. وقيل: هو حال من الضمير المنصوب في «مُمِدُّكُم». أي ممدّكم في حال إردافكم بألف من الملائكة؛ وهذا مذهب مجاهد. وحكى أبو عبيدة أنّ رَدِفني وأردفني واحد. وأنكر أبو عبيدة أن يكون أردف بمعنىٰ ردِف؛ قال لقول الله عز وجل: ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾﴾ [النازعات: ٧] ولم يقل

[٣١٨٥] صحيح. أخرجه مسلم ١٧٦٣ وتقدم.

المُردِفَةُ. قال النحاس ومَكّيّ وغيرهما: وقراءة كسر الدال أوْلىٰ؛ لأن أهل التأويل على هذه القراءة يفسرون. أي أردف بعضهم بعضاً، ولأن فيها معنىٰ الفتح على ما حكى أبو عبيدة، ولأن عليه أكثر القراء. قال سيبويه: وقرأ بعضهم «مُرَدِّفين» بفتح الراء وشدّ الدال. وبعضهم «مُرِدِّفين» بكسر الراء. وبعضهم «مُرُدِّفين» بضم الراء. والدال مكسورة مشدّدة في القراءات الثلاث. فالقراءة الأولىٰ تقديرها عند سيبويه مرتدفين، ثم أدغم التاء في الدال، وألقىٰ حركتها على الراء لئلا يلتقي ساكنان. والثانية كسرت فيها الراء لالتقاء الساكنين. وضمت الراء في الثالثة إتباعاً لضمة الميم؛ كما تقول: ردّ ورُدّ ورِدّ يا هذا. وقرأ جعفر بن محمد وعاصم الجحدريّ: «بآلف» جمع ألف؛ مثل فلس وأفلس. وعنهما أيضاً «بألف». وقد مضىٰ في «آل عمران» ذكر نزول الملائكة وسيماهم وقتالهم. وتقدّم فيها القول في معنىٰ قوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ [آل عمران: ١٢٦]. والمراد الإمداد. ويجوز أن يكون الإرداف. ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ نبه على أن النصر من عنده جل وعز لا من الملائكة، أي لولا نصره لما انتفع بكثرة العدد بالملائكة. والنصر من عند الله يكون بالسيف ويكون بالحجة.

قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ يُغْشِيكُمُ النُّعَاس﴾[1] مفعولان. وهي قراءة أهل المدينة، وهي حسنة لأضافة الفعل إلى الله عز وجل لتقدم ذكره في قوله: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ ولأن بعده «وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ» فأضاف الفعل إلى الله عز وجل. فكذلك الإغشاء يضاف إلى الله عز وجل ليتشاكل الكلام. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو «يَغْشَاكُمُ النُّعاسُ» بإضافة الفعل إلى النعاس. دليله ﴿أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ﴾ [آل عمران: ١٥٤] في قراءة من قرأ بالياء أو بالتاء؛ فأضاف الفعل إلى النعاس أو إلى الأمَنَة. والأمنة هي النعاس؛ فأخبر أن النعاس هو الذي يغشى القوم. وقرأ الباقون «يُغَشِّيكم» بفتح الغين وشد الشين. «النعاس» بالنصب على معنىٰ قراءة نافع، لغتان بمعنىٰ غَشّىٰ وأَغْشَىٰ؛ قال الله تعالىٰ: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ﴾ [يسٓ: ٩]. وقال: ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾ [النجم: ٥٤]. وقال: ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ﴾ [يونس: ٢٧]. قال مكيّ: والاختيار ضم الياء والتشديد ونصب النعاس؛ لأن بعده «أَمَنَةً مِنْهُ» والهاء في «منه» لله، فهو الذي يغشيهم النعاس، ولأن الأكثر عليه. وقيل: أمنة من العدو. و ﴿أَمَنَةً﴾ مفعول من أجله أو مصدر، يقال: أَمِن أَمَنَة وأمنًا وأمَانا؛ كلها سواء.

---

(١) هي قراءة نافع.

والنعاس حالة الآمن الذي لا يخاف. وكان هذا النعاس في الليلة التي كان القتال من غدها؛ فكان النوم عجيباً مع ما كان بين أيديهم من الأمر المهِمّ، ولكن الله ربط جأشهم.
وعن عليّ رضي الله عنه قال:

[٣١٨٦] ما كان فينا فارس يوم بدر غير المِقْدَادَ على فرس أبْلَقَ، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ تحت شجرة يصلي ويبكي حتى أصبح؛ ذكره البيهقي[١].
الماوردِي[١]: وفي امتنان الله عليهم بالنوم في هذه الليلة وجهان: أحدهما أن قوّاهم بالاستراحة على القتال من الغد. الثاني أن أمَّنَهم بزوال الرعب من قلوبهم؛ كما يقال: الأمنُ مُنِيم، والخوف مُسْهِر. وقيل: غشّاهم في حال التقاء الصفين. وقد مضىٰ مثل هذا في يوم أُحُد في «آل عمران».

قوله تعالىٰ: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾ ظاهر القرآن يدل على أن النعاس كان قبل المطر. وقال ابن أبي نَجِيح: كان المطر قبل النعاس. وحكىٰ الزجاج: أن الكفار يوم بدر سبقوا المؤمنين إلى ماء بدر فنزلوا عليه، وبقي المؤمنون لا ماء لهم، فوجست[٢] نفوسهم وعطِشوا وأجنبوا وصلّوا كذلك؛ فقال بعضهم في نفوسهم بإلقاء الشيطان إليهم: نزعم أنا أولياء الله وفينا رسوله وحالنا هذه والمشركون على الماء. فأنزل الله المطر ليلة بدر السابعة عشرة من رمضان حتى سالت الأودية؛ فشربوا وتطهروا وسقوا الظَّهْر[٣] وتلبَّدَت السبخة[٤] التي كانت بينهم وبين المشركين حتى ثبتت فيها أقدام المسلمين وقت القتال. وقد قيل: إن هذه الأحوال كانت قبل وصولهم إلى بَدْر؛ وهو أَصَحّ، وهو الذي ذكره ابن إسحاق في سيرته وغيره. وهذا اختصاره[٥]: قال ابن عباس: لما أخبر رسول الله ﷺ بأبي سفيان أنه مقبل من الشأم ندب المسلمين إليهم وقال: «هذه عِير قريش فيها الأموال فاخرجوا إليهم لعل الله أن يُنَفّلكموها» قال: فانبعث معه من خفّ؛ وثقل قوم وكرِهوا

[٣١٨٦] أخرجه البيهقي في الدلائل ٣/ ٤٩ من حديث علي، ورجاله رجال البخاري ومسلم سوىٰ حارثة بن مضرِّب، وقد ذكر الحافظ في التقريب أنه ثقة.

---

(١) كثيراً ما يذكر المصنف مثل هذا على حذف «قال».
(٢) أي وقع في نفوسهم الفزع.
(٣) الإبل التي يُحمل عليها ويُركب.
(٤) أرض ذات ملح ونَزّ.
(٥) انظر سيرة ابن هشام ٢/ ١٨٠ غزوة بدر الكبرىٰ.

الخروج، وأسرع رسول الله ﷺ لا يَلْوِي على من تعذّر، ولا ينتظر من غاب ظهره، فسار في ثلثمائة وثلاثة عشر من أصحابه من مهاجِريّ وأنصاريّ. وفي البخاريّ عن البراء بن عازب قال:

[٣١٨٧] كان المهاجرون يوم بدر نيفاً وثمانين، وكان الأنصار نيفاً وأربعين ومائتين. وخرج أيضاً عنه قال: كنا نتحدّث أن أصحاب محمد ﷺ كانوا ثلثمائة وبضعة عشر، على عدد أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر، وما جاوز معه إلا مؤمن. وذكر البيهقِيّ عن أبي أيوب الأنصاري قال:

[٣١٨٨] فخرجنا ـ يعني إلى بدر ـ فلما سِرنا يوماً أو يومين أمرنا رسول الله ﷺ أن نتعادّ، ففعلنا فإذا نحن ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً، فأخبرنا النبيّ ﷺ بعدّتنا، فسرّ بذلك وحمِد الله وقال: «عِدّة أصحاب طالوت». قال ٱبن إسحاق[1]: وقد ظن الناس بأجمعهم أن رسول الله ﷺ لا يَلْقَى حَرْباً فلم يكثر ٱستعدادهم. وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتجسس الأخبار ويسأل من لقي من الركبان تخوّفاً على أموال الناس، حتى أصاب خبراً من بعض الركبان أن محمداً رسول الله ﷺ قد ٱستنفر لكم الناس؛ فحذِر عند ذلك واستأجر ضَمْضَم بن عمرو الغِفارِيّ وبعثه إلى مكة، وأمره أن يأتِي قريشاً يستنفرهم إلى أموالهم ويخبرهم أن محمداً ﷺ قد عرض لها في أصحابه؛ ففعل ضَمْضَم. فخرج أهل مكة في ألف رجل أو نحو ذلك، وخرج النبيّ ﷺ في أصحابه، وأتاه الخبر عن قريش بخروجهم ليمنعوا عِيرهم؛ فاستشار النبيّ ﷺ الناس، فقام أبو بكر فقال فأحسن، وقام عمر فقال فأحسن، ثم قام المِقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله، ٱمض لما أمرك الله، فنحن معك، واللّهِ لا نقول كما قالت بنو إسرائيل ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة: ٢٤]ولكن ٱذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما[2] مقاتلون، والذي بعثك بالحق لو سِرت إلى برك الغِماد ـ يعني مدينة الحبشة ـ لجالدنا معك من دونه؛ فسر بذلك رسول الله ﷺ ودعا له بخير. ثم قال: «أشيروا عليّ أيها الناس» يريد الأنصار.

[٣١٨٧] أخرجه البخاري ٣٩٥٩ عن البراء.

[٣١٨٨] أخرجه البيهقي في الدلائل ٣/ ٣٧ من حديث أبي أيوب، وفيه ابن لهيعة غير قوي، لكن يعتضد بالموقوف المتقدم عن البراء.

---

(١) هذا الخبر بطوله ذكره ابن هشام في السيرة منجماً في ٢/ ١٨٧ ـ ١٨٨ ـ ١٨٩ ـ ١٩٢ ـ ٢٠٨ وبعضه في الصحيح. وانظر دلائل النبوة ٣/ ٣٢ ـ ٣٥ والطبري ١٥٧٣٢.

(٢) وقع في الأصل «معكم» والتصويب عن السيرة النبوية.

وذلك أنهم عدد الناس، وكانوا حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول، إنا برآء من ذِمامك حتى تصِل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذِممنا، نمنعك مما نمنع منه أنفسنا وأبناءنا ونساءنا. فكان رسول الله ﷺ يتخوّف ألا تكون الأنصار ترى أن عليها نصرته إلا بالمدينة، وأنه ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدوّ بغير بلادهم. فلما قال ذلك رسول الله ﷺ كلمه سعد بن معاذ ـ وقيل سعد بن عبادة، ويمكن أنهما تكلما جميعاً في ذلك اليوم ـ فقال: يا رسول الله، كأنك تريدنا معشر الأنصار؟ فقال رسول الله ﷺ: «أجل» فقال: إنا قد آمنا بك واتبعناك، فامض لما أمرك الله، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك. فقال رسول الله ﷺ: «امضوا على بركة الله فكأني أنظر إلى مصارع القوم». فمضى رسول الله ﷺ وسبق قريشاً إلى ماء بدر. ومنع قريشاً من السبق إليه مطر عظيم أنزله الله عليهم، ولم يصب منه المسلمين إلا ما شدّ لهم دَهْس الوادي وأعانهم على المسير. والدّهس: الرمل اللين الذي تسوخ فيه الأرجل. فنزل رسول الله ﷺ على أدنى ماء من مياه بدر إلى المدينة، فأشار عليه الحُبَاب بن المنذر بن عمرو بن الجموح بغير ذلك وقال له: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله فليس لنا أن نتقدّمه أو نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكِيدة؟ فقال عليه السلام: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة». فقال: يا رسول الله، إن هذا ليس لك بمنزل، فانهض بنا إلى أدنى ماء من القوم فننزله ونعوِّر[1] ما وراءه من القُلُب، ثم نبني عليه حوضاً فنملأه فنشرب ولا يشربون. فاستحسن رسول الله ﷺ ذلك من رأيه، وفعله. ثم التقوا فنصر الله نبيه والمسلمين، فقتل من المشركين سبعين وأسر منهم سبعين، وانتقم منهم للمؤمنين، وشفى الله صدر رسوله عليه السلام وصدور أصحابه من غيظهم. وفي ذلك يقول حسان:

عرفتُ ديار زينب بالكثيب ... كخطّ الوحي في الورَق القشِيب[2]

تداولُها الرياح وكلّ جَوْنٍ ... من الوَسْمِيّ منهمِرٍ سَكُوبِ[3]

فأمسى رُبْعها خلقاً وأمست ... يبابا بعد ساكنها الحبيب[4]

فدع عنك التذكّر كلّ يوم ... ورُدّ حرارة الصدر الكئيب

وخبِّرْ بالذي لا عيب فيه ... بِصدق غيرِ إخبارِ الكذوبِ

بما صنع الإلّه غداة بدرٍ ... لنا في المشركين من النصيب

---

(١) عور عين الماء: سدها ودفنها.

(٢) الوحي: الكتابة. القشيب: الجديد.

(٣) الجوْن: السحاب. الوسميّ: مطر الربيع.

(٤) اليباب: الخراب.

غـــداة كـــأن جمعهـــم حِـــراءٌ — بـــدت أركـــانـــه جُنْـــحَ الغـــروب
فـــلاقينـــاهـــمُ منّـــا بجمـــع — كـأســـد الغـــاب مـــردانٍ وشِيـــبِ
أمـــام محمـــد قـــد وازَرُوه — على الأعـداء فـي لَفْـح الحـروب
بـأيـديهـم صـوارمِ مـرهفـات — وكـلّ مجـربٍ خـاظِي الكُعُـوب[1]
بنـــو الأوسِ الغطـــارفُ وازرتْهـــا — بنو النجار في الدِّين الصليب[2]
فغـــادرْنـــا أبـــا جهـــل صـــرِيعـــا — وعتبـةَ قـد تـركنـا بـالجَبُـوب[3]
وشيبـــةَ قـــد تـــركنـــا فـــي رجـــال — ذوِي نســـب إذا نسِبـــوا حسيـــبِ
ينـــاديهـــم رســـول الله لمـــا — قـذفنـاهـم كَبـاكِـبَ فـي القلِيـب
ألـــم تجِـــدوا كـــلامِـيَ كـــان حقـــا — وأمـــرُ اللّـــه يـــأخـــذ بـــالقلـــوب
فمـــا نطقـــوا، ولـــو نطقـــوا لقـــالـــوا — أُصبـــتَ وكنـــتَ ذا رأي مصيـــب

وهنا ثلاث مسائل:

الأُولى: قال مالك[4]: بلغني أن جبريل عليه السلام قال للنبيّ ﷺ: «كيف أهل بدر فيكم»؟ قال: «خيارنا» فقال: «إنهم كذلك فينا». فدل هذا على أن شرف المخلوقات ليس بالذوات، وإنما هو بالأفعال. فللملائكة أفعالها الشريفة من المواظبة على التسبيح الدائم. ولنا أفعالنا بالإخلاص بالطاعة. وتتفاضل الطاعات بتفضيل الشرع لها، وأفضلها الجهاد، وأفضل الجهاد يوم بدرٍ؛ لأن بناء الإسلام كان عليه.

الثانية: ودل خروج النبيّ ﷺ ليلقى العِير على جواز النفِير للغنيمة لأنها كسب حلال. وهو يردّ ما كرِه مالك من ذلك؛ إذ قال: ذلك قتال على الدنيا، وما جاء أن من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله دون من يقاتل للغنيمة، يراد به إذا كان قصده وحده وليس للدين فيه حظ. وروى عِكرمة عن ابن عباس قال:

[٣١٨٩] قالوا للنبيّ ﷺ حين فرغ من بدر: عليك بالعير، ليس دونها شيء. فنأداه

[٣١٨٩] أخرجه الترمذي ٣٠٨٠ من حديث ابن عباس وقال: حسن صحيح اهـ وفيه سماك بن حرب وإن كان من رجال مسلم، لكن ضعفه شعبة والثوري وغيرهما وخصوصاً في روايته عن عكرمة، وهذا=

---

(١) الخاظي: الكثير اللحم. الضخم العظيم.
(٢) الغطارف: الشريف السّخي. الصليب هنا: الشديد المتين.
(٣) الجبوب: وجه الأرض.
(٤) أخرجه البخاري ٣٩٩٢ و ٣٩٩٣ من حديث رفاعة بن رافع لكن عجزه «قال جبريل: وكذلك من شهد بدراً من الملائكة».

العباس وهو في الأسْرى: لا يصلح هذا. فقال له النبيّ ﷺ: «ولِم»؟ قال: لأن الله وعدك إحدى الطائفتين، وقد أعطاك الله ما وعدك. فقال النبيّ ﷺ: «صدقت». وعلم ذلك العباس بحديث أصحاب النبيّ ﷺ وبما كان من شأن بَدْر، فسمع ذلك في أثناء الحديث.

الثالثة: روى مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ ترك قتلى بدر ثلاثاً، ثم قام عليهم فناداهم فقال:

[٣١٩٠] «يا أبا جهل بن هشام يا أُمية بن خلف يا عتبة بن ربيعة يا شيبة بن ربيعة أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقاً فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً». فسمع عمر قول النبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف يسمعون، وأنى يجيبون وقد جَيَّفُوا؟ قال: «والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا». ثم أمر بهم فسُحِبوا فألقوا في القلِيب، قلِيب بدر. «جيفوا» بفتح الجيم والياء، ومعناه أنتنوا فصاروا جِيفا. وقول عمر: «يسمعون» استبعاد على ما جرت به حكم العادة. فأجابه النبيّ ﷺ بأنهم يسمعون كسمع الأحياء. وفي هذا ما يدل على أن الموت ليس بعدم محض ولا فناء صرف، وإنما هو انقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقته، وحيلولة بينهما، وتبدّل حالٍ وانتقال من دار إلى دار. قال رسول الله ﷺ:

[٣١٩١] «إن الميت إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه إنه ليسمع قرع نعالهم» الحديث. أخرجه الصحيح.

قوله تعالى: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾ الضمير في «بِهِ» عائد على الماء الذي شدّ دهس الوادي، كما تقدّم. وقيل: هو عائد على ربط القلوب؛ فيكون تثبيت الأقدام عبارة عن النصر والمعونة في موطن الحرب.

قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ﴾ العامل في «إذ، يثبت» أي يثبت

= منها، انظر الميزان ٢/ ٢٣٢ فالحديث فيه ضعف.

[٣١٩٠] هو عند مسلم ٢٨٧٤ وغيره وتقدم.

[٣١٩١] صحيح. أخرجه البخاري ١٣٣٨ و ١٣٧٤ ومسلم ٢٨٧٠ وأبو دادو ٣٢٣١ والنسائي ٤/ ٩٧ وأمد ٣/ ٢٣٣ وابن حبان ٣١٢٠ من حديث أنس، وفي الباب من حديث أبي هريرة عند عبد الرزاق ٦٧٠٣ وصححه ابن حبان ٣١١٣.

به الأقدام ذلك الوقت. وقيل: العامل «لِيربط» أي وليربِط إذ يوحي. وقد يكون التقدير: اذكر ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ﴾ في موضع نصب، والمعنى: بأني معكم، أي بالنصر والمعونة. «معكم» بفتح العين ظرف، ومن أسكنها فهي عنده حرف. ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي بشروهم بالنصر أو القتال معهم أو الحضور معهم من غير قتال؛ فكان المَلك يسير أمام الصف في صورة الرجل ويقول: سيروا فإن الله ناصركم. ويظن المسلمون أنه منهم؛ وقد تقدّم في «آل عمران» أن الملائكة قاتلت ذلك اليوم. فكانوا يرون رؤوساً تندر عن الأعناق من غير ضارب يرونه. وسمِع بعضهم قائلاً يسمع قوله ولا يرى شخصه[1]: أقدِم حيزوم[2]. وقيل: كان هذا التثبيت ذِكرَ رسول الله ﷺ للمؤمنين نزول الملائكة مدداً.

قوله تعالى: ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ تقدّم في «آل عمران» بيانه. ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ هذا أمر للملائكة. وقيل: للمؤمنين، أي أضربوا الأعناق، و «فوق» زائدة؛ قاله الأخفش والضحاك وعطِية. وقد روى المسعودِيّ قال قال رسول الله ﷺ:

[٣١٩٢] «إني لم أبعث لأُعذب بعذاب الله وإنما بعثت بضرب الرّقاب وشدّ الوثاق». وقال محمد بن يزيد: هذا خطأ؛ لأن «فوق» تفيد معنى فلا يجوز زيادتها، ولكن المعنى أنهم أبيح لهم ضرب الوجوه وما قرب منها. وقال ابن عباس: كل هام وجُمْجُمة. وقيل: أي ما فوق الأعناق، وهو الرؤوس؛ قاله عكرمة. والضرب على الرأس أبلغ؛ لأن أدنى شيء يؤثر في الدماغ. وقد مضى شيء من هذا المعنى في «النساء» وأن «فوق» ليست بزائدة، عند قوله: ﴿فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ﴾ [النساء: ١١]. ﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ قال الزجاج: واحد البنان بنانة، وهي هنا الأصابع وغيرها من الأعضاء. والبنان مشتق من قولهم أبَنَ الرجل بالمكان إذا أقام به. فالبنان يُعتمل به ما يكون للإقامة والحياة. وقيل: المراد بالبنان هنا أطراف الأصابع من اليدين والرّجلين. وهو عبارة عن الثبات في الحرب وموضع الضرب؛ فإذا ضربت البنان تعطل من المضروب القتال بخلاف سائر الأعضاء. قال عنترة:

[٣١٩٢] أخرجه ابن أبي شيبة ٧/ ٣٢/ ٩٧ عن المسعودي به، وهذا معضل، وأخرجه الطبري ٣١٣٤٨ عن الحسن مرسلاً. فلعله يتأيد به.

---

(١) حيزوم: اسم فرس من خيل الملائكة.

(٢) تقدم في سورة آل عمران في ذكر يوم بدر، وانظر دلائل البيهقي ٣/ ٥٧ والبداية والنهاية ٣/ ٢٨١.

وكان فَتَى الهَيْجاء يحمِي ذِمَارها ويضرب عند الكَرْب كلّ بَنانِ

ومما جاء أن البنان الأصابع قول عنترة أيضاً:

وأنّ الموت طوع يدي إذا ما وصلت بنانَها بالهِنْدُوَانِي

وهو كثير في أشعار العرب، البنان: الأصابع. قال ابن فارس: البنان الأصابع، ويقال: الأطراف. وذكر بعضهم أنها سميت بنانا لأن بها صلاح الأحوال التي بها يستقرّ الإنسان ويَبِنّ[1]. وقال الضحاك: البنان كل مفصِل.

قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ ﴾ «ذلِك» في موضع رفع على الابتداء، والتقدير: ذلك الأمر، أو الأمر ذلك. «شَاقُّوا اللَّهَ» أي أولياءه. والشقاق: أن يصِير كل واحد في شِق. وقد تقدّم. ﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾ قال الزجاج: «ذلكم» رفع بإضمار الأمر أو القصة، أي الأمر ذلك فذوقوه. ويجوز أن يكون في موضع نصب بـ«ذُوقُوا»؛ كقولك: زيداً فاضربه. ومعنى الكلام التوبيخ للكافرين. «وأنّ» في موضع رفع عطف على ذلكم. قال الفرّاء: ويجوز أن يكون في موضع نصب بمعنى وبأن للكافرين. قال: ويجوز أن يضمر واعلموا أن. الزجاج: لو جاز إضمار واعلموا لجاز زيد منطلق وعمراً جالساً، بل كان يجوز في الابتداء زيداً منطلقاً؛ لأن المخبر معلِم، وهذا لا يقوله أحد من النحويين.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾.

فيه سبع مسائل:

الأُولى: قوله تعالى: ﴿ زَحْفًا ﴾ الزحف الدنوّ قليلاً قليلاً. وأصله الاندفاع على الألْيَة؛ ثم سُميّ كل ماشٍ في الحرب إلى آخر زاحفاً. والتزاحف: التداني والتقارب؛ يقال: زحف إلى العدوّ زحفاً. وٱزدحف القوم، أي مشى بعضهم إلى بعض. ومنه زِحاف الشعر، وهو أن يسقط بين الحرفين حرف فَيزْحَف أحدهما إلى الآخر. يقول: إذا تدانيتم وتعاينتم فلا تفِرّوا عنهم ولا تعطوهم أدباركم. حرّم الله ذلك على المؤمنين حين فرض

---

(١) بنّ بالمكان: أقام.

عليهم الجهاد وقتال الكفار. قال ابن عطية: والأدبار جمع دُبُر. والعبارة بالدبر في هذه الآية متمكنة الفصاحة؛ لأنها بشعة على الفارّ، ذامّة له.

الثانية: أمر الله عز وجل في هذه الآية ألا يولي المؤمنون أمام الكفار. وهذا الأمر مقيَّد بالشريطة المنصوصة في مِثْلَي المؤمنين؛ فإذا لَقِيت فئة من المؤمنين فئة هي ضِعف المؤمنين من المشركين فالفرض ألا يفِرّوا أمامهم. فمن فرّ من ٱثنين فهو فارّ من الزحف. ومن فرّ من ثلاثة فليس بفارّ من الزحف، ولا يتوجّه عليه الوعيد. والفرار كبيرة مُوبِقة بظاهر القرآن وإجماع الأكثر من الأئمة. وقالت فرقة منهم ابن الماجِشون في الواضحة: إنه يراعى الضعف والقوّة والعدّة؛ فيجوز على قولهم أن يفِرّ مائة فارس من مائة فارس إذا علموا أن ما عند المشركين من النجدة والبسالة ضعفُ ما عندهم. وأما على قول الجمهور فلا يحل فِرار مائة إلا مما زاد على المائتين؛ فمهما كان في مقابلة مسلم أكثر من ٱثنين فيجوز الانهزام، والصبر أحسن. وقد وقف جيش مُؤْتَة وهم ثلاثة آلاف في مقابلة مائتي ألف، منهم مائة ألف من الروم، ومائة ألف من المستعربة من لَخْم وجُذَام.

قلت: ووقع في تاريخ فتح الأندلس، أن طارقاً مولى موسى بن نصير سار في ألف وسبعمائة رجل إلى الأندلس، وذلك في رجب سنة ثلاث وتسعين من الهجرة؛ فالتقى وَمَلِكَ الأندلس لذريق وكان في سبعين ألف عِنان؛ فزحف إليه طارق وصبر له فهزم الله الطاغية لذريق، وكان الفتح. قال ابن وهب: سمعت مالكاً يسأل عن القوم يلقون العدوّ أو يكونون في محرس يحرسون فيأتيهم العدوّ وهم يسير، أيقاتلون أو ينصرفون فيؤذنون أصحابهم؟ قال: إن كانوا يقوون على قتالهم قاتلوهم، وإلا انصرفوا إلى أصحابهم فآذنوهم.

الثالثة: واختلف الناس هل الفرار يوم الزحف مخصوص بيوم بدر أم عام في الزحوف كلها إلى يوم القيامة؟ فروي عن أبي سعيد الخدرِيّ أن ذلك مخصوص بيوم بدر، وبه قال نافع والحسن وقتادة ويزيد بن أبي حبيب والضحاك، وبه قال أبو حنيفة. وأن ذلك خاص بأهل بدر فلم يكن لهم أن ينحازوا، ولو ٱنحازوا لانحازوا للمشركين، ولم يكن في الأرض يومئذ مسلمون غيرهم، ولا للمسلمين فئة إلا النبيّ ﷺ؛ فأما بعد ذلك فإن بعضهم فئة لبعض. قال الكِيا: وهذا فيه نظر؛ لأنه كان بالمدينة خلق كثير من الأنصار لم يأمرهم النبيّ ﷺ بالخروج ولم يكونوا يرون أنه قتال، وإنما ظنوا أنها العِير؛ فخرج رسول الله ﷺ فيمن خف معه. ويروى عن ابن عباس وسائِر العلماء أن الآية باقية إلى يوم القيامة. ٱحتج الأوّلون بما ذكرنا، وبقوله تعالى: «يَوْمَئِذٍ» فقالوا: هو إشارة إلى يوم بدر، وأنه نسخ حكم الآية بآية الضعف. وبقي حكم الفِرار من الزحف ليس بكبيرة. وقد فرّ

الناس يوم أُحد فعفا الله عنهم، وقال الله فيهم يوم حنين ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۝٢٥﴾ [التوبة: ٢٥] ولم يقع على ذلك تعنيف. وقال الجمهور من العلماء: إنما ذلك إشارة إلى يوم الزحف الذي يتضمنه قوله تعالى: ﴿إِذَا لَقِيتُمُ﴾. وحكم الآية باقٍ إلى يوم القيامة بشرط الضعف الذي بينه الله تعالى في آية أُخرى، وليس في الآية نسخ. والدليل عليه أن الآية نزلت بعد القتال وانقضاء الحرب وذهاب اليوم بما فيه. وإلى هذا ذهب مالك والشافعي وأكثر العلماء. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال:

[٣١٩٣] «اجتنبوا السبع الموبِقات ـ وفيه ـ والتولي يوم الزحف» وهذا نص في المسألة. وأما يوم أُحد فإنما فرّ الناس من أكثر من ضعفهم ومع ذلك عنفوا. وأما يوم حنين فكذلك من فرّ إنما انكشف عن الكثرة؛ على ما يأتي بيانه.

الرابعة: قال ابن القاسم: لا تجوز شهادة من فرّ من الزحف، ولا يجوز لهم الفِرار وإن فرّ إمامهم؛ لقوله عز وجل: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ﴾ الآية. قال: ويجوز الفِرار من أكثر من ضعفهم، وهذا ما لم يبلغ عدد المسلمين اثني عشر ألفاً؛ فإن بلغ اثني عشر ألفاً لم يحِل لهم الفِرار وإن زاد عدد المشركين على الضعف؛ لقول رسول الله ﷺ:

[٣١٩٤] «ولن يغلب اثنا عشر ألفاً من قِلة» فإن أكثر أهل العلم خصّصوا هذا العدد بهذا الحديث من عموم الآية.

قلت ـ رواه أبو بشر وأبو سلمة العامليّ، وهو الحكم بن عبد الله بن خُطّاف وهو متروك. قالا: حدّثنا الزهرِيّ عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال:

[٣١٩٥] «يا أكْثَم بن الجَوْن اغز مع غير قومك يحسن خلقك وتكرم على رفقائك. يا أكثم بن الجون خير الرفقاء أربعة وخير الطلائع أربعون وخير السرايا أربعمائة وخير الجيوش أربعة آلاف ولن يؤتى اثنا عشر ألفاً من قِلة». وروى عن مالك ما يدل على ذلك من مذهبه وهو قوله للعُمَرِيّ[1] العابد إذْ سأله هل لك سعة في ترك مجاهدة من غيّر الأحكام وبدّلها؟ فقال: إن كان معك اثنا عشر ألفاً فلا سعة لك في ذلك.

الخامسة: فإن فرّ فليستغفر الله عز وجل. روى الترمذِيّ عن بلال بن يسار بن زيد

[٣١٩٣] متفق عليه، وتقدم.

[٣١٩٤] مضىٰ تخريجه.

[٣١٩٥] انظر ما قبله فالحديث واحد.

---

(١) هو عبد الله بن عمر بن عبد العزيز كان أزهد أهل زمانه توفي سنة ١٨٤.

قال: حدّثني أبي عن جدّي سمع النبيّ ﷺ يقول:

[٣١٩٦] «من قال أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحيّ القيوم وأتوب إليه غفر الله له وإن كان قد فرّ من الزحف». قال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

السادسة: قوله تعالى: ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ التحرف: الزوال عن جهة الاستواء. فالمتحرف من جانب إلى جانب لمكايد الحرب غير منهزم؛ وكذلك المتحيز إذا نوى التحيز إلى فئة من المسلمين ليستعين بهم فيرجع إلى القتال غير منهزم أيضاً. روى أبو داود عن عبد الله بن عمر أنه كان في سرية من سرايا رسول الله ﷺ قال:

[٣١٩٧] فحاص(١) الناس حيصة، فكنت فيمن حاص، قال: فلما برزنا قلنا كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب. فقلنا: ندخل المدينة فنتثبت فيها ونذهب ولا يرانا أحد. قال: فدخلنا فقلنا لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ، فإن كانت لنا توبة أقمنا، وإن كان غير ذلك ذهبنا. قال: فجلسنا لرسول الله ﷺ قبل صلاة الفجر، فلما خرج قمنا إليه فقلنا: نحن الفرّارون؛ فأقبل إلينا فقال: «لا بل أنتم العكارون» قال: فدنونا فقبلنا يده. فقال: «أنا فئة المسلمين». قال ثعلب: العكارون هم العطافون. وقال غيره: يقال للرجل الذي يولّي عند الحرب ثم يكر راجعاً: عَكَر واْعتكر. وروى جرير عن منصور عن إبراهيم قال: اْنهزم رجل من القادسِية فأتى المدينة إلى عمر فقال: يا أمير المؤمنين، هلكت! فررت من الزحف. فقال عمر: أنا فئتك. وقال محمد بن سِيرين: لما قتل أبو عبيدة جاء الخبر إلى عمر فقال: لو انحاز إليّ لكنت له فئة، فأنا فئة كل مسلم. وعلى هذه الأحاديث لا يكون الفرار كبيرة؛ لأن الفئة هنا المدينة والإمام وجماعة المسلمين حيث كانوا. وعلى القول الآخر يكون كبيرة؛ لأن الفئة هناك الجماعة من الناس الحاضرة للحرب. هذا على قول الجمهور أن الفرار من الزحف كبيرة. قالوا: وإنما كان ذلك القول من النبيّ ﷺ وعمر على جهة الحيطة على المؤمنين، إذ كانوا في ذلك الزمان يثبتون لأضعافهم مِراراً. والله أعلم. وفي قوله «والتولي يوم الزحف»(٢) ما يكفي.

السابعة: قوله تعالىٰ: ﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي اْستحق الغضب. وأصل

[٣١٩٦] مضىٰ تخريجه.

[٣١٩٧] أخرجه أبو داود ٢٦٤٧ من حديث ابن عمر، وفيه يزيد بن أبي زياد، وهو ضعيف، وتقدم تخريجه.

---

(١) حاص: أي جال يريد الفرار.

(٢) تقدم برقم ٣١٩٣.

«باء» رجع. وقد تقدم. ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ﴾ أي مقامه. وهذا لا يدل على الخلود؛ كما تقدّم في غير موضع. وقد قال ﷺ:

[٣١٩٨] «من قال أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحيّ القيوم غفر له وإن كان قد فرّ من الزحف».

قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ أي يوم بدر. روي أن أصحاب رسول الله ﷺ لما صدروا عن بدر ذكر كل واحد منهم ما فعل: قتلت كذا، فعلت كذا؛ فجاء من ذلك تفاخر ونحو ذلك. فنزلت الآية إعلاماً بأن الله تعالىٰ هو المميت والمقدّر لجميع الأشياء، وأن العبد إنما يشارك بتكسبه وقصده. وهذه الآية تردّ على من يقول بأن أفعال العباد خلق لهم. فقيل: المعنىٰ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم بسوقهم إليكم حتى أمكنكم منهم. وقيل: ولكن الله قتلهم بالملائكة الذين أمدكم بهم. ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ مثله، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾. واختلف العلماء في هذا الرمي على أربعة أقوال:

الأوّل: أن[1] هذا الرمي إنما كان في حَصْب رسول الله ﷺ يوم حنين؛ رواه ابن وهب عن مالك. قال مالك: ولم يبق في ذلك اليوم أحد إلا وقد أصابه ذلك. وكذلك روى عنه ابن القاسم أيضاً.

الثاني: أن هذا كان يوم أُحد حين رمىٰ أبي بن خلف بالحربة في عنقه؛ فَكَرَّ أبيّ منهزماً. فقال له المشركون: والله ما بك من بأس. فقال: والله لو بصق عليّ لقتلني. أليس قد قال: بل أنا أقتله. وكان قد أوعد أبيُّ رسولَ الله ﷺ بالقتل بمكة؛ فقال له رسول الله ﷺ: «بل أنا أقتلك» فمات عدوّ الله من ضربة رسول الله ﷺ في مرجعه إلى مكة، بموضع يقال له «سَرِف»[2]. قال موسىٰ بن عقبة عن ابن شهاب:

[٣١٩٩] لما كان يوم أُحُد أقبل أُبَيّ مقنعاً في الحديد على فرسه يقول: لا نجوتُ

[٣١٩٨] انظر الحديث ٣١٩٦.

[٣١٩٩] أخرجه الحاكم ٢/ ٣٢٧/ ٣٢٦٣ والواحدي ٤٧١ عن سعيد بن المسيب عن أبيه. =

---

(١) في الأصل «إن».

(٢) موضع قريب من التنعيم من أعمال مكة.

إن نجا محمد؛ فحمل على رسول الله ﷺ يريد قتله. قال موسىٰ بن عقبة قال: سعيد بن المسيب: فٱعترض له رجال من المؤمنين، فأمرهم رسول الله ﷺ فخلّوْا طريقه؛ فاستقبله مصعب بن عمير يَقِي رسولَ الله ﷺ؛ فقُتل مصعب بن عمير، وأبصر رسول الله ﷺ تَرْقُوة أُبَيّ بن خلف من فُرجة بين سابغة البَيْضة والدّرع؛ فطعنه بحربته فوقع أُبي عن فرسه، ولم يخرج من طعنته دم. قال سعيد: فكسر ضلعاً من أضلاعه؛ فقال: ففي ذلك نزل ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ وهذا ضعيف؛ لأن الآية نزلت عقيب بدر.

الثالث: أن المراد السّهم الذي رمىٰ به رسول الله ﷺ في حِصن خَيْبر، فسار[1] في الهواء حتى أصاب ٱبن أبي الحُقَيق وهو على فراشه[2]. وهذا أيضاً فاسد وَخَيْبَرُ وفتحُها أبعد من أُحُد بكثير. والصحيح في صورة قتل ابن أبي الحُقَيق غير هذا.

الرابع: أنها كانت يوم بدر؛ قاله ابن إسحاق. وهو أصح؛ لأن السورة بدرية، وذلك أن جبريل عليه السلام قال للنبيّ ﷺ[3]: «خذ قبضة من التراب» فأخذ قبضة من التراب فرمىٰ بها وجوههم فما من المشركين من أحد إلا وأصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة؛ وقاله ابن عباس، وسيأتي. قال ثعلب: المعنىٰ «وَمَا رَميْتَ» الفزع والرعب في قلوبهم «إِذْ رَمَيْتَ» بالحصباء فانهزموا «وَلِكنَّ اللَّهَ رَمَىٰ» أي أعانك وأظفرك. والعرب تقول: رمى الله لك، أي أعانك وأظفرك وصنع لك. حكىٰ هذا أبو عبيدة في كتاب المجاز. وقال محمد بن يزيد: وما رميت بقوتك إذ رميت، ولكنك بقوة الله رميت. ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ البلاء هٰا هنا النعمة. واللام تتعلق بمحذوف؛ أي وليبلي المؤمنين فعل ذلك. ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ قراءة أهل الحرمين وأبي عمرو. وقراءة أهل الكوفة ﴿موهنٌ كَيْدَ الكافرين﴾[4] وفي التشديد معنىٰ

= وصححه الحاكم على شرطهما، ووافقه الذهبي، لكن قال الواحدي وكذا السيوطي في الأسباب: إن المشهور كون الآية نزلت في رميه يوم بدر بالقبضة من الحصباء.

---

(١) يعني السهم.

(٢) هذا الأثر غير صحيح. أخرجه الواحدي ٤٧٢ عن عبد الرحمن بن جُبير، وهذا مرسل، والصواب أن ذلك يوم بدر.

(٣) انظر سيرة ابن هشام ٢/ ١٩٩ والواحدي في أسبابه ٤٧٣ والطبري ١٥٨٣٥ و ١٥٨٣٦ و ١٥٨٤١ والدر المنثور ٣/ ٣١٧ فقد ذكروا روايات متعددة في شأن تلك القبضة ولم أر لفظ المصنف وقد أنكره القرطبي كما ترىٰ.

(٤) وقع في كافة النسخ «موهنُ كيدِ الكافرين» والتصويب عن القراءات للأصبهاني ص ٢٢١ و«الكشاف» ٢/ ٢٠١ و«تفسير البغوي» ٢/ ٢٠٠.

المبالغة. وروي عن الحسن[1] «مُوهِنُ كَيْدِ الكَافِرِينَ» بالإضافة والتخفيف. والمعنىٰ: أن الله عز وجل يلقي في قلوبهم الرعب حتى يتشتتوا ويتفرق جمعهم فيضعفوا. والكيد: المكر. وقد تقدّم.

قوله تعالىٰ: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾ شرطٌ وجوابه. وفيه ثلاثة أقوال: يكون خطاباً للكفار؛ لأنهم استفتحوا فقالوا: اللَّهُمّ أقطعُنا للرّحم وأظلَمُنا لصاحبه فأنصره عليه. قاله الحسن ومجاهد وغيرهما. وكان هذا القول منهم وقت خروجهم لنُصرة العير. وقيل: قاله أبو جهل وقت القتال. وقال النّضر بن الحارث: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم. وهو ممن قتل ببدر. والاستفتاح: طلب النصر؛ أي قد جاءكم الفتح ولكنه كان للمسلمين عليكم. أي فقد جاءكم ما بان به الأمر، وانكشف لكم الحق. ﴿وَإِن تَنتَهُواْ﴾ أي عن الكفر ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾. ﴿وَإِن تَعُودُواْ﴾ أي إلى هذا القول وقتال محمد. ﴿ نَعُدْ ﴾ إلى نصر المؤمنين. ﴿ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ ﴾ أي عن جماعتكم ﴿ شَيْـًٔا ﴾. ﴿ وَلَوْ كَثُرَتْ ﴾ أي في العدد.

الثاني: يكون خطاباً للمؤمنين؛ أي إن تستنصروا فقد جاءكم النصر. وإن «تَنْتَهُوا» أي عن مثل ما فعلتموه من أخذ الغنائم والأسرىٰ قبل الإذن؛ «فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ». «وَإِنْ تَعُودُوا» أي إلى مثل ذلك نعد إلى توبيخكم. كما قال: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ [الأنفال: ٦٨] الآية.

والقول الثالث: أن يكون ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ خطاباً للمؤمنين؛ وما بعده للكفار. أي وإن تعودوا إلى القتال نعد إلى مثل وقعة بدر. القشيري: والصحيح أنه خطاب للكفار؛ فإنهم لما نَفَرُوا إلى نصرة العير تعلّقوا بأستار الكعبة وقالوا: اللهم انصر أهدى الطائفتين، وأفضل الدِّينين. المهدوِيّ: وروي أن المشركين خرجوا معهم بأستار الكعبة يستفتحون بها، أي يستنصرون.

قلت: ولا تعارض لاحتمال أن يكونوا فعلوا الحالتين. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بكسر الألف على الاستئناف، وبفتحها عطف على قوله: «وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ». أو على قوله: «أَنِّي مَعَكُمْ». والمعنىٰ: ولأن الله؛ والتقدير لكثرتها وأن الله. أي من كان الله في نصره لم تغلبه فئة وإن كثرت.

---

(١) وهي قراءة حفص.

قوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ الخطاب للمؤمنين المصدّقين. أفردهم بالخطاب دون المنافقين إجلالاً لهم. جدّد الله عليهم الأمر بطاعة الله والرسول، ونهاهم عن التولِّي عنه. هذا قول الجمهور. وقالت فرقة: الخطاب بهذه الآية إنما هو للمنافقين. والمعنىٰ: يا أيها الذين آمنوا بألسنتهم فقط. قال ابن عطية: وهذا وإنْ كان محتملاً على بعد فهو ضعيف جداً؛ لأن الله تعالىٰ وصف من خاطب في هذه الآية بالإيمان. والإيمان التصديق، والمنافقون لا يتصفون من التصديق بشيء. وأبعد من هذا من قال: إن الخطاب لبني إسرائيل. فإنه أجنبيّ من الآية.

قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ ﴾ التولي الإعراض، وقال «عنه» ولم يقل عنهما لأن طاعة الرسول طاعته؛ وهو كقوله تعالىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ ﴾ [التوبة: ٦٢]. ﴿ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ ابتداء وخبر في موضع الحال. والمعنىٰ: وأنتم تسمعون ما يتلىٰ عليكم من الحجج والبراهين في القرآن.

قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا ﴾ أي كاليهود أو المنافقين أو المشركين. وهو من سماع الأذن. ﴿ وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ أي لا يتدبّرون ما سمِعوا، ولا يفكّرون فيه؛ فهم بمنزلة من لم يسمع وأعرض عن الحق. نهىٰ المؤمنين أن يكونوا مثلهم. فدلّت الآية على أن قول المؤمن: سمعت وأطعت، لا فائدة فيه ما لم يظهر أثر ذلك عليه بامتثال فعله. فإذا قصر في الأوامر فلم يأتها، واعتمد النواهي فاقتحمها فأيّ سمع عنده وأي طاعة! وإنما يكون حينئذ بمنزلة المنافق الذي يظهر الإيمان، ويسر الكفر؛ وذلك هو المراد بقوله: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾. يعني بذلك المنافقين، أو اليهود أو المشركين، على ما تقدّم. ثم أخبر تعالىٰ أن الكفار شرٌّ ما دبَّ على الأرض. وفي البخاري عن ابن عباس ﴿ ۞إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ قال: هم نفر من بني عبد الدار. والأصل أشرّ، حذفت الهمزة لكثرة الاستعمال. وكذا خير؛ الأصل أخير.

قوله تعالى: ﴿ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ قيل: الحجج والبراهين؛ إسماع تَفَهُّم. ولكن سبق علمه بشقاوتهم ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ أي لو أفهمهم لما أمنوا بعد علمه الأزليّ بكفرهم. وقيل المعنى لأسمعهم كلام الموتىٰ الذين طلبوا إحياءهم؛ لأنهم طلبوا إحياء قُصَيّ بن كلاب وغيره ليشهدوا بنبوّة محمد ﷺ. الزجاج: لأسمعهم جواب كل ما سألوا عنه. ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ إذ سبق في علمه أنهم لا يؤمنون.

قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولىٰ: قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ هذا الخطاب للمؤمنين المصدّقين بلا خلاف. والاستجابة: الإجابة. و﴿يُحْيِيكُمْ﴾ أصله يحييكُم، حذفت الضمة من الياء لثقلها. ولا يجوز الإدغام. قال أبو عبيدة: معنىٰ «اسْتَجِيبُوا» أجيبوا؛ ولكن عُرْف الكلام أن يتعدّىٰ استجاب بلام، ويتعدّىٰ أجاب دون لام. قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٣١]. وقد يتعدّىٰ استجاب بغير لام؛ والشاهد له قول الشاعر[1]:

وداعٍ دعا يا مَنْ يُجيب إلى النَّدَىٰ ... فلم يَستجِبْه عند ذاك مُجيبُ

تقول: أجابه وأجاب عن سؤاله. والمصدر الإجابة. والاسم الجابة؛ بمنزلة الطاقة والطاعة. تقول: أساء سَمْعاً فأساء جابة. هكذا يتكلم بهذا الحرف. والمجاوبة والتجاوب: التحاور. وتقول: إنه لحَسن الجِيبة (بالكسر) أي الجواب. ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ متعلق بقوله: «استجيبوا». المعنىٰ: استجيبوا لما يحييكم إذا دعاكم. وقيل: اللام بمعنىٰ إلى، أي إلى ما يحييكم، أي يُحيِي دينكم ويعلمكم. وقيل: أي إلى ما يحيي به قلوبكم فتوحّدوه، وهذا إحياء مستعار؛ لأنه من موت الكفر والجهل. وقال مجاهد والجمهور: المعنىٰ استجيبوا للطاعة وما تضمنه القرآن من أوامر ونواهي؛ ففيه الحياة الأبدية، والنعمة السرمدية، وقيل: المراد بقوله «لِما يحييكم» الجهاد؛ فإنه سبب الحياة في الظاهر، لأن العدوّ إذا لم يُغز غَزا؛ وفي غزوِه الموت، والموت في الجهاد الحياةُ الأبدية؛ قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ [آل عمران: ١٦٩] والصحيح العموم كما قال الجمهور.

الثانية: روىٰ البخاريّ عن أبي سعيد بن المُعَلَّى قال: كنت أصلي في المسجد

---

(١) هو كعب بن سعد الغنوي يرثي أخاه.

فدعاني رسول الله ﷺ فلم أُجبه، ثم أتيته فقلت: يا رسول الله، إني كنت أصلّي. فقال:

[٣٢٠٠] «ألم يقل الله عز وجل ﴿ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾» وذكر الحديث. وقد تقدّم في الفاتحة. وقال الشافعيّ رحمه الله: هذا دليل على أن الفعل الفرضَ أو القول الفرضَ إذا أتىٰ به في الصلاة لا تبطل، لأمر رسول الله ﷺ بالإجابة وإن كان في الصلاة.

قلت: وفيه حجة لقول الأوزاعي: لو أن رجلاً يصلي فأبصر غلاماً يريد أن يسقط في بئر فصاح به وانصرف إليه وانتهره لم يكن بذلك بأس. والله أعلم.

الثالثة: قوله تعالىٰ: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ قيل: إنه يقتضي النص منه على خلقه تعالى الكفر والإيمان فيحول بين المرء الكافر وبين الإيمان الذي أمره به، فلا يكتسبه إذا لم يُقدره عليه بل أقدره على ضدّه وهو الكفر. وهكذا المؤمن يحول بينه وبين الكفر. فَبانَ بهذا النص أنه تعالىٰ خالق لجميع اكتساب العباد خيرها وشرها. وهذا معنىٰ قوله عليه السلام:

[٣٢٠١] «لا، ومُقَلِّبِ القلوب». وكان فعل الله تعالىٰ ذلك عدلاً فيمن أضله وخذله؛ إذ لم يمنعهم حقاً وجب عليه فتزول صفة العدل، وإنما منعهم ما كان له أن يتفضل به عليهم لا ما وجب لهم. قال السُّدِّي: يحول بين المرء وقلبه فلا يستطيع أن يؤمن إلا بإذنه، ولا يكفر أيضاً إلا بإذنه؛ أي بمشيئته. والقلب موضع الفكر. وقد تقدّم في «البقرة» بيانه. وهو بيد الله، متىٰ شاء حال بين العبد وبينه بمرض أو آفة كيلا يعقل. أي بادروا إلى الاستجابة قبل ألا تتمكنوا منها بزوال العقل. وقال مجاهد: المعنىٰ يحول بين المرء وعقله حتى لا يدري ما يصنع. وفي التنزيل: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [قٓ: ٣٧] أي عقل. وقيل: يحول بينه وبينه بالموت، فلا يمكنه استدراك ما فات. وقيل: خاف المسلمون يوم بَدْر كثرة العدوّ فأعلمهم الله أنه يحول بين المرء وقلبه بأن يبدّلهم بعد الخوف أمْناً، ويبدّل عدوّهم من الأمن خوفاً. وقيل: المعنىٰ يقلّب الأمور من حال إلى حال؛ وهذا جامع، واختيار الطبري أن يكون ذلك إخباراً من الله عز وجل بأنه أملك لقلوب العباد منهم، وأنه يحول بينهم وبينها إذا شاء؛ حتى لا يدرك الإنسان شيئاً إلا بمشيئة الله عز وجل. ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ عطف. قال الفرّاء: ولو استأنفت فكسرت، «وأنه» كان صواباً.

[٣٢٠٠] صحيح. أخرجه البخاري ٤٦٤٧ وتقدم.

[٣٢٠١] وهو عند البخاري ٧٣٩١، وتقدم تخريجه.

قوله تعالىٰ: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾.

فيه مسألتان:

الأولىٰ: قال ابن عباس: أمر الله المؤمنين ألا يُقِرّوا المنكر بين أظهرهم فيعمهم العذاب. وكذلك تأوّل فيها الزبير بن العوّام فإنه قال يوم الجمل، وكان سنة ست وثلاثين: ما علمت أنا أُرِدنا بهذه الآية إلا اليوم، وما كنت أظنها إلا فيمن خوطب ذلك الوقت. وكذلك تأوّل الحسن البصري والسّدي وغيرهما. قال السّدي: نزلت الآيــة في أهل بدر خاصة: فأصابتهم الفتنة يوم الجمل فاقتتلوا. وقال ابن عباس رضي الله عنه: نزلت هذه الآية في أصحاب رسول الله ﷺ، وقال: أمر الله المؤمنين ألا يقِرّوا المنكر فيما بينهم فيعمهم الله بالعذاب. وعن حُذيفة بن اليَمان قال قال رسول الله ﷺ:

[٣٢٠٢] «يكون بين ناس من أصحابي فتنة يغفرها الله لهم بصحبتهم إياي يستنّ بهم فيها ناس بعدهم يدخلهم الله بها النار».

قلت: وهذه التأويلات هي التي تعضدها الأحاديث الصحيحة؛ ففي صحيح مسلم عن زينب بنت جحش أنها سألت رسول الله ﷺ فقالت له:

[٣٢٠٣] يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون قال: «نعم إذا كثر الخبث». وفي صحيح الترمذي:

[٣٢٠٤] «إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده» وقد تقدّمت هذه الأحاديث. وفي صحيح البخاريّ والترمذي عن النعمان بن بشير عن النبيّ ﷺ قال:

[٣٢٠٥] «مَثَل القائِم على حدود الله والواقِع فيها كمثل قوم استَهَمُوا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا اسْتَقَوْا من الماء مرّوا على مَن فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا فإن يتركوهم وما

[٣٢٠٢] ضعيف. أخرجه ابن عدي في الكامل ١٤٨/٤ من حديث حذيفة، وأعله بابن لهيعة، وأخرجه الطبراني كما في المجمع ٢٣٣/٧ من طريق آخر، وأعله الهيثمي فقال: فيه إبراهيم بن أبي الفياض. قال ابن يونس: يروي عن أشهب مناكير. قال الهيثمي: وهذا مما رواه عن أشهب اهـ.

[٣٢٠٣] مضىٰ برقم: ٣٠٢٤.

[٣٢٠٤] مضىٰ تخريجه.

[٣٢٠٥] مضىٰ تخريجه.

أرادوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نَجْوَا وَنَجْوا جميعاً». ففي هذا الحديث تعذيب العامة بذنوب الخاصة. وفيه استحقاق العقوبة بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. قال علماؤنا: فالفتنة إذا عُملت هلك الكل. وذلك عند ظهور المعاصي وانتشار المنكر وعدم التغيير، وإذا لم تُغيَّر وجب على المؤمنين المنكرين لها بقلوبهم هِجران تلك البلدة والهرب منها. وهكذا كان الحكم فيمن كان قبلنا من الأمم؛ كما في قصة السّبْت حين هجروا العاصين وقالوا لا نساكنكم. وبهذا قال السلف رضي الله عنهم. روىٰ ٱبن وهب عن مالك أنه قال: تُهجر الأرض التي يصنع فيها المنكر جهاراً ولا يستقر فيها. واحتج بصنيع أبي الدّرداء في خروجه عن أرض معاوية حين أعلن بالربا، فأجاز بيع سقاية الذهب بأكثر من وزنها. خرّجه الصحيح. وروىٰ البخاريّ عن ٱبن عمر قال قال رسول الله ﷺ:

[٣٢٠٦] «إذا أنزل الله بقوم عذاباً أصاب العذاب من كان فيهم ثم بُعثوا على أعمالهم». فهذا يدل على أن الهلاك العامّ منه ما يكون طُهرة للمؤمنين ومنه ما يكون نِقمة للفاسقين. وروى مسلم عن عبد الله بن الزبير أن عائشة رضي الله عنها قالت:

[٣٢٠٧] عَبِث[1] رسول الله ﷺ في منامه، فقلت: يا رسول الله، صنعتَ شيئاً في منامك لم تكن تفعله؟ فقال: «العجبُ، إن ناساً من أمتي يَؤمُّون هذا البيت برجل من قريش قد لجأ بالبيت حتى إذا كانوا بالبيداء خُسف بهم». فقلنا: يا رسول الله، إن الطريق قد يجمع الناس. قال: «نعم، فيهم المستبصِر[2] والمجبور وٱبن السبيل يهلكون مهلكاً واحداً ويصدرون مصادر شتىٰ يبعثهم الله تعالى على نياتهم». فإن قيل: فقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]. ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المدثر: ٣٨]. ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وهذا يوجب ألا يؤخذ أحد بذنب أحد، وإنما تتعلق العقوبة بصاحب الذنب. فالجواب أن الناس إذا تظاهروا بالمنكر فمن الفرض على كل من رآه أن يغيره؛ فإذا سكت عليه فكلهم عاص. هذا بفعله

[٣٢٠٦] صحيح. أخرجه البخاري ٧١٠٨ ومسلم ٢٨٧٩ وأحمد ٢/ ٤٠ وابن حبان ٧٣١٥ من حديث ابن عمر.

[٣٢٠٧] صحيح. أخرجه مسلم ٢٨٨٤ من حديث عائشة و ٢٨٨٢ من حديث أم سلمة و ٢٨٨٣ من حديث حفصة فهو حديث مشهور.

---

(١) أي اضطرب بجسمه.

(٢) هو المستبين للأمر المعتمد له.

وهذا برضاه. وقد جعل الله في حُكمه وحكمته الراضي بمنزلة العامل؛ فانتظم في العقوبة؛ قاله ٱبن العربيّ: وهو مضمون الأحاديث كما ذكرنا. ومقصود الآية: وٱتقوا فتنة تتعدّىٰ الظالم، فتصيب الصالح والطالح.

الثانية: واختلف النحاة في دخول النون في «لاَ تُصِيبنَّ». قال الفراء: هو بمنزلة قولك: ٱنزل عن الدابة لا تطرحنّك؛ فهو جواب الأمر بلفظ النهي؛ أي إن تنزل عنها لا تطرحنّك. ومثله قوله تعالىٰ: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ [النمل: ١٨]. أي إن تدخلوا لا يحطمنكم؛ فدخلت النون لما فيه من معنىٰ الجزاء. وقيل: لأنه خرج مخرج القَسَم، والنون لا تدخل إلا على فعل النهي أو جواب القَسَم. وقال أبو العباس المَبرِّد: إنه نهي بعد أمر، والمعنىٰ النّهْيُ للظالمين؛ أي لا تقربن الظلم. وحكى سيبويه: لا أرينّك هاهنا؛ أي لا تكن هٰهنا؛ فإنه من كان هٰاهنا رأيته. وقال الجُرْجانَيّ: المعنىٰ ٱتقوا فتنة تصيب الذين ظلموا خاصة. فقوله ﴿لَّا تُصِيبَنَّ﴾ نهي في موضع وصف النكرة؛ وتأويله الإخبار بإصابتها الذين ظلموا. وقرأ عليّ وزيد بن ثابت وأُبَيّ وٱبن مسعود «لتصيبن» بلا ألف. قال المهدَويّ: من قرأ «لتصيبن» جاز أن يكون مقصوراً من «لا تصيبن» حذفت الألف كما حذفت من «ما» وهي أخت «لا» في نحو أمَ والله لأفعلنّ، وشبهه. ويجوز أن تكون مخالفة لقراءة الجماعة؛ فيكون المعنى أنها تصيب الظالم خاصة.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾ قال الكَلْبي: نزلت في المهاجرين؛ يعني وصف حالهم قبل الهجرة وفي ابتداء الإسلام. ﴿مُّسْتَضْعَفُونَ﴾ نعت. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي أرض مكة. ﴿تَخَافُونَ﴾ نعت. ﴿أَن يَتَخَطَّفَكُمُ﴾ في موضع نصب. والخطف: الأخذ بسرعة. ﴿ٱلنَّاسُ﴾ رفع على الفاعل. قَتَادة وعِكرمة: هم مشركو قريش. وهب بن منبّه: فارس والرّوم. ﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ﴾ قال ابن عباس: إلى الأنصار. السُّدِّي: إلى المدينة؛ والمعنى واحد. آوى إليه (بالمد): ضمّ إليه. وأوى إليه (بالقصر): ٱنضمّ إليه. ﴿وَأَيَّدَكُم﴾ قوّاكمَ. ﴿بِنَصْرِهِۦ﴾ أي بعونه. وقيل: بالأنصار. وقيل: بالملائكة يوم بدر. ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ﴾ أي الغنائم. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ قد تقدّم معناه.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

روي أنها نزلت في أبي لُبابة بن عبد المنذر حين أشار إلى بني قُريظة بالذبح. قال أبو لبابة:

[٣٢٠٨] والله ما زالت قدماي حتى علمت أني قد خنت الله ورسوله؛ فنزلت هذه الآية. فلما نزلت شدّ نفسه إلى سارية من سواري المسجد، وقال: والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت، أو يتوب الله عليّ. الخبر مشهور. وعن عكرمة قال:

[٣٢٠٩] لما كان شأن قريظة بعث النبيّ ﷺ عليّاً رضي الله عنه فيمن كان عنده من الناس؛ فلما انتهى إليهم وقعُوا في رسول الله ﷺ، وجاء جبريل عليه السلام على فرس أبلق فقالت عائشة رضي الله عنها: فلكأنّي أنظر إلى رسول الله ﷺ يمسح الغبار عن وجه جبريل عليهما السلام؛ فقلت: هذا دِحية يا رسول الله؟ فقال: «هذا جبريل عليه السلام». قال: «يا رسول الله ما يمنعك من بني قُريظة أن تأتيهم»؟ فقال رسول الله ﷺ: «فكيف لي بحصنهم»؟ فقال جبريل: «فإني أدخل فرسي هذا عليهم». فركب رسول الله ﷺ فرساً مُعْرَوْرًى؛ فلما رآه عليّ رضي الله عنه قال: يا رسول الله، لا عليك ألاّ تأتيهم، فإنهم يشتمونك. فقال: «كلا إنها ستكون تحية». فأتاهم النبيّ ﷺ فقال: «يا إخوة القردة والخنازير» فقالوا: يا أبا القاسم، ما كنت فحاشاً! فقالوا: لا ننزل على حكم محمد، ولكنا ننزل على حكم سعد بن معاذ؛ فنزل. فحكم فيهم أن تقتل مقاتِلتهم وتُسْبَى ذراريهم. فقال رسول الله ﷺ: «بذلك طرقني المَلَكَ سَحَراً» فنزل فيهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾. نزلت في أبي لُبابة، أشار إلى بني قُريظة حين قالوا: ننزل على حكم سعد بن معاذ، لا تفعلوا فإنه الذبح، وأشار إلى حلقه. وقيل: نزلت الآية في أنهم كانوا يسمعون الشيء من النبيّ ﷺ فيُلقونه إلى المشركين ويُفشونه. وقيل: المعنى بغلول الغنائم. ونسبتها إلى الله؛ لأنه هو الذي أمر بقسمتها. وإلى الرسول ﷺ؛ لأنه المؤدّي عن الله عز وجل والقَيِّم بها. والخيانة: الغدر وإخفاء الشيء؛ ومنه: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾ [غافر: ١٩] وكان عليه السلام يقول:

[٣٢١٠] «اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع ومن الخيانة فإنها بئست

[٣٢٠٨] أخرجه الطبري ١٥٩٣٧ عن الزهري مرسلاً. و١٥٩٣٨ عن عبد الله بن قتادة مرسلاً، والواحدي ٤٧٧ بدون عزو لأحد، وصدره «أن بني قريظة سألوا أبا لبابة يوم قريظة ما هذا الأمر؟ فقال: الذبح وأشار إلى حلقه...» الأثر.

[٣٢٠٩] ضعيف. ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٢٣ عن عكرمة وعزاه لابن مردويه اهـ ولم أقف على إسناده، وهو ضعيف لكونه مرسلاً وقصة تحكيم سعد في الصحاح بغير هذا السياق.

[٣٢١٠] حسن. أخرجه أبو داود ١٥٤٧ والنسائي ٨/٢٦٣ وابن حبان ١٠٢٩ من حديث أبي هريرة=

البِطانة». خرّجه النسائي عن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ يقول...؛ فذكره. ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ﴾ في موضع جزم، نسقاً على الأوّل. وقد يكون على الجواب؛ كما يقال: لا تأكل السمك وتشرب اللبن. والأمانات: الأعمال التي ٱئتمن الله عليها العباد. وسميت أمانة لأنها يُؤمَن معها من منع الحق؛ مأخوذة من الأمن. وقد تقدّم في «النساء» القول في أداء الأمانات والودائع وغير ذلك. ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٧﴾ أي ما في الخيانة من القبح والعار. وقيل: تعلمون أنها أمانة.

قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٢٨﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ كان لأبي لبابة أموال وأولاد في بني قُريظة، وهو الذي حمله على ملاينتهم؛ فهذا إشارة إلى ذلك. ﴿فِتْنَةٌ﴾ أي ٱختبار؛ ٱمتحنهم بها. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٢٨﴾ فآثروا حقّه على حقكم.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢٩﴾.

قد تقدّم معنى «التقوى». وكان الله عالماً بأنهم يتقون أم لا يتقون. فذكر بلفظ الشرط؛ لأنه خاطب العباد بما يخاطِب بعضهم بعضاً. فإذا ٱتقى العبد ربّه ـ وذلك باتباع أوامره واجتناب نواهيه ـ وتركَ الشبهات مخافة الوقوع في المحرّمات، وشحن قلبه بالنية الخالصة، وجوارحه بالأعمال الصالحة، وتحفّظ من شوائب الشرك الخفِيّ والظاهِر بمراعاة غير الله في الأعمال، والركون إلى الدنيا بالعِفة عن المال، جعل له بين الحق والباطل فرقاناً، ورزقه فيما يريد من الخير إمكاناً. قال ابن وهب: سألت مالكاً عن قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ قال: مخرجاً، ثم قرأ ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢﴾ [الطلاق: ٢]. وحكى ابن القاسم وأشهب عن مالك مثله سواء، وقاله مجاهد قبله. وقال الشاعر:

مَالَكَ من طُول الأسَى فُرقان ... بعد قَطينٍ رَحلوا وبَانُوا

وقال آخر:

وكيف أرَجّي الخلد والموت طالبي ... وما لي من كأس المنية فرقانُ

= وإسناده حسن لأجل ابن عجلان، وتابعه ليث عند ابن ماجه ٣٣٥٤، وليث ضعيف يصلح للاعتبار، وله شواهد ولذا صححه النووي في الأذكار ١٠٢٠.

ابن إسحاق: «فُرْقَاناً» فَصْلاً بين الحق والباطل؛ وقاله ابن زيد. السديّ: نجاة. الفرّاء: فتحا ونصراً. وقيل: في الآخرة، فيدخلكم الجنة ويدخل الكفار النار.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ (٣٠) ﴾.

هذا إخبار بما اجتمع عليه المشركون من المكر بالنبيّ ﷺ في دار النَّدْوة؛ فأجتمع رأيهم على قتله فبيّتوه، ورصدوه على باب منزله طول ليلتهم ليقتلوه إذا خرج؛ فأمر النبيّ ﷺ علي بن أبي طالب أن ينام على فراشه، ودعا الله عز وجل أن يُعمي عليهم أثره، فطمس الله على أبصارهم، فخرج وقد غَشيَهم النوم، فوضع على رؤوسهم تراباً ونهض. فلما أصبحوا خرج عليهم عليٌّ فأخبرهم أن ليس في الدار أحد، فعلموا أن رسول الله ﷺ قد فات ونجا[1]. الخبر مشهور في السيرة وغيرها. ومعنى «لِيُثْبِتُوكَ» ليحبسوك؛ يقال: أثبتّه إذا حبسته. وقال قتادة: «لِيُثْبِتُوكَ» وثَاقاً. وعنه أيضاً وعبدِ الله بن كَثير: ليسجنوك. وقال أبَان بن تَغْلِب وأبو حاتم: ليثخنوك بالجراحات والضرب الشديد. قال الشاعر:

فقلتُ ويحكما ما في صحيفتكم   قالوا الخليفة أمسى مُثبتاً وجعا

﴿ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ عطف. ﴿ وَيَمْكُرُونَ ﴾ مستأنف. والمكر: التدبير في الأمر في خفية. ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ (٣٠) ﴾ أبتداء وخبر. والمكر من الله هو جزاؤهم بالعذاب على مكرهم من حيث لا يشعرون.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (٣١) ﴾.

نزلت في النَّضر بن الحارث؛ كان خرج إلى الحِيرة في التجارة فاشترى أحاديث كَلِيلة ودِمنة، وكِسرى وقيصر؛ فلما قصّ رسول الله ﷺ أخبار من مضى قال النضر: لو شئت لقلت مثل هذا. وكان هذا وَقاحة وكذِبا. وقيل: إنهم توهموا أنهم يأتون بمثله، كما توهّمت سحرة موسى، ثم راموا ذلك فعجزوا عنه وقالوا عِناداً: إن هذا إلا أساطير الأوّلين. وقد تقدّم.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ٢/ ٦٩ ـ ٧٣ في خبر هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة.
والطبري ١٥٩٧٩ و ١٥٩٨٢ و ١٥٩٨٣ و ١٥٩٨٨ والدر المنثور ٣/ ٣٢٥ ـ ٣٢٦ ذكروه عن جماعة من التابعين وعن ابن عباس، وهو خبر مشهور.

﴿حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾.

القراء على نصب «الحَقّ» على خبر «كان». ودخلت «هو» للفصل. ويجوز «هو الحق» بالرفع. ﴿مِنْ عِندِكَ﴾ قال الزجاج: ولا أعلم أحداً قرأ بها، ولا اختلاف بين النحويين في إجازتها، ولكن القراءة سنة، لا يقرأ فيها إلا بقراءة مرضية. واختلف فيمن قال هذه المقالة؛ فقال مجاهد وابن جُبير: قائل هذا هو النضر بن الحارث. أنس بن مالك: قائله أبو جهل[1]؛ رواه البخاريّ ومسلم. ثم يجوز أن يقال: قالوه لشبهة كانت في صدورهم، أو على وجه العناد والإبهام على الناس أنهم على بصيرة، ثم حلّ بهم يوم بدر ما سألوا. حُكي أن ابن عباس لقِيَه رجل من اليهود؛ فقال اليهوديّ: ممن أنت؟ قال: من قريش. فقال: أنت من القوم الذين قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ الآية. فهلّا عليهم أن يقولوا: إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فاهدنا له! إنّ هؤلاء قوم يجهلون. قال ابن عباس: وأنت يا إسرائيليّ، من القوم الذين لم تَجِفّ أرجلهم من بلل البحر الذي أغرق فيه فرعون وقومه، وأنجى موسى وقومه؛ حتى قالوا: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ فقال لهم موسىٰ: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأعراف: ١٣٨] فأطرق اليهوديّ مفحماً. ﴿فَأَمْطِرْ﴾ أمطر في العذاب. ومطر في الرحمة؛ عن أبي عبيدة. وقد تقدّم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

لما قال أبو جهل: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ الآية، نزلت ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ كذا في صحيح مسلم. وقال ابن عباس: لم يعذب أهل قرية حتى يخرج النبيّ ﷺ منها والمؤمنون؛ ويلحقوا بحيث أُمِروا. ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ ابن عباس: كانوا يقولون في الطواف: غفرانك. والاستغفار وإن وقع من الفجار يُدفع به ضرب من الشرور والإضرار. وقيل: إن الاستغفار راجع إلى المسلمين الذين هم بين أظهرهم. أي وما كان الله معذبهم وفيهم من يستغفر من المسلمين؛ فلما خرجوا عذبهم الله يوم بدر وغيره قاله الضحاك وغيره. وقيل: إن الاستغفار هنا يراد به الإسلام. أي ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ أي

---

(١) هذا هو الراجح لأنه في الصحاح انظر صحيح البخاري ٤٦٤٨ و٤٦٤٩ ومسلم ٢٧٩٦ روياه عن أنس.

يسلمون، قاله مجاهد وعكرمة. وقيل: «وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ» أي في أصلابهم مَنْ يستغفر الله. رُوي عن مجاهد أيضاً. وقيل: معنى «يَسْتَغْفِرُونَ» لو استغفروا. أي لو استغفروا لم يعذبوا. استدعاهم إلى الاستغفار؛ قاله قتادة وابن زيد. وقال المدائني عن بعض العلماء قال: كان رجل من العرب في زمن النبيّ ﷺ مُسْرِفاً على نفسه، لم يكن يتحرج؛ فلما أن تُوُفّيَ النبيّ ﷺ لبس الصوف ورجع عمّا كان عليه، وأظهر الدّين والنّسك. فقيل له: لو فعلت هذا والنبيّ ﷺ حيّ لفرح بك. قال: كان لي أمانان، فمضى واحد وبقي الآخر؛ قال اللّهُ تبارك وتعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ فهذا أمان. والثاني ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ المعنى: وما يمنعهم من أن يعذّبوا. أي إنهم مستحقون العذاب لما ٱرتكبوا من القبائح والأسباب، ولكن لكل أجل كتاب؛ فعذبهم الله بالسيف بعد خروج النبيّ ﷺ. وفي ذلك نزلت: ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ ﴾ [المعارج: ١] وقال الأخفش: إنّ «أنْ» زائدة. قال النحاس: لو كان كما قال لرفع «يعذبهم». ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ أي إن المتقين أولياؤه.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

قال ابن عباس: كانت قريش تطوف بالبيت عُراة، يصفّقون ويصفّرون؛ فكان ذلك عبادة في ظنهم. والمُكَاء: الصّفير. والتصدية: التصفيق؛ قاله مجاهد والسدّيّ وابن عمر رضي الله عنهم. ومنه قول عنترة:

وحَليلِ غانيةٍ تركت مُجَدّلاً   تَمْكُو فريصتُه كشِدْق الأعْلم[1]

أي تصوّت. ومنه مكَتِ أستُ الدابة إذا نَفخت بالريح. قال السُّدِّي: المُكَاء الصفير، على لحن طائر أبيض بالحجاز يقال له المكاء. قال الشاعر:

---

(١) الحليل: الزوج. ويروى بالخاء. الأعلم: المشقوق الشفة العيا.

إذا غَـرّد المُكّـاء فـي غيـر رَوْضـة   فـوَيْـلٌ لأهـل الشّـاءِ والحُمُـراتِ

قتادة: المُكَاء ضرب بالأيدي، والتّصدية صياح. وعلى التفسيرين ففيه ردّ على الجهال من الصوفية الذين يَرقُصون ويُصَفّقون ويصعقون. وذلك كله منكر يتنزّه عن مثله العقلاء، ويتشبّه فاعله بالمشركين فيما كانوا يفعلونه عند البيت. وروى ابن جُريج وابن أبي نَجيح عن مجاهد أنه قال: المُكَاء إدخالهم أصابعهم في أفواههم. والتّصدية: الصّفِير، يريدون أن يُشغلوا بذلك محمداً ﷺ عن الصلاة. قال النحاس: المعروف في اللغة ما رُوي عن ابن عمر. حكى أبو عبيد وغيره أنه يقال: مَكَا يَمْكُو مَكْواً ومُكاء إذا صَفّر. وصَدّى يُصدّى تصدية إذا صفق؛ ومنه قول عمرو بن الإطنابة[1]:

وظلّـوا جميعـاً لهـم ضجّـةٌ   مُكـاء لـدى البيـت بـالتَّصـدِيـهْ

أي بالتصفيق. سعيد بنُ جبير وابن زيد: معنى التّصدية صدّهم عن البيت؛ فالأصل على هذا تصددة، فأبدل من أحد الدالين ياء. ومعنى ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ أي المؤمن من الكافر. وقيل: هو عام في كل شيء، من الأعمال والنفقات وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أمر النبيّ ﷺ أن يقول للكفار هذا المعنى، وسواء قاله بهذه العبارة أو غيرها. قال ابن عطية: ولو كان كما ذكر الكسائيّ أنه في مصحف عبد الله بن مسعود «قل للذين كفروا إن تنتهوا يغفر لكم» لما تأدّت الرسالة إلا بتلك الألفاظ بعينها؛ هذا بحسب ما تقتضيه الألفاظ.

الثانية: قوله تعالى: ﴿إِن يَنتَهُواْ﴾ يريد عن الكفر. قال ابن عطية: ولا بُدَّ؛ والحامل على ذلك جواب الشرط «يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ» ومغفرة ما قد سلف لا تكون إلا لِمُنْتَهٍ عن الكفر. ولقد أحسن القائل أبو سعيد أحمد بن محمد الزبيري:

يستوجبُ العفوَ الفتى إذا اعترفْ   ثـم انتهـى عمـا أتـاه واقْتَـرفْ
لقـولـه سبحـانـه فـي المعتـرِفْ   إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سَلَفْ

روى مسلم عن أبي شُماسة المهريّ قال: حضرْنا عمرو بن العاص وهو في سِياقةِ الموت يبكي طويلاً. الحديث. وفيه: فقال النبيّ ﷺ:

---

(١) الإطنابة: امرأة من بني كنانة وعمرو ابنها شاعر مشهور.

[٣٢١١] «أما علمت أن الإسلام يَهدِم ما كان قبله وأن الهجرة تَهدِم ما كان قبلها وأن الحج يهدِم ما كان قبله» الحديث. قال ابن العربيّ: هذه لطيفة من الله سبحانه منّ بها على الخلق؛ وذلك أن الكفار يقتحمون الكفر والجرائم، ويرتكبون المعاصي والمآثم؛ فلو كان ذلك يوجب مؤاخذة لهم لما استدركوا أبداً توبة، ولا نالتهم مغفرة. فيسّر الله تعالى عليهم قبول التوبة عند الإنابة، وبذل المغفرة بالإسلام، وهدم جميع ما تقدم؛ ليكون ذلك أقربَ لدخولهم في الدين، وأدعى إلى قبولهم لكلمة المسلمين، ولو علموا أنهم يؤاخذون لما تابوا ولا أسلموا. وفي صحيح مسلم:

[٣٢١٢] أن رجلاً فيمن كان قبلكم قتل تسعة وتسعين نفساً ثم سأل هل له من توبة فجاء عابداً فسأله هل له من توبة فقال: لا توبة لك فقتله فكمل به مائة؛ الحديث. فٱنظروا إلى قول العابد: لا توبة لك؛ فلما علم أنه قِد أيئسه قَتله، فِعْلَ الآيس من الرحمة. فالتنفير مفسدة للخليقة، والتيسير مصلحة لهم. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان إذا جاء إليه رجل لم يقتل فسأله: هل لقاتلٍ من توبة ؟ فيقول: لا توبة؛ تخويفاً وتحذيراً. فإذا جاءه مَن قتل فسأله: هل لقاتل من توبة ؟ قال له: لك توبة؛ تيسيراً وتأليفاً. وقد تقدّم.

الثالثة: قال ابن القاسم وابن وهب عن مالك فيمن طلّق في الشرك ثم أسلم؛ فلا طلاق له. وكذلك من حلف فأسلم فلا حنث عليه. وكذا من وجبت عليه هذه الأشياء؛ فذلك مغفور له. فأما من ٱفترى على مسلم ثم أسلم أو سَرق ثم أسلم أُقيم عليه الحدّ للفِرية والسرقة. ولو زنى وأسلم، أو ٱغتصب مسلمة ثم أسلم سقط عنه الحدّ. وروى أشهب عن مالك أنه قال: إنما يعني الله عز وجل ما قد مضى قبل الإسلام، من مال أو دم أو شيء. قال ابن العربيّ: وهذا هو الصواب؛ لما قدّمناه من عموم قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾، وقوله: «الإسلام يهدِم ما قبله»[1]، وما بيناه من المعنى من التيسير وعدم التنفير.

قلت: أما الكافر الحربيّ فلا خلاف في إسقاط ما فعله في حال كفره في دار

[٣٢١١] صحيح. أخرجه مسلم ١٢١ من حديث عمرو بن العاص مطولاً وله قصة.

[٣٢١٢] صحيح. أخرجه البخاري ٣٤٧٠ ومسلم ٢٧٦٦ وأحمد ٣/ ٢٠ وابن ماجه ٢٦٢٢ وابن حبان ٦١١ و ٦١٥ من حديث أبي سعيد، في خبر مطول، وهذا بعضه.

---

(١) هو بعض المتقدم.

الحرب. وأما إن دخل إلينا بأمان فقذف مسلماً فإنه يحدّ، وإن سرق قطع. وكذلك الذّميّ إذا قذف حدّ ثمانين، وإذا سرق قطِع، وإن قتل قتل. ولا يُسقط الإسلام ذلك عنه لنقضه العهد حال كفره؛ على رواية ابن القاسم وغيره. قال ابن المنذر: واختلفوا في النصراني يزني ثم يسلم، وقد شهدت عليه بينة من المسلمين؛ فحكي عن الشافعيّ رضي الله عنه إذ هو بالعراق لا حدّ عليه ولا تغريب؛ لقول الله عز وجل: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾. قال ابن المنذر: وهذا موافق لما روي عن مالك. وقال أبو ثور: إذا أقرّ وهو مسلم أنه زنى وهو كافر أُقيم عليه الحدّ. وحكى عن الكوفي أنه قال: لا يحدّ.

الرابعة: فأما المرتد إذا أسلم وقد فاتته صلوات، وأصاب جناياتٍ وأتلف أموالاً؛ فقيل: حكم حكم الكافر الأصلي إذا أسلم؛ لا يؤخذ بشيء مما أحدثه في حال ٱرتداده. وقال الشافعيّ في أحد قوليه: يلزمه كل حق لله عز وجل وللادمي؛ بدليل أن حقوق الآدميين تلزمه فوجب أن تلزمه حقوق الله تعالى. وقال أبو حنيفة: ما كان لله يسقط، وما كان للآدمي لا يسقط. قال ابن العربيّ: وهو قول علمائنا؛ لأن الله تعالى مستغنٍ عن حقه، والآدميّ مفتقر إليه. ألا ترى أن حقوق الله عز وجل لا تجب على الصبي وتلزمه حقوق الآدميين. قالوا: وقوله تعالىٰ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ عام في الحقوق لله تعالى.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَإِن يَعُودُواْ﴾ يريد إلى القتال؛ لأن لفظة «عاد» إذا جاءت مطلقة فإنما تتضمن الرجوع إلى حالة كان الإنسان عليها ثم انتقل عنها. قال ابن عطية: ولسنا نجد في هذه الآية لهؤلاء الكفار حالة تشبه ما ذكرنا إلا القتال. ولا يجوز أن يتأوّل إلى الكفر؛ لأنهم لم ينفصلوا عنه، وإنما قلنا ذلك في «عاد» إذا كانت مطلقة لأنها قد تجيء في كلام العرب داخلة في الابتداء والخبر، فيكون معناها معنى صار؛ كما تقول: عاد زيد ملِكاً؛ يريد صار. ومنه قول أُمية بن أبي الصلت:

تلك المكارمُ لا قَعبانِ من لبن   شِيبَا بماء فعادا بعدُ أبوالاَ

وهذه لا تتضمن الرجوع إلى حالة قد كان العائد عليها قبل. فهي مقيدة بخبرها لا يجوز الاقتصار دونها؛ فحكمها حكم صار.

قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٣٨﴾ عبارة تجمع الوعيد والتهديد والتمثيل بمن هلك من الأمم في سالف الدهر بعذاب الله.

قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ

﴿ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي كفر. إلى آخر الآية تقدّم معناها وتفسير ألفاظها في «البقرة» وغيرها والحمد لله.

تم الجزء السابع من تفسير القرطبي
يتلوه إن شاء اللّه تعالى الجزء الثامن، وأوّله قوله تعالى:
﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء﴾

فهرس الجزء السابع

الموضوع **صفحة**

تفسير سورة الأنعام